

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهّاب التميمي

(المتوفَّى سنة: ١٢٠٦ هـ)

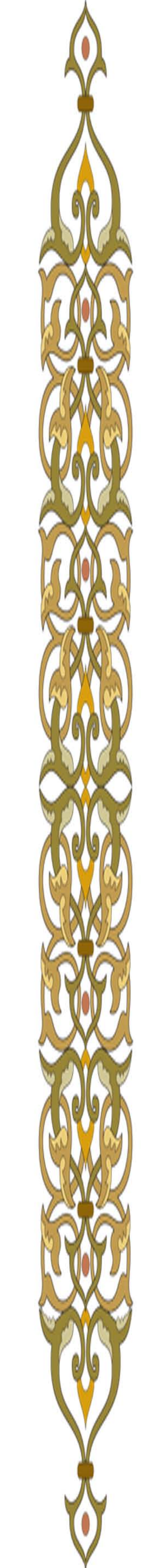
إعداد

عبد العزيز بن داخل المطيري

المشرف العام على



الطبعة الأولى 1435هـ



ⓒ عبدالعزيز داخل المطيري ، ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المطيري ، عبدالعزيز داخل
دليل المعلم لشرح ثلاثة الاصول و ادلتها. / عبدالعزيز داخل المطيري .- الرياض ، ١٤٣٥هـ
٤١٨ ص ؛ ..سم

ردمك: ٣-٣٣-٤١٣٣-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- العقيدة الاسلامية أ.العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٣٥/١٤١٩

رقم الإيداع: ١٤٣٥/١٤١٩
ردمك: ٣-٤١٣٣-٠١-٦٠٣-٩٧٨



http://www.afaqattaiseer.net

البريد الإلكتروني: afaqattaiseer@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمد لله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء رحمة وعلماً وتقديراً، وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا، والصلاة والسلام على من بعثه الله هادياً وبشيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.
أما بعد:

فإن هذا الكتاب طليعة كتب تعليمية عقدت العزم على إخراجها مستعيناً بالله تعالى، مستمدّا منه التوفيق والتسديد، راجياً منه القبول والتأييد، وأن يبارك فيها إنه حميد مجيد.

وكان الحامل على إخراجها والعناية بها ما كنت ألحظه عند دراسة المتون العلمية من التفاوت البيّن بين شراح المتون في العناية بمسائلها؛ فيجد الطالب في شرح ما لا يجده في غيره على أهميّة ما يظفر به الناظر من الفوائد عند مقابلته بين الشروح، فحببت إليَّ تلك المقابلة، ووجدت بغيتي في الجمع بين الفوائد وتكميل المباحث، وتلخيص العبارات، ولطائف الاستدلالات، والنقول المهمّة التي ينبغي لدارس المسألة أن يطّلع عليها؛ ثمّ لّما رأيت لبعض العلماء مصنفات مفردة في بعض المسائل والأبواب قد اشتملت على ما يحسن بالطالب معرفته حُبّب إليّ أن ألخّص مقاصدها وأنتخب فوائدها ؛ حتى أعددتُ هذا الكتاب من نحو سبعين كتاباً من نفائس كتب أهل العلم، ولله الفضل والمنّة.

وأرجو أن يكون هذا الكتاب ونظائره أدلّة للمعلّمين، ومعينة لنجباء المتعلّمين، تعينهم على دراسة المتون العلمية وتدريسها، وتختصر عليهم كثيراً من الجهد والوقت، وتكفيهم مكابدة العناء في المقابلة بين الشروح، وحلّ كثير من المشكلات، وتأصيل البحث في المسائل العلمية، ومن اطّلع على ما سطّرتُه تبيّن له ما قصدته؛ إذ حشدت في الدليل ما أحسبه عُدَّة للشارحين من بيان المسائل والدلائل، والنقول المنتخبة، والفوائد المنتجبة، والتنبيه على المقاصد، وتنظيم مسائل الدرس وترتيب مباحثه؛ فلا يكون في التحضير للدروس مؤونة كبيرة بعده

بإذن الله تعالى.

وقد اخترت عرض هذا الكتاب الملخَّصِ على طريقة النقاط التفصيلية ليكون أبعد عن الأسلوبي الإنشائي الذي ينبغي أن يكون لكلّ معلّم فيه ما يحسنه، ويوافق طبعه وطريقته.

وإنّ مما عرفته من أحوال عدد من طلاب العلم المتأهّلين للتدريس أنهم إنما يعوّقهم عن كثير من الدروس ما تتطلبه من مؤونة التحضير الجيّد والإعداد العلمي الذي يأملونه؛ فيصدّهم عن التصدي لكثير من الدروس معرفتهم بما يستدعيه التحضير لها من الوقت والجهد، وأمّا من تصدّى للتدريس على ضعف في الإعداد فإنّه يتبيّن في تدريسه من الضعف والأغلاط ما يدركه طلاب العلم.

ولقد يسّر الله لي – بفضله وتوفيقه - العنايةَ بعدد من المتون العلمية، ودراستها مرات عديدة، ومقابلة شروحها بعضها ببعض، وعرضتُ ما استخلصته منها في كشافات تحليلية نشرتُ بعضها على شبكة الانترنت، وكانت غايتي منها تقريب ما تضمنته تلك الشروح، والمكاملة بين مباحثها، وجمع ما تفرّق من مسائلها، وتنظيم عرضها، لكنها كانت في عامتها رؤوس مسائل تذكّر المعلّم بما يحسن به أن يعتني به من غير أن تغنيه عن الرجوع إلى الشروح ليطّلع على ما قيل في كلّ مسألة.

فأردت بعد تأمّل وتروّي ومضيّ نحو عشر سنوات على إعداد تلك الكشافات أن أعيد صياغتها وأتمّم مباحثها بما يغني المعلّم عن الرجوع لمراجع أخرى عند التحضير إلا فيما لا بدّ له منه في بعض المسائل.

ومما يحسن تنبيه المعلّم عليه أن يراعي أحوال طلابه ويلقي إليهم من مسائل العلم ما يرى مناسبته لهم؛ ليكون أدعى لقبولهم إيّاها، فإن رأى منهم حسن فهم وسعة إدراك ألقى إليهم هذه المادة وأضاف إليها ما تحسن إضافته مما يناسب أحوالهم، وإن خشي التطويل عليهم وازدحام المعلومات في أذهانهم ألقى إليهم المهمّ من ذلك واعتنى بمقاصد الدروس عناية خاصّة.

وأنا أرجو أن يجعل الله هذه الكتب عدّة للشارحين ييسرّ لهم بها شرح المتون العلمية ؛ ويكون لها أثرٌ محمودٌ في تنشيط الدروس العلمية وتيسيرها وإحسانها.

فإن أصبتُ في عملي هذا ، وقُدّر له أن ينتفع به ؛ فهو محض فضل الله وتوفيقه ؛ هو المانّ به جلّ وعلا وتبارك ، وما كان فيه من خطأ وتقصير فهو مني ومن الشيطان ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه ، وأستهديه سبيل الرشاد.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، واغفر لنا وارحمنا إنك أنت الغفور الرحيم ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

مناهج العلماء في شرح المتون العلمية

من مهمّات ما ينبغي لطالب العلم أن يتبيّنه تنوّع طرائق أهل العلم في شرح المتون العلمية، وما لكل طريقة من الفوائد، وما عليها من المؤاخذات، لتكون دراسته مبنيّة على معرفة بيّنة بما يوافق مستواه العلمي، وغرضه التعليمي، ويفيده في حسن التعلم، واكتمال بنائه العلمي وتوازنه.

وقد تأمّلتُ مناهجَ أهلِ العلم في شرح المتون العلمية فوجدتها على أنواع:

النوع الأول: الشرح الإجمالي؛ الذي يريد منه الشارحُ توضيح عبارات المتن باقتضاب شديد والإلمام السريع بمباحث ذلك المتن.

ولهذا المنهج فائدة جليلة في اكتساب تصوّر أوّلي سريع لمسائل المتن، وتناسب ارتباطها بعضها ببعض.

ولكن الاكتفاء به لا ينتج للطالب تحصيلاً علمياً يُعتمد عليه، ولذلك تجد الغالب على من سلك هذه الطريقة في الدراسة الضعف العلمي، وإن درس عدداً من المتون العلمية.

النوع الثاني: الشرح التحليلي الذي لا يكاد يغادر صاحبه لفظة من ألفاظ المتن إلا ويعلق عليها أو يشرحها، بل ربما أعربها.

ولهذا التحليل والتفصيل فوائد قيّمة في فهم عبارات المتن، وحلّ المشكلات، والإلمام بتفصيلات المسائل التي يذكرها الماتن، وهو أنفع مما قبله.

لكن يؤخذ على هذه الطريقة إفاضتها في التفصيلات إلى درجة تجعل الطالب يحس من نفسه أن تلك المعلومات ينسي بعضها بعضاً وتذهله عن المقصد العام لموضوع الدرس الذي يدرسه، وربما اشتغل ذهنه بأنواع من المسائل الاستطرادية التي ليس لها صلة مباشرة بموضوع الدرس. فإن اكتفى طالب العلم بهذا المنهج أو لم يعقبه بمراجعة جيدة لأهم المسائل المتصلة بمقاصد الدرس نسي كثيراً مما درس، ولم يرسخ في ذهنه إلا بعض الفوائد والمسائل التي ترتبط لديه ذهنيّا بأمور مهمة.

النوع الثالث: الشرح التأصيلي، الذي يُعتني فيه بالتركيز على قواعد الباب وأنواع مسائله وأدلتها، ومن يسلك هذا المنهج من العلماء يعتني ببيان مقاصد الدرس أكثر من عنايته بشرح عبارات المتن، بل ربما لا يعرض لشرح عبارات المتن أصلاً، وإذا قرئ عليه المتن بدأ بشرحٍ عامّ لموضوع الدرس، ثم أفاض في تأصيل مسائله، ثم إن وجد في الوقت بقية عرض لبعض عبارات المتن بشيء من التعليق.

ذلك لأنه صرف عنايته إلى بيان تأصيل المسائل التي تضمّنها ذلك الباب، وربط تلك المسائل بأدلتها وتقسيماتها، ولو كان بعضها غير مذكور في المتن.

وهذا المنهج أنفع المناهج لطالب العلم لأنه يعينه على بناء الملكة العلمية التي يتمكن بها من فهم مسائل العلم، وارتباط بعضها ببعض، وطرق دلالة الأدلة عليها، وغير ذلك من الفوائد العلمية.

ويؤخذ على هذا المنهج أنه ربما يفوت الطالبَ فهمُ بعض العبارات المشكلة في المتن لانشغال الشارح عن شرح عبارات المتن التي قد يشكل بعضها على طلاب العلم.

فإذا جمع الطالب مع هذا الشرح قراءة المتن قراءة متأنية، وسأل عما يشكل عليه أتى على سدّ الخلل، واكتمل انتفاعه بهذه الطريقة.

النوع الرابع: الشرح الجَمْعي، الذي يجمع صاحبه الفوائد المتفرقة في شروح متعددة.

ويمتاز هذا المنهج بكثرة الفوائد العلمية لاعتماد الشارح على شروح العلماء السابقين، وعنايته بجمعها والمكاملة بينها وتلخيصها للطالب، وعرضها بأسلوب ميسّر منظّم.

وهذا المنهج في نقده تفصيلات يطول ذكرها لاختلاف طرق سالكي هذا المنهج في الجمع والتلخيص والتهذيب، ولكل طريقة ما يحمد لها ويؤخذ عليها، لكن كلّما كان الشارح أكثر إتقانا في الجمع والتلخيص وحسن العرض والأسلوب كان شرحه أنفع.

النوع الخامس: الشرح التقريري، الذي يعتني فيه الشارح بإفادة الطالب بالفوائد واللطائف التي اجتناها والنقول المستملحة والنكت وما جرى مجراها، ويغلب على سالكي هذا المنهج من العلماء اختيار طريقة التحشية على المتون.

ولهذا المنهج فوائد حسنة لا يحسن الاكتفاء بها، ويفضّل عند الاختيار تأجيل هذا الشرح ليكون آخر ما يطّلع عليه دارس المتن.

وقد يحتاج الطالب الجادّ إلى الجمع بين هذه المناهج عند دراسته للمتن العلمي، ليكون بعد دراسته لها بهذه الطريقة أحسن فهما وأكثر تحصيلاً وأكمل استعداداً لدراسة المتون العلمية المتقدّمة.

وقد حرصت في هذه السلسلة على الجمع بين مزايا هذه المناهج ما استطعت، وأسأل الله التوفيق والسداد.

وأصعب ما في الطريق أوّله، ومن تبيّنت له الطريقة وأخذ نفسه بالعزيمة حتى يعتاد السير في الطريق سهل عليه المضيّ فيه بمهارة، والله المستعان.

الدرس الأول: مقدمات مهمة في طلب العلم

مقاصد الدرس الأول

- المقصد الأول: بيان شدة الحاجة إلى الهداية، وأنها لا تكون إلا بالعلم الصحيح، وأن إهمال العلم يعرّض صاحبَه لخطر الضلال.
- المقصد الثاني: بيان عداوة الشيطان للإنسان وحرصه على إضلاله.
- المقصد الثالث: بيان فضل العلم، والتحذير من العلم الذي لا ينفع.
- المقصد الرابع: بيان معالم المنهج الصحيح لطلب العلم، والميزان الذي توزن به طرق طلب العلم.
- المقصد الخامس: بيان المنهج المقترح لدراسة العقيدة.
- المقصد السادس: بيان أهمية دراسة سير المجدّدين.
- المقصد السابع: ترجمة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.
- المقصد الثامن: التعريف برسالة ثلاثة الأصول وأدلتها.

الحاجة إلى الهداية

- لا نجاة للعبد ولا للأمة إلا بما يهديهم الله عز وجل به كما قال الله عز وجل في الحديث القدسي: **[يا عبادي كُلكُم ضال إلا من هدينه فَاستهدوني أهدكُم]** رواه مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
  - o وهذا يشمل جميع ما يحتاجون إلى الهداية فيه، والهداية أصلها العلم.
- أول وصية وصى الله بها الناس عند بدء هذه الحياة الدنيا ما تضمنه قوله تعالى: **قُلْنـا اهبِطُوا منها جميعًا فَإما يأتينكُم مني هدًى فَمن تبِع هداي فَلا خـوفٌ علَـيهِم ولَـا هـم يحزنونَ** [البقرة: ٣٨].
- وقد ضمن الله تعالى لمن اتبع هداه أن لا يخاف ولا يحزن، وأن لا يضل ولا يشقى، وأن يخرجه من الظلمات إلى النور وأن يهديه سبل السلام وأن ينجيه مما يخاف، وهذا وعد صادق للفرد والأمة.
  - o قال الله تعالى: **فمن اتبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى** [طه: ١٢٣]، وقال: **إن هـذَا القُرآنَ يهدي للتي هي أقْوم** [الإسراء: ٩]، وقال: **يهدي به ا من اتبـع رضـوانه سـبل السلام و ر جهم من الظلمات إ النور بإذنه ويهديهم إ صراط مستقيم** [المائدة: ١٦].
- ونحن قد جاءنا أعظمُ الهدى وهو القرآن الكريم خير كتاب أُنزِل، وبعث إلينا نبيُّنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو خير نبي أرسل، أحسن الهدي هديه كما ثبت في الحديث الصحيح: (إن أحسن الهدي هدي محمد) وقال الله تعالى عن القرآن: **إن هذَا القُرآنَ يهدي للتي هي أقْوم** [الإسراء: ٩].
  - o لهذا كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، لأنها أعظم الأمم هداية.
- الهداية مبناها على العلم الصحيح، واتباع رضوان الله عز وجل بطاعة أمره وتصديق وعده والحذر من طاعة الشيطان وحزبه كما قال الله تعالى: **ومن الناسِ من يجادلُ في الله بِغير علْمٍ ويتبِع كُل شيطَانٍ مرِيدٍ (٣) كُتب علَيه أنه من تولاه فَأنه يضله ويهديه إِلى عذَابِ السعـِ (٤)** [الحج: ٣، ٤].

• تولّي الشيطان يكون باتباع خطواته، وتصديق ما يعدّ به ويمنّي، وفعل ما يزيّنه من المعاصي كما قال الله تعالى: **ومن يتخذ الشيطانَ وليا من دون الله فَقَد خسِر خسرانًا مبِينًا (١١٩) يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطانُ إلا غُرورًا** [النساء: ١١٩، ١٢٠].

• أخبر الله تعالى أن أعداءه أولياء للشياطين، وأن الناس حزبان: حزب مع الله وحزب مع الشياطين، وقال: **وإن الشياط ليوحونَ إلى أوليائهم ليجادلُوكُم وإنْ أطَعتموهم إنكُـم لَمشركُونَ** [الأنعام: ١٢١].

• العداوة الحقيقية بين الإنسان والشيطان قضية كبيرة بينها الله عز وجل لنا أتم بيان، قال الله تعالى: **ولَا تتبِعوا خطُوات الشيطَان إنه لَكُم عدو مبِ** [الأنعام: ١٤٢].

• تكرر قوله تعالى: **لا تتبعوا خطوات الشيطان** أربع مرات في القرآن الكريم.

• أمرنا الله تعالى أن نتخّذ الشيطان عدوّا؛ وبيّن لنا مقاصده، ولهذا الأمر والبيان آثارهما.

• وبيَّن النبي صلى الله عليه وسلم عداوة الشيطان للإنسان بيانا شافيا، بل جاء في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((**إن الشيطان ضر أحدكم عند كل شيء من شأنه**)).

• مِنْ شأن الشيطان حرصه على الإضلال كما قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام، قَالَ **هذَا من عمل الشيطَان إنه عدو مضل مبِ** [القصص: ١٥]، وقال تعالى: **أَلَـم أعهد إلَيكُم يا بنِي آدم أنْ لَا تعبدوا الشيطَانَ إنه لَكُم عدو مبِ (٦٠) وأَن اعبدونِي هـذَا صراطٌ مستقيمٌ (٦١) ولَقَد أَضل منكُم جِبِلا كَثِ ًا أَفَلَم تكُونوا تعقلُـونَ (٦٢)** [يس: ٦٠-٦٢]، جبلاً: أي خلقاً كثيراً كانوا مجبولين على الفطرة الصحيحة التي فطر الله الناس عليها.

• من آمن بالله واتبع هداه عصمه الله من كيد الشيطان وكفاه وأغناه **أَلَـيس ا بكَـاف عبده** [الزمر: ٣٦].

• يحتاج المؤمن إلى اتباع هدى الله في كبير الأمور وصغيرها وحاجته إلى الهداية أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب والنفَس؛ لأن فوزه بالثواب ونجاته من العذاب متوقف على الهداية.

• المهتدون يتفاضلون في الهداية تفاضلاً عظيماً ولذلك أمر الله المسلمين أن يسألوه الهداية مراراً كثيرة في اليوم الواحد فلا تصح صلاة مسلم لا يدعو فيها بدعاء **اهـدنا الصـراط المستقيم** [الفاتحة: ٦].

• ما يعترض الإنسان من عوارض الفتن والمحن والشرور والمعاصي والهموم والأحزان والجهل والشك والحيرة وغيرها هي من الظلمات التي وعد الله المؤمنين أن يخرجهم منها.

• لم يترك الله أمراً يحتاج الناس إلى بيانه إلا بيَّنه لهم بما أنزل في كتابه الكريم وبما أرسل به نبيَّه صلى الله عليه وسلم، فقد أكمل الله الدين وأتمه كما قال تعالى: **الْيوم أَكْملْت لَكُـم دينكُم وأَتممت علَيكُم نِعمتي ورضيت لَكُم الْإِسلَام دينًا** [المائدة: ٣].

• لما اجتمع الناس في أعظم جمع في حياة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع قال لهم في خطبة الوداع العظيمة: «**وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب ا وأنتم تسألون ء فما أنتم قائلون قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصـحت وقـال بإصبعه السبابة يرفعها إ السماء وينكتها إ الناس اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات**» رواه مسلم من حديث جابر.

• في مستدرك الحاكم وسنن البيهقي وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إ قد تركت فيكم شيئ لن تضلوا بعد ا: كتاب ا وسن ولن يتفرقا ح يردا علي ا وض**». صححه الألباني.

فضل طلب العلم

• طلب العلم من أفضل القربات إلى الله تعالى.

• العلم أصل كل عبادة، وبيان ذلك أن كل عبادة يؤديها العابد لا تقبل إلا إذا كانت خالصة لله تعالى وعلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ومعرفة ذلك تستدعي قدراً من العلم.

• معرفة ما يحبه الله وما يكرهه إجمالاً وتفصيلاً لا تكون إلا بالعلم.

• الناس متفاضلون في العلم تفاضلاً كبيراً كما قال الله تعالى: **وفَوق كُـل ذي علْـم عليمٌ** [يوسف: ٧٦]، وكلما كان الإنسان أكثر علماً بما ينفع كان أكثر فضلاً.

• تواترت الأدلة ببيان فضل العلم وأهله، وفضل طلبه، ورُتِّب على ذلك من الثناء العظيم والثواب الجزيل في القرآن الكريم والسنة النبوية ما يجعل المؤمن حرياً بأن يكون حريصاً على نيل هذا الفضل العظيم مجتهداً في طلبه.

• قال الله تعالى: **يرفَعِ الله الذين آمنوا منكُم والذين أُوتوا الْعلْم درجاتٍ** [المجادلة: ١١]، فأسند الرفع إليه جل وعلا وتكفل به، والله لا يخلف وعده.

• قال الله تعالى: **إنما يخشى الله من عباده الْعلَماءُ** [فاطر: ٢٨]، وقال: **قُلْ هلْ يستوي الذين يعلَمونَ والذين لَا يعلَمونَ** [الزمر: ٩]، وقال: **وقُلْ رب زدنِي علْمًا** [طه: ١١٤].

• في الصحيحين من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من يرد ا ُ به خيراً يفقّهه الدّين**».

• التفقّه في الدين يشمل جميع أبوابه في الاعتقاد والأحكام والأخلاق والآداب والتزكية والجزاء وغيرها.

• عن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: « **ومن سـلك طَريقاً يلْتمس فيه علْماً سهلَ ا ُ لَه طَريقاً إلَى ا َنة** » رواه مسلم.

• عـن أَبـي موسـى الأشـعري رضـي الله عنـه قَـالَ: قَـالَ الـنبيُّ صـلى الله عليـه وسـلم: « **مثَلُ ما بعثَنِي ا به من ا ُدى والعلْمِ كَمثَلِ غَيثٍ أصاب أرضاً؛ فَكَانت منها طَائفَةٌ طَيبـةٌ قَبِلَت ا َاءَ فَأَنبتت الكَلأَ، والعشب الكَث ، وكَانَ منها أجادب أمسكَت ا َاءَ، فَنفَع ا ُ بِهـا الناس، فَشرِبوا منها وسقَوا وزرعوا، وأَصاب طَائفَةً منها أُخرى إنما هي قيعانٌ؛ لا تمسِـك ماءً ولاَ تنبِت كَلأً، فَذلك مثَلُ من فَقُه دينِ ا ِ، ونفَعه ما بعثَنِي ا ُ بِه، فَعلم وعلم، ومثَلُ من لَم يرفَع بِذلك رأساً، ولَم يقْبلْ هدى ا ِ الذي أُرسلْت بِه** ». متفقٌ عَلَيْهِ.

• عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « **من سلَك طَريقاً يبتغي فيه علْماً سهلَ ا ُ لَه طَريقاً إلَى ا َنة، وإن ا َلائكَةَ لَتضع أجنِحتهـا لطَالبِ العلْمِ رِضاً بِما يصنع، وإن العالم لَيستغفر لَه من في السماوات ومن في الأرضِ حتى ا يتانُ ا َاءِ، وفضلُ العالمِ علَى العابِد كَفَضلِ القَمرِ علَى سائرِ الكَواكبِ، وإن العلَمـاءَ ورثَةُ الأنبِياءِ، وإن الأنبِياءَ لَم يورثُوا ديناراً ولاَ درهماً وإنما ورثُوا العلْم، فَمن أخذَه أخـذَ**

ظ وافر ». رواه أَبُو داود والترمذي.

O ذكر ابن عبد البر في التمهيد أن استغفار الملائكة دليل على أن الله يغفر له إن شاء الله، وقال: (ألا ترى أن طلب العلم من أفضل الأعمال وإنما صار كذلك والله أعلم لأن الملائكة تضع أجنحتها له بالدعاء والاستغفار)ا.هـ.

● أدرك أئمة الهدى من علماء الأمة هذه الحقيقة فاجتهدوا في تعلّم العلم وتعليمه وصبروا على ما أصابهم حتى تبوؤوا المكانة التي رفع الله بها ذكرهم وأعلى شأنهم فكانوا أئمة الدين وأولياء رب العالمين، وآثارهم في بيان فضل العلم مذكورة مشهورة.

● روى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري أنه قال: (ما عُبِدَ اللهُ بمثل الفقه).

● قال مطرف بن عبد الله بن الشخِّير: (فضل العلم أحب إليَّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع) رواه الإمام أحمد في الزهد.

● قال سفيان الثوري: (ما أعلم عملاً أفضلَ من طلب العلم وحفظه لمن أراد الله به خيراً) رواه الدارمي.

● وروى ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله عن عبد الله بن المبارك أنه قال: قال لي سفيان الثوري: (ما يُرادُ الله عزَّ وجل بشيء أفضل من طلب العلم، وما طلب العلم في زمان أفضل منه اليوم)ا.هـ.

● نحن اليوم إنما نتعلم مما ورّثه لنا أئمة الهدى من العلم رواية ودراية؛ فعنهم نتلقى مسائل الاعتقاد، وعنهم نتلقى مسائل الفقه، وعنهم نتلقى معرفة صحيح الحديث من ضعيفه ومن تقبل روايته ومن ترد، وعنهم نتلقى الأخلاق الفاضلة والتزكية والسلوك.

● من صفات العلماء الربانيين أن يجدهم طالب العلم فيما يَحتاج إليه من أبواب الدين أئمةً يقتدى بهم ويتلقى عنهم العلم والهدي.

● روى البيهقي بإسناده إلى الربيع بن سليمان المرادي أنه قال: سمعت الشافعي يقول: (ليس بعد أداء الفرائض شيء أفضلَ من طلب العلم، قيل له: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل).

● وقال مهنا بن يحيى السلمي: قلت: لأحمد بن حنبل ما أفضل الأعمال؟ قال: (طلب

العلم لمن صحت نيته) قلت: وأي شيء تصحيح النية؟ قال: ينوي يتواضع فيه وينفي عنه الجهل).

- نقل ابن هانئ في مسائله عن الإمام أحمد أنه قال: (العلم لا يعدله شيء).
- نقل النووي في المجموع اتفاق السلف على أن الاشتغال بالعلم أفضلُ من الاشتغال بنوافل الصوم والصلاة والتسبيح ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن.
- صنَّف العلماءُ في فضل العلم وأهله مصنفات عظيمة النفع جليلة القدر، وأفرد له بعضهم أبواباً في بعض كتبهم فأفرد البخاري في صحيحه كتاب العلم وضمنه باباً في فضل العلم، وكذلك فعل الإمام مسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي والدارمي وغيرهم كثير.
- وممَّن أفرد فضل العلم بالتصنيف: أبو نعيم الأصبهاني، وأبو العباس المُرْهِبي (أحمد بن علي، من شيوخ أبي نعيم)، وابن عبد البر، وابن القيّم، وابن رجب، وغيرهم.
- لا توجد أمة من الأمم اعتنت بتعلم أحكام دينها كعناية هذه الأمة المباركة؛ فإنها قد بلغت فيه غاية لم تبلغها أمة من الأمم قبلها، واختصها الله فيه بخصائص.

التحذير من العلم الذي لا ينفع

- مما ينبغي أن يُعلم أنَّ العلم منه نافع وغير نافع، وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من علم لا ينفع؛ فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللهم إ أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا شع، ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب ا**» رواه مسلم.
- وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**سلوا ا علمـاً نافعاً، وتعوذوا با من علم لا ينفع**» رواه ابن ماجة.
  - o التعوذ من العلم الذي لا ينفع دليل على أن فيه شراً يجب التحرز منه.
- ينبغي لطالب العلم أن يعتني بالعلم الذي ينفعه في دينه ودنياه، ويحفظ وقته مما لا ينفعه.
- (العلم الذي لا ينفع) فسّر بتفسيرين: أحدهما: العلوم الضارة، والآخر: عدم الانتفاع بالعلوم النافعة في أصلها لسبب أفضى به إلى الحرمان من بركة العلم.
- من العلوم الضارة: السحر والتنجيم والكهانة وعلم الكلام والفلسفة وغيرها.

• العلوم التي لا تنفع كثيرة ومن أبرز علاماتها مخالفة مؤداها لهدي الكتاب والسنة ؛ فكل علم تجده يصد عن طاعة الله أو يزين معصية الله أو يؤول إلى تحسين ما جاءت الشريعة بتقبيحه أو تقبيح ما جاءت الشريعة بتحسينه فهو علم غير نافع.

• الفضول قد يدفع المتعلّم إلى القراءة في ما لا ينفع ؛ فيعرّض نفسه للافتتان وهو ضعيف الآلة في العلم.

• قال الله تعالى : **فليحذر الذين الفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عـذاب أليم** [النور: ٦٣].

• افتتن بعض المتعلّمين بعلم الكلام بعد أن كانوا في عافية منه ، وسبب ذلك مخالفة هدى الله تعالى ، واتباع غير سبيل المؤمنين.

المنهجية في طلب العلم

• مناهج طلب العلم كثيرة متنوعة ؛ لكن لها أصول جامعة ينبغي أن لا يخرج عنها طالب العلم ؛ وإلا أضاع وقته وجهده.

• كلّ من أراد أن يتعلّم صنعة من الصنائع فلا بدّ له أن يصحب أستاذاً فيها يتعلّم منه ، ويقوّمه إذا أخطأ ؛ حتى يشتدّ عوده في تلك الصنعة.

• من تلبّس بلباس أهل العلم وتحدث بلسانهم واستعمل شيئاً من أدواتهم وهو ولم يسلك سبيلهم في تحصيله ورعايته فليس من أهل العلم ، وإنما هو جاهل متعالم لا يوثق به ولا يأتمنه من يعرف حاله ، بل ما أسهل ما يبيّن الامتحان كذبَه وادّعاءه.

• المناهج الصحيحة في التعلم تجتمع في أربعة أمور : الإشراف العلمي ، والتدرج ، والنَّهمة في التعلم ، والوقت الكافي.

• يؤخذ العلم شيئاً فشيئاً ؛ على مرّ الأيام والليالي ؛ بالنهمة والمواصلة والصبر تحت إشراف علمي من عالمٍ بصير بطرق التعلم حتى يجتاز الطالب مرحلة المتوسطين في طلب العلم.

• من أراد أن يكون عالماً وهو لم يسلك طريقة أهل العلم في التعلم فإنه لا يحصل مراده ؛ فإن تكلّم في العلم وتصدر مع ذلك فهو جاهل متعالم ضرره أكبر من نفعه.

• سلوك المنهج الصحيح في طلب العلم يفيد طالب العلم في حفظ وقته وجهده ويعرِّفه بمعالم كل علم فيأتيه من بابه ويتعلمه على وجهه الصحيح ؛ فإن سار فيه وصل ونجح ، وإن تذبذب وانقطع لم يصل فيه إلى ما كان يأمل.

• مسارات طلب العلم لدى العلماء متعددة إلا أن لها ثوابت محددة تجمعها ، وهي أن كل علم يؤخذ عن أهله ولكل علم مصادره التي ينهل منها العلماء ، وأن طالب العلم يحتاج إلى من يرشده بادئ الأمر حتى يصلب عوده ويشتد ، فيعرف ما يأتي وما يذر.

المنهج المقترح لدراسة العقيدة

• تعلم علم العقيدة يسير ولله الحمد ، وإذا سار فيه طالب العلم سيراً صحيحاً ، اختصر على نفسه كثيراً من الجهد والوقت.

• من المهمّ لطالب علم العقيدة أن يدرس مسائلها بتأنّ وتؤدة ، وأن يحرص على حسن فهم المسائل وحفظ أدلتها ، ويتعرّف على منهج أهل السنة في تلك المسائل.

• لو مكث الطالب في الباب الواحد أياماً حتى يضبطه جيداً لما كان كثيراً ، لأن الرسوخ في فهمه يعينه على حسن فهم ما بعده من الأبواب.

• الأصل في منهج دراسة العقيدة حديث جبريل الطويل ، وفي آخره قال النبي صلى الله عليه وسلم : (هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم) ، وفيه مراتب الدين الثلاثة : الإسلام والإيمان والإحسان ، وفيه : أشراط الساعة.

• وأوّل ركن من أركان الإسلام : الشهادتان ، وبهما يدخل العبد في دين الإسلام ؛ فلذلك كان أوّل ما يجب على العبد أن يتعلمّه : التوحيد.

o في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له : « **إنك تقدم على قوم أهل كتاب فلـيكن أول مـا تدعوهم إليه عبادة ا** ». وفي رواية في صحيح البخاري : « **فليكن أول ما تدعوهم إ أن يوحدوا ا** ».

• اخترنا لكم في البداية رسالة ثلاثة الأصول وأدلتها لأنها تضمنت حديث جبريل ، وإلا لو درس الطالب متناً آخر يفي بهذا المقصد التعليمي لكفاه إن شاء الله.

• إذا درس طالب العلم شهادة أن لا إله إلا الله دراسة جيدة عرف معنى التوحيد وأقسامه وواجباته وآدابه وما يقدح فيه، وعرف معنى العبادة التي يجب إفراد الله تعالى بها، وأنواعها، وأحوال دخول الشرك في العبادة وما يعتبر شركاً وما ليس بشرك، إلى غير ذلك من المسائل المهمة التي دلت عليها كلمة التوحيد العظيمة.

• وإذا درس شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم دراسة جيدة عرف معنى المتابعة وشروطها وواجباتها وآدابها وعرف معنى البدعة وحكمها، وعرف ما ينقض الشهادتين، وعرف مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم من طاعة أوامره واجتناب نواهيه وتصديق أخباره وقبول أحكامه، واعتقاد أن هديه أحسن الهدي في الأمور كلها، وأن محبته مقدمة على محبة النفس والأهل والولد، وعرف أن ما ينافي تحقيق هذه الشهادة فهو مخرج عن دين الإسلام والعياذ بالله.

• الشهادتان أصل الإسلام ومفتاح الدخول فيه، فارتكاب أيِّ أمرٍ ينقضُهما يعدُّ ناقضاً من نواقض الإسلام.

• ثم بعد ذلك ينتقل إلى دراسة مراتب الدين فيدرس أركان الإسلام ومنها الشهادتان، وأركان الإيمان وركن الإحسان.

• غالب مسائل الاعتقاد التي يذكرها الأئمة في كتبهم ترجع إلى أركان الإيمان الستة، حتى إن بعض الأئمة يرتب الكلام في أبواب الاعتقاد على ترتيب أركان الإيمان.

• يوصَى طالب العلم في المرحلة الأولى بدراسة ثلاثة الأصول وأدلتها أو ما يقوم مقامها مما فيه بيان مراتب الدين وشرح التوحيد وكتاب مختصر في شرح أسماء الله الحسنى.

• وفي المرحلة التالية: كتاب التوحيد والعقيدة الواسطية أو ما يقوم مقامهما.

• وفي المرحلة التي تليها: كشف الشبهات، ونواقض الإسلام، والعقيدة الطحاوية والفتوى الحموية والرسالة التدمرية أو ما يقوم مقام هذه الكتب.

• وفي المرحلة التي تليها يقرأ في كتب الاعتقاد المسندة وما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهما ممن كتب في الاعتقاد.

• وفي المرحلة التي تليها يوسّع الطالب قراءاته في العقيدة، وليعتنِ بكتب الأئمة المجدّدين في

كلّ قرن وما اعترض دعواتهم من فتن الملل والنحل.

• ينبغي أن يُعلم أن المهم هو تحقيق هذه المقاصد التعليمية ؛ وأمّا المفاضلة بين المتون والكتب التي تعتني بهذه الموضوعات فهي مما يدخله الاجتهاد واختلاف المسالك، وإذا عرف الطالب المقصود لم ينشغل بمسألة التفضيل بين الكتب والمتون والتذبذب بينها بل كان همّه مجتمع على فهم هذه الموضوعات المهمة ودراسة مسائلها جيداً.

• لا يحسن بطالب العلم الجاد أن يقف كثيراً عند كل ألفاظ المتون حتى يكاد يعربها لأن الإغراق في جزئيات المسائل الجانبية يشغله عن فهم المقصود الذي لأجله يدرس تلك المتون، ويشتت ذهنه ويضعف تركيزه.

• اعتنِ بهذه المسألة جيداً، ولتكن عنايتك متوجهة لفهم المقاصد أولاً، ثم ما تحصِّله بعد ذلك من العلم فهو خير على خير.

• مَنْ فقِه ذلك سهل عليه أن يدرس في الفنّ الواحد متوناً كثيرة، لأنه إذا درس متناً منها فهم مقاصده ومسائله فإذا قرأ متناً آخر في ذلك العلم كانت عنايته متوجهة إلى معرفة ما فيه من زيادة علم، ولم يكن واقفاً عند رسوم الألفاظ.

• تنوّع الاطلاع يحتاجه طالب العلم لكن بعد أن يضبط أصلاً في كل علم.

• من كان يدرس متناً ولا يتمه ثم ينتقل إلى متن آخر وينقطع فإنه يبقى مغبوناً في وقته وجهده محروماً من بلوغ مأموله إلى أن يعاود العزيمة الصادقة فيجتهد في تحصيل العلم على وجهه الصحيح.

• مراعاة التدرج ومتابعة الطلب مهمة جداً لطالب العلم فهي المنهجية الصحيحة في التعلم.

• هذه المتون التي اخترناها لكم هي على سبيل الاجتهاد في التفضيل، وإلا لو درس الطالب كتباً أخرى تعتني بتلك الموضوعات وفهم مقاصدها فإنه يكون قد أتى على المطلوب.

• من ابتلي بمخالطة أصحاب ملّة من الملل أو نِحْلَة من النحل أو تيّار فكري فليعتن بقراءة ما كتبه أهل العلم عنها قراءة جيّدة ؛ لأن تعامله معهم فتنة توجب له التيقظ ومعرفة الهدى فيما يعاملهم به.

أهمية دراسة الدعوات الإصلاحية:

- مما يعين على فهم العقيدة فهماً حسناً قراءة تاريخ الدعوات الإصلاحية وسير المجددين من الأئمة.
- القراءة في سير المجددين وكتبهم تعين على فهم دعوة الإسلام كما ينبغي وتُعرِّفُ طالب العلم بما اعترض القائمين عليها من محن وابتلاءات، وما جرت به سنة الله تعالى من نصر من ينصر دينه وجعل العاقبة لأوليائه.
- من أهم فوائد دراسة سير المجدّدين وقراءة كتبهم:
  - ١ : التعرف على أسباب نجاح دعوة المجددين وانتفاع الناس بها.
  - ٢ : التعرف على أنواع مكائد أعداء الدين في المكر بها لردها وإجهاضها وتنفير الناس منها.
  - ٣ : التعرف على مناهج الأئمة في معالجة هذا الأمر، وما كان هديهم في مواجهة تلك التحديات من أعداء الداخل والخارج، من المنافقين والكافرين.
  - تآمر الكفار والمنافقين على محاربة دعوة الإسلام الصحيحة يتجدد ويتنوّع في كل عصر.
  - غالب مكائد الأعداء ترجع إلى أنواع إذا ضبطها طالب العلم ودرسها جيدا فهم كثيرا من مسائل الدعوة المعاصرة، وتكشفت له بعض مكائد أعداء الدين اليوم.
  - من تأمَّل سِيَر أئمة الدين من المجددين الكبار وغيرهم وجد منهم عناية بارزة بسير الأئمة قبلهم، ومن قرأ كتبهم وجد استشهادهم بحوادث جرت للأئمة قبلهم أمراً ظاهراً.
- هذه المادة لا يحتاج فيها طالب العلم إلى متن يدرسه، لكن ينبغي له أن يقرأ في هذا العلم أو في هذه المادة التاريخية شيئا فشيئا من كتب السير والتراجم وما جمع في سير بعض المجددين من المؤلفات المفردة الخاصة، يقرأ سيرهم قراءة المعتني بفقه أسباب نجاح الدعوة وما كان يعترضهم من عقبات وصعوبات وكيف تصدوا لمكائد الأعداء؟
- **المقصد الذي يكون في نفس القارئ** عند القراءة مهم جداً في انتفاعه من الكتاب، فالقراءة بغرض الثقافة قد تفيد الطالب في توسيع مداركه وازدياده من المعرفة، لكنها قد لا توصله إلى فقه ما تُنصر به الدعوة وكيف يكون إمدادها وحسن التدبير لها.

● أوَّل ما ينبغي دراسته في ذلك سيرة إمام المجددين صلى الله عليه وسلم، فقد جعل الله سيرته وهديه نبراساً للأئمة ومشكاة يقتبسون منها الهدي القويم في الملمات والشدائد التي تمر بهم، بل قلَّ أن يمر على عالم موقف من مكيدة الأعداء إلا وجد له أصلاً في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

● ثم يدرس سير المجددين بعده من علماء الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى عصرنا هذا.

● وقد روى أبو داوود والحاكم في مستدركه وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **إن ا يبعث ذه الأمة على رأس كل مائة سنة من دد ا دينها** » والحديث صححه جماعة من أهل العلم.

● روى الخطيب البغدادي في تاريخه عن الإمام أحمد أنه قال: (إن الله يقيِّضُ للناس في كل رأس مائة سنة مَن يعلمهم السنن وينفي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب فنظرنا فإذا في رأس المائة عمر بن عبد العزيز وفي رأس المائتين الشافعي).

O لفظ (مَن) في الحديث يحتمل الواحدَ والجماعةَ؛ فقد يقوم بالتجديد واحد، وقد يقوم به جماعة، وقد نص على ذلك جماعة من أهل العلم.

O رُوِي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **مل هذا العلم مـن كـل خلـف عدوله، ينفون عنه ريف الغال ، وانتحال ا بطل ، وتأويل ا اهل** » وهذا الحديث روي من حديث أبي أمامة وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم وطرقه فيها ضعف بيِّن.

O هذا الحديث مختلف في تصحيحه وتضعيفه، نُقِل عن الإمام أحمد أنه صححه، وصححه ابن القيم رحمه الله باعتبار تعدد طرقه، ومن أهل العلم من ضعفه ومنهم من حسنه، لكن معناه صحيح.

O يؤيده ما في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قَالَ: سَمعْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**إنَّ ا لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه مـن العباد، ولكن يقْبض العلم بقبضِ العلماءِ ح إذا لم يبقِ عالمًا اتّخذَ الناس رءوسًا جهـالاً فَسئلُوا فأفتوا بغ ِ علمٍ فضلّوا وأضلّوا**».

O هذا الحديث يدلك على أن حاجة الناس إلى العلم ماسة وضرورية ، لأنهم بحاجة إلى السؤال ، فإن وجدوا عالماً سألوه وإن لم يجدوا اتخذوا رءوساً جهالاً فسئلوهم ، فالحاجة إلى السؤال باقية.

O **ينبغي لطلاب العلم أن يفقهوا هذه المسألة جيدا** ؛ وهو أنهم اليوم طلاب ، وغداً تحتاجهم الأمة ؛ فينبغي لهم أن يتأصلوا بالعلم المفيد حتى إذا كانوا في السن والقدر الذي يؤهلهم للإفتاء والتعليم والدعوة إلى الله عز وجل على بصيرة كانوا من خير من يقوم بهذا الأمر.

O قال عبدالله بن عمر رضي الله عنه في أواخر حياته : (لو كنت أعلم أنكم تحتاجون إليَّ لتفقَّهتُ لكم) وهو من فقهاء الصحابة رضي الله عنه لكنه أراد أن يزداد من التفقه لأجل أن ينفعهم ويزداد من الخير بنشر العلم النافع.

● كلام العلماء في تعيين المجددين كثير وفيه اختلاف كبير، لكن من المجددين من عرف لهم كبير أثرهم في الأمة ولهم دعواتهم الإصلاحية الظاهرة ومن أشهر هذه الدعوات دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، ودعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

ترجمة المؤلف رحمه الله

- هو شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي.
- ولد فِي بلدة العُيَينةِ من قرى نجد، سنة ١١١٥هـ.
- نشأ نشأةً صالِحة فحفظ القرآن قبل بلوغه عشر سنين، وتتلمذ على والده قاضي العيينة.
- ظهرت عليه أمارات النبوغ من حدّة الذهن وقوة الحفظ وحسن الفهم وعلو الهمة.
- قرأ على صغر سنه كتباً كثيرة في التفسير والحديث والاعتقاد والفقه وغيرها.
- رحل في طلب العلم إلى الحرمين والأحساء والبصرة والزبير.
- كان سريع الكتابة حادّ الذكاء قوي الحفظ جادًّا مقبلاً على العلم والعمل.
- أقبل على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ففهم مقاصدها واختصر بعضها.
- أَسِفَ لما آل إليه حال الناس من غربة الدين وانتشار الشرك والجهل حتى عُبدت الأشجار والأحجار والقبور والجن.
- اتفق مع أمير الدرعية محمد بن سعود على الدعوة إلى التوحيد ونصرة الدين بالحجة والسنان، وتبايعا على ذلك.
- أقام مدرسة لتعليم التوحيد وعلوم الشريعة وألَّفَ لهم المناهج ورتَّبَ لهم الدروس فوفد إليه طلاب العلم وانتشرت دعوة الشيخ المباركة.
- كاتَبَ الشيخ العلماءَ والأمراءَ والوجهاء وأقام الحجج وكشف الشُّبَه.
- استجاب لدعوة الشيخ طائفة من الناس وأيدوه وناصروه، واستنكف آخرون وعادوه وآذوه، واجتهدوا في تنفير الناس عنه ورميه بالعظائم.
- رُفعت راية الجهاد بعد عام ١١٥٨هـ ففتح الله لهم القلوب والبلاد وأعلى الله كلمته ونصر أولياءه ودحض الشرك وأهله.
- كان الشيّخ متوليّا أمانة بيت المال وأمور السلم والحرب، وفي عام ١١٨٨هـ تركهما وانقطع للعبادة والتعليم إلى أن توفاه الله عز وجل في الدرعية سنة ١٢٠٦ هـ فرحمه الله رحمة واسعة وألحقه بالصالحين، وجمعنا به في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

رسالة ثلاثة الأصول وأدلتها

• المؤلف له رسالة أخرى باسم: (الأصول الثلاثة) أكثر اختصاراً من هذه الرسالة مطبوعة ضمن مجموع مؤلفاته، حذف منها بعض العبارات، وحديث جبريل الطويل.

• رسالتا المسائل الأربع والمسائل الثلاث أُلحقتا برسالة ثلاثة الأصول، وليست منها في الأصل كما نبه إلى ذلك شيخنا الشيخ عبد الله بن جبرين رحمه الله.

o كان هذا التصرف سبباً مباركاً في كثرة تدريس هاتين الرسالتين الوجيزيتن النافعتين.

• هذا الدليل هو لشرح رسالة (ثلاثة الأصول وأدلتها)، وهذه الرسالة مشهورة متداولة وقد طبعت كثيراً وشرحها كثير من أهل العلم في بلادنا، بل جعلوها من أول ما يبدؤون به تعليم العقيدة.

• **والأصول الثلاثة:** هي معرفة الله ومعرفة نبيه صلى الله عليه وسلم ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

• كان الشيخ رحمه الله يكرر تأليف هذه الرسالة ويلقنها للعامة، وفي بعض نسخها اختلاف يسير وموضوعها واحد.

o منها رسالة باسم (الأصول الثلاثة) طبعت من دون المسائل الأربع والمسائل الثلاث وليس فيها حديث جبريل الطويل وبينها وبين هذه النسخة اختلاف يسير.

o ومنها رسالة أكثر اختصاراً باسم (أصول الدين الثلاثة) أدخل في بعضها ألفاظاً عامية ليقربها للعامة.

o من تلاميذ الشيخ والمعتنين بتدريس هذه الأصول الثلاثة من اختصرها وصاغها بأسلوب السؤال والجواب كما فعل ذلك الشيخ: عبد العزيز بن محمد أبو حبيب الشثري وعلق عليها حاشية يسيرة وأسمى كتابه (المصقول في التعليق على مختصر ثلاثة الأصول) وقد اعتنى بنشرها حفيده الشيخ سعد بن ناصر الشثري حفظه الله.

• هذه الرسالة غلب عليها اسم (ثلاثة الأصول) حتى صار علماً عليها.

• هذه الإضافة (ثلاثة الأصول) صحيحة فصيحة، وهي مستعملة في نجد إلى اليوم.

o قال المبرد في المقتضب: (تقول: هذه ثلاثة أثوابٍ؛ كما تقول: هذا صاحب ثوبٍ؛

فإن أردت التعريف قلت: هذه ثلاثة الأثواب، كما تقول: هذا صاحب الأثواب ؛ لأن المضاف إنما يعرفه ما يضاف إليه فيستحيل هذه الثلاثة الأثواب ؛ كما يستحيل هذا الصاحب الأثواب، وهذا محال في كل وجه، ألا ترى أن ذا الرمة لما أراد التعريف قال:

أمنـــزلتي مَــيٍّ ســـلامٌ عليكمـــا هل الأزمن اللائي مضين رواجع

وهـل يرجـع التسـليم أو يـدفع البكـا ثـلاث الأثـافي والرسـوم البلاقـع

وقال الفرزدق:

مـــا زال مُـــذْ عَقَـــدَتْ يـــداهُ إزارَه ودنـــا فـــأدرك خمســـة الأشـــبار

فهذا لا يجوز غيره)ا.هـ.

o ذكر الحريري في "أوهام الخواص" أنهم يقولون: ما فعلت الثلاثة الأثواب ؛ فيعرّفون الاسمين ويضيفون الأول منهما إلى الثاني ؛ قال: (والاختيار أن يعرّف الأخير من كل عدد مضاف، فيقال: ما فعلت ثلاثة الأثواب؟ وفيم انصرفت ثلاثمائة الدرهم؟).

- الأصول جمع أصل وهو ما يُبنى عليه، وسميت ثلاثة الأصول بهذا الاسم لأنه الدين مبني على معرفتها.

أهمية رسالة ثلاثة الأصول وأدلتها

- كان الشيخ يلقّن الطلبة والعامة هذه الرسالة ليدرسوها ويحفظوها ويعقلوا معانيها.
- الأصول الثلاثة هي: معرفة العبد ربه جل وعلا، ومعرفة نبيه صلى الله عليه وسلم، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.
- هذه الأصول الثلاثة هي المسائل الثلاث التي يسأل عنها العبد في قبره: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟
- عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الميتَ ليسمع خَفْق نعالهم إذا وَلَّوْا مدبرين حين يقال له: يا هذا، مَنْ ربُّك ؟ وما دِينُك ؟ ومن نَبِيُّكَ ؟). رواه أبو داوود وغيره.
- جميع مسائل الدين ترجع إلى هذه الأصول الثلاثة.

الدرس الثاني: شرح المسائل الأربع (١/٢)

قال رحمه الله:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أربَع مَسَائِلَ:

الأُولى: العِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلاَمِ بالأَدِلَّةِ.

الثَّانِيَةُ: العَمَلُ بِهِ.

الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ.

والدَّلِيلُ قَولُه تَعَالَى: **والعصر (١) إن الإنسانَ لَفي خسر (٢) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر (٣)** [العصر: ١- ٣]

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ الله تَعَالى: (هَذِهِ السُّورَةُ لَو مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هِيَ لَكَفَتْهُمْ).

وَقَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى: (بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ والعَمَلِ، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: **فَاعلَم أنه لَا إِلَه إلا الله واستغفر لذَنبِك** [محمد: ١٩]، فَبَدَأَ بِالعِلْمِ قَبْلَ القَولِ وَالعَمَلِ).

عناصر الدرس:

- مقدمات الدرس
- شرح البسملة
- شرح قول المؤلف: (اعلم رحمك الله)
- شرح قول المؤلف: (يجب علينا تعلم أربع مسائل...)
- بيان مراتب الجهاد وصلتها بالمسائل الأربع
- شرح المسألة الأولى وهي العلم

- حكم طلب العلم
- فضل العلم
- وجوب الإخلاص في طلب العلم

- شرح المسألة الثانية: وهي العمل به
  - عظم شأن العمل بالعلم
  - حكم العمل بالعلم
  - ذم من لا يعمل بعلمه
  - بيان أن ذم من لا يعمل بعلمه لا يختص بالعلماء
  - هدي السلف في العمل بالعلم

مقدمات الدرس:

- كان شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله يعتني بتعليم طلابه الأصول الثلاثة وهي معرفة الله ومعرفة نبيه صلى الله عليه وسلم ومعرفة دين الإسلام بالأدلة، وكان يلقنها للطلبة والعامة حتى يحفظوها ويعقلوا معانيها.
- كرر تأليفها مراراً وبين النسخ اختلاف في العبارات وفي بعضها عبارات عامية لأنه كان يلقنها للعامة لتصحيح فهمهم لمبادئ الإسلام وأصول الدين، لأن الشرك في زمنه كان قد فشا وانتشر واستفحل أمره بسبب الجهل وعلماء السوء وأهل البدع من الصوفية وغيرهم.
- قال محمد بن غيهب وعبد الله بن عيدان وهما من تلاميذ الشيخ في رسالتهما إلى عبد الله المويس: (الباعث للكتاب إخبارك عن ديننا قبل أن يُجعل هذا الشيخُ لهذا القَرْنِ يدعوهم إلى الله وينصح لهم ويأمرهم وينهاهم حتى أطلع الله به شموس الوحي وأظهر به الدين وفرق به أهل الباطل من السادة والكهان والمرتشين فهو غريب في علماء هذا الزمان هو في شأن وهم في شأن آخر، رفع الله له علم الجهاد فشمّر إليه؛ فأمر ونهى ودعا إلى الله تعالى، ونصح ووفّى بالعهد لما نقضوه، وشمر عن ساعد الجد لما تركوه، وتمسك بالكتاب المنزل لما نبذوه؛ فبدّعوه وكفّروه).
- وقالا: (فديننا قبل هذا الشيخ المجدد لم يبق منه إلا الدعوى والاسم؛ فوقعنا في الشرك؛ فقد ذبحنا للشياطين، ودعونا الصالحين، ونأتي الكهان، ولا نفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ولا بين توحيد الربوبية الذي أقر به مشركو العرب وتوحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل، ولا نفرق بين السنة والبدعة..) إلخ ما قالا.
- من عرف حال الناس في زمان الشيخ قبل هذه الدعوة المباركة عرف قيمة هذه الدعوة، وعظيم نفعها، وجلالة قدرها، وفَهِمَ سبب عناية الشيخ رحمه الله بتقرير هذه المسائل.
- ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مواضع من كتبه أثراً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية).
    - معرفة حال أهل الجاهلية مهم لطالب العلم المعتني بأمر الدعوة إلى التوحيد.

بدء المؤلف رسالته بالبسملة

- البدء بالبسملة من سنن الأنبياء.
  - قال الله تعالى: **قالت يا أيها ا لأ إنه ألقي إ كتاب كر إنه من سليمان وإنه بسم ا الر ن الرحيم ألا تعلوا علي وأتو مسلم** [النمل: ٢٩].
  - قال ابن عاشور: (والمظنون أن سليمان اقتدى في افتتاح كتابه بالبسملة بسنة موروثة من عهد إبراهيم).
- وفيه اتساء بالنبي صلى الله عليه وسلم في مكاتباته ومراسلاته ففي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل وبدأ بالبسملة.
- حديث: (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع) ضعيف جداً، رواه الخطيب البغدادي في كتاب الجامع في أخلاق الراوي والرهاوي في الأربعين من حديث أبي هريرة مرفوعاً.
  - ورواه الإمام أحمد وأبو داوود وابن ماجه بلفظ: (كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر) أو قال: (أقطع).
  - ومن أهل العلم من حسَّنه كالسيوطي والعجلوني، وذكر السخاوي في المقاصد الحسنة أنه ألف فيه جزءاً، وضعفه الألباني وجماعة من أهل العلم، وقال الدارقطني: الصحيح عن الزهري مرسلاً.
- ذكر بعض الشراح أن المؤلف ابتدأ بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز، وفي هذا الاستدلال نظر، إذ لو بدأ متحدثٌ حديثه بالحروف المقطعة اقتداء بالكتاب العزيز لَعُدَّ مبتدعاً.

بيان معنى البسملة

- البسملة اسم لكلمة (باسم الله) صيغ على طريقة النحت.
- (بسم) الباء للاستعانة والتبرك، و(اسم) مفرد مضاف فيعم جميع الأسماء الحسنى.
  - حذفت الألف رسماً تبعاً لحذفها لفظاً للكثرة.

- متعلق الجار والمجرور محذوف ويقدر بفعل يناسب المقام نحو: أَكْتُبُ، أو أعلِّمُ

O يصح أن يقدر المتعلق اسماً كما دل عليه قوله تعالى: **وقال اركبوا فيهـا باسـم الله مجراها ومرساها** [هود: ٤١]، ويصح تقديره فعلاً كما دل عليه قوله تعالى: **اقرأ باسم ربك الذي خلق** [العلق: ١].

O الاستعانة بالله وشهود منته وطلب حفظه وتسديده من أسباب تمام العمل ونجاحه؛ فينبغي للمعلم أن يستحضر معاني البسملة وأن تمام الأمر إنما هو بحول الله وقوته ومنته والعبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله.

- (الله) عَلَمٌ على الباري جل وعلا.

O قال سيبويه: (الله) أعرف المعارف.

O قال بعض علماء اللغة: أصله (الإله)، وهو فِعَالٌ بمعنى مفعول.

O المألوه هو المعبود الذي تألهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً.

O هذا الاسم هو الجامع لجميع صفات الكمال والجلال والجمال، ويدل عليها بالتضمن واللزوم.

O وهو اسم مختص بالله جل وعلا، ولهذا تضاف الأسماء الحسنى إليه ولا يضاف إليها؛ فيقال: الرحمن والرحيم والغفور من أسماء الله، ولا يقال العكس.

O (اللهم) معناها يا الله، زيدت الميم عوضاً عن النداء، ولذلك لا تقال إلا في الدعاء.

- (الرحمن) أي ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء.

- (الرحيم) الذي يرحم من يشاء من خلقه.

O جميع ما في الكون من خير فهو من آثار رحمة الله.

O الهداية للحق من آثار الرحمة الخاصة.

O قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ((الرحمن) دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه، و(الرحيم) دال على تعلقها بالمرحوم؛ فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى: (وكان بالمؤمنين رحيماً)، (إنه بهم رؤوف رحيم) ولم يجئ قط رحمن

بهم، فعلم أن (رحمن هو الموصوف بالرحمة، و(رحيم) هو الراحم برحمته).

- اقتصر المؤلف على البسملة اختصاراً لئلا يطيل على القارئ بالخطبة، ولأن البسملة من أبلغ الذكر والثناء.

شرح قول المؤلف: (اعلم رحمك الله)

- البدء بهذه الصيغة (اعلم) فيه تنبيه للقارئ، والدعاء له فيه تلطف.
- استرعاء انتباه الطلاب والسامعين من سمات المعلم والداعية المؤثر.
  - الرفق بالطالب والنصح له من سمات العالم الرباني.
  - مبنى الدعوة والتعليم على الرحمة والنصح.
- العلم: إدراك المعلوم.
- الفرق بين العلم والمعرفة أن المعرفة مسبوقة بجهل أو غفلة غالباً، وقد تطلق على لازمها.
- **قوله: (رحمك الله)** دعاء للطالب بالرحمة، ومن رحمة الله بطالب العلم أن يوفق لحسن الفهم، وينتفع بما يقرأ ويسمع، وأن يغفر له الذنوب التي يحرم بسببها التوفيق.

المغفرة من آثار الرحمة؛ فالرحمة أعم من المغفرة.

شرح قول المؤلف: (يجب علينا تعلم أربع مسائل...)

- قوله: (يجب علينا) فيه تنبيه آخر للقارئ ليعتني بمعرفة ما يجب عليه.
- الوجوب هنا يراد به الوجوب العيني.
- هذه المسائل الأربع هي منهاج حياة المسلم.
- يتفاضل الناس في تحقيق هذه المسائل على درجات كثيرة.
- ينبغي لطالب العلم أن يأخذ بنصيب وافر من هذه المسائل.
- كان الشيخ رحمه الله يعتني بذكر الأعداد في رسائله من باب التعليم والإعانة على الحفظ والضبط فله المسائل الأربع، والمسائل الثلاث، والأصول الثلاثة والأصول الستة وغيرها.
- ذكر الأعداد له فائدة تعليمية وهو منهج نبوي في التعليم، وفي الأحاديث الصحيحة:

«أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً..»، «وثلاث من كنّ فيه وجد بن حلاوة الإ ـان»
وغير ذلك من الأحاديث.

- ذكر العدد يعين على الضبط والحفظ والاستذكار.
- هذه المسائل يجب على المسلم أن يجاهد نفسه عليها.

مراتب الجهاد

- مراتب الجهاد كما ذكرها ابن القيّم رحمه الله في زاد المعاد أربعة: جهادُ النفس، وجهادُ الشيطان، وجهادُ الكفار، وجهادُ المنافقين.
- جهاد النفس أربعُ مراتب أيضاً هي: العلم والعمل به والدعوة إليه والصبر على الأذى فيه، وهي المسائل الأربع التي هي موضوع هذا الدرس.

o قال ابن القيم: (فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربَّانِيينَ، فإن السلفَ مُجمِعُونَ على أن العَالِمَ لا يَستحِقُّ أن يُسمى ربَّانياً حتى يعرِفَ الحقَّ، ويعملَ به، ويُعَلِّمَه، فمَن علم وَعَمِلَ وعَلَّمَ فذاكَ يُدعى عظيماً في ملكوتِ السموات).

- وجهادُ الشيطان مرتبتان: جهادُه على دفع الشبهات، وجهاده الإرادات الفاسدة والشهواتِ، فالجهادُ الأول يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعدَه الصبر.
- وجهادُ الكفار والمنافقين أربع مراتب: بالقلب واللِّسان والمالِ والنفسِ، وجهادُ الكفار أخصُّ باليد، وجهادُ المنافقين أخصُّ باللسان.
- وجهادُ أرباب الظلم والبِدعِ والمنكرات ثلاث مراتبَ: الأولى: باليدِ إذا قَدَرَ، فإن عَجَزَ، انتقل إلى اللِّسان، فإن عَجَزَ، جاهد بقلبه.
- قال ابن القيم: (فهذِهِ ثلاثةَ عشرَ مرتبةً من الجهاد، و"مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالغَزْوِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ")اهـ وهو كلام نفيس سديد.
- من تأمّل هذه المراتب تبيّن له منهاجه في الحياة؛ وحرص على إحسان الجهاد بهذه المراتب على هدي الكتاب والسنة، وقد قال الله تعالى: **وجاهدوا في الله حق جِهـاده..** [الحج: ٧٨] الآية.

• الأمر بالجهاد في أي نوع من أنواعه لا يجب فيه على المكلف إلا ما يستطيع كما قال الله تعالى: **فَاتقُوا الله ما استطَعتم** [التغابن: ١٦] وهذا يقطع على النفس عذر المشقة واستصعاب القيام بهذه الأمور.

• كل من يقوم بواجبه في ذلك من المؤمنين في أي نوع من أنواع الجهاد فهو من جند الله وحزبه، وهذا هو التجنيد الصحيح بل هو أفضل التجنيد، وهو أن تكون جندياً لله تعالى فتعملَ بمرضاة الله وتنالَ محبته ورضوانه وفضله العظيم.

• شرَّف الله جنده ووعدهم بالنصر والتمكين ونسبهم إليه جل وعلا نسبة تشريف فقال تعالى: **ولَقَد سبقَت كلمتنا لعبادنا الْمرسلِ (١٧١) إنهم لَهم الْمنصورونَ (١٧٢) وإن جندنا لَهم الْغالبونَ** [الصافات: ١٧١- ١٧٣].

• من أهم صفات الجندية الطاعة والتسليم والعمل بما يكلف به، واستشعار مسؤولية العمل الذي استعمل عليه، وهذه الصفات مقررة في الكتاب والسنة في مواضع كثيرة.

• تأمل الفرق العظيم بين من جنَّد نفسه لله، ومن جنَّد نفسه لهواها وللشيطان وللطواغيت.

• ومن أبى أن يكون جندياً لله تعالى فقد جنَّد نفسه لغيره شاء أم أبى.

• الجندية لله تعالى مرتبطة بهذه المسائل الأربع: العلم والعمل والدعوة والصبر.

• هذه المسائل الأربع ليست أعمالاً يؤديها الإنسان في مدة يسيرة ثم يتركها، بل هي منهاج حياته ما دام في دار الابتلاء؛ فهو مطالب بها إلى أن يتوفاه الله عز وجل أو يرتفع عنه التكليف.

• لا ينبغي أن تكون دراستنا للمتون العلمية دراسة نظرية نستكثر بها من المعلومات فحسب، وإنما التعلم الصحيح أن نجعلها منهجاً علمياً وعملياً نمتثله في حياتنا، وأن تكون حياتنا لله، وهمتنا لإعلاء كلمة الله، ورسالتنا أن نحيا في سبيل الله ونموت في سبيل الله **قُـلْ إن صلَاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب الْعالَم (١٦٢) لَا شريك لَه وبِذَلك أُمـرت وأَنا أَولُ الْمسلم** [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

شرح المسألة الأولى وهي العلم

- المراد بالعلم هنا العلم الشرعي.
- عرف العلم الشرعي بأنه معرفة الله ومعرفة نبيه صلى الله عليه وسلم ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.
- شرح هذا التعريف هو موضوع رسالة ثلاثة الأصول وأدلتها.
- معرفة الله تكون بالإيمان به وعبادته وحده لاشريك له.

o سبيل معرفة الله : التفكر في آيات الله المتلوّة وآياته الكونية.

o روى ابن حبان في صحيحه عن طلحة بن خراش يحدث عن جابر بن عبد الله أن (رجلا قام يركع ركعتي الفجر وقرأ في الركعة الأولى **قُلْ يا أيها الكافرونَ** [الكافرون: ١] حتى انقضت السورة فقال النبي « **هذا عبد عرف ربه** »، وقرأ في الآخرة **قُلْ هو الله أحدٌ** [الإخلاص: ١] حتى انقضت السورة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **هذا عبد آمن بربه عز وجل** » قال طلحة : وأنا أحب أن أقرأ بهاتين السورتين في هاتين الركعتين).

o قال محمد بن نصر المروزي رحمه الله في كتاب تعظيم قدر الصلاة : (من عرف ربه واعترف به أوجبت معرفته حبه وهيبته ورجاءه وخوفه، والدليل على ذلك أنه لو أعطى الدنيا كلها على أن تكفر به أو تكذب عليه ما فعل)ا.هـ.

- ومعرفة النبي صلى الله عليه وسلم تكون بالإيمان به واتباع هديه.
- ومعرفة دين الإسلام تكون بتعلم العلم الشرعي الذي مبناه على آيات الكتاب العزيز وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فهي الأدلة على دين الإسلام.
- يطلق لفظ الإسلام على معانٍ ثلاثة :

o المعنى الأول : الإسلام الكوني العام، ويراد به خضوع جميع المخلوقات لأمر الله الكوني كما في قوله تعالى : **وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرها** [آل عمران: ٨٣].

o المعنى الثاني : الإسلام الشرعي العام وهو دين الأنبياء جميعاً ويراد به توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة كما في جاء آيات كثيرة عن عدد من الأنبياء أنهم من المسلمين، وكما في

قوله تعالى: كم با النبيون الذين أسلموا [المائدة: ٤٤].

O المعنى الثالث: الإسلام الشرعي الخاص وهو الشريعة المحكمة التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم وهي المرادة في قوله تعالى: ورضيت لكم الإسـلام دينـاً [المائدة: ٣]
وقوله: ومن يبتغ غ الإسلام ديناً فلن يقبل منه [آل عمران: ٨٥]، وهو المراد هنا.

- الدليل هو طريق العلم والمرشد إليه، والأدلة على قسمين: سمعي وعقلي.

O الأدلة السمعية: التي مستندها الثبوت بالتلقي سماعاً أو ما يقوم مقام السماع، وهي أدلة الكتاب والسنة والإجماع.

O الأدلة العقلية: هي التي مستند ثبوتها العقل والنظر.

حكم طلب العلم

- قال الإمام أحمد: (يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه) قيل له: مثل أي شيء؟ قال: (الذي لا يسعه جهله صلاته وصيامه ونحو ذلك).
- يجب على العبد أن يتعلم ما يؤدي به الواجب ويكف به عن المحرم ويتم به معاملاته.
- ما زاد على القدر الواجب من العلوم الشرعية فهو فرض كفاية على الأمة.
- قال سفيان بن عيينة: (طلب العلم والجهاد فريضة على جماعتهم ويجزئ فيه بعضهم عن بعض) وتلا هذه الآية فَلَولا نفَر من كُل فرقَةٍ منهم طَائفَةٌ ليتفَقهوا في الدينِ ولينذروا قَومهم إذَا رجعوا إِلَيهم [التوبة: ١٢٢].
- قال ابن عبد البر: (قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ في خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع).

فضل العلم

- قال الله تعالى: يرفع ا الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجـات [المجادلة: ١١]، وقال: إ ا شى ا من عباده العلماء [فاطر: ٢٨]، وقال: قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون [الزمر: ٩].

• عن معاوية رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**من يرد ا ُ بِـه خيراً يفقهه الدين**)). متفقٌ عَلَيْهِ.

وجوب الإخلاص في طلب العلم

• في صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في ذكر أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، وذكر منهم رجلاً جمع القرآن ليقال: قارئ.

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**مـن تعلـم علْماً مما يبتغى بِهِ وجه ا ـ لا يتعلمه إلا ليصيب بِهِ عرضاً من الدنيا لَمْ يجِد عرف ا َنة يوم القيامة**)) يَعْنِي: رِيحَهَا. رواه أَبُو داود بإسناد صحيح

• قال مالك بن دينار: (مَن تعلَّمَ العلمَ لِلعمـلِ كَسَرَهُ علمُـه، وَمَـن طَلَبهُ لِغيرِ العمـلِ زادهُ فَخْرًا).

• قَال مطر الوراق: (خيرُ العلمِ مَا نفع، وإنَّما ينفعُ الله بالعلم مَن عَلِمَهُ ثُمَّ عَمِلَ بـه، ولا ينفَعُ به مَن عَلِمَهُ ثُمَّ تَرَكَهُ).

شرح المسألة الثانية: وهي العمل به

عظم شأن العمل بالعلم

• العمل بالعلم شأنه عظيم فثواب العاملين بالعلم ثواب عظيم كريم كما قال الله تعالى: **فَنِعم أجر الْعاملِ** [الزمر: ٧٤].

• وعقوبة تاركي العمل عظيمة شنيعة والقوارع عليهم في الكتاب والسنة شديدة كما قال الله تعالى: **أتأمرونَ النّاس بِالبِرّ وتنسونَ أنفُسكُم وأنتم تتلُونَ الْكتاب أفَلَا تعقلُونَ** [البقرة: ٤٤]، وقال تعالى: **واتلُ عليهم نبأَ الّذي آتيناه آياتنا فَانسلَخ منها فَأتبعه الشّيطَانُ فَكَانَ من الْغاوِين (١٧٥) ولَو شئْنا لَرفَعناه بِها ولَكنّه أخلَد إِلَى الْأرضِ واتّبع هـواه فَمثَلُـه كَمثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تحملْ عليه يلْهثْ أو تتركْه يلْهثْ ذَلك مثَلُ الْقَومِ الّذين كَذّبوا بِآياتنا فَاقْصـصِ الْقَصص لَعلّهم يتفَكّرونَ (١٧٦)** [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

• عن أسامةُ بن زيد رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلْقى النار، فَتندلق أقْتاب بطْنِه، فَيدور با كما يدور ا مار الرحى، فيجتمع إليه أهلُ النار، فيقولون: يا فُلانُ مالك؟ أ تكن تأمر با عروف وتنهى عـن ا نكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر با عروف ولا آتيه، وأنهى عن ا نكر وآتيه». متفق عليه.

● عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: **« لا تزولُ قدما عبد يوم القيامة ح يسألَ عن أربع: عن عمره فيما أفناه؟ وعن علْمه ما عمـل به؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيما أبـلاه؟ »** رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

● وعن أبي برزة أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **« مثل الذي يعلم الناس ا وينسى نفسه مثل الفتيلة تضيء على الناس و ـرق نفسـها »** رواه البزار وصححه الألباني.

حكم العمل بالعلم

● الأصل في العمل بالعلم أنه واجب، وأن من لا يعمل بعلمه مذموم بكل حال، وعند التفصيل نجد أن العمل بالعلم على درجات.

● الدرجة الأولى: ما يلزم منه البقاء على دين الإسلام وهو التوحيد واجتناب نواقض الإسلام، والمخالف في هذه الدرجة كافر غير مسلم.

● والدرجة الثانية: ما يتأكّد وجوب العمل به كالفرائض واجتناب الكبائر، والمخالفة في هذه الدرجة فاسق من عصاة الموحّدين.

● الدرجة الثالثة: ما يستحبّ العمل به وهو نوافل العبادات واجتناب المكروهات.

● من عَلِمَ وجوبَ فريضة من الفرائض وَجَب عليه أداؤها، ومَن علم تحريم شيء من المحرمات وجب عليه اجتنابه.

● من العمل بالعلم ما هو فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين.

● يجب على طالب العلم أن يكون حريصاً على أداء الواجبات واجتناب المحرمات هذا في المقام الأول، ثم يؤدي من السنن والمستحبات ما يتيسر له ويفتح الله له به عليه.

ذمُّ من لا يعمل بعلمه

• قال الله تعالى: **أتأمرون الناس بال وتنسون أنفسكم وأنتم تتلـون الكتـاب أفـلا تعقلون** [البقرة: ٤٤].

• وقال: **مثل الذين لوا التوراة ملوها كمثل ا مار مل أسفاراً...** [الجمعة: ٥] الآية.

• وقال: **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكـان مـن الغاوين (١٧٥) ولو شئنا لرفعناه با ولكنه أخلد إ الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن مل عليه يلهث أو تتركه يلهث...** [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] الآية.

• في حديث أبي هريرة في أول من تسعر بهم النار أنه يقال لقارئ القرآن: ماذا عملت فيما علمت.

• لأهمية هذا الأمر أفرده بعض العلماء بالتأليف، فكتب الحافظ ابن عساكر (ت: ٥٧١هـ) رسالة (ذم من لا يعمل بعلمه) وألف الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ) كتاب (اقتضاء العلم العمل)

• أفرد له ابن عبد البر فصلاً في جامع بيان العلم وفضله، وقبله الآجري في أخلاق العلماء، وكذلك ابن رجب في فضل علم السلف على علم الخلف، وابن القيم في مفتاح دار السعادة.

• قال أبو إسحاق الألبيري:

وإن أوتيت فيه طويل باع وقال الناس إنك قد سبقت
فلا تأمن سـؤال الله عنه بتوبيخ علمت فهل عملت

بيان أن ذم من لا يعمل بعلمه لا يختص بالعلماء

• من الخطأ أن يظن أن أحاديث الوعيد في ترك العمل بالعلم خاصة بالعلماء وطلاب العلم.

• كل من علم حكماً شرعياً وجب عليه العمل بمقتضاه، واستحق الذم على ترك العمل به إذا تركه.

هدي السلف في العمل بالعلم

- كان من هدي أئمة الدين رحمهم الله الحرص على العمل بالعمل.
  - قال الإمام أحمد: ما كتبت حديثاً إلا وقد عملت به.
  - وقال سفيان الثوري: ما بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث قط إلا عملت به ولو مرة واحدة.
  - وقال عمرو بن قيس السّكوني: إذا سمعت بالخير فاعمل به، ولو مرة واحدة.
  - وعن وكيع والشعبي وإسماعيل بن إبراهيم بن مجمع أنهم قالوا: كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به.
- إذا وطن طالب العلم نفسه على العمل بما يتعلمه من العلم، ولو مرة واحدة، كان ذلك تدريباً له وتعويداً على العمل.
- النفس إذا عوِّدت على أمر تعودت عليه وسهل عليها، فتتعود نفسه على العمل، ويترقى بذلك في مراقي العبودية، ولا يزال العبد يزداد بذلك من التوفيق والفضل العظيم، ويجد من البركة في حياته وأعماله ما هو من ثمرات امتثاله واحتسابه في العمل بما تعلم، نسأل الله من فضله.
- قال مالك بن دينار رحمه الله: (ما من أعمال البر شيء، إلا ودونه عقيبة، فإن صبر صاحبها، أفضت به إلى رَوح، وإن جزع رجع).
- أعظم ما يعين على العمل بالعلم أن يربي الإنسان نفسه على اليقين والصبر، ولذلك تجد الإنسان لا يعصي الله تعالى إلا حين يضعف يقينه ويضعف صبره.
- اليقين يبصّر صاحبه بعظيم العقاب على المعاصي فلا يقدم عليها صاحب لبّ، ويبصّره بعظيم الثواب على الطاعات فلا يفرط فيها إلا مغبون.
- يدلّ على هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم عن المنافقين في شأن صلاتي الفجر والعشاء: (ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً)؛ فكان ضعف العلم اليقيني بالثواب سبباً في زهدهم فيه.

الدرس الثالث: شرح المسائل الأربع (٢/٢)

قال رحمه الله:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أرْبَع مَسَائِل:

الأُولى: العِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلاَمِ بالأَدِلَّةِ.

الثَّانِيَةُ: العَمَلُ بِهِ.

الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

الرَّابعةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ.

والدَّلِيلُ قَولُه تَعَالَى: **وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)** [العصر: ١- ٣]

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ الله تَعالى: (هَذِهِ السُّورَةُ لَو مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هِيَ لَكَفَتْهُمْ).

وَقَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى: (بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ والعَمَلِ، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ** [محمد: ١٩]، فَبَدَأَ بِالعِلْمِ قَبْلَ القَولِ وَالعَمَلِ).

عناصر الدرس:

- شرح المسألة الثالثة: وهي الدعوة إليه
  - فضائل الدعوة إلى الله تعالى
  - شروط الدعوة
  - شروط الدعوة
  - أنواع الدعوة
  - وسائل الدعوة
  - آداب الدعوة
  - مقاصد الدعوة
  - تفسير قول الله تعالى: **ادع إ سبيل ربك با كمة وا وعظة ا سنة..** [النحل: ١٢٥] الآية.

- شرح المسألة الرابعة وهي الصبر
  - معنى الصبر
  - منزلة الصبر
  - أنواع الصبر
  - حكم الصبر
  - حاجة الداعية إلى الصبر
- تفسير سورة العصر
- شرح قول الشافعي رحمه الله: (هَذِهِ السُّورَةُ لَو مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هِيَ لَكَفَتْهُمْ).
- ترجمة الإمام الشافعي رحمه الله
- شرح قول البخاري رحمه الله: (بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ والعَمَلِ، والدّليلُ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فَبَدَأَ بِالعِلْمِ قَبْلَ القَولِ وَالعَمَلِ).
- ترجمة الإمام البخاري رحمه الله
- شرح قوله: (العلم قبل القول والعمل)

شرح المسألة الثالثة: وهي الدعوة إليه

- مرجع الضمير في قوله: (الدعوة إليه) إلى العلم الذي عمل به.

فضائل الدعوة إلى الله تعالى

- هي عمل الرسل والأنبياء الذي شرّفهم الله به، والداعي إلى الله تعالى بعلم وارث للأنبياء متبع سبيلهم قال الله تعالى: **قل هذه سبيلي أدعوا إ ا على بصـ ة أنـا ومـن اتبع** [يوسف: ١٨]، وقال تعالى: **وادع إ ربك** [الحج: ٦٧]، وقال تعالى: **ادع إ سـبيل ربك با كمة وا وعظة ا سنة وجاد م بال هي أحسن** [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: **ولتكن منكم أمة يدعون إ ا** [آل عمران: ١٤]، وقال: **ومن أحسن قولاً ن دعا إ ا وعمـل صا اً وقال إ من ا سلم** [فصلت: ٣٣].

- عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعليٍّ يوم خيبر: « **أنفُذْ على رِسْلِكَ، حـ تـ لَ بساحِتِهم، ثُم ادْعُهم إ الإسلامِ، وَأخبِرهم ا ـب عليهم مِن حق ا عز وجل فيهم، فوا لأن يهديَ ا بكَ رجلا واحدا خـ لكَ من حُمْـر النَعَم** ». متفق عليه.

- عن أَبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: « **مَنْ دَل عَلى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أجْرِ فَاعِلِهِ** » رواه مسلم.

- عن أَبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: « **مَنْ دَعَا إلَـى هُدَى كَانَ لَهُ مِنَ الأجْرِ مِثْلُ أجُورِ مَنْ تَبِعَه لاَ يَنْقُصُ ذِلكَ مِنْ أجُورِهمْ شَيئاً، وَمَنْ دَعَا إلَـى ضَلالَة كَانَ عَليِهِ مِنَ الإثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذِلكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيئاً** » رواه مسلم.

- عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، يقول: « **نَضرَ ا امْرَأً سَمِعَ مِنا شَيْئاً، فَبلَغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُب مُبَلغٍ أوْعَى مِنْ سَامِعٍ** ». رواه الترمذي
  - قال أبو سليمان الخطابي: (قوله: « **نضر ا** » معناه الدعاء له بالنضارة وهي النعمة والبهجة).

- تنبيه: إنما ينتفع بالدعوة إلى الله تعالى من ابتغى بدعوته وجه الله، وأما المرائي والذي لا يريد إلا الحياة الدنيا فسعيه باطل **من كان يريد ا ياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعما م فيها**

وهم فيها لا يبخسون (١٥) أولئك الذين ليس م الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون [هود: ١٥، ١٦].

شروط الدعوة

• أن يكون على بصيرة فيما يدعو إليه، وعلى بصيرة بصحة طريقة الدعوة، وعلى بصيرة بحال المدعو فيدعوه بما يناسب حاله، قال علي بن أبي طالب: (حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله) رواه البخاري؛ فلذلك تجب مراعاة المصلحة الشرعية في الدعوة إلى الله تعالى.

أنواع الدعوة

• من أنواع الدعوة: دعوة الكفار إلى الإسلام، ودعوة المسلم إلى مزيد من الهداية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم الشرعي، والنصيحة لكل مسلم كل ذلك من أنواع الدعوة إلى الله تعالى.

وسائل الدعوة

• ينبغي للداعية أن يعتني بما ييسره الله له من وسائل الدعوة وهي كثيرة متنوعة ولله الحمد، وأوّل ذلك أن يتمثل الداعية ما يدعو إليه فيكونَ إماماً يؤتم به ويقتدى به في الخير، ومن أكثر ما يؤثر في المتعلمين قيام المعلمين بما يقتضيه العلم، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس عملاً وخير الناس دعوة كما كان أحسنهم علماً.

• من وسائل الدعوة: إلقاء الخطب والدروس والمواعظ وكتابة المقالات والرسائل وتأليف الكتب النافعة واستخدام تقنيات العصر في الدعوة إلى الله كالإذاعات والفضائيات ومواقع الانترنت وغيرها.

• من فُتح له في وسيلة من الوسائل فليعتنِ بها لعلها تكون سبباً موصلاً له إلى رضوان الله تعالى وجنات النعيم، وأحبّ العمل إلى الله أدومه وإن قلّ.

حكم الدعوة

• الدعوة إلى الله تعالى فرض كفاية إذا قام بها من يكفي سقط الإثم عن الباقين لقوله

تعالى: **ولتكن منكم أمة يدعون إ ا** [آل عمران: ١٤]، وقوله: **وما كان ا ؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم ذرون** [التوبة: ١٢٢].

- هذا الحكم من حيث الأصل، وقد تتعين في أحوال:

o فمن رأى منكراً وجب عليه تغييره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه؛ فإن لم يستطع فبقلبه.

o ومن سئل عن علم وجب عليه بيانه وحرم كتمانه لقول النبي صلى الله عليه وسلم: « **من سئل عن علم فكتمه أ م يوم القيامة بلجام من ن ار** » رواه أبو داوود والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

o ومن استنصحه أخوه المسلم وجبت عليه نصيحته.

o وكذلك إذا دعت الحاجة إلى البيان لم يجز تأخيره.

آداب الدعوة

- **من آداب الداعية في نفسه**: أن يكون ممتثلاً ما يدعو إليه، ملتزماً تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً، متحلياً بمكارم الأخلاق مجتنباً مساوءها، فإن وقع في شيء من المعاصي والتقصير بادر إلى التوبة والاستغفار وإتباع السيئة الحسنة.

- **من آداب الداعية في دعوته**: أن يبدأ بالأهم، وأن يحدث الناس بما يناسب أفهامهم، ويستعمل الحكمة في جميع أموره فيلين في موضع اللين، ويغلظ حين يحسن أن يغلظ، وإذا وعظ أحسن الموعظة واقتصد فيها فلا يكثر فيملهم ولا يجفوا فيطول عليهم الأمد فتقسو قلوبهم، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا الموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا) متفق عليه.

- الداعية عرضة للخطأ والتقصير وغير معصوم من الوقوع في الذنوب ومخالفة السنة، ولذلك يوصى بالاستغفار والتوبة ومحاسبة النفس وقبول النصيحة وأن لا يمنعه وقوعه في الذنب عن مواصلة الدعوة.

o قيل للحسن البصري: إن فلاناً لا يَعِظُ ويقول: أخاف أن أقول ما لا أفعل، فقال

الحسن: (وأيّنا يفعل ما يقول، ودَّ الشيطان أنه ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر).

- وقال مالك عن ربيعة: قال سعيد بن جبير: (لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحدٌ بمعروف ولا نهى عن منكر).
- قال مالك: وصدق! ومن ذا الذي ليس فيه شيء.
- قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]: (فَكُلٌّ من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف. وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسّكهم بهذه الآية؛ فإنه لا حجة لهم فيها. والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه).ا.هـ.

مقاصد الدعوة:

- المقصد الأول: إقامة حجة الله تعالى على خلقه كما قال الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].
- المقصد الثاني: براءة ذمة الداعية والإعذار إلى الله بامتثاله أمر الدعوة وقيامه بما وجب عليه كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]؛ فقدموا المقصد الأول وهو الإعذار إلى الله تعالى وبراءة ذمتهم.
- المقصد الثالث: رجاء أن ينتفع المدعو بالدعوة فيستجيبَ لما ينجيه من العذاب ويوفق بسببه لنيل الثواب كما دل عليه قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].
- فقه مقاصد الدعوة يفيد في الحكم على وسائل الدعوة المعاصرة فما كان منها يحقق هذه المقاصد فهو من الوسائل المشروعة، وكل وسيلة تتضمن محذوراً في نفسها أو يترتب عليها مفسدة أعظم فإنها لا تحقق مقاصد الدعوة.

تفسير قول الله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة...﴾ الآية [النحل: ١٢٥].

• للدعوة مراتب بعضها مقدم على بعض؛ فمن كانت تجدي معه الموعظة الحسنة فلا يحسن أن يجادَل، لأنه مستجيب منقاد للحق ليس لديه شبهة تمنعه من الانقياد له، وإنما يذكَّر لتنفعُه الذكرى.

• وأما من كانت لديه شبهة تصده عن الحق فهذا ينتقل معه إلى مرتبة المجادلة بالتي هي أحسن.

• وأما الظالمون المعتدون فيعاملون بما يزجرهم أو يخفف شرّهم مع القدرة ومراعاة الحكمة والمصلحة الشرعية المرجوة.

• الحكمة هي أصل مراتب الدعوة؛ فيستعمل في كل حال ما يناسبها كما تدل على ذلك أدلة الشريعة، ولا يقتضي أن تكون على التدرج مطلقاً، بل قد يقدّم الإنكار باليد على الإنكار باللسان إذا اقتضت المصلحة الشرعية ذلك، ويُرفق مع من يصلح له الرفق، ويغلظ لمن لا يصلح له إلا الغلظة ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ [التوبة: ٧٣].

• الأصل هو استعمال الرفق في الدعوة، وعامة ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من الغلظة في الإنكار تجده لتعظيم حدّ من حدود الله، وحرمة من حرماته ليزجر المدعو عن ذلك ويبين له عظم شأن ما اقترف.

• الإغلاظ في الدعوة متضمّن معنى الرحمة لأن سببه والداعي له نصح المنكَر عليه وزجره عما يضرّه في دينه؛ فلذلك لا يجوز أن يفضي الإغلاظ إلى قول ما لا يجوز ولا أن يقصد الإضرار بمن لا يستحقّه.

شرح المسألة الرابعة وهي الصبر

معنى الصبر

• معنى الصبر معلوم مستقر في النفوس، وقد تنوعت عبارات العلماء في التعبير عنه.
  - قال أبو عبيد: أصل الصَّبر الحَبْس وكل من حَبَسَ شيئا فقد صبره.

- قال أبو حيان: الصبر حبس النفس على المكروه.
- قال ابن تيمية: الصبر فيه جمع وإمساك ولهذا قيل: الصبر حبس النفس عن الجزع.
- قـال ابـن القـيم: الصـبر هـو حـبس الـنفس عـن محـارم الله، وحبسـها علـى فرائضـه، وحبسها عن التسخط والشكاية لأقداره.
- قال ابن حجر: أحسن ما وصف به الصبر أنه حبس النفس عن المكروه، وعقد اللسان عن الشكوى، والمكابدة في تحمّله، وانتظار الفرج.

منزلة الصبر

- عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (والصبر ضياء) رواه مسلم.
- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن الـنبي صـلى الله عليه وسـلم أنـه قـال: « **مـن يتصـ يصـ ه ا ، وما أعطي أحد عطاء خـ اً وأوسع من الصـ** » متفق عليه.
- عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قـال: « **ما من مسـلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر ا با سيئاته وحطت عنه ذنوبه كما ـط الشـجرة ورقها** » متفق عليه.
- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: « **الصـ نصف الإ ان واليقـ الإ ان كله** » رواه وكيع في الزهد موقوفاً بإسناد صحيح، وروي مرفوعاً بإسناد ضعيف.
- وروى عبد الرزاق في مصنفه والبيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: (خمسٌ احفظوهن، لو ركبتم الإبل لأنضيتموهن قبل أن تـدركوهن: لا يخاف العبـد إلا ذنبـه، ولا يرجـو إلا ربـه، ولا يسـتحيي جاهـل أن يسـأل، ولا يسـتحي عـالم إن لم يعلم أن يقول الله أعلم، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد إذا قطع الـرأس نـتن بـاقي الجسد، و لا إيمان لمن لا صبر له).
- بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، قـال الله تعـالى: **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا ا صـ وا وكانوا بآياتنا يوقنون** [السجدة: ٢٤].

أنواع الصبر

- ١ : الصبر على طاعة الله ، ومثاله قول الله تعالى : **وأمر أهلـك بالصـلاة واصـط عليها** [طه: ١٣٢]، وقوله : **واص نفسك مع الذين يدعون ربم بالغداة والعشي يريـدون وجهه** [الكهف: ٢٨].
- ٢ : الصبر عن معصية الله بالإمساك عنها ، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في "طريق الهجرتين" عشرة أسباب تعين على الصبر عن المعصية ، خلاصتها : (العلم بقبح الذنب وأنه شر في نفسه ، والحياء من الله ، وقصد المحافظة على نعم الله فإن المعاصي تزيل النعم ، وخوف الله تعالى وخشية عقابه ، ومحبة الله تعالى فإن المحب الصادق لا يعصي من أحب ، والمحافظة على شرف النفس وزكائها وطهارتها لأن المعصية تدنسها ، وقوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها ، وقصر الأمل واليقين بسرعة انقضاء الحياة ومجانبة الفضول في الطعام والشراب والنوم والمخالطة وغيرها وترك ما لا يعني المرء ، قال : والعاشر هو الجامع لهذه الأسباب كلها : ثبات شجرة الإيمان في القلب فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتم وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر).
- ٣ : الصبر على المصائب المقدّرة ، قال الله تعالى : **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَـيْءٍ مِـنَ الْخَـوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِـنْ رَبِّهِـمْ وَرَحْمَـةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)** [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].
- اجتمعت أنواع الصبر كلها في قوله تعالى : **وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** [الطور: ٤٨] فحكم الله تعالى إما كوني وإما شرعي ؛ فالحكم الكوني هو القضاء والقدر ، والحكم الشرعي هو الأمر والنهي.
- الصبر عن المعاصي أفضل من الصبر على المصائب ، لأن المعاصي تكون باختيار العبد ، والمصائب لا اختيار له فيها.

حكم الصبر

- الصبرالواجب ، وهو الصبر على أداء الواجبات ، والصبر عن المحرمات.

- الصبر المستحب ، وهو الصبر على فعل المستحبات ، والصبر عن المكروهات.
- القدر الواجب من الصبر متفق عليه بين أهل العلم ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها ، والصبر عن اتباع أهواء النفس فيما نهى الله عنه).
- قال ابن القيم رحمه الله : (الصبر الواجب ثلاثة أنواع :

- أحدها : الصبر عن المحرمات.
- والثاني : الصبر على أداء الواجبات.
- والثالث : الصبر على المصائب التى لا صنع للعبد فيها كالأمراض والفقر وغيرها.

وأما الصبر المندوب فهو الصبر عن المكروهات والصبر على المستحبات والصبر على مقابلة الجانى بمثل فعله)ا.هـ.

- الرضا بالمصيبة قدر زائد على الصبر ؛ وقد اختلف في حكمه على قولين : واجب ومستحب.
- للرضا بعد القضاء سببان :

o ١ : اليقين بأن الله مستحق للرضا في جميع الأحوال ، وهذا رضا المحبة.

o ٢ : الرضا لعلم العبد بأن ما أصابه من قضاء الله هو خير له ، وهذا رضا حسن الظن بالله والتصديق بوعده.

- من ثواب الرضا عن الله أن يرضي الله عبده ، والله عليم بما يرضي عبده.

حاجة الداعية إلى الصبر

● من سنن الله تعالى أن يكون للدعاة إليه أعداء من المجرمين يبتلي بهم صدقهم ويقينهم قال الله تعالى: **وكذلك جعلنا لكل ن عدواً من الره وكفى بربك هاديـاً ونصـ أ** [الفرقان: ٣١].

● الداعية بحاجة إلى الهداية والنصر؛ فبالهداية يوفّق لسلوك سبيل الفلاح، وبالنصر يتغلّب على أعدائه.

● **وكفى بربك هادياً ونصـ أ** [الفرقان: ٣١] فيه حقيقة إيمانية يطمئنّ بها قلب الداعية فلا يخشى إلا الله ولا يصيبه وهن ولا حزن ولا خوف لوثوقه بهداية الله ونصره ما دامت دعوته لله على بصيرة.

● يجب على الداعية أن يصبر على ما يدعوا إليه من الحق وأن يصبر على ما يصيبه منه المشقة والأذى.

● وعد الله عباده المؤمنين بالنصر ووعده حق لا يتخلف قال تعالى: **إنا لننصـر رسـلنا والذين آمنوا ا ياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** [غافر: ٥١]، وقال: **وكان حقاً علينا نصـر ا ؤمن** [الروم: ٤٧].

تفسير سورة العصر

● العصر فيه قولان مشهوران:

o القول الأول: أنه الدهر، وقد ذكره البخاري في صحيحه عن الفراء وهو قول جمهور المفسرين.

o القول الثاني: أنه وقت العصر من اليوم، وهو مروي عن ابن عباس وقال به الحسن وقتادة.

o اختار ابن جرير أن الآية تشمل القولين لأن لفظ العصر يطلق على المعنيين إطلاقاً صحيحاً ولا دلالة على التخصيص، ولكل قول مناسبته الظاهرة.

● يقسم الله تعالى بما شاء من خلقه، والقسَم بالشيء دليل على تشريفه، وليس للمخلوق أن يقسم بغير الله تعالى.

• قوله تعالى: **إن الإنسان لفي خسر** [العصر: ٢] هذا هو جواب القسم، **الإنسان** [العصر: ٢] اسم جنس لجميع الإنس **لفي خسر** [العصر: ٢] كأنه منغمس فيه قد أحاط به الخسران من جميع جوانبه.

• أعظم الخسران أن يخسر الإنسان نفسه وأهله يوم القيامة ويخسر مقعده من الجنة، قال تعالى: **قل ا أعبد لصاً له دي (١٤) فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن ا اسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو ا سران ا ب** [الزمر: ١٤، ١٥] وقال تعالى: **ومن يكفر بالإ ان فقد حبط عمله وهو الآخرة من ا اسرين** [المائدة: ٥].

• في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا يدخلُ أحد ا نة إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شـكراً، ولا يـدخل النار أحد إلا أري مقعده من ا نة لو أحسن ليكون عليه حسرة**».

• لا ينجو الإنسان من هذا الخسران إلا بالأمور الأربعة المذكورة في السورة: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

• هذه الأمور الأربعة مترتبة بعضها على بعض فالإيمان أساس العمل الصالح، فلا يصلح العمل إلا بالإيمان، والتواصي بالحق هو من الأعمال الصالحة، وخُص بالذكر لأهميته، والتواصي بالصبر هو أيضاً من هو من التواصي بالحق؛ لأن الصبر المأمور به إما واجب وإما مستحب، والتواصي تواص بفعل الواجب أو فعل المستحب

• فصارت مرتبة الإيمان هي الأصل وينبني عليها العمل الصالح وينبي عليهما التواصي بالحق وينبي على ذلك كله التواصي بالصبر.

• لذلك جاء في الأثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

• من قام بهذه الأمور الأربعة كما يجب فقد سلم من الخسران، ومن قصّر فيها بما لا يخرجه من الإسلام فقد عرّض نفسه لشيء من الخسران، ومن خرج من الإسلام أحاط به الخسران.

• الناس في تحقيق هذه الأمور الأربعة على ثلاثة أقسام:

O القسم الأول: من لا يأتي بأصلها وهو الإيمان؛ وهم الكفار الخارجون عن دين الإسلام، وهؤلاء خسارتهم أعظم الخسارة، ويلتحق بهم من ارتدّ عن الدين بارتكاب ناقض من نواقض الإسلام والعياذ بالله، كما قال الله تعالى: **ولقد أوحي إليك وإ الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكونن من ا اسرين (٦٥) بل ا فاعبد وكـن من الشاكرين (٦٦)** [الزمر: ٦٥، ٦٦].

• القسم الثاني: من يأتي بهذه الأمور الأربعة كما أوجب الله؛ فهؤلاء هم المفلحون الناجون من الخسران، الفائزون بعظيم الثواب، وهم على درجات في تحقيقها بين محسن ومقتصد.

O القسم الثالث: من كان معه أصل الإيمان وأصل العمل الصالح لكنه يرتكب من المحرمات ويترك من الواجبات ما يستحق به العذاب، فهذا القسم يناله من الخسارة بقدر ما فرط فيه إلا أن يعفو الله عنه.

• قوله تعالى: **وَتَوَاصَوْا بِالْحَق** [العصر: ٣] التواصي هو أن يوصي بعضهم بعضاً، وهذا كما يدل على وجوب الدعوة بإيصاء الآخرين بالحق، يدل على وجوب قبول الوصية بالحق إذا وجهت إليه.

• الحق هو امتثال ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، وتصديق خبر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ فمن قام بذلك فهو قائم بالحق.

• التواصي بالصبر يشمل التواصي بالصبر على فعل المأمور، والتواصي بالصبر على ترك المحظور، والتواصي بالصبر على المصائب المقدرة؛ فيصبر ويُصبِّر إخوانه المسلمين.

• هذه السورة العظيمة تضمنت على وجازتها الدلالة على الدين كله لأن مبنى الدين على الأمر والنهي والخبر والقدَر؛ ففعل الأوامر وترك النواهي وتصديق الأخبار والإيمان بالقضاء والقدر هو الحق الذي يجب التواصي به والصبر على أدائه.

• إذا تأملت هذه السورة تأملاً حسناً علمت ما يحبه الله من عباده المؤمنين؛ فهو يحب منهم الإيمان والقيام بالأعمال الصالحة وأن يتآلفوا ويتوادوا ويتواسوا ويحب بعضهم لبعض الخير، فيتواصون بالحق وفعل ما يحبه الله ليكون بعضهم سبباً في ثواب بعض، ويتواصون بترك ما

حرم الله فيكون بعضهم سبباً في نجاة بعض، ويتواصون على الصبر فيكونون متواسين متآلفين متحابين.

- من عرف ذلك حق المعرفة عرف معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: « **والذي نفسي بيده لا تدخلون ا نة ح تؤمنوا ولا تؤمنون ح ابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه ابتم أفشوا السلام بينكم** ». رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

- إذا رأيت من نفسك سرورها وابتهاجها إذا رأت من يطيعُ الله عز وجل، واستياءها إذا رأت من يعصيه وتمنيها له العافية من معصيته؛ فذلك من دلائل صحة إيمانك وسلامة قلبك.

- أقبح ما يكون من الحسد أن يحسد المرء أخاه على قيامه بطاعة الله وأن يتمنى منه أن يقع في المعاصي ويحرمَ فضل الله عز وجل؛ فإن هذا من إخوان الشياطين والعياذ بالله، بل يخشى عليه أن يبتلى بما تمناه لأخيه المسلم.

- إذا قامت الأمة بهذه الأمور الأربعة (الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر) كانت كما يحب الله تعالى أن تكون، وكان الله لهم كما وعدهم، والله لا يخلف الميعاد.

- دلت هذه السورة على المسائل الأربع؛ **إلا الذين آمنوا** [العصر: ٣] الإيمان لا يكون إلا بعلم، **وعملوا الصا ات** [العصر: ٣] نص في المسألة الثانية وهي العمل بالعلم، **وتواصـوا با ق** [العصر: ٣] دلّ على المسألة الثالثة وهي الدعوة إليه، **وتواصوا بالصـ** [العصر: ٣] نصّ في المسألة الرابعة.

- الإقسام على أن من لم يأت بهذه المسائل الأربع فهو خاسر دليل على وجوبها.

قول الشافعي رحمه الله: (هَذِهِ السُّورَةُ لَو مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاّ هِيَ لَكَفَتْهُمْ)

ترجمة الإمام الشافعي رحمه الله تعالى

- الشافعي هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع وإليه نسبة الشافعي وهو من بني المطلب بن عبد مناف فهو قرشي مُطَّلِبي.

- قال تلميذه الربيع بن سليمان المرادي: (ولد الشافعي يوم مات أبو حنيفة رحمهما الله تعالى)، وكان ذلك سنة ١٥٠هـ، وطلب العلم وهو صبي، روى عنه تلميذه المزني أنه

قال: (حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت " الموطأ " وأنا ابن عشر)، وكان يقول: جعلت لذتي في العلم.

- كان وافر العقل، حادّ الذكاء، سريع الحفظ، جليل القدْر، صاحب فراسة وكياسة، وكان جميل الخِلقة؛ حتى قال المزني: لم أر أحسن وجهاً من الشافعي.
- توفي رحمه الله سنة ٢٠٤هـ، وقد عدّه الإمام أحمد المجددَ الثاني.
- في سيرته عبر ودروس وأعاجيب؛ فقد كان آية في الصبر على طلب العلم والتفقه في الدين، ولقد ابتلي بقلة الرزق فصبر، وله أشعار حسنة، وحِكَم مأثورة وأقوال جليلة مشهورة، ذكر النووي في مقدمة المجموع والذهبي في سير أعلام النبلاء طائفة حسنة منها.

قوله: (هَذِهِ السُّورَةُ لَو مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هِيَ لَكَفَتْهُمْ).

- لا أعرف مصدر هذه العبارة بهذا النص في كتب الشافعي لكنها مشهورة عنه بألفاظ مقاربة؛ فقد قال النووي في المجموع عن الشافعي أنه قال: (الناس في غفلة عن هذه السورة **وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)** [العصر: ١، ٢]).
- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وروي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: لو فكر الناس كلهم في سورة العصر لكفتهم. وهو كما قال).
- وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: (قال الشافعي، رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم).
- وقالَ ابْنُ القَيِّمِ رحمه الله في مفتاح دار السعادة: (قالَ الشافعي رَضِيَ اللهُ عنه: لو فَكَّرِ الناسُ كلُّهم في هذه السورةِ لكَفَتْهُم).
- قال ابن القيم: (وبيانُ ذلك أنّ الْمَراتِبَ أربَعٌ، وباستكمالِها يَحْصُلُ للشخْصِ غايةُ كمالِه: إحداها: معرفةُ الْحَقِّ، والثانيةُ: عَمَلُه به، والثالثةُ: تَعليمُه مَن لا يُحْسِنُه، والرابعةُ: صَبْرُه على تَعَلُّمِه والعَمَلِ به وتعليمِه، فذَكَرَ تعالى الْمَراتِبَ الأَرْبَعَ في هذه السورةِ).
- وهذه السورة بينت للمسلم منهاج النجاة من الخسران، فمن أخذ بأسباب النجاة نجا، ومن تركها هلك وخسر، فهي حجة بينة كافية.
- لعظيم ما دلت عليه هذه السورة كان من فقه الصحابة رضي الله عنهم كثرةُ قراءتها في

المجالس والتذكيرِ بها ففي معجم الطبراني وصحيح ابن حبان وشعب الإيمان للبيهقي من حديث حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أبي مدينة الدارمي رضي الله عنه وكانت له صحبة قال: (كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢] ثم يسلّم أحدهما على الآخر). وقد صححه الألباني رحمه الله.

قول البخاري رحمه الله: (بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ والعَمَلِ، والدّليلُ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فَبَدَأَ بِالعِلْمِ قَبْلَ القَولِ وَالعَمَلِ).

ترجمة الإمام البخاري رحمه الله

- البخاري: هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن بَرْدِزْبَه وهي كلمة بخارية تعني الزّرّاع كما ذكر ذلك الذهبي في السير.
- ولد سنة ١٩٤هـ، وكان والده وَرِعاً حريصاً على الكسب الطيب، ومات ومحمد صغير فنشأ يتيماً، وقال عن نفسه: (ألهمتُ حفظ الحديث وأنا في الكُتّاب). وقال: (فلما طعنت في ست عشرة سنة، كنت قد حفظت كتب ابن المبارك ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء، يعني أصحاب الرأي)
- قال البخاري: (كنت عند إسحاق بن راهويه، فقال بعض أصحابنا: لو جمعتم كتابا مختصرا لسنن النبي صلى الله عليه وسلم، فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع هذا الكتاب) يقصد صحيحه الذي هو أصح الكتب المصنفة.
- قال ابن أبي حاتم سألته: هل من دواء يشربه الرجل، فينتفع به للحفظ ؟ فقال: لا أعلم، ثم أقبل علي، وقال: (لا أعلم شيئا أنفعَ للحفظ من نهمة الرجل، ومداومة النظر).
- وكان صاحب ورع عظيم روي عنه أنه قال: (ما اغتبت أحدا قط منذ علمت أن الغيبة تضر أهلها).
- أوذي رحمه الله في آخر حياته وطرد من بلده بسبب كيد حسّاده، وجرت له محن، وصبر على بلاء كبير، قال عبد القدوس السمرقندي: جاء محمد إلى أقربائه بخرتنك، فسمعته

يدعو ليلة إذ فرغ من ورده: (اللهم إنه قد ضاقت علي الارض بما رحبت، فاقبضني إليك). فما تم الشهرُ حتى مات، وكان ذلك سنة ٢٥٦هـ.

قوله: (العلم قبل القول والعمل)

- هذا باب في كتاب العلم من صحيحه، وهذا الكلام نقله الشيخ بالمعنى وزاده توضيحاً ولعله كتبه من حفظه، ونص عبارة البخاري رحمه الله: (باب الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]؛ فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ).
- استدل بقول الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فلما بدأ بالعلم قبل القول والعمل كان ذلك دليلاً على تقديم العلم، والاستغفار قول، وهو أيضاً عمل لأنه عمل صالح.
- تقديم العلم على العمل يدل عليه العقل أيضاً فإن العمل بلا علم عمل على غير هدى، وما كان على غير هدى فإنه لا يقبل، فكان تقديم العلم على العمل واجباً.
- تقرير هذا الأمر مهم في تفهيم الناس العقيدة الصحيحة، فإن بعض من يقع في الشرك في العبادة يعمل أعمالاً من الصلوات والصدقات والحج وغيرها فيرى أنه قد أدّى ما عليه، ويستدل بقيامه بهذه الأعمال على أنه على الحق؛ فأراد الشيخ أن يبين أن العلم بالهدى مقدّم، وأن الأعمال إذا لم تكن مبينة على الهدى فإنها باطلة مهما بلغت كثرتها وظن صاحبها أنها تنفعه.
- من يقوم بهذه الأعمال ويشرك في عبادة الله فيذبح لغير الله ويدعو غير الله ويقدم النذور لغير الله فهو مشرك كافر بالله تعالى خارج من دين الإسلام وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم.
- لا ينفع مع الشرك عمل لقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]؛ فلهذا أورد الشيخ رحمه الله قول البخاري.

الفرق بين العالم الرباني وعالم السوء

- العالم الرباني يقول بما يدل عليه الدليل الصحيح ويقصد النصح للناس؛ فيبين الحق لهم كما دلّ عليه الدليل، ويعلمهم ما يحتاجون إليه من العلم والهدى.

○ وعالم السوء يفتي بهواه، ويَلبس الحق بالباطل، ويدلِّس على الناس، ويسكت عن بيان الحق عند وجوب بيانه؛ فهو خطر وفتنة يجب الحذر منها.

الدرس الرابع : شرح المسائل الثلاث (١/٢)

قال رحمه الله:

[المسائل الثلاث]

اعْلَمْ رَحِمكَ اللهُ : أَنَّهُ يَجبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ تَعَلُّمُ ثَلاَثِ هذِهِ المَسَائِلِ والعَمَلُ بِهِنَّ :

الأُولَى : أَنّ اللهَ خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا وَلَمْ يَتْرُكْنا هَمَلاً ؛ بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ، والدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : **إنّا أرسلْنا إليكُم رسولاً شاهداً عليكُم كما أرسلْنا إلى فرعونَ رسولاً (١٥) فَعصى فرعونُ الرسولَ فَأخذْناه أخذاً وبيلاً** [المزمل: ١٤- ١٥].

الثّانِيَةُ : أَنّ اللهَ لاَ يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لاَ نَبيٌّ مُرْسَلٌ وَلا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا غَيرُهُمَا، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى : **وأن ا َساجد للّه فَلا تدعوا مع ا ـ أحداً** [الجن: ١٨].

الثّالِثَةُ : أَنّ مَنْ أَطَاعَ الرّسُولَ وَوَحّدَ اللهَ لاَ يَجُوزُ لَهُ مُوَالاَةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَو كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **لا تجد قوماً يؤمنونَ با ـ واليومِ الآخرِ يوآدونَ من حاد ا َ ورسوله ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانهم أو عش تهم أولئك كَتب قُلو م الإ انَ وأيدهم بروحٍ منه ويدخلُهم جنات تجري من تحتها الأ َار خالدين فيها رضي ا ُ عنهم ورضوا عنه أولئك حزب ا ـ ألا إن حزب ا ـ هم ا ُفْلحونَ** [المجادلة: ٢٢].

عناصر الدرس:

- بيان مقاصد رسالة المسائل الثلاث
- شرح قوله: (اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم ثلاث هذه المسائل)
- شرح المسألة الأولى وهي قوله: (الأُولَى: أَنّ اللهَ خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا وَلَمْ يَتْرُكْنا هَمَلاً؛ بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ..)
  - إفراد الله تعالى بالخلق والرزق
  - قوله: (وَلَمْ يَتْرُكْنا هَمَلاً...)
  - قوله: (بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ)

o قوله: (والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: إنا أرسلْنا إليكُم رسولاً شاهداً عليكُم كما أرسلْنا إلى فرعونَ رسولاً (١٥) فَعصى فرعونُ الرسولَ فَأخذْناه أخذاً وبيلاً [المزمل:١٥، ١٦]).

- شرح قوله: (الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لاَ نَبيٌّ مُرْسَلٌ وَلا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا غيرُهُمَا، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالى: وأنَّ الْمساجد للّه فَلا تدعوا مــع الـ أحداً [الجن:١٨]).

o تفسير قول الله تعالى: وأن ا ساجد فلا تدعو مع ا أحدا [الجن:١٨].

بيان مقاصد رسالة المسائل الثلاث:

- هذه المسائل الثلاث مهمة في تأصيل فهم التوحيد وتقرير الاحتجاج له، وهي مبنية على الشهادتين ولوازمهما.

o المسألة الأولى بعضها في تقرير توحيد الربوبية وبعضها في تقرير شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

o والمسألة الثانية في تقرير وجوب توحيد العبادة.

o والمسألة الثالثة في بيان أن من لوازم التوحيد البراءة من الشرك وأهله.

قوله: (الأُولَى: أَنّ اللهَ خَلَقَنَا وَرَزَقنَا وَلَمْ يَتْرُكْنا هَمَلاً؛ بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ).

- تضمنت هذه المسألةُ ثلاثة أمور:
  - o **الأمر الأول:** أن الله خلقنا ورزقنا، وهذا من توحيد الربوبية، ولا ينكره إلا ملحد.
  - o **الأمر الثا :** أن الله لم يتركنا هملاً، وهذا أمر لا يمكن لمنتسب إلى الإسلام أن ينكره، وهذا لبيان حكمة الله تعالى وتقرير مبدأ الرسالة والبعث والجزاء.
  - o **الأمر الثالث:** أن الله تعالى أرسل إلينا رسولاً من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، وهذا هو مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- الأمر الثالث مترتّب على المقدمتين الأولى والثانية، ومن أقر بالرسالة لزمه الإقرار بمقتضاها، وهو أن من أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه دخل النار.
- من أقر بهذه الأمور الثلاثة لزمه الإقرار بوجوب التوحيد، ولذلك قدّم رحمه الله هذه المسألة على المسألة الثانية.
- هذه المقدمات التي رتّب بعضها على بعض بعبارة وجيزه سهلة تتقبلها النفوس هي مدخل مهم للاحتجاج لوجوب التوحيد.
  - o بيان ذلك: أن أعظم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو إفراد الله تعالى بالعبادة؛ فمن عصاه في أعظم ما أمر به فهو من أهل النار.
  - o من ادّعى أنه يطيعه في أداء بعض الواجبات والانتهاء عن بعض المحرمات، وهو يعصيه في أعظم الأمور وأهمها، وما جاهد عليه الكفار وبين للناس أنه الفارقُ بين الإسلام والكفر، فهو عاصٍ للرسول صلى الله عليه وسلم، وطاعته له في غير هذا الأمر لا تنفعه ما دام أنه لم يطعه في أهم الأمور وأصل الإسلام الذي من أجله بعثه.
  - o ثم ذكر الدليل على ذلك وهو قول الله تعالى: **إنا أرسلْنا إليكُم رسولًا شاهدًا علـيكُم كَما أرسلْنا إلى فرعونَ رسولًا (١٥) فَعصى فرعونُ الرسولَ فَأخذْناه أخذًا وبيلًا** [المزمل: ١٤، ١٥] ليبين للقارئ أن تلقي العقيدة يجب أن يكون مبنياً على الدليل، وأنه لم يأت للمخاطب بكلام من تلقاء نفسه، بل بينه له ما يدل عليه الدليل الصحيح، وهذا من سمات العالم الرباني.

• هذا الترتيب يعرّفك بخبرة الشيخ رحمه الله وحسن معرفته بتقرير مسائل التوحيد، فبدأ بالأمور البينة السهلة المتفق عليها حتى مع من يخالف في بعض مسائل توحيد العبادة.

O البدء بالأمور المتفق عليها طريقة حسنة في الإقناع والإلزام بالحجة.

• الإقرار بأن الله خلقنا ورزقنا مستقرّ في غالب النفوس وتقتضيه الفطرة الصحيحة، لا يخالف فيه إلا ملحد.

O الشيخ رحمه الله كتب هذه الرسالة لأناس يعلم أنهم يقرون بتوحيد الربوبية، فبدأ بالأمر المتفق عليه.

قوله: الثانية: وهي أَنّ اللهَ لاَ يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لاَ نَبيٌّ مُرْسَلٌ وَلا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا غَيرُهُمَا..)

• بعد أن قرَّر الشيخ المسألة الأولى بأسلوب قريب من أفهام المخاطبين، وافٍ بأركان الحجة العلمية انتقل إلى تقرير المسألة الثانية وهي مسألة وجوب التوحيد الذي هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله.

• تفطّن إلى حسن تعبير الشيخ في تقريره هذه المسألة بما دلّت عليه شهادة أن لا إله إلا الله.

• شهادة أن لا إله إلا الله تقتضي أن لا يعبد مع الله أحدٌ من خَلْقه مهما كان لا نبي مرسل ولا ملك مقرب؛ فالعبادة حق الله وحده.

• قوله: (**إن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته**) هذه العبارة المصاغة بعناية لا يستطيع المخالف في مسائل التوحيد إنكارها، وإن خالف في تسمية بعض الأمور عبادة.

• كثر الشرك في زمان الشيخ رحمه الله وانتشرت مظاهره من دعاء الصالحين وتقديم النذور للقبور والذبح لغير الله وغيرها، وهؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال منهم من يصلي ويصوم ويحج ويقرأ القرآن ويظن أنه مسلم، وفي بعض البلدان اليوم من يفعل مثلهم.

• إذا قلت لهؤلاء: (إن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته) فإنهم لا ينازعونك في هذا الأمر، فاختار الشيخ التعبير بما هو أقرب إلى القبول.

• إذا أقروا بهذا لزمهم وجوب التوحيد وإفراد الله بالعبادة وتحريم الشرك والإقرارُ بأنه منافٍ للإسلام مناقض لمقتضى شهادة أن لا إله إلا الله.

• مكث الشيخ سنوات طويلة وعمراً مديداً وهو يدعو إلى التوحيد ويناظر المجادلين فيه ويكشف الشبه ويقرر الحجج ويدعو العامة والعلماء والأمراء، ويعلِّم طلاب العلم مسائل التوحيد ويقررها لهم من وجوه كثيرة حتى يفهموها؛ فهو صاحب خبرة قيمة في هذا الباب.

• حصل للشيخ مع المخالفين في مسائل توحيد العبادة مناظرات ومخاصمات وحروب وفتن ومحن استمرت سنوات طويلة، وأكثر من كان يجادله ويناظره ويناصبه العداء علماء السوء وأهل البغي والحسد.

• كان الشيخ رحمه الله يخشى على العامة من فتنة علماء السوء فكان يجتهد في توضيح مسائل التوحيد لهم بأسلوب ميسر قريب من أفهامهم، وينتقي لهم العبارات بعناية بالغة، وقد فتح الله له في هذا الباب فتحاً عظيماً، ونفع به نفعاً كبيراً.

قوله: (الثَّالِثَةُ: أَنّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللهَ لاَ يَجُوزُ لَهُ مُوَالاَةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَو كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ)

• هذه المسألة هي من واجبات تحقيق الشهادتين، فمن أقر بالشهادتين إقراراً صحيحاً وعرف معناهما معرفة صحيحة لزمه أن يقرّ بالمسألة الثالثة، وهي البراءة من الشرك وأهله.

• من أحبَّ الله ورسوله لزمه أن يحب من يحبه الله ورسوله، وأن يبغض من يبغضه الله ورسوله.

• هذه المسائل الثلاث ترجع إلى معاني الشهادتين ولوازمهما؛ فمن فقه معنى الشهادتين فقهاً صحيحاً عرف هذه المسائل الثلاث.

• هذا عرض موجز لبيان مقاصد هذه الرسالة، وسبب ترتيبها على هذا النحو.

• ينبغي لطالب العلم إذا أراد دراسة باب من أبواب العلم أن يتعرف على المقصد العام للباب قبل أن يدخل في تفاصيل عبارات المتن؛ فإنه إذا فَهِمَهُ سهل عليه بعد ذلك فهم جُمَلِه وفق هذا المقصد العام.

شرح عبارات المتن

قوله: (اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم ثلاث هذه المسائل)

- نصّه على كل مسلم ومسلمة هو من باب التأكيد واسترعاء الانتباه، وليعلم جميع المكلفين أنهم معنيون بهذا الواجب، وسواءٌ في ذلك الذكر والأنثى.
- تعلم هذه المسائلِ واجبٌ لأنها من معنى الشهادتين وواجباتهما، ومن عرف معنى الشهادتين معرفة صحيحة فقد عرف هذه المسائل الثلاث، وإن لم يقرأ هذه الرسالة.
- تنويع العبارات وعرض الحجج من أكثر من وجه مما ينبغي للداعية أن يعتني به، خصوصاً إذا كان يخاطب قوماً ألفوا المنكر واعتادوه.
- بعض الشُّبَه قد تَعْلَق ببعض القلوب ويصعب تخلصها منها، فعرض الحق وتقريره بأكثر من طريقة يفيد المهتدي زيادة اليقين، ويفيد من في قلبه شبهة في كشف شبهته.
- تنويع الاحتجاج من الهدي القرآني والنبوي، ومن تدبر القرآن والسنة وجد لذلك أمثلة كثيرة ولا سيما في المسائل الكبار كمسألة التوحيد والبعث والجزاء والنبوة وأن القرآن حق وغيرها من المسائل الكبار تجد تقريرها في القرآن والسنة من وجوه كثيرة.
- بعض العلماء إذا أجابوا عن بعض الشبه يجيبون عنها من وجوه كثيرة لأنّ كثرة الأدلة وتنوعها تورث اليقين في النفس وتزيل ما يلقيه الشيطان من الشبه.

المسألة الأولى وهي قوله: (الأُولَى: أَنّ اللهَ خَلَقَنَا وَرَزَقنَا وَلَمْ يَتْرُكْنا هَمَلاً؛ بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ..)

إفراد الله تعالى بالخلق والرزق

- اعتقاد أن الله خلقنا ورزقنا فرض واجب، وهو من توحيد الربوبية.
  - التوحيد على ثلاثة أقسام:
  - **القسم الأول:** توحيد الربوبية، وهو إفراد الله تعالى بأفعاله من الخلق والملك والتدبير والرّزق وغيرها.
  - **والقسم الثا :** توحيد الألوهية، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة.

o **والقسم الثالث:** توحيد الأسماء والصفات، وهو إفراد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

- اعتقاد أن الله هو الخالق الرازق من توحيد الربوبية، ومن أنكر ذلك فهو كافر كفراً أكبر والعياذ بالله.

- الأدلة على أن الله خلقنا ورزقنا كثيرة منها قوله تعالى: **الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون** [الروم: ٤٠]، وقوله: **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** [البقرة: ٢١]، وقوله: **والله خلقكم وما تعملون** [الصافات: ٩٦]، وقال تعالى في الرزق: **إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** [الذاريات: ٥٨].

- أشار الله تعالى إلى الدليل العقلي على تفرده بالخلق بطريقة السبر والتقسيم وهو من الأدلة العقلية الملزمة في قوله تعالى: **أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون (٣٥) أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون** [الطور: ٣٥، ٣٦].

- لا يخلو الأمر من واحدة من ثلاث حالاتٍ بالتقسيم الصحيح: إما خُلقوا من غير شيء، وإما خَلقوا أنفسهم، وإما خَلَقَهم خالقٌ غيرُ أنفسهم.

o لا شك أن القسمين الأولين باطلان، يدرك بطلانهما كل عاقل؛ والثالث: هو الحق الذي لا شك فيه، وهو جل وعلا خالقهم المستحق منهم أن يعبدوه وحده جل وعلا.

- قال جبير بن مطعم رضي الله عنه: أتيت المدينة في فداء بدر (وفي رواية: فداء المشركين) قال: وهو يومئذ مشرك قال: (فدخلت المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة المغرب فقرأ فيها بـ [الطُّورِ] فلما بلغ هذه الآية: **أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون (٣٥) أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون (٣٦) أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون (٣٧) أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين (٣٨)** [الطور: ٣٥- ٣٨] كاد قلبي أن يطير)، وفي رواية: (فكأنما صُدِّعَ قلبي لقراءة القرآن) رواه أبو داوود الطيالسي وأحمدُ وأصله في الصحيحين وفيهما أنه قال: (وذلك أولَ ما وقر الإيمان في قلبي).

- من أسماء الله الحسنى "الخالق" و"الخلاق".

- إذا أحسن العبد التفكر في اسم الخالق جل وعلا امتلأ قلبه يقيناً وتعظيماً لله جل وعلا.
- كثرة مخلوقات الله وعظمة بعضها واتساعها من أظهر الأدلّة على عظمته جلّ وعلا وسعة علمه وقدرته.
- إتقان الخلق وإحكامه دليل على حكمة الله تعالى وعظيم قدرته **ما ترى خلق الر ن من تفاوت** [الملك: ٣].
- سير المخلوقات بنظام دقيق عجيب دليل على علم الله وحكمته وحسن تدبيره.
- إنشاء هذه المخلوقات العجيبة على غير مثال سابق دليل على عظمة الله وكمال غناه وبديع صنعه.
- الله تعالى هو بديع السموات والأرض الذي ابتدع خلقها العجيب، ولم يكتسب معرفة خلقها من أحد، وذلك لكمال علمه وقدرته وإحاطته.
- في عوالم الأفلاكِ والملائكةِ والإنس والجن والحيوانات والنباتات والرياح والسحاب والمياه وغيرها من العوالم الكثيرة والعجيبة ما تحار له الألباب، وفي كل عالَم من هذه العوالم أمم وأصناف لا يحصيها إلا من خلقها.
- في كل مخلوق من هذه المخلوقات دقائق وعجائب في تفاصيل خلقه تبهر العقول، فتستدل بها على حكمة خالقها جل وعلا وسعة علمه، وعظيم قدرته، فتبارك الله رب العالمين.
- دليل الخلق من أعظم وأظهر أدلة الربوبية **أفمن لق كمن لا لق أفلا تذكرون** [النحل: ١٧].
- الله تعالى هو الذي خلق كل شيء، ولا يستطيع أحد أن يخلق كخلقه جل وعلا، ولقد تحدى المشركين أن يخلقوا هم وآلهتهم ذباباً فلم يستطيعوا، بل تحداهم أن يسترجعوا ما يأخذه منهم الذباب!، وذلك غاية ما يكون من الضعف والذل؛ فكيف يدعون لما لا يخلق حقاً في العبادة؟!!
- الذي لا يخلق شيئاً لا يستحق أن يكون إلهاً، بل الإله الحق هو ربنا الذي انفرد بالخلق، فلذلك يجب إفراده بالعبادة، كما قال الله تعالى: **أيشركُونَ ما لَا يخلُق شيئًا وهم يخلَقُونَ** [الأعراف: ١٩١].

- الإقرار بأن الله تعالى هو الخالق الرازق لم يخالف فيه إلا الملاحدةُ الذين ينكرون وجود الله تعالى، والمجوسُ الذين يزعمون أن للكون خالقين النور والظلمة.
- كان مشركو العرب يقرون بأن الله هو الخالق الرازق ومع ذلك لم يكونوا مسلمين لأنهم لم يخلصوا العبادة لله عز وجل ولم يطيعوا الرسول، قال الله تعالى: **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون** [العنكبوت: ٦١].
- من أقرّ بأن الله تعالى هو الخالق الرازق ولم يخلص العبادة لله تعالى فهو مشرك كافر متوعّد بهذا العذاب الأليم.

قوله: (وَلَمْ يَتْرُكْنا هَمَلاً...)

- (همَلا) أي: مهمَلين بلا أمر ولا نهي ولا غاية.
- قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قول الله تعالى: **أيحسب الإنسانُ أنْ يترك سدًى** [القيامة: ٣٦]، قال: هملاً، رواه ابن جرير وغيره.
- أخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله تعالى: **أنْ يترك سدًى** [القيامة: ٣٦]، قال: أن يُهمل.
- قال ابن جرير: (وقوله: **أيحسب الإنسانُ أنْ يترك سدًى** [القيامة: ٣٦]، يقول تعالى ذكره: أيظنّ هذا الإنسان الكافر بالله أن يترك هملا لا يؤمر ولا ينهى، ولا يُتَعَبّد بعبادة).
- العرب تقول: إبلٌ هَمَل وَهَمْلَى إذا كانت مهملة مسيبة ليس لها راعٍ يرعاها.
- وهذا كما قال تعالى: **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون (١١٥) فتعالى الله الملك الحق (١١٦)** [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].
- الله تعالى يتنزّه ويتعالى عن أن يخلق الخلق عبثاً ويتركهم هملاً، كيف يكون ذلك وهو الحكيم الخبير؟!!
- خلقنا الله لغاية عظيمة بينها الله تعالى بقوله: **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (٥٦) ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أنْ يطعمون (٥٧) إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين (٥٨)** [الذاريات: ٥٦- ٥٨].
- بيّن الله لنا أنه خلقنا لعبادته، وبيّن لنا كيف نعبده؛ وذلك بطاعة الرسل الذين أرسلهم

إلينا فمن أطاعهم فقد عبد الله كما يحب الله، ومن عصاهم فقد استحق العذاب لأنه لم يمتثل الأمر الذي خلق لأجله.

قوله: (بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ)

- (بل) إذا تقدمها نفي فهي لتقرير هذا النفي وتأكيده، ويكون ما بعدها بيان وتوجيه يعرف به صحة النفي السابق، وهذا كما في قوله تعالى عن عيسى عليه السلام: **وما قتلوه يقينًا (١٥٧) بلْ رفعه الله إليه** [النساء: ١٥٧، ١٥٨]؛ فإثبات رفع عيسى عليه السلام بيان لصحة النفي السابق وهو أنه لم يقتل.
- (ولم يتركنا هملا، بل أرسل إلينا رسولاً): رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم تؤكد صحة أننا لم نُترك هملاً.
- هذا الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار.
- قال الله تعالى: **ومن يطع ا ـ ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذَلك الْفوز الْعظيم (١٣) ومن يعصِ ا ـ ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارًا خالدًا فيها وله عذَاب مه** [النساء: ١٣، ١٤].
- طاعة الرسول طاعة لله تعالى، قال الله تعالى: **من يطعِ الرسولَ فقَد أطَاع الله ومـن تولى فَما أرسلْناك عليهم حفيظًا** [النساء: ٨٠].
- الناس في شأن الرسول قسمان: مطيع ومتولي، ومن صفات العصاة اللازمة أنهم متولّون متعدون لحدود الله عز وجل.
- من أصول تقرير وجوب التوحيد: بيان وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن أعظم ما جاءت به الرسل: توحيد الله عز وجل.
- من أقر برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم لزمه تصديقه فيما يخبر به وطاعته فيما يأمر به واجتناب ما ينهى عنه لأن هذا هو معنى الإيمان بالرسول.
- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **والذي نفْـس محمد بيده لا يسمع أحد من هذه الأمّة، يهودي ولا نصرا وت و يـؤمن بالـذي أرسلت به إلا كانَ من أصحابِ النار** ». رواه مسلم.

قوله: (والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً (١٥) فعصى فرعونُ الرسولَ فأخذناه أخذاً وبيلاً** [المزمل: ١٥، ١٦]).

- **إنا** الضمير عائد إلى الله عز وجل، والضمير إذا كان عائداً إلى فرد وصيغ بصيغة الجمع فهو للتعظيم.
- **أرسلنا** أي بعثناه إليكم برسالة يؤديها، فافقهوا معنى هذه الرسالة وامتثلوا ما فيها.
- **شاهداً عليكم** كل رسول شهيد على أمته، وسيأتي النبي صلى الله عليه وسلم شهيداً على أمته يوم القيامة في مشهد عظيم وصفه الله بقوله: **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا (٤١) يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثًا** [النساء: ٤١، ٤٢]؛ ففي هذه الآية وعيد شديد لمن عصى الرسول.
- شهادة الرسول على من كانوا في حياته بما رأى منهم، وعلى من بعده بما ترك لهم، كما قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام: **وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيءٍ شهيد** [المائدة: ١١٧].
- وقال النبي صلى الله عليه وسلم: « **قد تركتكم على البيضاءِ ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك** ». رواه أحمد وغيره من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.
- **كما أرسلنا إلى فرعونَ رسولاً** [المزمل: ١٥]، وهو موسى كليم الله صلى الله عليه وسلم.
- **فعصى فرعونُ الرسولَ** [المزمل: ١٦] لم يقل فعصاه فرعون، وأعاد ذكر لفظ الرسول، لفائدة بلاغية لطيفة وهي بيان ترتب الحكم على الوصف لا على الشخص.
  - استحقاق فرعون للعذاب هو لأجل أنه عصى من أرسله الله عز وجل، وليس لأجل كون الرسول هو موسى، بل لو أرسل إليه غير موسى فعصاه لاستحق العذاب أيضاً.
- **فأخذناه أخذاً وبيلاً** [المزمل: ١٦] أي فعذبناه عذاباً شديداً ثقيلاً متتابعاً كما يتتابع الوابل من المطر قال ابن جرير رحمه الله: (العرب تقول لمن تتابع عليه الشرّ: لقد أوبل عليه).
  - عبّر بالأخذ لبيان أنه لا يفلت من هذا العذاب؛ فأخذه جل وعلا عند الغرق هو

وجنوده فلم يفلتهم **مما خطيئاتهم أغْرِقُوا فَـأُدخلُوا نـارًا** [نوح: ٢٥]، ذهبت أجسادهم للغرق، وأرواحهم للحرق، بسبب خطيئاتهم وطغيانهم.

• وهم في البرزخ يعذبون كم قال تعالى: **النار يعرضونَ علَيها غُدوا وعشيا ويوم تقُـوم الساعةُ أدخلُوا آلَ فرعونَ أشد الْعذَابِ** [غافر: ٤٦].

o من يعصي الرسول من هذه الأمة فإنه مستحق للعذاب الوبيل؛ نعوذ بالله من معصية الرسول.

قوله: (الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا غَيرُهُمَا، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالى: وأَنَّ المَساجد للّه فَلاَ تدعوا مع الله أحداً [الجن: ١٨]).

• الله تعالى لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته لا نبي مرسل ولا ملك مقرب.، بل توعد من أشرك به أحداً منهم وعيداً شديداً، بل توعد الرسل أنفسهم أنهم إن أشركوا أحبط أعمالهم وجعلهم من الخاسرين.

• قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: **ولَقَد أُوحي إِلَيك وإِلَى الذين من قَبلك لَئن أَشركْت لَيحبطَن عملُك ولَتكُونن من الْخاسرين (٦٥) بلِ اللـه فَاعبـد وكُـن مـن الشاكرين (٦٦)** [الزمر: ٦٥، ٦٦].

o **بل الله فاعبد** أي لا تعبد إلا الله، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر في لسان العرب، فالعبادة حق لله وحده.

• وقال تعالى: **وإِذْ قَالَ الله يا عيسى ابن مريم أَأَنت قُلْت للناسِ اتخذُونِي وأُمي إِلَهينِ من دون الله قَالَ سبحانك ما يكُونُ لي أَنْ أَقُولَ ما لَيس لي بِحق** [المائدة: ١١٦].

• وقال تعالى: **ولَا يأْمركُم أَنْ تتخذُوا الْملَائكَةَ والنبِيين أَربابا أَيأْمركُم بِالْكُفْرِ بعـد إِذْ أَنتم مسلمونَ** [آل عمران: ٨٠].

• وقال تعالى عن الملائكة: **بلْ عباد مكْرمونَ (٢٦) لَا يسبِقُونه بِالْقَولِ وهـم بِـأَمره يعملُونَ (٢٧) يعلَم ما بين أَيديهِم وما خلْفَهم ولَا يشفَعونَ إِلَّا لمنِ ارتضى وهم من خشيته مشفقُونَ (٢٨) ومن يقُلْ منهم إِني إِلَه من دونِه فَذَلك نجزِيه جهنم كَذَلك نجزِي الظالمين (٢٩)** [الأنبياء: ٢٦- ٢٩].

• لعظيم جرم الشرك فإن الله لا يغفره كما قال الله تعالى: **إن الله لا يغفر أنْ يشرك بِـه ويغفر ما دونَ ذَلك لمن يشاءُ ومن يشرك بِالله فَقَد ضل ضلالًا بعيدًا** [النساء: ١١٦].

• إذا كان أشرف الخلق وهم الأنبياء والملائكة ليس لهم نصيب من العبادة، بل يَفْرَقون فَرَقاً شديداً من أن يُدَّعى فيهم شيء من خصائص الله تعالى، ويغضبون غضباً شديداً على من يصنع ذلك، فكيف يدعونه لأنفسهم.

• في سنن أبي داوود من حديث جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أعرابيٌّ فقال يا رسول الله: جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام فاستسق الله لنا؛ فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك!، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **و لك أتدري ما تقول!** » وسبَّح رسول الله صلى الله عليه وسلم فما زال يسبِّح حتى عُرِف ذلك في وجوه أصحابِه.

ثم قال: « **و لك إنه لا يستشفع با على أحد من خلقه، شأن ا أعظم من ذلك** ».

ولما قال له رجل: (ما شاء الله وشئت) أنكر عليه وقال له: « **أجعلت ندا؟!!** »

• العبادة حق لله تعالى وحده ليس لأحد فيها حق كائناً من كان.

• إذا تقرر هذا فإن ما يفعله الذين يذبحون لغير الله من الأولياء والجن وغيرهم ويقدمون لهم النذور ويسألونهم الحوائج أولى بأن يكونوا من المشركين.

• قال الشيخ رحمه الله في كتابه كشف الشبهات: (إذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد) هو الشرك الذي نزل فيه القرآن وقاتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم- الناس عليه، فاعلم أن **شرك الأول أخفّ من شرك أهل زماننا بأمرين:**

أحد ا: أن الأولين يشركون ويدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله في الرخاء، وأما في الشدة فيخلصون لله الدعاء. كما قال تعالى: **وإذَا مسكُم الضر في الْبحرِ ضل مـن تدعونَ إلا إِياه فَلما نجاكُم إِلَى الْبر أعرضتم وكَانَ الْإِنسانُ كَفُورًا** [الإسراء: ٦٧].

وقوله: **قُلْ أرأيتكُم إنْ أتاكُم عذَاب اللَّه أو أتتكُم السّاعةُ أغَير الله تدعونَ إنْ كُنـتم صادق (٤٠) بلْ إِياه تدعونَ فَيكْشف ما تدعونَ إِلَيه إنْ شاءَ وتنسونَ ما تشـركُونَ** [الأنعام: ٤٠، ٤١].

وقوله: **وإذَا مس الْإنسانَ ضر دعا ربه منِيبًا إِلَيه** [الزمر: ٨]، إلى قوله: **قُـلْ تمتـع بِكُفْرِك قَليلًا إنك من أصحابِ النار** [الزمر: ٨].

وقوله: **وإذَا غَشيهم موج كَالظلَل دعوا الله مخلصـ له الدين** [لقمان: ٣٢].

فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه، وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعون الله ويدعون غيره في الرخاء، وأما في الضراء والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له وينسون ساداتهم، تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين، ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهما راسخا، والله المستعان.

الأمر الثا : أن الأولين يدعون مع الله أناسا مقربين عند الله. إما أنبياء، وإما أولياء، وإما ملائكة، أو يدعون أشجارا أو أحجارا مطيعة لله ليست عاصية.

وأهل زماننا يدعون مع الله أناسا من أفسق الناس، والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك.

والذي يعتقد في الصالح أو الذي لا يعصي مثل الخشب والحجر أهون ممن يعتقد فيمن يُشاهد فسقه وفساده ويَشهد به) ا.هـ

قوله: (وَالدّلِيلُ قَولُهُ تَعَالى: **وأن ا َساجد لله فَلا تدعوا مع ا ِ أحداً** [الجن: ١٨]).

المساجد فيها ثلاثة أقوال:

- **القول الأول:** هي مواضع السجود من جسد الإنسان لأنها المساجد التي يسجد بها وهي (لله) لأن الله هو الذي خلقها فلا يجوز أن تعبد هذه المساجد إلا الله، وهذا القول مروي عن سعيد بن جبير والربيع بن أنس البكري وذكره الفراء وجهاً في التفسير، وقال به الزجاج.
- **القول الثاني:** المساجد مصدر كالمضارب فهي بمعنى السجود يقال سجدت سجوداً ومسجداً ومساجد، وهذا قول ابن قتيبة رحمه الله.
- **القول الثالث:** المساجد مواضع الصلاة التي يصلى فيها ويدعى فيها فهي لله لا يجوز أن يشرك مع الله أحد، وهذا قول جمهور المفسرين لأنه المعنى المتبادر لهذا اللفظ والمعهود في القرآن.

- لَمَّا نزلت هذه الآية **وأن ا ساجد فلا تدعوا مـع ا أحـداً** [الجن: ١٨] لم يكن في الأرض إلا مسجدان معروفان: المسجد الحرام والمسجد الأقصى وهما معظمان عند العرب وعند أهل الكتاب تعظيماً كبيراً، ولهما شأن عظيم، وجمعهما على مساجد يفيد التعظيم أيضاً.
- كونُ هذه المساجد لله لا ينازع فيه أحد، فإن الأصنام محدَثة في المسجد الحرام لم تكن فيه، وقد بُنيت هذه المساجد لله لا للأصنام، فلا يجوز أن يدعى فيها غيره.
- قال ابن جرير رحمه الله في تفسيرها: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: **قُلْ أُوحي إلَي أنه استمع نفَر من الْجِن** [الجن: ١] **وأن الْمساجِد لله فَلا تـدعوا مع الله أحـدًا** [الجن: ١٨] أيها الناس [الجن: ١٨] ولا تشركوا به فيها شيئا، ولكن أفردوا له التوحيد، وأخلصوا له العبادة).

الدرس الخامس: شرح المسائل الثلاث (٢/٢)

قال رحمه الله:

(الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللهَ لاَ يَجُوزُ لَهُ مُوَالاَةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَو كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى: **لا تَجِدُ قَوماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ يُوَآدونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلو كَانُوا آبَاءَهُمْ أَو أَبْنَآءَهُمْ أَو إِخْوَانَهُمْ أَو عَشِيرَتَهُمْ أُولِئَكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَناتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولِئَكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِن حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** [المجادلة: ٢٢]).

عناصر الدرس:

- بيان مناسبة المسألة الثالثة للمسألتين قبلها.
- أسباب البراءة من المشركين.
- مقاصد البراءة من الشرك وأهله.
- غاية البراءة من المشركين.
- ميزات البراءة من الشرك في الإسلام.
- معنى الموالاة.
- معنى اتخاذ الكفار أولياء.
- تفسير قول الله تعالى: **إلا أن تتقوا منهم تقاة** [آل عمران: ٢٨].
- درجات الكفار.
- حكم موالاة الكفار.
- سد الذرائع المفضية إلى موالاة الكفار.
- أقسام المسلمين في البراءة من الكافرين.
- أحكام معاملة الكفار.
- حكم تهنئة الكفار بأعيادهم.

بيان مناسبة المسألة الثالثة للمسألتين قبلها:

- قوله: (**من أطاع الرسول**) هذا هو مقتضى المسألة الأولى من المسائل الثلاث التي ذكرها المؤلف رحمه الله.
  - وقوله: (**ووحد الله**) هذا هو مقتضى المسألة الثانية.
- أي إذا أتيت بما وجب عليك في المسألة الأولى التي سبق بيانها، وأتيت بما وجب عليك في المسألة الثانية فاعلم أنه لا يجوز لك أن توالي من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب.
- هذه المسألة يخاطب بها من أقرّ بالشهادتين، أما من لم يقر بهما فيبين له وجوبهما، وأن الإنسان لا يدخل في الإسلام حتى يشهد الشهادتين، فإذا شهد الشهادتين عُرِّف بما يجب عليه.
- من لوازم تحقيق الشهادتين البراءة من الشرك وأهله.
- قال الله تعالى: **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** [الممتحنة: ٤].
  - التأسي بهم هنا يشمل: التبرؤ منهم ومما يعبدون من دون الله، والكفر بهما، وإبداء العداوة والبغضاء لهم حتى يؤمنوا بالله وحده.
- البراءة من الشرك وأهله لها أسباب ومقاصد وغاية تنتهي بانتهائها وأحكام تحكمها.

أسباب البراءة من المشركين

- أسباب البراءة من المشركين على قسمين: أسباب متعلقة بالمتبرِّئين وهم المؤمنون، وأسباب متعلقة بالمتبرأ منهم وهم المشركون والكفار.
- أما أسبابها المتعلقة بالمتبرِّئين وهم المؤمنون فهي:
- **السبب الأول:** موافقة الله تعالى فيما يحب ويبغض.
  - كلما كان المؤمن أشد حباً لله كان أكثر بغضاً لمن يبغضه الله، ولذلك قال الله تعالى: **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ..** [المجادلة: ٢٢]؛ فأتى بها بصيغة الخبر، كأن الأمر مفروغ منه، وأنه من مقتضيات الإيمان الضرورية.

o نبّه الله تعالى على هذا السبب بقوله : **يَا أيهَا الذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللـهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُور** [الممتحنة : ١٣].

• **السبب الثا :** طاعة الله تعالى في أمره ؛ فإن الله تعالى أمر بالبراءة من الشرك وأهله ونهى عن توليهم.

o مدح إبراهيم ومن معه على براءتهم من المشركين ، وأمرنا أن نأتسي بهم في هذه البراءة التي مدحها الله عز وجل في القرآن في أكثر من موضع.

• **السبب الثالث:** الغضب لله جل وعلا والحميَّة له ، فإنَّ مَن صدق في محبة محبوب ووجد من يغضبه أحسَّ في قلبه بغضاً له.

o لا أحد أحبَّ إلى المؤمن من الله تعالى كما قال الله تعالى : **وَالذِينَ آمَنُوا أَشَـدُ حُبـًا لِلهِ** [البقرة: ١٦٥] فمدحهم على ذلك.

o إذا رأى المؤمن من يُغضب إلهه الذي هو أحبّ شيء إليه وجد في قلبه بغضاً ومقتاً له.

o من وَجدَ هذا من نفسه فقد صحّ إيمانه ؛ بل هو علامة على وثوقه وكماله ؛ ففي مسند أبي داوود الطيالسي من حديث معاوية بن سويد بن مقرن عن البراء بن عازب قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ((**أتدرون أي عرى الإ ان أوثق؟**))

قلنا : الصلاة ؛ قال : ((**الصلاة حسنة وليست بذلك**)).

قلنا : الصيام ؛ فقال مثل ذلك ، حتى ذكرنا الجهاد فقال : مثل ذلك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**أوثق عرى الإ ان ا ب ا عز وجل والبغض ا**)).

o وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((**مـن أحب وأبغض وأعطى ومنع فقد استكمل الإ ان**)). رواه أبو داوود وغيره.

o قال ابن القيم رحمه في إغاثة اللهفان شارحاً هذا الحديث : (فإن الإيمان علم وعمل والعمل ثمرة العلم وهو نوعان : عمل القلب حبا وبغضا ويترتب عليهما عمل الجوارح فعلا وتركا وهما العطاء والمنع ؛ فإذا كانت هذه الأربعة لله تعالى كان صاحبُها مستكملَ الإيمان وما نقص منها فكان لغير الله نقص من إيمانه بحسبه)ا.هـ.

• **السبب الرابع:** إثبات أن محبة الله تعالى مقدمة على محبة غيره ، وأن الله أحب إلى العبد مما

سواه، وأن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بين لنا هذا الدين أحب إليه مما سواه من الخلق.

O من كان هذا حاله وجد حلاوة الإيمان كما في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **« ثلاث من كن فيه وجد بن حلاوة الإ ان: أن يكون ا ورسوله أحب إليه ا سوا ا، وأن ب ا ـرء لا بـه إلا ، وأن يكره أن يرجع الكفر بعد أن أنقذه ا منه كما يكره أن يقذف النار »**

O هذه الأمور الثلاثة يترتب بعضها على بعض.

أما أسباب البراءة المتعلقة بالمتبرأ منهم وهم المشركون والكفار فمنها:

- ١: محادّتهم لله ورسوله، وبغضهم لما يحبه الله، ومحبتهم لما يبغضه الله، وسعيهم في محاربة دينه، ومن كان هذا حاله فهو مستحق لأن يعادَى ويتبرأ منه مهما كانت قرابته، قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ** [الممتحنة: ١].
- ٢: أنهم أعداء للمؤمنين يجتهدون في إعناتهم والمشقة عليهم وإفساد أمورهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وإذا تمكنوا من المؤمنين ساموهم سوء العذاب.

O قال الله تعالى: **إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ** [الممتحنة: ٢]، وقال: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ** [آل عمران: ١١٨].

- ٣: سعيهم للصدّ عن سبيل الله عز وجل بأقوالهم وأعمالهم، وقولهم على الله بلا علم وافترائهم الكذب على الله ليضلوا الناس بغير علم، وتمنيهم كفر المؤمنين كما قال الله تعالى عنهم: **وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ** [الممتحنة: ٢]، وقال تعالى: **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩)** [هود: ١٨، ١٩]؛ فكان من أول الصفات التي وصف الله بها الظالمين أهل النار صدهم عن سبيل الله.

o وذلك كما قال الله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٥].

o الصد عن سبيل الله شأنه عظيم وهو ظلم مبين لأن فيه إغواء للناس عن سلوك الصراط المستقيم المفضي إلى رضوان الله وجنات النعيم، فمن صد الناس عن سبيل الله فلا شك أنه ظالم معتدٍ مستحق للعذاب والبراءة منه ومن فعله.

• ٤: حسدهم للمؤمنين وتمنيهم زوال الخير عنهم كما قال الله تعالى عنهم: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

• ٥: كفرهم بنعم الله جل وعلا ومقابلتها بالشرك والفسوق والعصيان ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨- ٣٠].

• البراءة من الشرك وأهله أصل عظيم من أصول الدين، وحدّ من حدود الله، وله أسبابه المبيّنة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

مقاصد البراءة من الشرك وأهله فهي:

• ١: رعاية حدود الله عز وجل، وأعظم الحدود ما جعله الله من الحد الفاصل بين الكفر والإيمان، وسمى الله المشركين محادين له ولرسوله، فهم في حد، والمؤمنون في حد.

o البراءة من الشرك وأهله هي من القيام لله بما يحبّ، وهي واجب من واجبات الإيمان، وقد قال الله تعالى للمؤمنين: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ [المائدة: ٨].

• ٢: إنكار المنكر العظيم الذي لا أعظم منه وهو الشرك بالله جل وعلا فهو أنكر المنكرات وأكبر الكبائر وإنكاره من أوجب الواجبات وأعظم الحقوق.

• ٣: التنصّل من موافقة المشركين على دينهم وإقرارهم لما هم عليه من الشرك، وقد علمنا ما توعد الله به أهل الشرك من العذاب المهين والغضب الشديد والخلود في النار.

o إذا علم المؤمن بعظيم مقت الله للكفار حرص على التنصل من موافقتهم على ما مقتهم الله عليه أو إقرارِهم عليه ؛ وقد قال الله تعالى فيهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر : ١٠].

• ٤ : رجاء أن يقلع المشرك عن شركه إذا وجد من المؤمنين بغضاً لما يفعله من الشرك ومجانبة والامتناع عن بعض التعاملات معه فلا تؤكل ذبيحته ولا يشرب في آنيته ولا يرث ولا يورث ولا يناكح ولا يوالى ولا يتشبه به في شيء مما يختص به إلى غير ذلك من الأحكام.

o هذه المجانبة قد تحمل بعض الكفار على الإسلام، وقد أسلم لهذا السبب عدد منهم.

• ٥ : الاعتزاز بدين الله تعالى والاستغناء به جل وعلا ، فإن الله لما أمرنا بالبراءة من الشرك وأهله علمنا أن الله تعالى قد أغنانا عنهم بفضله وأعزنا بدينه ، فإن الله أكمل لنا الدين ، ومن إكماله أنه واف بما نحتاجه في جميع شؤوننا ، وما يقع فيه بعض المسلمين من موالاة الكفار هو من مظاهر ضعف اعتزازهم بدين الله عز وجل.

• ٦ : النصيحة للمسلمين وبيان الحق لهم فإن موالاة الكفار قد تغرّ بعض المسلمين فتفتنَهم عن دينهم.

غاية البراءة من المشركين

• الغاية التي تنتهي عندها هذه البراءة فهي إيمان من أمرنا بالبراءة منه فإذا آمن فهو من إخواننا نحبه ونواليه كما قال الله تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة : ٤].

o إذا آمنوا بالله وحده لا شريك له وكفروا بما يعبد من دونه فهم من المؤمنين نحبهم ونواليهم ، وقد قال الله تعالى عن المشركين : ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة : ١١].

• من تأمّل مقاصد البراءة الإيمانية عرف سموّها وجلالة قدرها ، وعظيم حِلْمِ الله تعالى وسعة مغفرته وأنه هو التواب الرحيم والعفو الحليم وأنه يقبل التوبة ممن تاب ولو كان مشركاً.

ميزات البراءة من الشرك في الإسلام:

- **١: أنا متصلة با جل وعلا،** فمدار الحب والبغض فيها على ما يحبه الله ويبغضه الله، ومن كان هذا حاله فقد أسلم قلبه لله.
- **٢: أنا عبادة ملازمة للمؤمن** لا تخلو منها لحظة من لحظات حياته فهو وإن لم يستشعرها فهو مستصحب لحكمها، وهذا البغض عبادة قلبية عظيمة.
- **٣: أن هذه ال اءة مبنية على الفقه وا دى** وعلى تحقيق المصالح الشرعية ودرء المفاسد فهي ليست بغضاً أهوج، ولا عاطفة عمياء. بل لها أحكام سنوضحها إن شاء الله.
  - o فهذه البراءة تخلو من آثار البراءة الجاهلية العمياء.
- الولاء والبراء أمر فطري وما من شخص إلا وهو يوالي ويعادي.
- مَن جعل موالاته ومعاداته لله فقد استكمل الإيمان، ومن جعل موالاته ومعاداته على أمر جاهلي فهو امرؤ فيه جاهلية.
- جاء الإسلام بتهذيب الولاء والبراء وتصحيح مساره، وتقويم منهجه، وبيان أحكامه، فصحح ما يعقد عليه الولاء والبراء، وصحح معنى الولاء والبراء، وبين منهجه الذي ينتهجه المؤمن بلا غلو ولا تفريط، وبين أحكامه وما يجوز فيه وما لا يجوز، وبين الحقوق التي يجب حفظها ولا يجوز الاعتداء عليها حتى مع المخالفين.
- مما يجب أن يُعلم أن هذا الولاء والبراء محكوم بأحكام الشريعة، ومن سار على ما بينه الله من الهدى في هذا الباب العظيم لم يحصل منه ما يحصل من آثار الولاء والبراء الجاهلي الذي يُعقد على عرق أو بلد أو حزب أو جماعة أو غيرها من الأسباب الجاهلية التي يعقد عليها الولاء والبراء.
- البراء في الإسلام لا يخرج عن مقتضى العدل والإحسان، بل كل أحكام الشريعة لا تخرج عن مقتضى العدل والإحسان كما قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** [النحل: ٩٠]، وقال: **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا** [البقرة: ٨٣].
- نهى الله عن الاعتداء على الكفّار كما قال تعالى: **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ**

يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ [البقرة: ١٩٠].

- اقتران النهي عن العدوان بالقتال في سبيل الله يدلك على الرسالة السَّامية للإسلام.
- إذا كان بيننا وبين الكفار عهد وخفنا منهم الخيانة ونقض العهد وقامت قرائن وأمارات على ذلك لم يجز أن نبدأهم بالقتال حتى نعلمهم بنبذ عهدهم إليهم كما قال الله تعالى: وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ [الأنفال: ٥٨].
- لم يرض الله لأوليائه أن يكونوا خائنين، ولم يرض لأوليائه أن يكونوا معتدين، ولم يرض لأوليائه أن يكونوا ظالمين.
- المؤمنون وإن كانوا يبغضون الكفار بغضاً شديداً ويعادونهم في الله إلا أنهم لا يحملهم ذلك على ظلمهم والاعتداء عليهم كما أرشدنا الله تعالى بقوله: وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا [المائدة: ٢]، وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [المائدة: ٨].
- بل إن الله يحب لأوليائه أن يكونوا محسنين مقسطين، وأن تكون معاملتهم للناس حسنة يزينها الصدق والوفاء بالعهد وحسن القول والخلق كما قال الله تعالى: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [الممتحنة: ٨، ٩].
- المنهي عنه أن نتولاهم فنناصرهم على المسلمين بأن ندلهم على عورة من عورات المسلمين، وأن نعينهم على المسلمين بأي نوع من أنواع الإعانة.
- الإحسان إلى من ليس من أهل الحرب والقتال بما لا يعين على المسلمين ليس بمنهي عنه، بل هو من القسط الذي يحبه الله.
- ينبغي أن نفرق بين حسن المعاملة والمحبة القلبية؛ فمودة الكفار ومحبتهم محرمة في دين الإسلام، بل إن بغضهم من لوازم الإيمان، ونحن إنما نبغضهم لما أبغضهم الله عليه من الكفر والفسوق والعصيان، لا نبغضهم لذواتهم وهيئاتهم وأنسابهم وأعراقهم وبلدانهم، ولذلك

فإنهم إن تابوا وأسلموا أحببناهم لزوال مقتضى البغض والكراهية.

- أما التعامل معهم فيكون وفق أحكام الشريعة، وقد أمرنا الله تعالى بأن نقول للناس حسناً، وأن نعاملهم بالحسنى، وألا نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، ويجب علينا أن نفي بالعهد بيننا وبينهم، وإذا ائتمننا أحد منهم أدينا له الأمانة، وندعوهم إلى الإسلام بالتي هي أحسن، ونبين لهم أخلاق أهل الإسلام، ودعوةَ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى مكارم الأخلاق.

- كل ما سبق مطلوب، ولا يقتضي محبتهم القلبية وهم مقيمون على الكفر والفسوق والعصيان، لأن تعامل المؤمن نابع من إيمانه وامتثاله لأحكام الشريعة السمحة وأخلاق القرآن العظيم.

- أما الكفار المحاربون والمعتدون الظالمون من الكفار والمنافقين فقد أُمرنا بالغلظة عليهم، كما قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾** [التوبة: ٧٣] فالذين يستحقون أن نجاهدهم أمرنا بالغلظة عليهم.

- هذه الغِلْظة لها حدودها الشرعية فلا يجوز أن تفضي بالمسلم إلى قول ما لا يجوز قوله ولا على العدوان والبغي.

- تبين مما سبق أن البراءة في الإسلام لها مقاصد سامية، وآداب عالية، وأنها ليست كالبراءة الجاهلية المبنية على الظلم والعدوان وقول الإثم والبهتان، وغصب الحقوق والدعاوى الباطلة.

- وأن البغض الإيماني ليس حقداً عنصرياً ولا كرهاً أعمى، بل هو بغض إيماني له أسباب ومقاصد وغاية كما تقدم.

- ونحن مع بغضنا لهم بسبب أعمالهم وكرهنا ومقتنا لكفرهم وفسوقهم وعصيانهم نود لهم الهداية ونسأل الله أن يخرجهم من الظلمات إلى النور وندعوهم إلى الإسلام بالتي هي أحسن، رجاء أن يمن الله عليهم بالهداية فنواليهم بعد المعاداة ونحبهم بعد البغض كما قال الله تعالى: **﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** [الممتحنة: ٧].

معنى الموالاة

- الموالاة تطلق على معنيين بينهما تناسب وتلازم وهما التحاب والتناصر.
- تطلق الولاية في اللغة على المحبة والنصرة وعلى ما ينشأ منهما ؛ فالحليف ولي ، والكفيل ولي ، والقيم على من تحته ولي كولي اليتيم وولي المرأة.
- لفظ"المولى" يُطلق في اللغة على معانٍ متعددة ، ويجمعها أن لكل موالاة سبباً تنعقد عليه ومقتضى تقتضيه بحسب نوع تلك الولاية.

o الأسباب التي تنعقد بها الولاية تختلف باختلاف نوع تلك الولاية ؛ فالقريب وليّ لقريبه بسبب القرابة ، والقيّم على المرأة واليتيم وليّ لهما بسبب القوامة والرعاية ، والكفيل وليٌّ لمكفوله بسبب عقد الكفالة والضمان ، والحليف وليٌّ لحليفه بسبب الحِلْف ، وولي الدم هو المطالب به من عصبة القتيل.

- السيّد وليٌّ لمملوكه بسبب استرقاقه له ، ويبقى الولاء له بعد عتقه - إن أعتقه - ويرث بسببه ، وكلاهما مولى للآخر.
- تطلق الولاية في اللغة على هذه المعاني وغيرها ، ولها في كل مقام من هذه المقامات ما يناسبه ، وما تقتضيه من الحقوق والواجبات.
- المعنى الجامع لما تقتضيه الولاية من المولى هو النُّصْرَة ، فالوليُّ نصير لمولاه ، والنصرة معنى جامع ينتظم جميع ما تقتضيه الولاية في كل مقام بحسبها ؛ فتكون النصرة بالمال والجاه والرعاية والمؤازرة وغيرها من المعاني اللائقة بكلّ نوع من أنواع الموالاة ، وكل هذه المعاني يصدق عليها في اللغة اسم النصرة.
- الولي هو الذي يقوم بما تقتضيه الولاية في كل موضع بحسبه من المحبة والموافقة والتأييد والسعي فيما يحبّه المولى.
- يكثر الاقتران بين الولاية والنصرة في القرآن الكريم قال الله تعالى عن نفسه المقدسة : **نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَصِيرُ** [الأنفال: ٤٠] ، وقال : **بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَاصِرِينَ** [آل عمران: ١٥٠] ، وقال : **وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ** [الشورى: ٤٦] وقال : **مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** [الشورى: ٨] وقال : **وَلَا تَتَخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً** [النساء: ٨٩] إلى

غير ذلك من الآيات تدل على أن النصرة من مقتضيات الوَلاية وأنها هي مقصودها ، وبدونها لا تصح الولاية.

- o الولاية أصلها المحبة والموافقة ، ومقتضاها النصرة والتأييد ؛ فمن شأن الولي أنه ينصر مولاه.

- النصرة علامة على صدق الولاية ، فمن قام بواجب النصرة فقد أدى حق الولاية ، ومن خذل مولاه ولم ينصره فإنه لم يقم بواجب الولاية ، وأما من سعى في مشاقته ومحاربته فهو عدو له وليس بمولى ، وإن تظاهر بالولاية.

- يستفاد من هذ أن أولياء الله هم الذين ينصرون الله عز وجل فيقومون بما تقتضيه محبته جل وعلا من تحقيق ما يحبه الله ويرضاه واجتناب ودفع ما يكرهه ويبغضه فيجاهدون في سبيله لإعلاء كلمته بما أمكنهم من الوسائل المشروعة ؛ فمن فعل ذلك فهو من أولياء الله.

- ومن قام بضد ذلك بأن والى أعداء الله فنصرهم وأيدهم على محاربة دين الله فليس من أولياء الله ، بل هو من أعداء الله ، لأن هذه الأعمال تنافي محبة الله.

- o لا تحصل هذه الخصلة من المؤمنين وإنما تحصل من المنافقين النفاق الأكبر والعياذ بالله ؛ فهم الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

معنى اتخاذ الكفار أولياء

- اتخاذ الكفار أولياء يطلق على معنيين :

- o **أحد ا:** أن ينصر المنافقُ الكافر على المؤمنين وعلى محاربة دين الله عز وجل ومحادة الله ورسوله.

- o **والآخر:** أن يستنصر به على ذلك.

- إذا حصل هذا أو هذا فقد اتخذه ولياً ، وكلاهما ولي للآخر ، بينهما رابط الولاية.

- هذا التعبير من روائع التعبير القرآني لأن فيه اختصاراً بديعاً مع الدلالة على المعنى ، والتنبيه على العلة ، وإلغاء الفارق في الوصف بين الحالتين ، والإبقاء على رونق اللفظ وحسن السبك.

- من صفات المنافقين الملازمة لهم وعلاماتهم الظاهرة وأعمالهم المتواترة أنهم يتخذون

الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

- جعل الله هذا الأمر من أول ما وصف به المنافقين، وأعظم ما مقتهم عليه، وتوعدهم بسببه العذاب الشديد.

- قال الله تعالى: **بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)** [النساء: ١٣٨، ١٣٩]

- إلى أن قال: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)** [النساء: ١٤٤- ١٤٧].

- وقال تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)** [المائدة: ٥١] إلى قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧)** [المائدة: ٥٧].

- لما ذكر الله الذين كفروا من بني إسرائيل بين لنا أن من أعظم ما مقتهم عليه أنهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين فقال تعالى: **تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)** [المائدة: ٨٠، ٨١]

- اتخاذ المنافقين للكفار أولياء قد بين الله تعالى تفاصيله في كتابه الكريم إذ قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) [الحشر: ١١- ١٣].

o هذه الآيات تبين لك بياناً جلياً معنى اتخاذ الكفار أولياء.

● إذا تأملت ما ذكره الله من التحذير من اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين تبيّن لك أن هذا الأمر حدّ عظيم من حدود الله جل علا، وأنه فارق بين الكفر والإيمان، وأن الله قد توعد من فعله وعيداً شديداً، وعدّ من فعله عدواً له، ونفى عنه الإيمان، وأوجب له الدرك الأسفل من النار، لما تضمنه هذا العمل من الخيانة العظمى، والخديعة الكبرى، ومحاربة الله ورسوله وأوليائه.

● لذلك لا يفعله من في قلبه إيمان، وإنما هو من خصال المنافقين النفاق الأكبر والعياذ بالله.

● نزّه الله تعالى عباده المؤمنين وبرأهم من هذه الخصلة الذميمة اللئيمة المبنية على الخداع والمكر والكيد للمؤمنين ومؤازرة الكافرين؛ فقال الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

● قال ابن جرير: (ومعنى ذلك: لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفارَ ظهرًا وأنصارًا توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلُّونهم على عوراتهم، فإنه مَنْ يفعل ذلك ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨] يعني بذلك: فقد برئ من الله وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر).

● ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨] هذا استثناء منقطع، وفي معناه قولان للسلف:

● **القول الأول:** إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم؛ فتظهروا لهم الولاية وتضمروا لهم العداوة ولا تشايعوهم على دينهم ولا تعينوهم على مسلم بشيء.

o هذا القول مروي عن جماعة من المفسرين منهم ابن عباس وأبو العالية الرياحي وجابر بن زيد، وقال به ابن جرير الطبري.

o دلّ هذا القول على أنّ المؤمن إذا خشي من الكفار ضرراً لا يحتمله؛ فلا بأس أن يداريهم مداراة يدفع بها شرهم مع انطواء القلب على بغضهم وبغض ما يفعلون من الكفر والفسوق والعصيان.

o معنى كون الاستثناء منقطعاً يفيد أن هذه المداراة ليست موالاة للكفّار.

• القول الثا : ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ [آل عمران: ٢٨] أي إلا أن يكون بينكم وبين بعض الكفار رحم فتتقون قطيعتها فتصلونها من غير أن تتولوهم في دينهم. وهذا قول قتادة والحسن البصري.

o صحَّحَ ابن جرير هذا القول من جهة المعنى في نفسهن لكنه بين أن لفظ الآية لا يدل عليه.

• المعنى الذي ذكره قتادة والحسن يدل عليه نصّ قول الله تعالى في الأبوين الكافرين: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ [لقمان: ١٥]. وقوله: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ [الممتحنة: ٨] وسبب نزولها في قصة أم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

درجات الكفار

• بيّن الله تعالى في كتابه أن الكفار على ثلاث درجات: الأبوين الكافرين، والذين لم يقاتلوا المؤمنين ولم يعينوا عليهم، والمحاربون والمعينون على قتال المؤمنين والعدوان عليهم، وجعل لكل درجة حكماً.

• أما الأبوان الكافران فأمر الله بإحسان صحبتهما، وكذلك الأرحام الذين ليسوا من أصحاب الدرجة الثالثة، قال الله تعالى فيهما: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير (١٤) وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون (١٥)﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

• وأما أصحاب الدرجة الثانية فقال الله تعالى فيهم: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (٨)﴾ [الممتحنة: ٨].

• وأما أصحاب الدرجة الثالثة فقال الله تعالى فيهم: ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون (٩)﴾ [الممتحنة: ٩].

- ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ أي يتخذهم أولياء كما يفعل المنافقون.
- قال ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾ [الممتحنة: ٩] أيها المؤمنون ﴿عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [الممتحنة: ٩] من كفار أهل مكة ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ [الممتحنة: ٩] يقول: وعاونوا من أخرجكم من دياركم على إخراجكم أن تولوهم، فتكونوا لهم أولياء ونصراء: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ [الممتحنة: ٩] يقول: ومن يجعلهم منكم أو من غيركم أولياء ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩] يقول: فأولئك هم الذين تولوا غير الذي يجوز لهم أن يتولوهم، ووضعوا ولايتهم في غير موضعها، وخالفوا أمر الله في ذلك).

حكم موالاة الكفار

- موالاة الكفار ردّة عن دين الله تعالى، وهي ناقض من نواقض الإسلام والعياذ بالله.
- الموالاة تشمل محبتهم لدينهم والرضى به ومناصرتهم على المسلمين وعلى محادة الله ومحاربة دينه فهذا ناقض من نواقض الإسلام.
- بعض علماء الدعوة يفرقون بين الموالاة والتولي في الحكم، وهذا التفريق لا أعرفه عن السلف ولا تقتضيه اللغة فالموالاة والتولي في اللغة وفي استعمال السلف واحد وكلاهما يدل على اتخاذ الكفار أولياء.
- ما يذكره بعضهم في تفسير الموالاة بمحبة بعض أهل الكفر على أمر دنيوي من غير اتخاذهم أولياء فهذه ليست موالاة على الحقيقة، ولها أحكامها.
- يجب التفريق بين هذين القسمين من المسائل؛ فالله تعالى قد جعل موالاة الكفار وتوليهم حداً من الحدود الفارقة بين الإسلام والكفر.
- الموالاة هي: التوافق والتناصر على محاربة الإسلام والمسلمين، فمن تحالف مع الكفار لمحاربة المسلمين فقد اتخذهم أولياء وارتدّ بذلك عن دين الإسلام.
- وأما محبة بعض الكفار على أمر دنيوي لا حرب فيه على المسلمين ومصاحبتهم ومعاشرتهم ومعاملتهم فلها له أحكام أخرى؛ منها ما هو مشروع مأمور به بضوابطه الشرعية، ومنها ما هو محرم لا يجوز، وهي ليست من موالاة الكفار.

● ما ذكره المفرّقون بين الموالاة والتولّي من أمثلة الموالاة التي ليست بتولٍّ هي في حقيقتها من مظاهر التساهل في التعامل مع الكفار أو من ذرائع الموالاة؛ فالخلاف هو في تسمية تلك المظاهر موالاة.

● تولّي الكفار هو اتخاذهم أولياء، وكذلك هي موالاتهم، والعبرة بالمعنى الشرعي الذي علّق به الحكم.

● قال الله تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)﴾ [المائدة: ٨٠، ٨١]؛ فاتخاذهم أولياء هو بمعنى توليهم.

● لا يجوز لمسلم أن يتولى الكفار ولو كان من تولاه أحد أبويه أو من عشيرته فاتخاذهم أولياء وإعانتهم على دعوة الإسلام وعلى المسلمين كفر وردة عن دين الله عز وجل.

● وأما مصاحبتهم ومعاشرتهم والإحسان إليهم من غير موالاة فليست من هذا الباب، وهي على درجات ولها أحكام.

o قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥] فهذه المصاحبة بالمعروف واجبة على المسلم الذي له والدان كافران، وليست هذه المصاحبة بالمعروف من الموالاة في شيء.

o وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

o أمر الله تعالى بمصاحبتهم بالمعروف ونهى عن اتخاذهم أولياء وحذر من ذلك، ووصف من فعل ذلك بأنه من الظالمين المتوعدين بالعذاب الشديد؛ فعلِمَ أن مصاحبتهم بالمعروف ليست من الموالاة في شيء.

● قال ابن جرير رحمه الله في تفسير آية التوبة: (يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسرارَكم، وتطلعونهم على عورة الإسلام وأهله، وتؤثرون المُكْثَ بين أظهرهم على الهجرة إلى دار الإسلام

إن اسْتَحَبوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِ ان [التوبة: ٢٣]، يقول: إن اختاروا الكفر بالله، على التصديق به والإقرار).

- هذا التفسير من ابن جرير هو الحق وهو الذي تقتضيه دلالة النصوص؛ فمناصرة الكفار على المسلمين وموالاتهم كفر وردة عن دين الله عز وجل، ولو كان الذين والوهم آباءهم أو أبناءهم أو عشيرتهم.
- من فقه مقاصد الشريعة فقها صحيحاً اتضحت له حدود الله عز وجل التي بينها في كتابه الكريم.
- إذا تبين هذا فكل ما أذن الله به في معاملة الكفار من مصاحبة بالمعروف ومعاشرة الرجل لزوجته الكتابية، والإحسان إلى من أذن الله بالإحسان إليهم من الكفار كل ذلك ليس من موالاتهم في شيء.
- وكذلك الثناء على بعض الخصال الحسنة لدى بعض الكفار ليس من موالاتهم بل هو جائز لا بأس به، وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم بعض الخصال الحسنة لدى بعض الكفار، وقال لأشج عبد القيس: « إن فيك خصلت بهما ا ا لم والأناة ».
  - o لكن ينبغي ألا يتخذ ذلك ذريعة لمحبة باطلهم أو الاغترار بما لدى بعضهم من خصال حسنة فيعتقد أنهم على الحق في دينهم.

سد الذرائع المفضية إلى موالاة الكفار

- جاءت الشريعة بسد الذرائع المفضية إلى موالاة الكفار، فنهى الله تعالى عن اتخاذهم بطانة؛ فقال الله تعالى: يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا لَا تَتخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدوا مَا عَنِتم قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بينا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ [آل عمران: ١١٨].
- اتخاذهم بطانة يؤنس بهم ويستشارون أو يُطلعون محرم في دين الإسلام، لكنها ليست موالاة، وإنما هي ذريعة إلى الموالاة، وفرق بين الأمرين، وقد خاطب الله المؤمنين الذين نزلت فيهم هذه الآية باسم الإيمان.
- روى ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (كان رجال من المسلمين

يواصلون رجالا من اليهود، لما كان بينهم من الجوار والحِلْف في الجاهلية، فأنزل الله فيهم، ينهاهم عن مباطنتهم تخوُّف الفتنة عليهم منهم: **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة مـن دونكم** [آل عمران: ١١٨] إلى قوله: **وتؤمنون بالكتاب كله** [آل عمران: ١١٩]).

- هؤلاء الذين نزلت فيهم الآية ليسوا متولين للكفار ولا محبين لدينهم ولا مناصرين لهم على المسلمين، وإنما كان ما فعلوه محرماً لأنهم قد يفضي بهم إلى موالاة الكفار، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.
- من أفضت به هذه الخصلة إلى موالاة الكفار ومناصرتهم ارتدّ بسبب ذلك، ومن لم تُفْضِ به إلى الموالاة فهو آثمٌ فاسقٌ بمعصيته ولا يحكم بكفره.
- من تودد إلى الكفار المحاربين بغية تحقيق مصلحة دنيوية من غير أن ينطوي قلبه على محبة الكفار ومحبة دينهم ولا أن يكون في ذلك مناصرة للكفار على المسلمين فهو فاسق مخالف لهدى الله تعالى لكنه لا يكفر بمجرد ذلك.
- لا يسمى فعله موالاة وإنما هو ذريعة للموالاة جاءت الشريعة بسدها كما في قوله تعالى: **تسرون إليهم با ودة وأنا أعلم ا أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضـل سـواء السبيل** [الممتحنة: ١].
- وكذلك الثناء على بعض الخصال المحرمة لدى بعض الكفار ومحبتها أمر محرم لا يجوز، كالثناء على غناء المغنين منهم، وكذلك التعاون معهم على بعض المعاصي كالغناء وغيره من الأعمال المحرمة هو حرام لقول الله تعالى: **وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللـهَ إن اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** [المائدة: ٢].
- أمّا إذا أفضى هذا التعاون إلى اتخاذهم أولياء ومناصرتهم على المسلمين فهي ردة عن دين الإسلام.
- بعض الأعمال تكون صورتها الظاهرة واحدة، ويختلف حكمها باختلاف الباعث عليها؛ فقد يفعلها بعضهم ويكون آثماً فاسقاً ولا يحكم بكفره، ويفعلها بعضهم ويكون مرتداً عن دين الإسلام.
- من كان قصده من التعاون مع هؤلاء الكفار اتخاذهم أولياء ومحاربة دين الإسلام

والمناصرة على المسلمين وإفساد أخلاقهم لأجل أن ينتصر عليهم الكفار فهذه ردة عن دين الإسلام.

- ومن لم يقصد ذلك وإنما أراد ما دونه من اللهو المحرّم ونحوه من غير قصد مناوأة دين الله فقد أتى منكراً عظيماً يُخشى عليه من مغبّته.
- استفصل النبي صلى الله عليه وسلم من حاطب بن أبي بلتعة لما كان معروفاً بالإيمان والخير ونصرة الله ورسوله، ولم يستفصل من المنافقين الذين والوا اليهود لعلمه بحالهم.
- حاطب رضي الله عنه أخبرَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بقصده، وصدَقه فيما ذكر أنه لم يفعل ذلك رضى بالكفر بعد الإسلام؛ فصدّقه النبي صلى الله عليه وسلم وأخبر بصدقه.
- في رواية أن حاطباً رضي الله عنه قال: (يا رسول الله! أما والله إني ناصحٌ لله ولرسوله، ولكني كنت غريباً في أهل مكة، وكان أهلي بين ظهرانيهم، وخشيت عليهم؛ فكتبت كتاباً لا يضرّ الله ورسولَه شيئاً، وعسى أن يكون منفعةً لأهلي).
- دلّ سؤال النبي صلى الله عليه وسلم حاطباً عما حمله على ما صنع على اعتبار القصد.
- ودلّ إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بصدق حاطب فيما قال؛ على أن الحكم على من فعل مثل فعله بما يظهر من صدقه.
- بعض العلماء يُطلق على بعض الأعمال بأن فيها نوع موالاة أي أنها ليست صريحة في الموالاة، وهذا في حال الحكم على بعض الأعمال الظاهرة التي لا يتبيّن قصدُ فاعلها أو أن فاعليها على مراتب فيها.
- التشبه بالكفار الأصل فيه التحريم، ومنه ما يصل بصاحبه إلى الكفر ومنه ما هو دون ذلك، وليس كل تشبه موالاة.

أقسام المسلمين في البراءة من الكافرين

- إذا تبين ما سبق عرفت أن المسلمين في البراءة من الكفار على ثلاثة أقسام:
  - **قسم غلوا ال اءة وتعدوا حدود ا ذلك** فارتكبوا من الظلم والعدوان والتنفير عن دين الله عز وجل ما لا يحل لهم، وهم مخطؤون في ذلك خطأً شنيعاً.
  - **وقسم فرطوا وتساهلوا ذالك** حتى حصلت منهم مودة ومحبة للكفار في بعض

شؤون دنياهم من غير أن يتخذوهم أولياء، وإنما خالفوا هدى الله ففعلوا ما لم يأذن الله به.

- فأصحاب هذين القسمين مخالفون لهدى الله خاطؤون مذنبون.
- **وقسم وسط اتبعوا هدى ا وامتثلوا أحكامـه** فتبرؤوا من الكفر وأهله وعاملوهم بمقتضى شرع الله فأحلوا ما أحله الله وحرموا ما حرمه الله ورعوا فيهم حدود الله.

فهؤلاء هم الموفقون الناجون.

أحكام معاملة الكفار

- بيّن الله تعالى في كتابه الكريم أحكام معاملة الكفار وبين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أراد تفاصيل ذلك فليطلبه بتعلم هذه المسائل في كتب الفقه.
- حرّم الله مناكحة المشركين الوثنيين وحرم ذبائحهم، وأباح نكاح الكتابيات وأباح طعام أهل الكتاب، وحرم استعمال آنية الكفار، وحرم التشبه بهم، وبين أحكام التهادي بين المؤمنين والكافرين وما يجوز منه وما لا يجوز، إلى غير ذلك من الأحكام التي يحتاج طالب العلم إلى تعلمها، ولا سيما من يبتلى بمعاملة الكفار كثيراً؛ فيعرف ما يحل له وما لا يحل له، مع انطواء قلبه على محبة الله ورسوله وبغض الشرك وأهله.

حكم تهنئة الكفار بأعيادهم

- لا تجوز تهنئة الكفار بأعيادهم، ويختلف حكم المهنّئ باختلاف قصده.

- من هنّأ الكفار بأعيادهم الكفرية رضا بما يصنعون فهو كافر مرتدّ عن دين الإسلام والعياذ بالله.
- ومن هنّأهم بعبارات فيها مجاملة لا يريد بها التعبير عن الرضا بعقيدتهم فهو قد ارتكب حراماً لكن لا يُحكم بكفره ما دام قلبه منكراً كفرهم.
- قال ابن القيم رحمه الله: (وأما التهنئة بشعائر الكفر المختصة به فحرام بالاتفاق، مثل أن يُهنئهم بأعيادهم وصومهم، فيقول: عيد مبارك عليك، أو تهنأ بهذا العيد ونحوه؛ فهذا إن سلِمَ قائله من الكفر فهو من المحرّمات، وهو بمنزلة أن تُهنئة بسجوده للصليب بل ذلك أعظم إثماً عند الله وأشدّ مَقتاً من التهنئة بشرب الخمر وقتل النفس وارتكاب الفرج الحرام

ونحوه. وكثير ممن لا قدر للدِّين عنده يقع في ذلك، ولا يدري قبح ما فعل، فمن هنّأ عبد بمعصية أو بدعة أو كُفْرٍ فقد تعرّض لِمقت الله وسخطه)ا.هـ.

O وقال ابن عثيمين رحمه الله: (يَحرم على المسلمين التّشبّه بالكفار بإقامة الحفلات بهذه المناسبة، أو تبادل الهدايا، أو توزيع الحلوى، أو أطباق الطعام، أو تعطيل الأعمال ونحو ذلك، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: مَنْ تشبّه بقوم فهو منهم) ا.هـ.

O وأما من شاركهم ليطعَم معهم أو ليستمتع بفسقهم وغنائهم فقد أتى محرّماً عظيماً، ولا يحكم بكفره ما دام قلبه منكراً لكفرهم وشركهم.

أسئلة وتطبيقات على الدروس السابقة (١)

هذه أسئلة وتطبيقات افتراضية ولها أمثلة في الواقع لقياس فهم الطلاب لمقاصد الدروس السابقة.

س١ : رجل وجد دعاية لدورة تدريبية تنظمها إحدى المؤسسات، وهذه الدورة تدرّس نظريات تثبت - على قولهم - أن كل الأفعال التي يعتبرها الناس خاطئة يمكن تبريرها ولها دوافع إيجابية، وأن النظر إليها نظرة إيجابية هو الموقف الصحيح لتقبل الآخرين والتعايش معهم كما هم.

ماحكم الالتحاق بهذه الدورة؟ اذكر الدليل على ذلك.

س٢ : رجل لديه اضطراب في النوم، وكثيراً ما ينام عن صلاة الفجر، هل يصح له أن يدعو غيره إلى أداء صلاة الفجر مع جماعة المسلمين؟

س٣ : رجل مرّ برفقة عائلته على قوم يشربون الخمر، وخشي أنه إذا أنكر عليهم اعتدوا على أهله، فهل ينكر عليهم؟

س٤ : رجل وجد مُلحِداً ينكر وجود الخالق عز وجل، فكيف يلزمه بالحجة على ذلك؟

س٥ : اشترك رجل مسلم مع رجل نصراني في مصنع لتصنيع الأواني وبيعها، فما حكم ما فعله المسلم؟

٦ : ألقت الشرطة القبض على عصابة مكونة من خمسة أفراد هم :

١ : خالد (مسلم)

٢ : زيد (مسلم)

٣ : ماريا (نصرانية)

٤ : ووتش (نصراني)

٥ : اليعازر (يهودي)

تقوم هذه العصابة بالنصب والاحتيال والسرقة ؛ فما حكم ما فعله خالد وزيد؟ وهل هو ردة عن دين الإسلام؟

س٧ : طالب مسلم مبتعث للدراسة في الخارج، وتعرف على طالبة نصرانية واتخذها عشيقة له ؛ فما حكم ما فعله هذا الطالب؟ وهل هو ردة عن دين الإسلام؟

س٨ : باحث متخصص في إعداد الدراسات والبحوث، اجتمع به موظف استخبارات من دولة كافرة، وطلب منه التعاون في إعداد بعض الدراسات عن الأنشطة الدعوية في بلد من بلدان

المسلمين وتعريفه بمصادر تمويلها وأثر هذه النشاطات على أهل ذلك البلد، وأن يقدّم له التوصيات المناسبة لتحجيم دور هذه النشاطات ومنع تمويلها وتشويه جهود القائمين عليها، فقام هذا الباحث بإعداد هذه الدراسة، وقدّمها لموظف الاستخبارات، وحصل بموجب ذلك على مبلغ مالي وحوافز تشجيعية.

السؤال: ما حكم ما فعله هذا الباحث؟

الدرس السادس : شرح الأصل الأول وهو معرفة العبد ربه جل وعلا

قال رحمه الله:

(اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ - مِلَّةَ إبْراهِيمَ - : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالى: **وما خلقْت الْجن والإِنس إلا ليعبدون** [الذاريات: ٥٦]، وَمَعْنَى يَعْبُدُون: يُوَحِّدُون.

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بالْعِبَادَةِ، وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: **واعبدوا ا ٰ ولاَ تشركُوا به شيئاً** [النساء: ٣٦].

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُوْلُ الثَّلاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُها؟

فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعْمَتِهِ، وَهُوَ: مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: **ا ٰمد لله رب العالم** [الفاتحة: ٢]، وَكُلُّ مَن سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ العَالَمِ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: **لَخلْق السماوات والأرض أكْبر من خلْق الناس** [غافر: ٥٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالى: **ومن آياته الليلُ والنهار والشمس والْقمر لاَ تسجدوا للشمس ولاَ للْقمر واسجدوا لله الذي خلقَهن إنْ كُنتم إياه تعبدونَ** [فصلت: ٣٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **إن ربكم ا ُ الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيامٍ ثم استوى على العرش يغشي الليلَ النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخراتٍ بأمـره ألا له الخلق والأمر تبارك ا ُ رب العالم** [الأعراف: ٥٤].

وَالرَّبُّ: هُوَ الْمَعْبُودُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقونَ (٢١) الذي جعلَ لكم الأرض فراشاً والسماءَ بناءً وأنزلَ من السماءِ ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمونَ** [البقرة: ٢١- ٢٢]

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- : (الْخَالِقُ لِهذِهِ الأَشْيَاءِ، هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ).

عناصر الدرس:

- بيان معنى الحنيفية.
  - الأمر باتباع ملّة إبراهيم عليه السلام
- بيان معنى الإخلاص
- بيان أعظم ما أمر الله به وهو التوحيد.
- بيان أعظم ما نهى الله عنه وهو الشرك.
- بيان الأصول الثلاثة التي يجب على العبد معرفتها وهي: معرفة العبد ربه ونبيه ودين الإسلام بالأدلة.
- دراسة الأصل الأول وهو معرفة العبد ربه جل وعلا.
  - بيان معنى الرب.
  - بيان طرق معرفة العبد ربه جل وعلا.
  - أمثلة للآيات الدالة على بطلان عبادة ما سوى الله عز وجل
  - حجج وجوب التوحيد في القرآن الكريم

شرح مقاصد الدرس

- تنبيه: هذا الدرس شروع في شرح رسالة ثلاثة الأصول وأدلتها، والرسالتان السابقتان ملحقتان بهذه الرسالة كما تقدم بيانه.

بيان معنى الحنيفية

- الحنيفية هي ملة إبراهيم عليه السلام التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم باتباعها، وهي ملة التوحيد، وهي الدين القيّم كما فسّرت في النصوص.
- لما رأى إبراهيم عليه السلام قومَه على الشرك في عبادة الله عز وجل بين لهم الأدلة على التوحيد وقال لهم ما حكى الله تعالى عنه: **إني وجهت وجهي للّذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين** [الأنعام: ٧٩]، فدلّ على أنه هو الحنيف وهم غير حنفاء.
- حنيفاً أي مستقيماً موحداً.
- قال ابن جرير: (وأما"الحنيف"، فإنه المستقيم من كل شيء، وقد قيل: إن الرجل الذي تقبل إحدى قدميه على الأخرى، إنما قيل له"أحنف"، نَظَراً له إلى السلامة، كما قيل للمهلكة من البلاد"المفازة"، بمعنى الفوز بالنجاة منها والسلامة، وكما قيل للديغ: "السليم"، تفاؤلاً له بالسلامة من الهلاك، وما أشبه ذلك).ا.هـ.
- ويقال: رجل يتحنف أي يتحرى أقوم الطريق.
- الحنيف هو المستقيم على الطريقة، والملة الحنيفية هي الدين المستقيم، وهو دين التوحيد، قال الله تعالى لنبيه الكريم: **وأنْ أقم وجهك للدين حنيفًا ولا تكونن من المشركين** [يونس: ١٠٥]، وقال: **فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديلَ لخلْق الله ذَلك الدين القيم ولَكن أكثَر الناس لا يعلمونَ** [الروم: ٣٠]، وقال الله تعالى: **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاءَ ويقيموا الصلاةَ ويؤتوا الزكاةَ وذَلك دين القيمة** [البينة: ٥].
- هذه الآيات تدل دلالة بيّنة على أنّ الحنيفية هي الملة المستقيمة.
- في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه

وسلم عن ربه جل وعلا أنه قال: « **إ خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وإنم أتتهم الشـياط فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت م، وأمرتم أن يشركوا ما أنزل بـه سلطاناً** ». والاجتيال هو الميل عن القصْد والاعوجاج في الضلالة، ومنه: المجول لاعوجاجه.

- قال حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان بن الحارث وينصر رسول الله صلى الله عليه وسلم:

هجوت مباركاً برّا حنيفاً　　　أمينَ الله شيمته الوفاء

o حنيفاً: أي مستقيماً لا تجدون عليه مغمزاً.

- تبيّن مما سبق أن الحنيفية هي الملة القويمة المستقيمة التي لا ميل فيها، ولا انحراف، ولا مطعَن فيها، وهي ملة التوحيد.

الأمر باتباع ملّة إبراهيم عليه السلام

- أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم الحنيفية، وأثنى الله تعالى في كتابه الكريم على إبراهيم بأنه كان حنيفاً في مواضع كثيرة من القرآن:

o قال الله تعالى: **قُلْ بلْ ملةَ إبراهيم حنِيفًا وما كَانَ من الْمشرك** [البقرة: ١٣٥]، وقال: **قُلْ صدق الله فَاتبِعوا ملةَ إبراهيم حنِيفًا وما كَانَ من الْمشـرك** [آل عمران: ٩٥]، وقال: **ومن أحسن دينًا ممن أسلَم وجهه لله وهو محسِنٌ واتبع ملةَ إبراهيم حنِيفًا واتخذَ اللـه إبراهيم خليلًا** [النساء: ١٢٥]، وقال: **قُلْ إنني هدانِي ربي إِلَى صراطٍ مستقيمٍ دينًا قيمًا ملـةَ إبراهيم حنِيفًا وما كَانَ من الْمشرك** [الأنعام: ١٦١]، وقال: **ثُم أوحينا إِلَيك أن اتبِع ملـةَ إبراهيم حنِيفًا وما كَانَ من الْمشرك** [النحل: ١٢٣]، وقال: **إن إبراهيم كَانَ أُمةً قَانِتًا للـه حنِيفًا ولَم يك من الْمشرك** [النحل: ١٢٠].

- الحنيفية التي مدحها الله عز وجل وأثنى على أهلها، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بها، وأمر بها عباده هي: أن يكونوا مستقيمين على الدين القيم لا يشركون بالله شيئاً، مخلصين العبادة لله جل وعلا.

- قال ابن تيمية: (القرآن كله يدل على أن الحنيفية هي ملة إبراهيم، وأنها عبادة الله وحده والبراءة من الشرك، وعبادته سبحانه إنما تكون بما أمر به وشرعه وذلك يدخل في الحنيفية ولا

يدخل فيها ما ابتدع من العبادات كما ابتدع اليهود والنصارى عبادات لم يأمر بها الأنبياء)ا.هـ.

- قال: (وقال الأصمعي: من عدل عن دين اليهود والنصارى فهو حنيف عند العرب).

بيان معنى الإخلاص

- الإخلاص في اللغة: التصفية والتنقية
- ومعناه شرعاً: تخليص الأعمال من الشرك بالله جل وعلا، وإفراد الله تعالى وحده بالعبادة لا شريك له.
- من لم يعبد إلا الله فقد أخلص العبادة لله جل وعلا، وصفَّاها ونقَّاها من عبادة غيره جل وعلا، وهذا هو التوحيد المأمور به.
- الإخلاص عبادة قلبية؛ فلذلك يتفاضل المخلصون في قوّة الإخلاص.
- الإخلاص على درجات: أولها تخليص العمل من الشرك الأكبر، وهو ما لا يتمّ إسلام العبد إلا به، وأعلاها تحقيق مرتبة الإحسان في الإخلاص.
- يزداد الإخلاص بأمرين:
  - أحدهما: إحسان الإخلاص بقوّة الاحتساب وتصفية العمل من شوائب ما يقدح فيه.
  - والآخر: الاستكثار من النوافل بعد الفرائض؛ لأن كلّ عبادة يؤديها العبد خالصة لله يزداد بها إخلاصاً.
- كلما كان العبد أكثر إخلاصاً كان أحبَّ إلى الله تعالى وأقرب إليه، والدليل حديث الوليّ.
- وأسعد الناس بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه.
- القلب السليم هو الذي سلم من الشرك وإرادة غير وجه الله تعالى.
- من أخلص العبادة لله فهو من المسلمين الموعودين بدخول الجنة والنجاة من النار.
- ومن لم يخلص لله تعالى فهو مشرك كافر مخلد في عذاب جهنم. والعياذ بالله.
- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة وقلت أخرى، سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: ((**من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار**))، وقلت أنا: (من مات وهو لا يدعو لله ندا دخل الجنة) رواه البخاري.

• ما قاله ابن مسعود رضي الله عنه صحّ مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ففي صحيح البخاري من حديث أبي ذر مرفوعا: « **من مات من أمّ لا يشرك با شيئاً دخـل ا نة** ».

• للإخلاص فضائل عظيمة:

o منها: أنه سبب النجاة من عذاب النار ودخول الجنة.

o ومنها: أنه شرط لقبول العمل.

o ومنها: أنه سبب التخلص من تسلط الشيطان وإغوائه لدلالة قوله تعالى: **قَـالَ فَبِعزتك لَأُغْوِينهم أجمع (٨٢) إلا عبادك منهم الْمخلَص** [ص: ٨٢، ٨٣]، قال أبو سليمان الداراني: (إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء).

o ومن فضائله: أنه السبب الأعظم لمحبَّة الله للعبد، وما يتبعها من بركات عظيمة من مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب، ومضاعفة الحسنات، ورفعة الدرجات، والحفظ من الشرور والآفات، ودر كيد الأعداء، وزوال الهموم والغموم، وحصول النعم والبركات، واندفاع النقم والعقوبات، والتوفيق للطاعات والقربات.

o ومن فضائله: أن صاحب الإخلاص لا يكون مذموماً ولا مخذولاً، دلّ على ذلك قول الله تعالى: **لا عل مع ا إ ا آخر فتقعد مذموماً ذولاً** [الإسراء: ٢٢]؛ فلما جعل الله الذم والخذلان على أهل الشرك علمنا أن أهل الإخلاص لا يكونون مذمومين ولا مخذولين، وبحسب ما يبلغ العبد من الإخلاص يكون نصيبه من النجاة من الذم والخذلان.

o ومن فضائله: ما يجده المؤمن المخلص من الحياة الطيبة التي هي أعظم نعيم الدنيا من سكينة النفس، وطمأنينة القلب، وعزة الطاعة، وحلاوة الإيمان، وبرد اليقين، ولذة المناجاة.

• قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (من خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شانه الله)، قال الله تعالى: **ألـيس ا بكـافٍ عبده** [الزمر: ٣٦].

بيان أعظم ما أمر الله به وهو التوحيد

● عرفنا أن أعظم ما أمر الله به التوحيد بأمور:

o ١ : أنه أول ما كان يدعو إليه النبي صلى الله عليه وسلم، بل هو أول ما كان يدعو إليه الرسل كلهم كما قال الله تعالى: **وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** [الأنبياء: ٢٥]، وقال: **ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولًا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** [النحل: ٣٦].

o كل رسول بعثه الله إلى قوم كانت أول دعوته إلى التوحيد كما تجده مبينا فيما قصه الله من أنباء الرسل مع قومهم في القرآن الكريم:

o قال الله تعالى: **لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره إني أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيمٍ** [الأعراف: ٥٩].

o وقال: **وإلى عادٍ أخاهم هودًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره أفلا تتقون** [الأعراف: ٦٥].

o وقال: **وإلى ثمود أخاهم صالحًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره** [الأعراف: ٧٣].

o وقال: **وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره** [الأعراف: ٨٥]

● في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: « **إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله** »

● ٢ : أن توحيد الله تعالى هو مفتاح الدخول في الإسلام، وبدونه لا يكون المرء مسلماً، وإذا ارتكب العبد فعلاً ينقض هذا التوحيد خرج من دين الإسلام، واستحق الخلود في عذاب النار؛ كما قال الله تعالى: **ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين (٦٥) بل الله فاعبد وكن من الشاكرين (٦٦)** [الزمر: ٦٥، ٦٦].

● **٣ :** أن ثـواب فاعلـه أعظـم الثـواب وهـو رضـوان الله تعـالى ومحبتـه والخلـود في الجنـة، وعقاب تاركه أعظم العقاب وهو سخط الله تعالى ومقته والخلود في نار جهنم، والعياذ بالله ؛

معنى التوحيد

● التوحيد : مصدر وحَّد يُوحِّد توحيداً إذا جعل الشيء واحداً، فإذا جعل العبد قصده واحداً لله جل وعلا، ولم يقصد بالعبادة شريكاً له تعالى فهو موحد مخلص لله جل وعلا.

● الذين يصرفون شيئاً من أنواع العبادة لغير الله تعالى غير موحدين، بل هم مشركون خارجون عن دين الإسلام مستحقون للعذاب الشديد والخلود في نار جهنم والعياذ بالله.

● أقسام التوحيد ثلاثة :

o ١ : توحيد الربوبية : وهو إفراد الله تعالى بأفعاله من الخلق والرزق والملك والتدبير وغيرها.

o ٢ : توحيد الألوهية : وهو إفراد الله تعالى بالعبادة.

o ٣ : توحيد الأسماء والصفات، وهو إفراد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

بيان أعظم ما نهى الله عنه هو الشرك

● ويعرف أن الشرك هو أعظم ما نهى الله عنه بأمور :

o ١ : أن أول دعوة الرسل كانت إلى التوحيد واجتناب الشرك.

o ٢ : أن من لم ينته عن الشرك فهو كافر غير داخل في دين الإسلام.

o ٣ : أن عقاب الشرك أعظم العقاب وهو الخلود في النار كما قال الله تعالى : **إنه مـن يشرك با فقد حرّم ا عليه ا ّنة ومأواه النار وما للظا من أنصار** [المائدة : ٧٢].

o ٤ : أن الله لا يغفر لمن أشرك به في عبادته مهما كان سابق صلاحه كما قال الله تعالى : **إن الله لا يغفر أنْ يشرك به ويغفر ما دونَ ذَلك لمن يشاءُ ومن يشرك بالله فَقَد ضـل ضلالًا بعيدًا** [النساء : ١١٦]، وقال تعالى : **ولَقَد أوحي إليك وإلى الذين مـن قَبلـك لَـئن أشركْت لَيحبطَن عملُك ولَتكُونن من الْخاسـرين** [الزمر : ٦٥]، وقال الله تعالى بعدما ذكر الأنبياء في سورة الأنعام : **ومن آبائهم وذُرياتهم وإخوانِهم واجتبيناهم وهـديناهم إلـى**

صراطٍ مستقيمٍ (٨٧) ذَلك هدى الله يهدي بِه من يشاءُ من عباده ولَو أَشركُوا لَحـبِطَ عنهم ما كَانوا يعملُونَ [الأنعام: ٨٧، ٨٨].

O الأنبياء – على صلاحهم وشرفهم ومحبة الله لهم - لا يغفر لهم الشرك بالله جل وعلا لو وقع منهم، وقد علمنا أن الله تعالى قد عصمهم من الشرك، وبقي الخطاب يتلى علينا لنتدبره ونتأمله، ونفهم منه عظيم جرم الشرك؛ فغير الأنبياء أولى بأن لا يغفر لهم إذا أشركوا.

O ٥ : أن النبي صلى الله عليه وسلم عدّ الشرك بالله أكبر الكبائر؛ فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **ألا أنبئكم بأك الكبائر؟ فلنا: بلى يا رسول ا ! قال: الإشراك با ، وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقـال: ألا وقـول الزور، وشهادة الزور فما زال يكررها حـ قلنا: ليته سكت** » متفق عليه.

O وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم، قال: « **أن عل نداً وهو خلقك** » قال: قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: « **أن تقتل ولدك افة أن يطعم معك** »، قلت: ثم أي؟ قال: « **أن تزا حليلة جارك** ».

• خطر الشرك عظيم، وهو أعظم ذنب عصي الله به، والمشرك كافر بالله عزّ وجل وإن ادّعى الإسلام، ومَقْتُ الله له أعظم المقت كما قال الله تعالى: **إن الذين كفروا ينادون قت ا أعظم من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إ الإ ان فتكفرون** [غافر: ١٠].

• لا يقبل الله من المشرك عملاً حتى يُسلم، ومن وقع في الشرك بعد إيمانه حبط عمله وأصبح من الخاسرين.

• الشرك أكبر الكبائر، وأعظم الظلم، وهو خيانة لأعظم الأمانات، وتَوَلٍّ عن أداء أعظم الحقوق، وهو حق الله عز وجل في الأمر الذي خلق الخلق لأجله.

• المقصود من كل ما سبق بيان خطر الشرك ووجوب اجتنابه والتحرّز منه، وأن تكون أوّل دعوة المصلحين إلى التوحيد واجتناب الشرك.

بيان أصول الدين الثلاثة

- أصول دين الإسلام : هي معرفة الله ومعرفة نبيّه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.
- هذه الأصول الثلاثة راجعة إلى معنى الشهادتين.
  - معرفة العبد ربه هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله ، وهو الأصل الأول.
  - ومعرفة العبد نبيه صلى الله عليه وسلم هي مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.
  - وأما دين الإسلام فهو الرسالة التي بُعث بها النبي صلى الله عليه وسلم.
  - لتوضيح هذا الأمر يقال : ههنا ثلاثة أمور : مُرسِلٌ ، ورسولٌ ، ورسالة ؛ فالمرسِل هو الله جل وعلا ، والرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ورسالته هي دين الإسلام.
  - الدين لا يقوم إلا على هذه الأصول الثلاثة ، فهي أصول الدين ، وهي المسائل التي يُسأل عنها العبد في قبره ، كما في سنن أبي داوود وغيره من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((**إن ا يت ليسمع خفْق نعا م إذا ولوا مدبرين ح يقال له: يا هذا، من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبِيك**)).
- هذه الرسالة هي في شرح هذه الأصول الثلاثة ، التي هي أصول الدين.
- مسائل الدين كلها ترجع إلى هذه الأصول الثلاثة.

الأصل الأول: معرفة العبد ربه جل وعلا.

- بيان معنى (الرب)
  - الرب هو الجامع لجميع معاني الربوبية من الخلق والملك والإنعام والتدبير والتربية والإصلاح ؛ فالربوبية في اللغة تشمل هذه المعاني كلها.
  - الله هو الخالق العظيم والخلاق العليم الذي خلق كل شيء ، فما من موجود من المخلوقات إلا والله تعالى خالقه وحده لا شريك له.

o ومن معاني (الرب) في لسان العرب: المالك؛ فرب الشيء هو مالكه، ورب الدار: صاحبها ومالكها، ورب الإبل: مالكها.

- لا يطلق هذا اللفظ بغير الإضافة إلا على الله عز وجل، فهو الرب وحده.
- الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه، لا يخرج شيء عن ملكه، فهو مالك كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء، فله جميع معاني الملك؛ فيملك المخلوقات، ويملك تصرفاتها ويملك تدبيرها والتصرف فيها، فلا تتصرف إلا بإذنه.
- وهو الذي يملك بقاءها وفناءها، وحركاتها وسكناتها، فيبقيها متى شاء، ويفنيها إذا شاء، ويعيدها إذا شاء، بل لا تملك جميع المخلوقات لنفسها نفعاً ولا ضراً إلا بإذنه جل وعلا.
- وهذا مما يوجب توحيده جل وعلا بالعبادة، وطاعته فيما يأمر به، وينهى عنه.

o لذلك أنكر الله تعالى على من يعبد غيره فقال: **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا** [الفرقان: ٣].

- بقية المعاني العظيمة للربوبية العامة من الإنعام والإصلاح والتربية والتدبير هي من آثار اسمه (الملك).
- تأمُّلُ معاني الربوبية والتفكر في آثارها في الخلق والأمر يورث اليقين بوجوب التوحيد، وأن العالم لا صلاح له إلا بأن يكون ربه واحدا، كما قال تعالى: **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** [الأنبياء: ٢٢]، وقال: **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** [المؤمنون: ٩١].
- كما أن الكون ليس له إلا رب واحد على الحقيقة، فلا يكن في قلبك إلا إله واحد هو هذا الرب العظيم، فأسلم قلبك له واعبده وتوكل عليه.
- اسم الرَّبِّ يقتضي أن نعبده جل وعلا ونفرده بالعبادة ولهذا قال تعالى: **اعْبُدُوا رَبَّكُمُ** [البقرة: ٢١] فاستدل على توحيد العبادة باسم الربوبية.

- والربوبية لها معنيان:
  - o **ربوبية عامة** بالخلق والملك والإنعام والتدبير، وهذه عامة لجميع المخلوقات.
  - o **وربوبية خاصـة** لأوليائه جل وعلا بالتربية الخاصة والهداية والإصلاح والنصرة والتوفيق والتسديد والحفظ.
  - o الله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها.
- إذا تأملت هذه المعاني تبين لك بجلاء أنه لا يستحق العبادة أحد إلا الله جل وعلا، وأن عبادة غيره ظلم عظيم، وكفر مبين، وسفه وضلال.
- هذه إلماحة يسيرة لبعض معاني الربوبية، تطلعك على ما وراءها من المعاني العظيمة وتشرع لك أبواب التفكر فيها.
- يطلق لفظ (الرَّبّ) في النصوص ويراد به المعبود، كما في سؤال العبد في قبره: من ربك؟ المراد به من معبودك الذي تعبده؟
- والربُّ الحق هو الله، وهو المعبود الحق؛ فاجتماع المعنيين له تعالى اجتماع صحيح.
- ما عبد من دون الله فليس معبوداً بحق، وليس برب على الحقيقة، وإنما اتُّخِذَ رباً، واتُّخِذَ إلها، كما في قوله تعالى: **ولا يأمركُم أنْ تتخذُوا الْملائكةَ والنبِيِّ أربابًا** [آل عمران: ٨٠]، وقوله تعالى: **اتخذُوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله** [التوبة: ٣١]، قال عدي بن حاتم: (يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم)... الحديث، ففهم عدي رضي الله عنه من هذا اللفظ معنى العبادة، لأن اتخاذ الشيء رباً معناه عبادته، لأن الربوبية تستلزم العبادة.
- إذا قيل: الرب هو المعبود، فهذا الإطلاق صحيح باعتبار، وإذا قيل: من معاني الرب فصحيح باعتبار آخر.

طرق معرفة العبد ربه جل وعلا

- لمعرفة العبد ربه جل وعلا طريقان بينهما الله عز وجل في كتابه الكريم:
  - o **الطريق الأول:** التفكر في آياته الكونية المخلوقة.
  - o **والطريق الآخر:** التفكر في آياته الشرعية وهي آيات القرآن العزيز وما تضمنه أمره جل وعلا في كتابه وفي غيره من الآيات البينات.

- (الآية) في اللغة: تطلق على العلامة وعلى الرسالة وعلى الجماعة.

o قال الله تعالى: **قَالَ رب اجعلْ لي آيةً** [مريم: ١٠] أي علامة في قول الجميع لا أعلم في ذلك خلافاً.

o وفي الصحيحين من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**آيـة الإيمـان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**))؛ فالآية هي العلامة البينة الدالة على المراد.

o ومن الإطلاق الثاني وهو استعمال مشهور في لغة العرب قول كعب بن زهير:

ألا أبلـغا هـذا المعـرض آيـة   أيقظان قال القول إذ قال أو حلم

- الآيات هي علامات بينات على ما أراده الله تعالى بها، وهي رسائل من الله إلينا.
- لفظ (الآية) أبلغ من (العلامة) ولذلك استعمل في القرآن الكريم، ففيه زيادةً على معنى الدلالة معنى الوضوح والجلاء والبيان، ومنه يقال (إياة الشمس) يعني ضوؤها.
- قال الخليل بن أحمد: (الآية: العَلامةُ، والآية: من آيات الله، والجميع: الآي)
- قوله: (والآية: من آيات الله) يشمل الآيات الكونية والشرعية

o فالآيات الكونية: الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض وما أنعم به من سائر النعم كلها آيات على أنها من عند الله جل وعلا وهي علامات بينات لا ينكرها إلا مُكابِر مُعانِد.

o والآيات الشرعية هي: آيات القرآن المتلوة، سميت بذلك لأنها دالة على أنها من عند الله عز وجل، ولأن فيها من البراهين البينة ما يوجب قيام الحجة على من بلغته.

أمثلة للآيات الدالة على بطلان عبادة ما سوى الله عز وجل

- ذكر الله تعالى في الكتاب براهين عقلية تدل على بطلان عبادة ما يعبد من دون الله

قال الله تعالى: **قُلْ أرأيتم شركاءَكُم الذين تدعونَ من دون الله أروني ماذا خلقُوا من الأرضِ أم لهم شركٌ في السماوات أم آتيناهم كتابًا فَهم على بينةٍ منه بلْ إنْ يعد الظالمونَ بعضهم بعضًا إلّا غُرورًا** [فاطر: ٤٠].

o فذكر الله ثلاثة أدلة بينة على أن هؤلاء الشركاء الذين يُدعون من دون الله لا يستحقون أن يعبدوا من دون الله جل وعلا.

▪ فهم لم يخلقوا شيئاً، وعبادة من لا يخلق من دون خالقه سفه وضلال كما دل عليه قوله تعالى: **أيشركُونَ ما لَا يخلُق شيئًا وهم يخلَقُونَ** [الأعراف: ١٩١].

▪ وليس لهم نصيب في الملك يشاركون الله فيه، فيسألهم من يدعوهم من نصيبهم الذي يملكونه.

▪ ولم يأذن الله بعبادتهم؛ فبطل ما كانوا يغرون به بعضهم من زخرف القَوْل والعِدَات الباطلة.

o وقوله تعالى: **بلْ إنْ يعد الظالمونَ بعضهم بعضًا إلا غُرورًا** [فاطر: ٤٠] بيان لسنة كونية لا تنخرم، وهي أن الظالمون إنما يغر بعضهم بعضاً ويمنّي بعضهم بعضاً حتى إذا أتوا ما يمقتهم الله عليه وعاينوا عذابه لم تنفعهم وعودهم ولم تغن عنهم من الله شيئاً.

o هذه الآية نظير قول الله تعالى: **قُلْ أرأيتم ما تدعونَ من دون الله أروني ماذَا خلَقُوا من الْأرض أم لَهم شركٌ في السماوات ائْتوني بِكتابٍ من قَبل هذَا أو أَثارةٍ من علْـمٍ إنْ كُنتم صادقِ (٤)** [الأحقاف: ٤]؛ فلم يخلقوا شيئاً ابتداء، وليس لهم فيه شراكة في الملك، ولم يؤذَن بعبادتهم.

• وقال تعالى: **قُلِ ادعوا الّذين زعمتم من دون الله لَـا يملكُـونَ مثْقَـالَ ذَرةٍ فـي السماوات ولَا في الْأرض وما لَهم فيهما من شركٍ وما لَه منهم من ظَهِيرٍ (٢٢) ولَا تنفَـع الشفَاعةُ عنده إلّا لمن أذنَ لَه حتّى إذَا فُزع عن قُلُوبِهم قَالُوا ماذَا قَالَ ربكُم قَالُوا الْحق وهو الْعلي الْكَبِير (٢٣)** [سبأ: ٢٢، ٢٣].

o قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (فتأمّلْ كيف أخذَتْ هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك، وسدتها عليهم أحكم سد وأبلغه؛ فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه وإلا فلو لم يرجُ منه منفعةً لم يتعلّقْ قلبه به، وحينئذ فلا بدَّ أن يكون المعبودُ: مالكاً للأسباب التي ينفع بها عابده، أو شريكاً لمالكها، أو ظهيرا أو وزيراً ومعاوناً له، أو وجيهاً ذا حرمة وقدر يشفع عنده؛ فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت انتفت أسباب الشرك وانقطعت موادُّه؛ فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقالَ ذرَّة في السموات والأرض، فقد يقول المشرك: هي شريكة لمالك الحق؛ فنفى شركتها

له، فيقول المشرك: قد تكون ظهيراً ووزيراً ومعاوناً؛ فقال: **وما له منهم من ظهير** ؛ فلم يبقَ إلا الشفاعة؛ فنفاها عن آلهتهم؛ وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ فهو الذي يأذنُ للشافع؛ فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه كما يكون في حق المخلوقين؛ فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها؛ وأما منْ كلُّ ما سواهُ فقيرٌ إليه بذاتِهِ، وهو الغني بذاتِهِ عن كل ما سواه فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه؟!!)ا.هـ.

- التفكر في آيات وجوب التوحيد يورث اليقين ببطلان الشرك، وأنه حد بين الكفر والإيمان، وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: **قُلْ إني نهيت أنْ أعبد الذين تدعونَ من دون اللَّه لَما جاءَنِي الْبينات من ربي وأُمرت أنْ أُسلم لرب الْعالَمين** [غافر: ٦٦].

حجج وجوب التوحيد في القرآن الكريم

- من أهم الحجج التي تكرر ذكرها في القرآن تنبيها على وجوب التوحيد:

○ ١: أن الله هو الخالق الرازق المالك المدبر فهو المستحق للعبادة.

○ ٢: أن الله تعالى هو الذي بيده وحده النفع والضر وغيره لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيره كما قال الله تعالى: **قُلْ أتعبدونَ من دون الله ما لا يملك لَكُم ضرا ولا نفعًا والله هو السميع الْعليم** [المائدة: ٧٦] أي الذي يعلم أحوالكم ويسمع دعاءكم.

○ ٣: أن الموحدين معهم سلطان الحجة والبرهان بأن الله أمر بعبادته وحده لا شريك له، وبذلك أرسلت إليهم الرسل.

○ ٤: أن المشركين الظالمين إنما يغرّ بعضهم بعضاً وأنهم لا حجة لهم على الشرك، بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

- والمقصود أن من تأمل الآيات الكونية والآيات الشرعية تبين له وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة، وأن من أشرك بالله شيئاً فهو من الخاسرين.

- الظالمون يكون لديهم علوم يفرحون بها، ومزاعم يغترون بها، ويتعامون عن التفكر في ما أمر الله بالتفكر فيه من الآيات البينات، ويفرحون بما عندهم من العلم الدنيوي،

ويُعرضون عما جاءت به الرسل، ويستهزئون بهم وبما جاؤوا به حتى إذا فنيت أعمارهم، وانقضت مهلة بقائهم في الدنيا، ورأوا ما كانوا يوعدون تبين لهم أنهم كانوا خاطئين.

- إذا رأوا آيات الآخرة عند الموت تبيّن لهم أن الشرك بالله باطل وضلال مبين، فيؤمنون حين لا ينفعهم الإيمان ولا يقبل منهم، ويتخلى عنهم الشيطان بعد أن أوردهم المهالك، وكُتب عليهم الشقاء الأبدي، وحرمت عليهم السعادة أبداً، وخسروا الخسران المبين والعياذ بالله.

- قال الله تعالى: **ويريكُم آياته فَأيّ آيات اللّه تنكرونَ (٨١) أفَلَم يسِ وا في الْ ـ أرضِ فَينظُروا كَيف كَانَ عاقبَةُ الّذين من قَبلهم كَانوا أكْثَر منهم وأشد قُوةً وآثَارًا في الْأرضِ فَما أغْنى عنهم ما كَانوا يكْسِبونَ (٨٢) فَلَما جاءَتهم رسلُهم بِالْبينات فَرحوا بِما عندهم م ـ ن الْعلْم وحاق بِهم ما كَانوا بِه يستهزِئُونَ (٨٣) فَلَما رأَوا بأسنا قَالُوا آمنا بِاللّه وحده وكَفَرنا بِما كُنا بِه مشرِك (٨٤) فَلَم يك ينفَعهم إ انهم لَما رأَوا بأسنا سنةَ اللّه التي قَد خلَت في عباده وخسِر هنالك الْكَافرونَ (٨٥)** [غافر: ٨١- ٨٥].

شرح عبارات المتن

قوله: (اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ - مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ - : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ).

- الدعاء للمتلقي فيه تلطف له كما سبق بيانه، والإرشاد هو الدلالة على طريق الرشد.
- الرشد هو إصابة الحق، وهو ضد الغي، قال الله تعالى: **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** [البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالى: **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا** [الأعراف: ١٤٦].
- قال دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد

- الغيُّ والغواية بمعنى واحد ومعناهما: الضلال والخطأ ومخالفة الصواب والانهماك في الباطل، والرشد نقيضه وهو الحق والصواب والهدى.
- الطاعة هي امتثال الأمر واجتناب النهي.
- قال الزجاج: (الملة في اللغة: السنة والطريقة)
- قال ابن سيده: (طَرِيقٌ مَلِيْلٌ وَمُمِلٌّ قد سُلِكَ فيه حتَّى صَارَ مَعْلَمًا).

قوله: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

- هذا هو معنى الحنيفية التي أمر الله بها.

قوله: (وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ).

- دليله قول الله تعالى: **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** [البينة: ٥].

قوله: (وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** [الذاريات: ٥٦])

- أي خلقهم الله لعبادته كما قال الله تعالى: **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** [الذاريات: ٥٦].

O هذا الأسلوب في لسان العرب يسمى الحصر، فالله حصر الغاية من خلق الجن والإنس في عبادته جل وعلا وحده لا شريك له.

O من لم يفعل ذلك لم يؤدِّ ما خلق لأجله؛ فيستحق العذاب على تركه ما خلق لأجله.

O الإنس هم: بنو آدم عليه السلام، سموا إنساً لأنهم يأنس بعضهم ببعض.

O والجن سمواً جناً لاجتنانهم أي استتارهم عن أنظار الناس كما قال الله تعالى: **إنـه يراكُم هو وقَبِيلُه من حيثُ لَا ترونهم** [الأعراف: ٢٧].

قوله: (وَمَعْنَى يَعْبُدُونِ: يُوَحِّدُونِ)

● هذا تفسير باللازم، لأن العبادة إذا لم تكن خالصة لله تعالى فهي باطلة، ليست بشيء.

● العبادات الباطلة يجعلها الله يوم القيامة هباء منثوراً؛ كما قال الله تعالى عن المشركين: **وقَدمنا إِلَى ما عملُوا من عملٍ فَجعلْناه هبـاءً منثُـورًا** [الفرقان: ٢٣]؛ لأن من لم يوحّد الله فعبادته باطلة؛ فصار حكمه كحكم من لم يعبد الله أصلاً.

● العبادة التي تنفع صاحبها هي العبادة المقبولة التي جمع صاحبها شرطي القبول: الإخلاص والمتابعة.

قوله: (وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ).

● عرف التوحيد بأنه إفراد الله تعالى بالعبادة.

O هذا هو تعريف توحيد الألوهية، وهو الذي وقعت الخصومة فيه بين الرسل وقومهم، وأما توحيد الربوبية فلم يخالف فيه إلا قلة وهم الملاحدة والثنوية.

● الذين بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا مقرين بأن الله تعالى هو الخالق الرازق ولم يدخلوا في دين الإسلام لأنهم لم يفردوا الله تعالى بالعبادة ولم يطيعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في أعظم ما أمر الله به وهو التوحيد.

قوله: (وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: واعبدوا ا ـ ولاَ تشركُوا به شيئاً [النساء: ٣٦]**).**

● عرف الشرك بالله بأنه دعوة غيره معه، وهو تعريف حسن دلَّ عليه النص، مع اختصاره

ووفائه بالدلالة على المراد.

- قال الله تعالى: **قُلْ أرأيتم شركاءَكُم الذين تدعونَ من دون الله أروني ماذَا خلقُوا من الأرض** [فاطر: ٤٠]، وقال: **والذين تدعونَ من دونِه ما يملكُـونَ مـن قطْمـ ٍ (١٣) إنْ تدعوهم لَا يسمعوا دعاءَكُم ولَو سمعوا ما استجابوا لَكُم ويوم القيامة يكْفُرونَ بِشـركِكُم ولَا ينـبئُك مثْلُ خبِ ٍ** [فاطر: ١٣، ١٤].
- قوله: (وهو دعوة غيره معه) يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة.
- الشرك على قسمين:
  - **أحد ا: الشرك الأك :** ويكون في الربوبية والألوهية:
    - أما الشرك الأكبر في الربوبية فهو: اعتقاد شريك لله تعالى في أفعاله من الخلق والرزق والملك والتدبير.
    - وأما الشرك الأكبر في الألوهية: فهو عبادة غير الله تعالى.
  - **والقسم الآخر: الشرك الأصغر،** وهو ما كان وسيلة للشرك الأكبر وسمي في النصوص شركاً من غير أن يتضمن صرفاً للعبادة لغير الله عز وجل.
    - ومثاله: الرياء بتحسين أداء الصلاة، لطلب مدح الناس وإعجابهم على عبادته لله جل وعلا؛ فهو صلى لله، لكنه أراد أن يمدحه الناس على حسن صلاته، وربما زاد في تحسينها ليزداد الناس في مدحه؛ وهو شرك أصغر، لأنه لم يخلص القصد لله جل وعلا، وليس بشرك أكبر لأنه لم يعبد غير الله.

قوله: (والدليل قوله تعالى: واعبدوا ا ً ولاَ تشركُوا به شيئاً [النساء: ٣٦]).

- قرن النهي عن الشرك بالأمر بعبادة الله تعالى فتبين بذلك معنى التوحيد.
- تُسمَّى هذه الآية آية الحقوق العشرة، وبدأ الله تعالى فيها بحقّه الذي خلق الخلق لأجله.

قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُوْلُ الثَّلاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُها؟ فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

- صاغ المؤلف رحمه الله هذه المسائل بطريقة السؤال والجواب لتكن أقرب للفهم، وأيسر

للتلقين للعامة والناشئة.

o ينبغي أن يعتنى المعلّم بتعليم الناشئة هذه المسائل وتلقينهم إياها حتى ينشأوا على معرفة هذه الأصول العظيمة التي هي أصول الدين.

o والأصول جمع أصل، وهو ما ينبى عليه الشيء؛ فمن لم يقم أصول الدين فدينه ليس له أصل، وهذه الأصول الثلاثة هي أصول الدين.

قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعْمَتِهِ، وَهُوَ: مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: ا َمــد للّــه رب العالم [الفاتحة: ٢]، **وَكُلُّ مَن سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ العَالَمِ).**

- هذا شروع في بيان الأصل الأول، وهو معرفة العبد ربه جل وعلا.
- قوله: (وهو معبودي ليس لي معبود سواه)؛ هذا تلقين للمتلقي، وبيان له بأن لا يكون له معبود سوى الله جل وعلا.

قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ)

- عَطْف المخلوقات على الآيات من باب عطف الخاص على العام.

قوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالْقمَرُ)

- أي من آياته الكونية، والآيات الكونية من المخلوقات، وعبّر عنها بالآيات لموافقة لفظ قوله تعالى: **ومن آياته الليلُ والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشـمس ولا للقمـر واسجدوا لله الذي خلقهن إنْ كُنتم إياه تعبدونَ** [فصلت: ٣٧].

قوله: (وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا).

- هذه المخلوقات هي من الآيات الكونية لأنها دالّة على خالقها جل وعلا، وعبّر عنها بالمخلوقات لموافقة لفظ قوله تعالى: **لَخلْق السماوات والأرض أكْبر من خلْق الناس** [غافر: ٥٧].

قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: لَخلْق السّماوات والأرض أكْبر مـن خلْـق النـاس [غافر: ٥٧]،

وَقَوْلُهُ تَعَالى: ﴿ومن آياته الليلُ والنهار والشمس والقمـر لا تسـجدوا للشـمس ولا للقمـر واسجدوا لله الذي خلقهن إنْ كُنتم إياه تعبدونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالى: ﴿إنّ ربكم الله الـذي خلق السماوات والأرض في ستة أيامٍ ثُم استوى على العرش يغشي الليلَ النهـار يطلبـه حثيثـاً والشمس والقمر والنجوم مسخراتٍ بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العـالم﴾ [الحديد: ٤]).

O هذه الآيات الكونية باب عظيم لمعرفة الله تعالى، وهي حجة في وجوب التوحيد.

قوله: (وَالرَّبُّ: هُوَ الْمَعْبُودُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿يا أيها النّاس اعبدوا ربكم الّذي خلقكُـم والّذين من قبلكُم لعلّكُم تتقُونَ (٢١) الذي جعلَ لكُم الأرض فراشاً والسماءَ بناءً وأنـزلَ مـن السماءِ ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكُم فلا تجعلُوا لله أنداداً وأنتم تعلمونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]).

- لما كانت الربوبية دليلاً على وجوب التوحيد، وكان الله هو الرب على الحقيقة لا ربّ لنا سواه، وأن غيره مما يعبد من دونه إنما اتُّخذ ربّا وليس له من الربوبية شيء؛ كان الربّ هو المستحقّ للعبادة، فهو الرب وهو المعبود الذي لا يستحق العبادة سواه جل وعلا.

قوله: (قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى: (الْخَالِقُ لِهذِهِ الأَشْيَاءِ، هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعبَادَةِ)).

- الاستشهاد بأقوال العلماء يزيد المعلّم والداعية قوّة في إقناع المتعلمين والمخاطَبين.

الدرس السابع: بيان معنى العبادة وأنواعها

قال رحمه الله:

(وَأَنْوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بهَا مِثْلُ الإِسْلاَمِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ؛ وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، والاسْتِعَانَةُ، والاسْتِعَاذَةُ، والاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بهَا: كُلُّها لِلَّهِ تَعَالى.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: **وأن ا َساجد لله فَلا تدعوا مع ا ـِ أحداً** [الجن: ١٨]، فَمَنْ صَرَفَ مِنْها شَيْئاً لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: **ومن يدع مع ا ـِ إ ا آخر لا برهانَ له به فَإنما حسابه عند ربه إنه لا يفْلح الْكَافرونَ** [المؤمنون: ١١٧]).

عناصر الدرس:

- ١: بيان معنى العبادة.
  - العبادة تكون بالقلب واللسان والجوارح
  - طرق معرفة العبادة
  - شروط قبول العبادة
- ٢: التذكير بالعهد العظيم بين العبد وربه جل وعلا.
- ٣: بيان درجات تحقيق العبودية لله تعالى.
- ٤: بيان الفرق بين العبادة الكونية والعبادة الشرعية.
- ٥: بيان وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة.

مقاصد الدرس

- لما ذكر المؤلف رحمه الله أن الأصل الأول من أصول الدين هو معرفة العبد ربه جل وعلا ، وبين أن أعظم ما أمر الله به التوحيد وفسره بأنه إفراد الله بالعبادة ، وذكر الدليل على ذلك ، وبين أن أعظم ما نهى الله عنه هو الشرك في عبادة الله جل وعلا ، اقتضى الترتيب أن يبين معنى هذه العبادة التي لها هذا الشأن العظيم.
- معرفة معنى العبادة من أهم ما يجب على طالب العلم معرفته.
- من المهم في هذا الباب دراسة الأصول التي يميّز بها طالب العلم حقيقة العبادة وكيف يدخل الشرك في العبادات وسبل تجنب هذا الشرك.
- هذا الدرس مقدّمة ممهّدة لدرسين بعده في أنواع العبادات التي ذكرها المؤلّف رحمه الله.

بيان معنى العبادة

- قال ابن جرير رحمه الله : (العبودية ، عندَ جميع العرب أصلُها الذلّة ، وأنها تسمي الطريقَ المذلَّلَ الذي قد وَطِئته الأقدام ، وذلّلته السابلة (معبَّدًا)).
- قال طَرَفَة بن العَبْد :

تُبَارِي عِتَاقًا نَاجياتٍ وأَتْبَعت   وَظِيفًا وظيفًا فوق مَوْرٍ مُعَبَّدِ

- قال ابن جرير : (يعني بالمَوْر : الطريق ، وبالمعبَّد : المذلَّل الموطوء ، ومن ذلك قيل للبعير المذلّل بالركوب في الحوائج : معبَّد ، ومنه سمي العبْدُ عبدًا لذلّته لمولاه)ا.هـ.
- وقال أبو منصور الأزهري : (ومعنى العبادة في اللغة : الطاعة مع الخضوع. ويقال طريقٌ مُعَبَّدٌ إذا كان مذلَّلا بكثرة الوطء).
- يشهد لما ذكره أبو منصور ما أنشده الخليل في العين لمن لم يسمّه :

تَعبَّدَني نِمْرُ بن سعدٍ وقد أُرى   ونمر بن سعدٍ لي مطيع ومُهْطعُ

- هذا تعريف لها باعتبار أصل معناها الملازم لها ، واعتبار هذا المعنى مهم.
- والعبادة على نوعين : عبادة كونية ، وعبادة شرعية.
  - فأما **العبادة الكونية** فهذه عامة لجميع الخلق ، كما قال الله تعالى : **إنْ كُل من في**

السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدًا [مريم: ٩٣]، وقال: **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا وإليه يرجعون** [آل عمران: ٨٣].

o وأما **العبادة الشرعية:** فلها تعريفات ذكرها بعض أهل العلم، وقد سلكوا مسالك في التعريف.

o من أحسنها تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالة (العبودية)؛ إذ قال رحمه الله تعالى: (العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة).

- قوله: (من الأعمال والأقوال) هذا قيد يخرج الأشخاص والأمكنة والأزمنة التي يحبها الله فلا توصف بأنها عبادة، لأن العبادة تتعلق بما يتعبد به.
- تعريف شيخ الإسلام للعبادة حسن بديع، وهو وصف جامع مانع للعبادات الشرعية.
- وأما العبادات الشركية والبدعية فلا يشملها هذا التعريف لأن الله تعالى لا يحبها ولا يرضاها ولا يقبلها، وإن كانت داخلة في اسم العبادة لغة؛ لأن كلُّ ما يُتقرَّب به إلى المعبود فهو عبادة.
- قال الله تعالى: **قُلْ يا أيها الكافرونَ (١) لا أعبد ما تعبدونَ** [الكافرون: ١، ٢]؛ فسمَّى ما يفعلونه عبادة، وقال تعالى: **أم لهم شركاءُ شرعوا لهم من الدين ما لم يأذَنْ به الله** [الشورى: ٢١]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: « **من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد** » رواه مسلم.
- العبادات الشركية والبدعية وإن كان يشملها اسم العبادة لغة وحقيقة من جهة كونها صادرة عن تذلل وخضوع للمعبود، لكنها عبادات باطلة عند الله؛ فمن عبد اللهَ عبادةً غير خالصة له فهي مردودة عليه، وكذلك من عبد الله بعبادة لم يأذن الله بها فهي مردودة عليه.

- تعريف شيخ الإسلام للعبادة تعريف بالحد الرسمي، وتعريف ابن جرير وأبي منصور تعريف لها بالحد الحقيقي.

• تعريف شيخ الإسلام باعتبار ما يشمله اسم العبادة مما شرع للعبد أن يتعبد به في شريعة الإسلام، وقول ابن جرير: (العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة) هذا بيان لما تكون به العبادة فهي لا تكون إلا بتذلل وخضوع.

• يصحب هذه الذلة في العبادات الشرعية التي أمر الله بها ثلاثة أمور: المحبة، والانقياد، والتعظيم.

• **أما الأمر الأول: وهو ا بة العظيمة،** فبيانه أن العبادة هي أعظم درجات المحبة.

o قال الله تعالى: **ومن الناس من يتخذُ من دون الله أندادًا يحبونهم كَحُـب اللـه والذين ءَامنوا أشد حبا لله** [البقرة: ١٦٥].

o قال إبراهيم الصولي:

وهان عليَّ اللوم في جنب حبها ... وقول الأعادي إنه لخليع
أصمُّ إذا نوديت باسمي وإنني ... إذا قيل لي يا عبدها لسميع

o وفي معناه ما ذكره القشيري وابن العربي وغيرهما عمّن لم يسمّوه:

يا قوم قلبي عند زهرائي ... يعرفه السامع والرائي
لا تدعني إلا بـ(يا عبدها) ... فإنه من أشرف أسمائي

o العابد مُحِبٌّ لمعبوده أشد المحبة؛ يقدِّم محبته على محبة النفس والأهل والولد والمال، لا يهنأ إلا بذكر محبوبه، ولا يأنس إلا بفعل ما يحبه، فذكره في قلبه ولسانه لا يكاد يكل ولا يمل من ذكره، بل يأنس بذكره في كل أحيانه، ويجتهد في كسب رضاه ومحبته، حتى لو بلغ الأمر به أن يضحي بنفسه في سبيله، وهذه المرتبة من المحبة لا يستحقها أحد غير الله عز وجل.

o إذا عظمت محبة الله في قلب العبد قادته إلى الاستقامة على طاعة الله عز وجل، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فهو يطيعه محبة له ورغبة ورهبة؛ كما قال الله تعالى: **قُـلْ إنْ كُنتم تحبونَ اللّه فَاتبِعونِي يحبِبكُم الله ويغفر لَكُم ذُنوبكُم والله غَفُورٌ رحيمٌ (٣١) قُـلْ أطيعوا الله والرسولَ فَإنْ تولوا فَإن الله لَا يحب الكَافرين (٣٢)** [آل عمران: ٣١، ٣٢].

o هذه الآية يسميها العلماء آية الامتحان، فإن دعوى المحبة سهلة، ولكن صدقها يبين

بهذا الامتحان وهو اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم.

▪ من اتبع الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أثبت صدق محبته لله تعالى، وأحبه الله جل وعلا وأفاض عليه من فضله ورحمته وأول ذلك مغفرته لذنوبه التي هي سبب الشقاء والعذاب.

O ومحبة الله تورث في نفس المؤمن حلاوة وعزة ورفعة لا يجدها غيره أبداً، ذلك أن الله كتب العزة والرفعة والحياة الطيبة لعباده المؤمنين الذين يحبونه ويتولونه، وجعلَهم حِزبَه وأولياءَه وأنصارَه وأتباعَه وعبادَه فأضافهم إليه إضافة تشريف وتكريم تقتضي لطفه بهم ومحبته وتوليه لهم، فـ **اللَّه ولي الذين آمنوا** [البقرة: ٢٥٧]، **والله ولي الْمؤمِنين** [آل عمران: ٦٨]، فهو وليهم الذي يتولى أمورهم ويجيب دعاءهم ويقضي حوائجهم ويفرج كروبهم ويعينهم ويعيذهم ويغيثهم ويغفر لهم ويرحمهم ويحفظهم ويتقبل أعمالهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً.

O من كملت محبة الله في قلبه كملت طاعته واستقامته، ومن كملت طاعته لم يعذبه الله أبداً، كما قال تعالى: **وقَالَت الْيهود والنصارى نحن أَبناءُ الله وأَحباؤه قُلْ فَلم يعـذبكُم بِذُنوبِكُم** [المائدة: ١٨]، فالمحبة تمنع العذاب.

▪ ولذلك قال الحسن البصري: (والله لا يعذب الله حبيبه في النار).

O إنما يقع العبد في الذنوب والمعاصي إذا ضعف إيمانه وقل يقينه، وضعف حبه لله وحبه لثوابه، حتى يؤثر اللذة الفانية على ثواب الله الباقي، فيقع في التقصير ويستحق من العذاب بقدر ما يعمل من المعاصي.

● **الأمر الثاني: التعظيم والإجلال**، فإن العابد معظِّمٌ لمعبوده أشد التعظيم، ومُجِلٌّ له غايةَ الإجلالِ، فالتعظيم من لوازم معنى العبادة.

O لفظ العبادة في اللغة فيه معنى التعظيم، كما قال حاتم الطائي:

وعاذلــة هبَّــت بليــل تلــومني ... وقــد غــاب عيُّــوق الثريــا فعــرَّدا
تقــول ألا تُبقــي عليــك فــإنني ... أرى المــال عنــد المسِـكين مُعَبَّــدا

▪ قال أبو منصور الأزهري: (أي مُعَظَّماً مخدوماً).

o تعظيم شعائر الله وحرماته من آثار تعظيم المؤمن لربه جل وعلا، وإجلاله له.

o قال الله تعالى: **ذَلك ومن يعظم حرمات الله فَهو خيرٌ له عند ربه** [الحج: ٣٠] وقال: **ذَلك ومن يعظم شعائر الله فَإنها من تقْوى القُلُوبِ** [الحج: ٣٢].

o أَمَرَ الله بتعظيمه كما في قوله تعالى: **وكَبره تكْـبِـيراً** [الإسراء: ١١١] أي عظمه تعظيماً شديداً، وقوله: **ولتكبروا الله على ما هـداكُم** [الحج: ٣٧] أي: تعظموه شكراً له على هدايته لكم.

o من تأمل أسماء الله الحسنى وتأمل آثارها في الخلق والأمر تبين له بعض معاني عظمة الله جل جلاله، وأورثه ذلك تعظيم أوامره ونواهيه، والحرص على أن يكون من أوليائه وحزبه المفلحين، واشتد كرهه لما يعرضه لمقت الله وسخطه.

- **الأمر الثالث: الانقياد والخضوع والتذلل،** يقال طريق معبَّد أي مذلَّل، فالعابد منقاد لمعبوده خاضع له.

o ذلّ العبد لله عز وجل وانقياده لطاعته هو عين سعادته، وسبيل عزته ورفعته.

o من ذلَّ لله رفعه الله وأعزه، ومن استكبر واستنكف أذله الله وأخزاه، وسلط عليه من يسومه سوء العذاب، ويذله ويهينه.

o أعظم الخلق خشية لله وانقياداً لأوامره الأنبياء والملائكة والعلماء والصالحون، وهم أعظم الخلق عزة ورفعة وسعادة.

o وأعظم الخلق استكباراً واستنكافاً مردة الشياطين، والطغاة والظلمة، وهم أعظم الخلق ذلاً ومهانة.

- وهذه الأمور الثلاثة (المحبة والتعظيم والانقياد) مبنية على التذلل لله جل وعلا، وبها يتحقق معنى العبودية لله جل وعلا.

العبادة تكون بالقلب واللسان والجوارح

- عبادة القلب جامعة لأمرين:

o ١: الاعتقاد وهو التصديق واليقين، ويسمّى قول القلب.

o ٢: وعمل القلب من المحبة والخوف والرجاء والتوكل وغير ذلك من أعمال القلوب.

- وعبادة اللسان هي بقول ما يحبه الله من الذكر والدعاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من الأقوال التي يحبها الله.
- وعبادة الجوارح هي ما تقوم به جوارح الإنسان من أعمال التعبد كالصلاة والزكاة والصيام والحج والذبح والنذر وغيرها.
- العبادة تكون بالقلب واللسان والجوارح.

طرق معرفة العبادة

- تعرف العبادة بإحدى ثلاث طرق:
  - o الطريق الأول: أن يرد في النصوص تسمية عمل من الأعمال أو قول من الأقوال بأنه عبادة؛ كما في حديث: (الدعاء هو العبادة).
  - o الطريق الثاني: أن يدل الدليل على أن الله تعالى يحبه، إما بترتيب الثواب على فعله، أو العقاب على تركه، أو بمدح فاعله وذم تاركه أو غير ذلك؛ فما يحبه الله ويرضاه فهو عبادة.
  - o الطريق الثالث: أن يدل الدليل على أن الله أمر به؛ فَأَمْرُ الله به دليل على أن الله يحبه فيكون عبادة.

شروط قبول العبادة

- لقبول العبادة شرطان:
  - o الشرط الأول: الإخلاص لله جل وعلا.
  - o والشرط الثاني: أن تكون هذه العبادة صواباً على سنة النبي صلى الله عليه وسلم.
- بتحقيق هذين الشرطين: إخلاص العبادة لله عز وجل، واتباع النبي صلى الله عليه وسلم، يكون العبد من المسلمين الموعودين بدخول الجنة، ومن نقض شرطاً منهما فليس من أهل الإسلام والعياذ بالله.
- فالشرط الأول هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله، والشرط الثاني هو معنى شهادة أن محمداً رسول الله، ولا يصح إسلام عبد حتى يشهد هاتين الشهادتين.

٢: العهد العظيم بين العبد وربه جل وعلا

• مَن شهد أن لا إله إلا الله فقد عاهد الله أن يخلِص العبادة له وحده، وبهذا العهد يدخل في دين الإسلام، وقد علمت معنى العبادة فيما سبق.

• لذلك كانت (لا إله إلا الله) أعظم الحسنات، وأعلى شعب الإيمان، ومفتاح الجنة، وأفضل الذكر، ومن كانت آخر كلامه من الدنيا دخل الجنة.

• هذا العهد العظيم جزاءُ من وفّى به أن يدخله الله الجنة، ومن خان هذا العهد وغدر ونقضه أدخله الله النار.

• وهذا العهد الذي بين العبد وربه بالتوحيد وإخلاص العبادة له هو أعظم العهود، وأعظم الأمانات، وجزاؤه وثوابه أعظم الجزاء والثواب، وعقاب نقضه ونكثه أعظم العقاب.

• أحرص ما يكون الشيطان على أن ينقض العبد هذا العهد الذي بينه وبين ربه؛ ليحرمه ثواب الوفاء به ويوبقه في عذاب نقضه، فهو يوسوس له، ويعده ويمنيه، ليثبّطه عن الوفاء بهذا العهد العظيم.

• لا يزال الشيطان حريصاً على أن ينقض العبد هذا العهد الذي بينه وبين الله نقضاً تاماً، فينقض عهد الله من بعد ميثاقه؛ فيرتكب ناقضاً من نواقض الإسلام ينقضه به هذا العهد فيموت العبد كافراً والعياذ بالله.

o هذه هي غاية الشيطان التي أقسم عليها كما بين الله تعالى ذلك بقوله: **وإذْ قُلْنا للْملَائكة اسجدوا لآدم فَسجدوا إلا إبليس قَالَ أأسجد لمن خلقْت طينًا (٦١) قَالَ أرأيتك هذَا الذي كَرمت علي لئن أخرتنِ إلَى يومِ الْقيامة لَأحتنِكَن ذُريته إلا قَليلًا (٦٢) قَالَ اذْهب فَمن تبِعك منهم فَإن جهنم جزاؤكُم جزاءً موفُورًا (٦٣) واستفْزِز منِ استطَعت منهم بِصوتك وأَجلب علَيهم بِخيلك ورجِلك وشارِكْهم في الْأموالِ والْأولَاد وعدهم وما يعدهم الشيطَانُ إلا غُرورًا (٦٤) إن عبادي لَيس لَك علَيهم سلْطَانٌ وكَفَى بِربك وكيلًا (٦٥)** [الإسراء: ٦١- ٦٥].

▪ من حقق العبودية لله تعالى لم يكن للشيطان عليه سلطان.

▪ معنى لأحتنكن: أي لأستولين عليهم ولأقودنَّهم إلى المعاصي كما يقود الرجل

دابته فيلقي على حنكها حبلاً يحتنكها به ويقودها به إلى حيث يشاء.

• أعظم الخسران أن يبيع العبد هذا العهد بطاعة عدوّه وتصديق أمانيّه ؛ فيحرم الثواب العظيم الذي جعله الله لمن وفّى بعهده وصدّق بوعده.

• قال الله تعالى : **ألم أعهد إليكم يا بني آدم أنْ لا تعبدوا الشيطانَ إنه لكُم عدو مـ ـبٍ ٌ (٦٠) وأن اعبدوني هذَا صراطٌ مستقيمٌ (٦١) ولقَد أضل منكُم جِبِلّا كثـ ًـا أفَلم تكُونـوا تعقلُونَ (٦٢) هذه جهنم ٱلّتي كُنتم توعدونَ (٦٣) اصلُوها الْيوم بِما كُنتم تكْفُرونَ(٦٤)** [يس : ٦٠- ٦٤]

• كل عبادة لغير الله تعالى فهي عبادة للشيطان لأنها طاعة له في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله وأعظم ما حرم الله تعالى هو الشرك ، سواء شعر الإنسان أنه يطيع الشيطان أو لم يشعر.

• وكل منفعة أو لذة يحصلها العبد بسبب نقضه لهذا العهد فهو ثمن قليل زائل ولو أعطي الدنيا بحذافيرها ، وقد قال الله تعالى : **ولا تشتروا بِعهد الله ثَمنًا قَليلًا إنما عند الله هو خيرٌ لَكُم إنْ كُنتم تعلَمونَ (٩٥) ...** [النحل : ٩٥] الآيات

o ضمن الله لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات أعظم الثواب في الدنيا والآخرة ففي الدنيا لهم الحياة الطيبة التي لا أفضل منها ، وفي الآخرة يجزيهم الله أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

• في الصحيحين من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً : « **فإن حـق ا علـى العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحقّ العباد على ا : أن لا يعذب من لا يشرك بـه شيئا** ».

• شأن هذا العهد عظيم ، ولذلك شرع أن يجدده العبد في اليوم والليلة مراراً حتى لا ينساه أو يغفل عنه ، وقد تضمنته الشهادتان ، وهما يكرران في الأذان والإقامة وفي تشهد كل صلاة.

o كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه التشهد في الصلاة كما يعلمهم السورة من القرآن.

o وهذا العهد تضمنه سيد الاستغفار الذي يستحب للعبد أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى

وَرُتِّبَ على الدعاء به الثوابَ العظيم.

٣: درجات تحقيق العبودية لله تعالى

- إذا تبين لك ما سبق فاعلم أن تحقيق العبودية لله تعالى على ثلاث درجات:
  - **الدرجة الأو :** الإتيان بأصل العبودية لله تعالى، وهو ما يبقى به المرء مسلماً، فيعبد الله وحده لا شريك له، ويجتنب عبادة غير الله جل وعلا، ويأتي من الفرائض ويجتنب من النواقض ما يبقى به إسلامه. فهذه درجة الإسلام.
  - **الدرجة الثانية:** تحقيق الكمال الواجب في العبادة، وهذه مرتبة الإيمان، وهي درجة عباد الله المتقين.
  - **الدرجة الثالثة:** تحقيق الكمال المستحب في العبادة، وهذه مرتبة الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.
- كل درجة من هذه الدرجات يتفاضل المسلمون فيها تفاضلاً كبيراً لا يحصيهم إلا من خلقهم.
- أما من أشرك بالله تعالى شيئاً فليس من أهل عبودية الله، وإنما هو من عباد الشيطان كما قال الله تعالى: **ألم أعهد إليكم يا بني آدم أنْ لا تعبدوا الشيطانَ إنه لكُم عدو مبٌ** [يس: ٦٠]
- أصحاب الدرجة الأولى مسلمون موعودون بدخول الجنة وإن عذبوا قبل ذلك على بعض ما اقترفوه من الذنوب؛ فما معهم من التوحيد والإسلام مانع من الخلود في النار، وفي هذه الطبقة يكون أهل الكبائر من المسلمين.
- وأصحاب الدرجة الثانية هم المتقون الذين يجتنبون المحرمات ويؤدون الفرائض؛ فيؤدون حقوق العبادة الواجبة ويجتنبون الشرك الأصغر من الرياء وتعلق القلب بغير الله تعالى كالتعلق بالمال والرياسة والأشخاص وغيرهم فهذا كله قادح في تحقيق القدر الواجب من العبودية لله تعالى.
  - من تعلق شيئاً دون الله وكل إليه، ومن أحب شيئاً من دون الله حتى يعصي الله بسببه عذب به، وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

« تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد ا ميصة إن أعطي رضي وإن يعط1 سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش ».

▪ هذا دعاء عليه من النبي صلى الله عليه وسلم بالتعاسة والانتكاسة، فكلما قام من سقطة وقع في أخرى، وإذا أصيب ببلاء لم يهتد للخروج منه، وسبب ذلك عبوديته للدنيا، وغفلته عن الله جل وعلا.

o إذا كان العبد همته للدنيا إن أعطي منها رضي، وإن لم يعط ظل ساخطاً على قضاء الله وقدره متبرماً منه لم يكن قلبه سليماً لله جل وعلا بل فيه عبودية لغير الله.

o هذا أمر تشاهد آثاره فيمن تعلق قلبه بمال أو رئاسة أو شخص يحبه حتى يعصي الله لأجله؛ فيكون في قلبه رقّ لما أحبه وتعلّق به وعصى الله لأجله.

o قال ابن تيمية رحمه الله: (كلُّ مَن علَّق قلبَه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه خضع قلبُه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك).

• وقال أيضاً: (ومن أعظم أسباب هذا البلاء إعراض القلب عن الله فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ولا ألذ ولا أمتع ولا أطيب والإنسان لا يترك محبوبا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه أو خوفا من مكروه فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح أو بالخوف من الضرر. قال تعالى في حق يوسف: **كَذَلِكَ لنصرف عنه السّوءَ والفَحشاءَ إِنّه من عبادنا المخلص** [يوسف: ٢٤]). ا.هـ.

• إذا كان القلب أسيراً لشيء من هذه المحبوبات لم يكن خالصاً لله جل وعلا، ولم يأت صاحبه بالعبودية الواجبة، بل يكون في قلبه ذلٌّ لها مصحوب بخوف ورجاء وهذا هو معنى العبادة التي يجب إخلاصها لله جل وعلا، ولذلك سماه النبي صلى الله عليه وسلم عبداً للمال، وإن كانت هذه العبودية ليست تامة بحيث تفضي به إلى الشرك الأكبر إلا من بلغت به عبوديته للدنيا أن يرتكب ناقضاً من نواقض الإسلام والعياذ بالله.

• قال ابن القيم رحمه الله: (وليس له أَنْفَعُ من التوَجُّهِ إلى اللهِ وإقبالِه عليه وتَوَكُّلِه عليه، وثِقَتِه به، وأن لا يَخافَ معه غيرَه، بل يكونُ خوفُه منه وحدَه ولا يَرجُو سواه، بل يَرجوه وحدَه، فلا يُعَلِّقُ قلبَه بغيرِه ولا يَستغيثُ بسواه ولا يَرْجُو إلا إيّاه.

- ومتى عَلَّقَ قلبَه بغيرِه ورجاهُ وخافَه وُكِلَ إليه، وخُذِلَ من جِهَتِه، فمَن خافَ شيئًا غيرَ اللهِ سُلِّطَ عليه، ومَن رَجَا شيئًا سِوى اللهِ خُذِلَ من جِهَتِه وحُرِمَ خيرَه، فهذه سُنَّةُ اللهِ في خَلْقِه: **ولن تجِد لسنّة ا ـ تبديلًا** [الأحزاب: ٦٢]) اهـ.

- هذا الذل يختلف عن الذل الذي أمر الله به ومدحه كما في قوله تعالى في شأن الوالدين: **واخفض لهما جناح الذّلّ من الرّحمة** [الإسراء: ٢٤]، وقوله: **فسوف يأتي اللّه بقومٍ يحبهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنِ أعزةٍ على الكافرين يجاهدونَ في سبيلِ الله ولا يخافُونَ لومـة لائمٍ** [المائدة: ٥٤]، فهذه ذلة مصحوبة بالرحمة وقصد الإحسان إلى المتذلل له فليس فيها ما يقدح في العبودية لله جل وعلا، بخلاف عبودية الدنيا المحرمة فإنها ذل في القلب مصحوب بخوف ورجاء مع غفلة القلب عن التعلق بالله جل وعلا.

- من كان قلبه مؤمناً بالله سليماً له جلّ وعلا علم أن ما يصيبه خير له، ولم يأس على ما فاته لإحسانه ظنه بالله، فلذلك لا يشقى؛ وأما من ضعف يقينه بالله ولم يتبع هداه فإنه يشقى بمطلوبه وإن تحقق له، ويكون فتنة له.

- قاعدة مهمة فيما يبتلى به المؤمن، وهي: أن كل بلاء يبتلى به المؤمن يصاحبه أمران:

  - الأمر الأول: بيان الهدى فيما يجب على العبد أن يتقيه ويتجنَّبه، وما يحبه الله لعبده وينجيه به مما يخاف منه، وذلك أن العبد إذا ابتلي كان معرّضاً لفعل الصواب والخطأ؛ فإن أصاب فهو مهتدٍ، وإن أخطأ فقد ضل، وتختلف درجة الضلال بحسب درجة المخالفة، وقد قال الله تعالى: **وما كانَ الله ليضل قومًا بعد إذْ هداهم حتى يبين لهم ما يتقُونَ إن اللـه بكُل شيءٍ عليمٌ** [التوبة: ١١٥].

    - قال الشافعي رحمه الله: (فليست تنزل في أحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها).

  - **الأمر الثا : اللطف والتيس ،** وقد قال الله تعالى: **فإن مع العسر يسرًا (٥) إن مع العسر يسرًا** [الشرح: ٥، ٦]، ولن يغلب عسر يسرين، وأول التيسير أن يعلم أنه لا ينزل بعبد مؤمن بلاء إلا كان بعده فرج فهذا اليقين المعتمد على حسن الظن بالله جل وعلا والتصديق بوعده ورجائه عبادة عظيمة من أجل العبادات وهو في هذا يدافع وساوس الشيطان وما

يلقيه في نفسه من الخواطر الرديئة والتيئيس من رحمة الله والتشكيك في صدق وعده ؛ فيكون المؤمن في حال ابتلائه مجاهداً صابراً راجياً ربه جل وعلا.

▪ روى الإمام مالك في الموطأ وابن أبي شيبة في مصنفه وابن جرير في تفسيره وغيرهم عن زيد بن أسلم أنه قال : كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم ؛ فكتب إليه عمر بن الخطاب : (أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجا وأنه لن يغلب عسر يسرين وأن الله تعالى يقول في كتابه **يا أيها الذين آمنوا اصبِروا وصابِروا ورابِطُوا واتقُوا الله لَعلكُم تفْلحونَ** [آل عمران : ٢٠٠]).

وقال الشاعر :

وكــل شــديدة نزلــت بحــي ... ســيأتي بعــد شــدتها رخــاء

o من تأمل أوجه اللطف فيما يتعرض له من البلاء علم حقيقة هذا الأمر.

● بهذا يعلم المؤمن أن كل قضاء يقضيه الله له فهو خير له، وليس ذلك إلا للمؤمن والله تعالى عليم حكيم في قضائه وقدره وتدبيره، وفي صحيح مسلم من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**عجباً لأمر ا ؤمن أن أمره كله له خ ٌ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خ اً له، وإن أصابته ضراء ص فكان خ اً له**)).

o تأمل قول الله تعالى : **قُلْ لن يصيبنا إلا ما كَتب الله لَنا** [التوبة : ٥١] ولم يقل (علينا) وفي هذا دليل على أن كل ما يصيب المؤمن فهو له وليس عليه، وذلك إذا اتبع هدى الله، أما إذا خالف هدى الله فإنه يستحق من العقوبة بقدر ما خالف وضعف إيمانه.

o بذلك يعلم المؤمن أن كماله وهدايته وأنسه وأمنه إنما هو في اتباع هدى الله جل وعلا فإنه حينئذ يكون ولياً من أولياء الله فيتولى الله أموره ويرشده إلى ما ينفعه ويوفقه لفضله العظيم كما قال الله تعالى : **الله ولي ٱلّذين آمنوا يخرجهم من الظلُمات إلى النور** [البقرة : ٢٥٧].

- **الدرجة الثالثة: تحقيق الكمال المستحب في العبادة**، وهذه مرتبة الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

  o هذا يحملك على أن يكون حبك لله ولما يحبه الله، وبغضك لما يبغضه الله ولما يبعدك عن الله، وينبني على ذلك تعظيم ما عظمه الله، وتحقير ما حقره الله.

  o في سنن أبي داوود وغيره من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((**من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**)).

  o العطاء والمنع في الحديث لا يختص بالمال بل هو عام في كل ما يُعطى ويمنعُ من مال وعلم وجاه وجهد ووقت، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

  o من عمل بهذا الحديث فقد أسلم قصده لله تعالى واستمسك بالعروة الوثقى التي لا أوثق منها، كما قال الله تعالى: **﴿ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسِنٌ فَقَدِ استمسك بِالْعروة الْوثْقى وإِلى الله عاقبةُ الأمور﴾** [لقمان: ٢٢].

  ▪ (الوثقى) صيغة مبالغة، يقال: عروة وثيقة أي شديدة متينة مأمونة، وعروة أوثق من عروة، والعروة الوثقى أي التي لا أوثق منها.

  ▪ العروة هي ما يستمسك به للنجاة؛ فإذا كانت العروة وثقى، والاستمساك قوياً نجا العبد مما يخاف.

٤: العبادة الكونية والعبادة الشرعية

- ذكرنا أن العبادة على نوعين: عبادة متعلقة بالربوبية وعبادة متعلقة بالألوهية.

  o **فأما العبادة المتعلقة بالربوبية** فهي عامة لجميع الخلق لا يخرج منهم أحد عنها كما قال الله تعالى: **﴿إنْ كُل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدًا (٩٣) لَقَد أحصاهم وعدهم عدا (٩٤) وكُلهم آتيه يوم الْقيامة فَردًا (٩٥)﴾** [مريم: ٩٣- ٩٥]، وقال تعالى: **﴿وهو الْقَاهر فَوق عباده وهو الْحكيم الْخبير﴾** [الأنعام: ١٨]؛ فهذه هي العبادة الكونية لا يخرج منها برٌّ ولا فاجر.

  o **وأما العبادة الشرعية** فهي الفارقة بين المسلمين والكفار وأهل الجنة وأهل النار، وهي إخلاص العبادة لله جل وعلا وامتثال أمره واجتناب نهيه.

o العبادة المتعلقة بالربوبية من الإقرار بخلق الله تعالى وملكه وتدبيره وشهود الفقر إلى الله تعالى، لا تفرق بين المؤمن والكافر وأهل الجنة والنار، لأن العبد قد يعرف ذلك ويعصي الله ويعبد غير الله كما فعل المشركون.

o شهود مشهد الربوبية لا يدخل العبد في الإسلام ولا يقتضي الإخلاص في العبادة، وإن كان حجة في وجوبه لكن لا يقتضي أن يقوم العبد به.

o قال الله تعالى في المشركين: **قُلْ من يرزقُكُم من السماءِ والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الْحي من الْميت ويخرج الْميت من الْحي ومن يدبر الْأمر فَسيقُولُونَ الله فَقُلْ أَفَلَا تتقُونَ (٣١) فَذَلكُم الله ربكُم الْحق فَماذَا بعد الْحق إِلَّا الضلَالُ فَأنى تصرفُونَ** [يونس: ٣١، ٣٢].

o مشركو العرب كانوا يقرون بوجود الله تعالى وأنه هو الخالق الرازق المدبر لأمورهم ومع هذا لم يكونوا مسلمين لأنهم لم يتقوا الله تعالى ولم يفردوه بالعبادة، والتوحيد هو أصل التقوى.

o المعرفة التي لا يترتب عليها امتثال الأمر حجة على صاحبها وعذاب عليه، وهي من شأن أهل الجحود والاستكبار والإعراض، كما قال الله تعالى: **وجحدوا بِها واستيقَنتها أنفُسهم ظُلْمًا وعلُوا** [النمل: ١٤] وقال: **فَإِنهم لَا يكَذبونك ولَكن الظالمين بِآيات الله يجحدونَ** [الأنعام: ٣٣].

- المخالفون في العبودية الشرعية على درجتين:

o **الدرجة الأولى:** المشركون الذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى، فلم يمتثلوا أمره في أعظم ما أمر به، فهؤلاء مشركون كفار خارجون عن دين الإسلام.

o **الدرجة الثانية:** المبتدعة الضلال الذين غلّبوا جانب التعبد لله بالتفكر في أفعاله وخلقه حتى ضيعوا بعض الفرائض وارتكبوا بعض المحرمات، كما يفعله بعض المتصوفة.

▪ بعض غلاة المتصوفة قد يصل به الأمر إلى تضييع الأوامر جملة حتى يخرج من دين الإسلام والعياذ بالله.

▪ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند

شهودها ولم يقم بما أمر الله به من الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلقة بألوهيته وطاعة أمره وأمر رسوله كان من جنس إبليس وأهل النار ؛ فإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق الذين سقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان كان من أشر أهل الكفر والإلحاد).

- هؤلاء الذين زعموا أنهم وصلوا إلى درجة اليقين وأن التكاليف قد سقطت عنهم كفار مرتدون خارجون عن دين الإسلام والعياذ بالله.

o من مداخل الشيطان على بعض الناس أن يصرف همتهم عن أداء الفرائض واجتناب المحرمات إلى التفكر فيما يثبتون به وحدانية الله تعالى وأنه هو الخالق الرازق المدبر للأمر ويظنون أنهم إذا أتوا بهذا الأمر فقد أبلوا بلاء حسنا يعفى به عن تقصيرهم وتفريطهم في أداء الفرائض.

o لذلك تجد بعض من خدع بهذه الخديعة من المسلمين يعظم بحوث من أوتي ظاهراً من العلم فيما يثبتون به شيئاً من آثار ربوبية الله تعالى وسعة علمه وحكمته وتدبيره ويظل يتتبعها ويفني وقته وجهده في التنقيب عنها بل ربما زاد بعضهم عليها بعض الأكاذيب والتهويلات والتلفيقات ليخرجوا للناس بشيء يزعمون أنه جديد لم يسبقوا إليه في دلائل إثبات وحدانية الله تعالى في خلقه وملكه وتدبيره ، **وهذا خطأ ينبغي التنبيه عليه.**

o لا خلاف في أن المؤمن مأمور بالتفكر في آيات الله ومخلوقاته بما يحمله على التقوى وامتثال الأمر واجتناب النهي أما إذا كان تفكره للتعجب والتأمل المجرد الذي لا ينبني عليه عمل فلا يمتثل الأمر ولا يجتنب النهي فتفكره حجّة عليه وعذاب عليه - والعياذ بالله - وإنْ صاحَبه إقرار بوحدانية الله تعالى في خلقه وملكه وتدبيره.

٥: بيان وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة

إفراد ا تعا بالعبادة هو حقيقة التوحيد الذي خلقنا لأجله.

- قول الله تعالى: **وما خلقت ا نّ والإنـس إلا ليعبـدون** [الذاريات: ٥٦] فيه بيان العلّة الشرعية من خلق الجنّ والإنس التي عليها مدار الثواب والعقاب والأمر والنهي ،

وقوله تعالى: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ [هود: ١١٨] بيان للعلّة الكونية القدرية التي هي مقتضى حكمته جلّ وعلا، وفيها أن الاختلاف عذاب.

- توعّد الله تعالى من أشرك معه أحداً في عبادته بالخلود في النار وأن لا يغفر له شركه دليل على شدة وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة.
- وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة هو مقتضى الشرع والعقل والعدل؛ فالله تعالى هو الخالق الرازق وهو الملك المدبّر فعبادة غيره ظلم عظيم وسفَه وضلال كبير.

شرح عبارات المتن

قوله: (وَأَنْوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بهَا مِثْلُ الإسْلاَمِ، وَالإيمَانِ، وَالإحْسَانِ؛ وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشْيَةُ، وَالإنَابَةُ، والاسْتِعَانَةُ، والاسْتِعَاذَةُ، والاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ الله بهَا: كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالى).

- ذكر الشيخ رحمه الله أصول العبادات وأهم أنواعها، وبَيَّن أن هذه العبادات يجب إفراد الله تعالى بها، وأن مَن صرَف شيئاً منها لغير الله تعالى فهو مشرك كافر والعياذ بالله.

قوله: (وَأَنْوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بهَا مِثْلُ الإسْلاَمِ، وَالإيمَانِ، وَالإحْسَانِ).

- هذه مراتب الدين، وقد تبيّن مما سبق أن درجات تحقيق العبودية لله تعالى مرتّبة على مراتب الدين من الإسلام والإيمان والإحسان.

قوله: (وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشْيَةُ، وَالإنَابَةُ، والاسْتِعَانَةُ، والاسْتِعَاذَةُ، والاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ الله بهَا: كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالى).

- هذه العبادات يتفاضل المسلمون في تحقيقها على درجات العبودية لله تعالى فمسلم ومؤمن ومحسن.
  - من أداها مخلصاً لله تعالى ولم يشرك مع الله فيها أحداً فهو مسلم.
  - ومن أداها مخلصاً لله تعالى مكملاً واجباتها مجتنباً الشرك الأصغر فيها فهو مؤمن.

o ومن أداها على الكمال المستحب فهو محسن ، نسأل الله من فضله.

قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: **وأن ا َساجد لله فَلا تدعوا مع ا ـ أحداً** [الجن: ١٨]).

- هذا دليل على تحريم دعاء غير الله تعالى دعاء مسألة أو دعاء عبادة.
- تقدّم تفسير هذه الآية في درس سابق.

قوله:(فَمَنْ صَرَفَ مِنْها شَيْئاً لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: **ومن يدع مع ا ـ إ أ آخر لاَ برهانَ لَه به فَإنما حسابه عند ربه إنه لا يفْلح الْكافرونَ** [المؤمنون: ١١٧]).

- هذه الآية فيها وصف من دعا غير الله بأنه كافر.
- وقوله **لاَ برهانَ لَه به** [المؤمنون: ١١٧] هذا وصف كاشف للعلة اللازمة لكل ما يعبد من دون الله تعالى وهو أنه لا برهان لأحد بأن الله تعالى قد أذن بعبادة إله من دونه.

الدرس الثامن: الدعاء والخوف والرجاء والتوكل

قال رحمه الله:

وفي الحديث: « الدعاء مخ العبادة »، الدليل قوله تعالى: **وقَالَ ربكُم ادعونِي أستجِب لَكُم إن الذين يستكْبِرونَ عن عبادتي سيدخلُونَ جهنم داخرين** [غافر: ٦٠].

ودليل الخوف قوله تعالى: **فَلَا تخافُوهم وخافُون إنْ كُنتم مؤمنِ** [آل عمران: ١٧٥].

ودليل الرجاء قوله تعالى: **فَمن كَانَ يرجو لقَاءَ ربه فَلْيعملْ عملًا صالحًا ولَا يشرك بِعبادة ربه أَحدًا** [الكهف: ١١٠].

ودليل التوكل قوله تعالى: **وعلَى ا ـ فَتوكَّلُوا إنْ كُنتم مؤمنِ** [المائدة: ٢٣]، **ومن يتوكلْ علَى ا ـ فَهو حسبه** [سورة الطلاق: ٣].

عناصر الدرس:

- ١: الدعاء:
  - دعاء المسألة ودعاء العبادة.
  - أقسام وأحكام سؤال غير الله عز وجل
  - وجوب العناية بسلامة القلب لله تعالى
  - الفرق بين تذلل التعلّق وتذلل الرحمة والإحسان
  - من سلامة القلب لله شكر إحسان المحسن من الخلق
  - الله تعالى وحده الذي بيده النفع والضر
- ٢: الخوف:
  - أقسام الخوف.
  - درجات الناس في خوف العبادة.
  - أنواع خوف المؤمنين
- ٣: الرجاء:
  - بيان معنى الرجاء.
  - أقسام الرجاء.

- درجات رجاء نفع الأسباب

- قاعدة دخول الشرك في العبادات
- أصول العبادات القلبية
  - حاجة السالك إلى الجمع بين المحبة والخوف والرجاء
- ٤: التوكل:
  - معنى التوكل.
  - فضل التوكل على الله وحده لا شريك له.
  - أنواع التوكل على الله تعالى.

شرح مقاصد الدرس

- هذا الدرس بداية تفصيل لأنواع العبادة التي ذكرها المؤلف رحمه الله.
- في هذا الدرس تلخيص لأهم المسائل المتعلّقة بهذه العبادات العظيمة وبيان سبيل إخلاصها لله تعالى، ودرجات دخول الشرك فيها ليكون الطالب منه على بصيرة ويحذر من الوقوع فيه.

١: الدعاء.

- الدعاء على قسمين: دعاء مسألة ودعاء عبادة.
  - هذا التقسيم إنما هو لغرض التوضيح والتعليم وإلا فكلا القسمين عبادة.
  - قصد العلماء بهذا التقسيم بيان شمول اسم الدعاء للقسمين؛ فإن لفظ الدعاء يطلق في النصوص ويراد به المعنى الأول، ويطلق ويراد به المعنى الثاني، ويطلق ويراد به المعنيين جميعاً.
- أما دعاء المسألة فهو الذي يكون فيه سؤال رغبة ورهبة لجلب منفعة أو دفع مضرة، فيكون عبادة لا يجوز صرفها لغير الله جل وعلا، قال الله تعالى: **ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإنْ فعلت فإنك إذًا من الظالم** [يونس: ١٠٦].
  - من أمثلة الشرك في دعاء المسألة: سؤال الأموات قضاء الحاجات والمَدَد والشفاعة وغير ذلك؛ فهذا من الشرك الأكبر، وهو ضلال بعيد، وكفر مبين، قال الله تعالى: **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلونَ (٥) وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين** [الأحقاف: ٥، ٦].
- وأما دعاء العبادة فهو: التعبد للمعبود بأقوال أو أعمال يُتقرب بها إليه رغبة ورهبة؛ فهذا صرفه لغير الله جل وعلا شرك أكبر.
  - من أمثلة الشرك في دعاء العبادة: ما يتنسّك به عُبّاد الأوثان من أنواع الأعمال التي يعملونها على جهة التعبّد والتقرّب؛ فهي شرك أكبر، والعياذ بالله.
- مسألة: مَنْ طلب من مخلوق ما يقدر عليه كأن يقولَ فقيرٌ لغني: أعطني من مال الله

الذي أعطاك، أو يقول رجل لغيره: أعنِّي بكذا وكذا؛ فهذا ليس بشرك بإجماع العلماء، لأنه ليس فيه معاني العبادة.

- اعتبار معنى العبادة مهم في الحكم على العمل بأنه شرك أو ليس بشرك؛ فإذا كان في القلب نوع تذلل للمسؤول وخوف ورجاء فهذا شرك أصغر، وهو من أنواع عبودية الدنيا.

أقسام وأحكام سؤال غير الله عز وجل

- سؤال غير الله تعالى على ثلاث درجات:
  - **الدرجة الأو**: الدعاء الذي يكون فيه معاني التعبّد من الرغب والرهب والخوف والرجاء واعتقاد النفع والضر في المدعو فهذا شرك أكبر، والعياذ بالله.
  - **الدرجة الثانية:** سؤال المخلوقين مما يقدرون عليه عادة مع اعتقاد أن الله تعالى هو النافع الضار، لكن يغلب على قلبه التعلق بهم، ويكون في قلب السائل نوع تذلل لهم وخضوع؛ فهذا شرك أصغر لأنه مناف لتحقيق كمال العبودية الواجبة لله تعالى.
  - **الدرجة الثالثة:** أن يطلب من المخلوقين ما يقدرون عليه مما يحتاج إليه من غير أن يكون في قلبه تعلّق بهم ولا تذلل لهم ولا خضوع؛ فهذا ليس بشرك، وله أحكام بحسب الغرض فقد يكون مأموراً به، وقد يكون مباحاً، وقد يكون مكروهاً، وقد يكون محرماً.

وجوب العناية بسلامة القلب لله تعالى

- يجب على العبد أن يسلم قلبه لله، فيطهّره من الشرك والتعلق بغير الله جل وعلا.
- سعي المسلم في طلب الرزق وبذل الأسباب لجلب منفعة أو دفع مضرّة يجب أن لا يحمله على تذلل قلبه لغير الله تعالى؛ فالله لم يبتليه ليتذلّل لغيره.
- تذلل القلب لغير الله تعالى قادح في التوحيد، والمؤمن يعتقد كفاية الله تعالى له: **أليس ا بكاف عبده** [الزمر: ٣٦]، وإنما عليه أن يبذل ما يستطيع من الأسباب.
- بذل ما يستطاع من الأسباب مع التوكل على الله تعالى يحصل بهما كفاية العبد، فمن قام بهما بورك له في رزقه وكفاه الله ما أهمه من أمر دينه ودنياه.
- تنبيه: من الناس من تحمله إرادة التعبير عن البراءة من التذلل لغير الله إلى الإساءة إلى مَن

حَقُّه أن يتأدب معه كأبيه أو وليه أو رئيسه، فهذا خطأ ينبغي التنبه له.

o الله تعالى يحب العدل والإحسان ويحب الرفق ويثيب عليه، ويبغض الفحش والتفحش والتعالي على الناس.

الفرق بين تذلل التعلّق وتذلل الرحمة والإحسان

- التذلل المأمور به للوالدين وللمؤمنين تذلل رحمة وإحسان لا تذلل تعلق وعبودية.
- مدح الله التذللَ للمؤمنين فقال تعالى: **فَسوف يأتي الله بِقَومٍ يحبهم ويحبونه أذلــةٍ على الْمؤمنِ أعزةٍ على الْكَافرين يجاهدونَ في سبِيلِ الله ولَا يخافُونَ لَومةَ لَائمٍ** [المائدة: ٥٤]، وقال في الوالدين: **واخفض ما جناح الذلّ من الر ة وقل رب ار هما كمـا ربيـا صغ ا** [الإسراء: ٢٤].
- هذا التذلل بلين الجانب وخفض الجناح وحسن القول مبناه على الرحمة وقصد الإحسان إلى المؤمنين والتواضع لهم والرأفة بهم طاعة لله عز وجل واتباعاً لرضوانه وابتغاء لفضله وإحسانه، وأما القلب فهو سليم لله عز وجل غير خاضع للمخلوقين.
- من سلامة القلب لله شكر إحسان المحسن من الناس ومكافأة صاحب المعروف ليبقى قلب المسلم سليما لله تعالى، والله يحب الشكور من عباده الذي أُحْسِنَ إليه شكَر.
- أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى الهدي في معاملة من أحسن إلينا.
- عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **من صنِع إليه معروفٌ فليجزه؛ فإن د ما زيه فليثْنِ عليه؛ فإنه إذا أث عليه فقد شكَره، وإنْ كتمه فقد كفَره، ومن تحلى ا يعطَ فكأنما لَبِس ثوبي زور** » رواه البخاري في الأدب المفرد وأبو داوود في سننه والترمذي في جامعه وصححه الألباني.
- قال شاعر من يهود المدينة في الجاهلية:

ارفـع ضـعيفك لا يَحِـرْ بـكَ ضـعفُه ... يومـا فتـدركك العواقـب قـد نمـا
يجزيــك أو يــثني عليــك وإنَّ مَــن ... أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

o روى البيهقي في شعب الإيمان بإسناد فيه ضعف أن النبي صلى الله عليه وسلم استحسن هذين البيتين.

• من جزى الإحسان بالإحسان أو أثنى على صاحب الإحسان فقد أدّى شكره، وبقي قلبه سليماً لله جل وعلا، وهو في ذلك يعتقد أنهم سبب أجرى الله الإحسان على أيديهم وله في ذلك حكم بالغة.

الله تعالى وحده الذي بيده النفع والضر

• مبنى الدعاء على اعتقاد النفع والضر في المدعو، ومن أيقن بأنه لا ينفع ولا يضر على الحقيقة إلا الله تعالى استراح قلبه من التعلق بالخلق.

• هذه القضية تكرر التأكيد عليها في القرآن العظيم في آيات كثيرة:

o قال الله تعالى موبخاً المشركين: **قُلْ أتعبدونَ من دون الله ما لَا يملك لَكُم ضرا ولَا نفْعًا والله هو السميع الْعليم (٧٦)** [المائدة: ٧٦].

o وقال حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام: **قَالَ أَفَتعبدونَ من دون اللّه ما لَا ينفَعكُم شيئًا ولَا يضركُم (٦٦) أف لَكُم ولما تعبدونَ من دون الله أَفَلَا تعقلُونَ (٦٧)** [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

o وقال تعالى: **ولَئن سأَلْتهم من خلَق السماوات والأَرض لَيقُولُن اللّه قُلْ أَفَرأَيتم ما تدعونَ من دون اللّه إنْ أَرادنِي اللّه بِضر هلْ هن كَاشفَات ضره أَو أَرادنِي بِرحمةٍ هلْ هن ممسِكَات رحمته قُلْ حسبِي الله علَيه يتوكلُ الْمتوكلُونَ (٣٨)** [الزمر: ٣٨].

o وقال تعالى: **وإِنْ يمسسك اللّه بِضر فَلَا كَاشف لَه إِلا هو وإِنْ يردك بِخير فَلَا راد لفَضله يصيب بِه من يشاءُ من عباده وهو الْغفُور الرحيم** [يونس: ١٠٧].

• هذه المسألة مبينة في القرآن الكريم بياناً كافياً شافياً يقطع جميع علائق التعلق بغير الله جل وعلا؛ فإن مدار العبودية على عمل القلب؛ فإذا كان القلب سليماً لله عز وجل خالصاً صلح بإذن الله وصلح سائر الجسد.

• قال ابن القيم رحمه الله: (الضرر والنفع بيد الله عز وجل فإن شاء أن يضر عبده ضره، وإن شاء أن يصرف عنه الضر صرفه، بل إن شاء أن ينفعه بما هو من أسباب الضرر ويضره بما هو من أسباب النفع فعل، ليتبين العباد أنه وحده الضار النافع، وأن أسباب الضر والنفع بيديه، وهو الذي جعلها أسباباً، وإن شاء خلع منها سببيتها، وإن شاء جعل ما تقتضيه

بخلاف المعهود منها، ليُعلم أنه الفاعل المختار، وأنه لا يضر شيء ولا ينفع إلا بإذنه، وأن التوكل عليه والثقة به تحيل الأسباب المكروهة إلى خلاف موجباتها، وتبيين مرتبتها، وأنها محالّ لمجاري مشيئة الله وحكمته، وأنه سبحانه هو الذي يضر بها وينفع، ليس إليها ولا لها من الأمر شيء، وأن الأمر كله لله، وأنها إنما ينال ضررها من علّق قلبه بها ووقف عندها)ا.هـ.

٢: الخوف

- الخوف على قسمين:
  - القسم الأول: خوف العبادة: وهو الذي يحمل معنى العبادة من التذلل والرهبة والخشية من إيقاع الضرر ممن يملك إيقاعه.
  - القسم الثاني: الخوف الطبيعي الذي يخلو من المعاني التعبدية، وسيأتي بيانه.
- من لوازم خوف العبادة أن يقوم بالقلب عبادات عظيمة من الرهبة والخشية والإنابة والتوكل وتعلق القلب فهذا الخوف لا شك أن صرفه لغير الله جل وعلا شرك في العبادة.
- يجب أن يُخلص هذا الخوف لله وحده كما قال تعالى: **وإياي فارهبون** [النحل: ٥١] وتقديم المعمول يفيد الحصر، وهذه هي رهبة العبادة.
- الشرك في خوف العبادة من عمل المشركين، ومن أراد أن يعرف معنى الخوف الشركي فلينظر حال المشركين الذي يخافون هذا الخوف وليتأمّل ما قصّه الله من أخبارهم.
- قال الله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام في محاجته لقومه: **ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئًا وسع ربي كل شيء علمًا أفلا تتذكرون (٨٠) وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون** [الأنعام: ٨٠، ٨١].
- وقال عن عاد قوم هود في مجادلتهم لنبيهم: **قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين (٥٣) إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون (٥٤) من دونه فكيدوني جميعًا ثم لا تنظرون (٥٥) إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم** [هود: ٥٣- ٥٦]، وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم:

ألَيس ا ُ بِكَافٍ عبده ويخوفُونك بِالذين من دونِه ومن يضللِ الله فَما لَه من هادٍ (٣٦)

[الزمر: ٣٦].

• قال ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: ويخوّفك هؤلاء المشركون يا محمد بالذين من دون الله من الأوثان والآلهة أن تصيبك بسوء، ببراءتك منها، وعيبك لها، والله كافيك ذلك)ا.هـ.

• وقال قتادة: (بعث رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم خالد بن الوليد إلى شعب بسُقام ليكسر العزّى، فقال سادنها - وهو قيمها - : يا خالد أنا أحذّركها، إن لها شدّة لا يقوم إليها شيء، فمشى إليها خالد بالفأس فهشّم أنفها)ا.هـ، وهذا مثال للخوف الشركي.

• وقال مجاهد: (**ويخوفُونك بِالذين من دونِـه** [الزمر: ٣٦]، يعني: «يخوفونك بالأوثان التي يعبدون من دون الله عز وجل»).

• ومن عبّاد الأوثان والقبور اليوم من يخوِّف الناس من هؤلاء الذين يعبدونهم من دون الله بأن لهم قدرة وتصرفاً وإذا غضبوا على شخص أرسلوا له من يعذبه ويصيبه بالأمراض وربما يشل جسده أو يقتله ونحو ذلك من التخويف الذي لا يجوز لمؤمن أن يخافه.

• يذكر بعض العلماء عبارة (خوف السر) ويقصدون به خوف التعبد، كما صرَّحوا بالتمثيل له بخوف عباد القبور والأولياء.

o هؤلاء في الحقيقة جمعوا أنواعاً من الشرك منها اعتقادهم أن أولئك الأموات يطلعون على ما يعملون، واعتقادهم قدرتهم على المؤاخذة وإحلال العقوبة والسخط، وخوفهم أن يقطعوا عنهم المدد أو يتخلوا عن الشفاعة لهم ونحو ذلك.

o لذلك تجد بعضهم إذا سمع أحداً يذكر أحد أولئك الأموات بسوء أو ينهى عن الغلو فيهم يُرى عليه أثر الخوف من غضب ذلك الولي بزعمهم.

o خوف السرّ هذا فيه معاني التعبد من الرهبة والخشية وتعلق القلب بالمعبود والالتجاء إليه، وهذه عبادات عظيمة من صرفها لغير الله تعالى فقد أشرك، والعياذ بالله تعالى من الشرك.

أقسام الناس في خوف العبادة

- الناس في خوف العبادة على درجات:

o **الدرجـة الأو :** السَّابِقون المقرَّبون وهم الذين حملهم الخوف من الله تعالى على المسارعة في الخيرات والتقرُّب إلى الله تعالى بالفرائض والنوافل والورع واجتناب المحرمات والشبهات؛ فهؤلاء بخير المنازل.

▪ هؤلاء هم الذين أثنى الله تعالى عليهم بقوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ (٦٠) أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ** [المؤمنون: ٥٧- ٦١]، وقوله: **أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ** [الزمر: ٩].

o **الدرجة الثانية:** المقتصدون وهم الذين حملهم الخوف من الله تعالى على اجتناب المحرمات وفعل الواجبات فهؤلاء هم المتقون المقتصدون.

o **الدرجة الثالثة:** المفرِّطون الظالمون لأنفسهم من المسلمين، وهؤلاء معهم أصل الخوف من الله تعالى بحيث يمنعهم من الشرك الأكبر وارتكاب ناقض من نواقض الإسلام، لكنهم لضعف خوفهم من الله تعالى يرتكبون الكبائر ويتركون بعض الفرائض الواجبة والعياذ بالله، فهؤلاء مذنبون مستحقون للعذاب بقدر ما وقعوا فيه من المخالفة، وهم باقون في دائرة الإسلام.

o **الدرجة الرابعة:** الغلاة المُفْرِطُون وهم الذين حملهم الخوف الشديد على نوع من اليأس من رحمة الله والقنوط من رحمته؛ فهؤلاء مذنبون غلاة، ولا يجوز للمؤمن أن ييأس من روح الله، ولا يقنط من رحمته.

o **الدرجة ا امسـة:** المشركون وهم الذين صرفوا هذه العبادة العظيمة لغير الله جل وعلا؛ فهؤلاء مشركون كفار خارجون عن دين الإسلام والعياذ بالله.

- فهذه درجات الناس في خوف التعبد وهم في كل درجة تتفاوت منازلهم.

● القسم الثاني من الخوف : الخوف الطبيعي ، وهو ما خلا من معاني التعبد ، وهذا حكمه بحسب ما يحمل عليه :

O مثاله : خوف العبد من السباع والهوام والظلمة الطغاة فهذا لا يلام عليه العبد بل قد يعذر بسببه في أحوال ؛ فقد يسقط عن الرجل وجوب صلاة الجماعة للخوف ، وقد يجوز له جمع ما يجمع الصلوات بسبب الخوف ، ونحو ذلك.

▪ أما إنْ حَمَل هذا الخوف صاحبَه على ترك بعض الواجبات التي لا يعذر بتركها أو ارتكاب محظور لا يعذر بارتكابه فهو محرم لا يجوز.

▪ مثاله : جماعة من المسلمين ظاهرون في بلد من البدان حملهم الخوف من العدو على ترك الجهاد في سبيل الله عز وجل ؛ وترك إعداد العدة لذلك ؛ فهؤلاء مذمومون مفرطون مذنبون بتركهم فريضة الجهاد في سبيل الله عز وجل ، وسنة الله تعالى جارية بأن يسلط الله عليهم أعداءهم وينزع مهابتهم من صدور الكافرين بسبب مخالفتهم لاتباع هدى الله جل وعلا.

▪ تقديمهم خوف العدو على الخوف من الله جل وعلا ، وقد قال الله تعالى : **إنما ذَلكُم الشيطَانُ يخوف أولياءَه فَلَا تخافُوهم وخافُون إنْ كُنتم مؤمِ** [آل عمران : ١٧٥].

▪ **يخوف أولياءَه** أي يعظمهم في نفوسكم حتى تخافوهم ، وهذا الخوف من أولياء الشيطان محرم لا يجوز.

● قد يصل الخوف من غير الله تعالى بالعبد إلى الكفر والعياذ بالله ؛ كمن يحمله الخوف على الرضا بالكفر واختياره خوفاً وجبناً كما قال الله تعالى : **من كفَر بالله من بعد إ انه إلّا من أكْره وقَلْبه مطْمئن بِالْإ ان ولَكن من شرح بِالْكُفْرِ صدرًا فَعليهم غَضبٌ من اللـه ولَهم عذَابٌ عظيمٌ (١٠٦) ذَلك بِأَنهم استحبوا الْحياةَ الدنيا علَى الْآخرة وأَن الله لَا يهدي الْقَوم الْكَافرين (١٠٧) أُولَئك الذين طَبع الله علَى قُلُوبِهِم وسمعهم وأَبصارِهم وأُولَئـك هـم الْغافلُونَ (١٠٨) لَا جرم أَنهم في الْآخرة هم الْخاسرونَ** [النحل : ١٠٦- ١٠٩].

O هذا هو أصل خوف الأتباع من المتبوعين من أئمة الكفر كما قال الله تعالى فيهم : **ولَو ترى إِذ الظالمونَ موقُوفُونَ عند ربهم يرجع بعضهم إِلَى بعـضٍ الْقَـولَ يقُـولُ الّـذين**

استضعفُوا لِلّذين استكْبروا لولا أنتم لكُنّا مؤمنِ (٣١) قَالَ الـذين اسـتكْبروا للّـذين استضعفُوا أنحن صددناكُم عنِ الْهدى بعد إذْ جاءَكُم بلْ كُنتم مجرِمِ (٣٢) وقَالَ الّذين استضعفُوا لِلّذين استكْبروا بلْ مكْر الليلِ والنهارِ إذْ تأمروننا أنْ نكْفُر بِالله ونجعـلَ لَـه أندادًا وأسروا الندامةَ لَما رأَوا الْعذَاب وجعلْنا الْأغْلالَ في أعناقِ الّذين كَفَروا هلْ يجزونَ إِلّا ما كَانوا يعملُونَ [سبأ: ٣١- ٣٣].

- وقـال تعـالى: وإِذْ يتحاجونَ في النارِ فَيقُولُ الضعفَاءُ للذين استكْبروا إنا كُنا لَكُـم تبعًا فَهلْ أنتم مغنونَ عنا نصيبًا من النار (٤٧) قَالَ الذين استكْبروا إِنّا كُلّ فيها إن الله قَد حكَم بين الْعباد (٤٨) [غافر: ٤٧، ٤٨].

- هؤلاء حملهم خوفهم الطبيعي على الكفر والعياذ بالله.

أنواع خوف المؤمنين

- خوف المؤمنين له ثلاثة أنواع:
  - النوع الأول: الخوف من سخط الله عز وجلّ وإعراضه عن العبد، وهو خوف المحبين.
  - النوع الثاني: الخوف من العذاب الدنيوي والأخروي، وهذا خوف المتّقين.
  - النوع الثالث: الخوف من فوات الثواب، وهذا خوف العاملين.

٣: الرجاء.

- معنى الرجاء
  - الرجاء نقيض اليأس، وهو طمع القلب في حصول منفعة.
- قال الله تعالى: وادعوه خوفاً وطمعاً إن ر ة ا قريب من ا سن [الأعراف: ٥٦].
- وقال عن أوليائه المتقين: تتجا جنوبهم عن ا ضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً و ـا رزقناهم ينفقون [السجدة: ١٦].
- والرجاء على قسمين:
  - **القسم الأول:** رجاء العبادة.
  - **القسم الثا :** رجاء نفع الأسباب.

- رجاء العبادة لا يجوز صرفه لغير الله جل وعلا ، ومن صرفه لغير الله تعالى فهو مشرك لأنه يحمل معاني العبادة من التذلل والخضوع والمحبة والانقياد واعتقاد النفع والضر وتفويض الأمر وتعلق القلب والتقرب إلى المعبود.

o هذه كلها عبادات عظيمة تقتضيها عبادة الرجاء فمن صرفها لغير الله جل وعلا فهو مشرك كافر.

o من أمثلة الرجاء الشركي : رجاء المشركين في آلهتهم التي يعبدونها من دون الله أنها تشفع لهم عند الله أو أنها تقربهم إلى الله زلفى ، ورجاء بعض عباد الأولياء والقبور بأنهم ينجونهم من الكربات ويدفعون عنهم البلاء ويجلبون لهم النفع ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

درجات رجاء نفع الأسباب

- رجاء نفع الأسباب مع اعتقاد أن النفع والضر بيد الله جل وعلا على ثلاث درجات :

o **الدرجة الأو :** رجاء جائز ، وهو رجاء نفع الأسباب المشروعة مع عدم تعلق القلب بها.

▪ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **خ كم مـن يرجى خ ه ويؤمن شرّه، وشرّكم من لا يرجى خ ه ولا يـؤمن شـره** ». رواه أحمد والترمذي بإسناد صحيح.

▪ هذا الرجاء ليس هو رجاء العبادة ، وإنما هو رجاء نفع السبب مع اعتقاد أن النفع والضر بيد الله جل وعلا.

o **الدرجة الثانية:** رجاء محرم ، وهو الرجاء في الأسباب المحرمة ليستعين بها على معصية الله جل وعلا.

o **الدرجة الثالث:** شرك أصغر ، وهو تعلق القلب بالأسباب التي يُرجى نفعها ؛ كتعلق بعض المرضى بالرقاة والأطباء تعلقاً قلبياً يغفلون معه عن أن الشفاء بيد الله عز وجل ؛ فهذا من شرك الأسباب كما تقدم شرحه.

قاعدة دخول الشرك في العبادات

- **هذه العبادات قاعدتها واحدة من فقهها سهل عليه معرفة هذه التقسيمات وتيسر له ضبط مسائلها إن شاء الله تعالى.**
- هذه الألفاظ: المحبة والخوف والرجاء والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والرغبة والرهبة والخشية ونحوها تطلق في النصوص على معنيين:

o **المعنى الأول:** ما كان يحمل معنى العبادة من التذلل والخضوع والمحبة والتعظيم والانقياد واعتقاد النفع والضر فتكون حينئذ عبادة من صرفها لغير الله عز وجل فقد أشرك الشرك الأكبر والعياذ بالله، ويكون بذلك كافراً خارجاً عن الملة.

▪ إذا أردت أن تعرف هذا المعنى فانظر إلى ما يفعله مَن أثنى الله عليهم من الموحدين في هذه العبادات، وما يفعله مَن ذمهم الله من المشركين بهذه العبادات، وبذلك تعرف المعنى التعبدي فيها الذي لا يجوز صرفه لغير الله جل وعلا.

o **المعنى الثاني:** ما ليس فيه معنى العبادة، وإنما هو سبب من الأسباب فهذا حكمه بحسب ما يترتب عليه فإن استعين به على طاعة الله فهو طاعة وقربة، وإن استعين به على محرم فهو حرام، وإن حمل على فعل محرم أو ترك واجب لا يعذر بتركه فهو محرم.

▪ أما إن تعلق القلب بالسبب وصار فيه نوع تذلل له مصحوب بخوف ورجاء فيكون حينئذ شركاً أصغر، وهو من شرك الأسباب كما سبق بيانه في الدرس السابق.

- لم يذكر المؤلف رحمه الله (المحبة) وهي عبادة من أجل العبادات، بل هي أصل هذه العبادات، وأعلاها شأناً وقد قال تعالى: **والذين آمنوا أشد حباً** [البقرة: ١٦٥] والمحبة العظيمة التي تحمل معنى العبادة من التذلل والخضوع والتعظيم والانقياد لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل، وقد سبق بيان القاعدة في هذا الباب.

أصول العبادات القلبية

- أصول العبادات القلبية التي عليها مدار سائر العبادات: (المحبة، والخوف، والرجاء).
- قال ابن القيم رحمه الله: (القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه؛ فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع

الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان؛ فهو عرضة لكل صائد وكاسر)ا.هـ.

- وبيان ذلك أن ما يدفع القلب للعمل ثلاثة أمور: المحبة، والخوف، والرجاء فمن أحب الله أطاعه، ومن خاف الله أطاعه، ومن رجا ثواب الله أطاعه.

- o من المؤمنين من يغلب عليه دافع المحبة فيطيع الله عز وجل محبة له، مع خوفه من الله ورجائه له، لكن الذي يغلب على قلبه المحبة وصدق التقرب إلى الله عز وجل.
- o من المؤمنين من يغلب عليه الخوف من الله فيطيع الله خوفاً منه، سواء خاف عقابه الدنيوي أو عقابه الأخروي؛ فالذي يحمله غالبا على فعل الطاعات واجتناب المحرمات خوفه من الله.
- o ومن المؤمنين من يغلب عليه رجاء ثواب الله فتجد أن أكثر ما يحمله على فعل الطاعات واجتناب المحرمات هو رجاء ثواب الله وفضله.
- o والكمال أن يجمع العبد بين هذه الثلاثة، فيطيع الله محبة له، وخوفاً منه، ورجاء لثوابه وفضله.

- المحبة أعلى مرتبة من مرتبة الخوف والرجاء إذا أردنا المفاضلة بينها، لأن المحبة تبقى في الدنيا والآخرة، وأما الخوف فإنه يزول في الآخرة.

الجمع بين المحبة والخوف والرجاء

- الجمع بين هذه الثلاثة هو منهج السلف الصالح وهو الذي عليه هدي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

- o فيعبدون الله محبة له كما وصفهم الله بقوله: **والذين آمنوا أشد حباً** [البقرة: ١٦٥]
- o ويعبدون الله خوفاً من عقابه كما أمرهم الله بقوله: **وخافون إن كنتم مـؤمنـ** [آل عمران: ١٧٥].
- o وجعل صفة الرجاء فرقاناً بين المؤمنين والكافرين فقال: **وترجون مـن ا مـا لا يرجون** [النساء: ١٤]، ورغَّبهم في رجاء ثوابه وأمرهم بسؤاله من فضله فقال تعالى: **واسألوا ا من فضله** [النساء: ٣٢].

- قال بعض ضُلال الصوفية بالتفريق بينها وزعموا أن من يعبد الله محبة له فقط أعلى

وأكمل ممن يعبد الله رجاء لثوابه أو خوفاً من عقابه.

- أُثر عن بعض الصوفية أنه كان يدعو: (اللهم إن كنت تعلم أني أطيعك رغبة في جنتك فاحرمني منها!!) وهذا ضلال مبين وخسران عظيم إن لم يرحمه الله لجهله وقلة عقله.
- الله تعالى أمر بسؤاله من فضله ورغَّب في ثوابه فمن ترك رجاء الله فقد عصى الله، وحذر الله من عقابه وعذابه فمن لم يخف الله فقد عصى الله.

حاجة السالك إلى الجمع بين هذه العبادات العظيمة

- من أحب الله سار إليه وتقرب إليه، والسير إليه يكون بامتثال أوامره واجتناب نواهيه فهو سير معنوي على الصراط المستقيم الذي هو الطريق إلى المحبوب الأعظم.
  - فمحبة الله تدفع العبد إلى التقرب إليه، وعلى حسب قوة المحبة وضعفها تكون مسارعة العبد في الطاعات ومسارعته في الكف عن المحرمات.
  - وخوفه من الله يمنعه من الانحراف عن الصراط المستقيم فلا يتعدى حدود الله وهو يخاف عقاب الله.
  - ورجاؤه لفضل الله يحفزه لفعل الطاعات ويؤمله لقاء الله تعالى والفوز بقربه والتنعم بعظيم ثوابه.

٤: التوكل

- **التَّوكُّل** طلب الوكالة من الوكيل، والوكيل والمتوكل بالأمر هو الذي يضمن القيام به.
- **فالوَكِيل هو** الذي يُسند إليه الأمر ويُفوَّضُ إليه ويعتمد عليه فيه؛ **والمتوكِّل هو** المعتمِد المفوِّض.
- **حقيقة التوكُّل على الله تعالى:** الاعتماد عليه وتفويض الأمر إليه ثقة في حسن تدبيره واعتقاداً بأن النفع والضر بيده وحده سبحانه.
- التوكل عبادة من أجل العبادات، وهو يجمع عبادات عظيمة من التذلل لله، والخضوع إليه، وتفويض الأمر إليه، ورجاؤه سبحانه، والاستعانة به، والالتجاء إليه، وحسن الظن به جل وعلا، واعتقاد أن النفع والضر بيده وحده.

• التوكل يستلزم الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا فيؤمن بسعة علم الله تعالى وقدرته، وعظيم ملكه وسعة رحمته، وكمال غناه وجميل حمده، وحسن ولايته وربوبيته، وبديع حُكْمِهِ وحِكمته، وغيرها من الصفات العليا الجليلة التي هي من آثار أسمائه الحسنى.

o ما يقوم في قلب المتوكل عند توكله من هذه العبادات وغيرها أمر لا تحيط به العبارة ولا يوفيه الشرحُ حقَّه.

• المتوكلون يتفاضلون فيه تفاضلاً كبيراً؛ بحسب ما يقوم بقلوبهم من قوة التفويض وتفاضلهم في إحسان اتباع هدى الله جل وعلا.

وجوب إفراد الله تعالى بالتوكل

• التوكل عبادة عظيمة من أجل العبادات من صرفه لغير الله تعالى فلا شك في كفره وظلمه وضلاله.

• قال الله تعالى: **وعلى ا فتوكلوا إن كنتم مـؤمن** [المائدة: ٢٣] فقدم الجار والمجرور لإفادة الحصر، كما صرح به في قوله تعالى: **ولا تتخذوا من دو وكيلا** [الإسراء: ٢].

• وقال تعالى: **قل هو الر ن آمنا به وعليه توكلنا** [الملك: ٢٩]، وقال تعالى: **وعلى ا فليتوكل ا توكلون** [يوسف: ٦٧] وقال تعالى: **وتوكل على ا وكفى با وكـيلا (٣) مـا جعل ا لرجل من قلب جوفه** [الأحزاب: ٣، ٤].

التوكل عبادة قلبية

• قال الإمام أحمد: (التوكل عمل القلب).

• ثواب التوكل على الله عظيم جليل جزيل إذ جعل الله ثواب المتوكل أن الله هو حسبه وكافيه وفي ذلك غَناء له عن كل ما تتطلبه النفس، فليس وراء الله مذهب، ولا بعده مطلب.

o قال الله تعالى: **ومن يتق ا عل له رجاً (٢) ويرزقه من حيـث لا تسـب** [الطلاق: ٢، ٣] فجعل هذا من ثواب التقوى وهو تفريج الشدة وحصول الرزق أيا كان نوعه، أما التوكل فثوابه أعظم: **ومن يتوكل على ا فهو حسبه** [الطلاق: ٣].

o وقال تعالى: **فتوكل على ا إن ا بّ ا توكل** [آل عمران: ١٥٩]، وهذه المحبة لها

آثارها العظيمة.

- أثنى الله تعالى على نفسه بأنه **نعم الوكيـل** [آل عمران: ١٧٣] وهذا الثناء يفتح لأولي الألباب أبواباً من المعاني الجليلة التي يستلزمها هذا الثناء الجميل فيثمر التفكر فيها من اليقين والإيمان ما يحمل العبد على الثقة بالله جل وعلا.
- كونه **نعم الوكيل** [آل عمران: ١٧٣] يستلزم علمه جل وعلا بحاجة من اتخذه وكيلاً، وعلمه بما يرجوه ويخافه كما قال الله تعالى: **وا أعلم بأعدائكم وكفى با ولياً وكفـى با نص ا** [النساء: ٤٥]، ويستلزم قدرته على تحقيق ما ينفع عبده ودفع ما يضره، ويستلزم نصره لعبده، ولطفه به ورحمته وإحسانه إلى غير ذلك من المعاني الجليلة التي يكفي فيها وصف **نعم الوكيل** [آل عمران: ١٧٣] ليحصل للنفس المؤمنة من اليقين والسكينة، والأمن والطمأنينة، والثقة العظيمة بالله جل وعلا ما لا تقوم له هموم الدنيا لو اجتمعت.
- هذه العبارة **حسبنا ا ونعـم الوكيـل** [آل عمران: ١٧٣] يقولها أناس فتبلغ بهم من رضوان الله جل وعلا والقرب منه والزلفى لديه منزلاً عالياً جداً، ويقولها أقوام لا تجاوز حناجرهم، وسرّ ذلك ما وقر في القلب من أنواع العبودية لله جل وعلا.

أنواع التوكل

- قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (**التوكل على ا نوعان:**
- **أحـد ا:** توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.
- **والثـا :** التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه.
- وَبَيْنَ النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله؛ فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية، ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضاً لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه.
- فأعظم التوكل عليه التوكل في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول وجهاد أهل الباطل فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم) ا.هـ.

- قدّم الله تعالى الحث على التوكل عليه في أمور الدين قبل أمور الدنيا كما في الحديث القدسي العظيم: (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أَكْسِكُم).

o تضمّن هذا الحديث وجوب التوكل على الله جل وعلا فإنه لا تحصل منفعة في دين ولا دنيا إلا بإذن الله تعالى وعلمه وقدرته.

o بيّن الله تعالى في هذا الحديث أن جميع أبواب النفع مغلقة إلا من طريقه جل وعلا، فما أذن الله في نفعه نفع، وما لم يأذن به فلن ينفع.

o قوله تعالى في الحديث القدسي: (فاستهدوني أهدكم) (فاستطعموني أطعمكم) (فاستكسوني أكسكم) يتضمن إرشاداً ووعداً لا يخلفه الله أبداً، ومن أوفى بوعده من الله؟!!.

o يصدّق هذا ويبينه ما في مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي وابن ماجة وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**لو أنّكم تتوكلون على ا حقّ توكله: لرزقكم كما يرزق الط ، تغدو اصاً وتروح بِطانا**)).

تحقيق التوكل

- تحقيق التوكل يكون بأمرين:

o **الأمر الأول:** صدق الالتجاء إلى الله وتفويض الأمر إليه وإحسان الظن به جل وعلا وتعظيم الرغبة في فضله وإحسانه، وإفراده جل وعلا بهذه العبادة وما تقتضيه من العبادات العظيمة.

o **الأمر الثا :** اتباع هدى الله جل وعلا بفعل الأسباب التي أذن بها في جلب النفع ودفع الضر.

▪ هذا أمر دل عليه الحديث الآنف الذكر فإنه صلى الله عليه وسلم أخبر أن الطير تغدو، وغُدُوُّها هو بذلها السبب في التماس الرزق.

o من جمع الأمرين العبادة القلبية بالتوكل وبذل السبب الذي هو مقتضى هداية الله

تعالى وبيانه فقد حقق التوكل واتبع رضوان الله.

● لما اجتمع هذان الأمران للمؤمنين عقب غزوة أحد كفاهم الله ما أهمهم ؛ وشرّفهم بذكرهم في كتابه الكريم ولنأتسي بهم، فقال تعالى: **ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَانَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)**

[آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

● وهذان الأمران حققهما مؤمن آل فرعون فأبقى الله له الذكر الحسن والثناء الكريم لمّا صدق في تفويض أمره إلى الله واتباع هداه ؛ فأنكر على قومه الكفر، وقام بواجب نصرة موسى عليه السلام، واجتهد في النصيحة ؛ فحفظه الله ووقاه، وأعلى ذكره وكفاه ما أهمه، وانتقم له ممن أراد المكر به.

o قال الله تعالى حكاية عنه بعد أن نصح قومه بما نصحهم به: **فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ ٱلْعَذَابِ (٤٥) ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ** [غافر: ٤٤- ٤٦].

o قال الإمام الشنقيطي: (وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: **وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا** [غافر: ٤٤، ٤٥] دليل واضح على أن التوكل الصادق على الله وتفويض الأمور إليه سبب للحفظ والوقاية من كل سوء).

● التوكل على الله في تحقيق عبوديته جل وعلا - وهو أعظم أنواع التوكل- أمرَ الله مَعَه ببذل الأسباب والقيام بأعمال العبادة كما أرشد الله عباده وهداهم، قال تعالى: **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** [هود: ١٢٣]، وقال: **وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ** [الفرقان: ٥٨]، وقال: **وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا** [المزمل: ٨- ١٠].

● وكذلك من توكل على الله في جلب منفعة أو دفع مضرة فعليه أن يبذل ما يستطيع من الأسباب التي أذن الله بها وهدى إليها.

- من قال بلسانه توكلت على الله وقلبه غافل لاهٍ أو غير عازم على الصدق في التوكل فإنه لم يحقق التوكل، وكذلك من لم يتبع هدى الله ولم يبذل الأسباب التي أمر الله بها فهو جاهل ظالم لنفسه، ضال في فهمه، مقدوح في عقله.
- في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: (نحن المتوكلون)؛ فإذا قدموا مكة سألوا الناس؛ فأنزل الله تعالى **وتزودوا فإن خ الزاد التقوى** [البقرة: ١٩٧]).
- وقال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: **وقَالَ يا بنِي لا تدخلُوا من بابٍ واحـدٍ وادخلُوا من أبوابٍ متفَرقَةٍ وما أغْنِي عنكُم من اللّه من شيءٍ إن الْحكْم إِلّا للّه عليه توكّلْت وعليه فَلْيتوكلِ الْمتوكلُونَ** [يوسف: ٦٧]؛ فجمع بين التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، وبَذْلَ السبب لحمايتهم من العين وذلك بأمره لهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة.
- من فقه هذا المعنى حق الفقه كان حريصاً على بذل الأسباب لأنها من هدى الله تعالى الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ولم يتعلق قلبه إلا بربه جل وعلا، لأنه هو وحده الذي بيده النفع والضر.
- ترك بذل الأسباب مع إمكانها هو العجز، وصاحبه محروم مذموم ملوم على عجزه؛ وما فاته من الخير أو حصل له مما يكره بسبب تفريطه ليس له فيه حجة؛ بخلاف المتوكل.
- صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يستعيذ بالله من العجز والكسل؛ فقرن بينهما.
- من زعم أنه متوكل على الله وهو لا يتبع هدى الله ببذل الأسباب فهو كاذب في دعواه.
- روي في ذمّ العجز حديثان في إسنادهما مقال ومعناهما صحيح:

o أحدهما: حديث شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعاً: « **الكّيس مـن دان نفسـه وعمل ا بعد ا وت، والعاجز من أتبع نفسه هواها و علـى ا الأمـا** » رواه أحمد والترمذي وحسّنه، واستدلّ به جماعة من أهل العلم. ومن أهل العلم من ضعّفه.

o والآخر: حديث عوف بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قَضَى بين رجلين؛ فقال المقضي عليه لما أدبر: (حسبي الله ونعم الوكيل)؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **ردوا علي الرجلَ** »؛ فقال: « **ما قلـت؟** »؛ قال: قلتُ: حسبي الله

ونعم الوكيل ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إن ا يلوم على العجز، ولكـن عليك بالكَيس، فَإذا غلبك أمرٌ فقلْ: حس ا ونعم الوكيـلُ** ». رواه أحمد وأبو داوود والنسائي.

• قال ابن القيم رحمه الله : (سرُّ التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده ؛ فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلوِّ القلب من الاعتماد عليها والركون إليها ، كما لا ينفعه قوله : (توكلت على الله) مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به ؛ فتوكل اللسان شيء ، وتوكل القلب شيء ، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء ، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء ، فقول العبد : (توكلت على الله) مع اعتماد قلبه على غيره مثل قوله : (تبت إلى الله) وهو مصر على معصيته مرتكب لها ! !).

• خلاصة القول أنَّ مَن عَقَلَ معنى التوكل على الله وفقهه حق الفقه سعد في الدنيا والآخرة.

أحكام التوكل

• إذا تبين ذلك علمنا أن التوكل عبادة من أجل العبادات فمن صرفه لغير الله تعالى فهو مشرك كافر خارج من دين الإسلام.

• إذا أردت أن تعرف معنى التوكل الشركي فانظر إلى حال المشركين الذين ذمهم الله ؛ وكيف توكلوا على آلهتهم التي يدعونها من دون الله في جلب النفع ودفع الضر وفي الشفاعة وغيرها.

• هذا أمر مشاهد معروف لمن عرف أحوال المشركين اليوم وخالط بعضهم ؛ فإنه يسمع منهم ما يدل على توكلهم الشركي على ما يعبدونه من دون الله من الأولياء والجن وغيرهم.

• أما من كان لا يتوكّل إلا على الله وحده ، لكنّه يغلو في بعض الأسباب من الأشخاص والأعمال فيكون في قلبه نوع تعلّق بهم مع اعتقاده أن النفع والضر بيد الله وحده فهذا قد وقع في الشرك الأصغر والعياذ بالله ، وهو من شرك الأسباب كما سبق بيانه في نظائره.

• وأما من سلم قلبه من التعلّق بالأسباب فيكون اعتماده على الأسباب سليما من الشرك ويختلف حكمه باختلاف حكم السبب والغرض ؛ فالاعتماد على الأسباب المباحة في أمر

مباح حُكْمُه الإباحة، والاعتماد عليها في أمر محرم حُكْمُه التحريم؛ وأما الاعتماد على الأسباب المحرمة فهو محرم بكل حال.

شرح عبارات المتن

قوله: (وَفِي الْحَدِيثِ: « **الدعاءُ مخ العبادة** »).

- الحديث بهذا اللفظ رواه الترمذي من حديث أنس، وفي إسناده ابن لهيعة، وقد ضعف الحديث جماعة من أهل العلم.
- صح في السنن الأربعة من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **إن الدعاء هو العبادة** ».
- فائدة: لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة قيّمة في آداب الدعاء فسّر فيها قول الله تعالى: **ولا تفسدوا الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً** [الأعراف: ٥٦] ثم أسهب في الحديث عن أنواع الدعاء وآدابه بكلام نفيس قيّم يجدر بالمعلّم الاطلاع عليه، وهو في مجموع الفتاوى (١٠/١٥).

قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: **وقَالَ ربكُم ادعونِي أستجب لَكُم إن الذين يستكبرونَ عن عبادتي سيدخلُونَ جهنم داخرين** [غافر: ٦٠]).

- **داخرين** صاغرين.
- هذا أمر من الله عز وجل بدعائه وهو يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.
- الاستجابة لدعاء المسألة تكون بإعطاء السائل سؤله، والاستجابة لدعاء العبادة بقبولها والإثابة عليها.
- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن ذلك قوله تعالى: **وقَالَ ربكُم ادعونِي أستجب لَكُم** [غافر: ٦٠] فالدعاء يتضمن النوعين وهو في دعاء العبادة أظهر؛ ولهذا أعقبه: **إن الذين يستكبرونَ عن عبادتي** [غافر: ٦٠] الآية. ويفسر الدعاء في الآية بهذا وهذا).
- وقال ابن القيم رحمه الله: (والدعاء نوعان: دعاء عبادة ودعاء مسألة، والعابد داعٍ كما أن السائل داعٍ، وبهما فسر قوله تعالى: **وقَالَ ربكُم ادعونِي أستجب لَكُم** [غافر: ٦٠]،

قيل: أطيعوني أثِبكم، وقيل: سلوني أعطِكم، وفُسِّرَ بهما قوله تعالى: **وإذَا سألك عبادي عني فَإني قَريبٌ أجِيب دعوةَ الداعِ إذَا دعان** [البقرة: ١٨٦]).

- روى البخاري في الأدب المفرد والترمذي في سننه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **من يسأل ا غضب ا عليه** ».

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه **وإذَا سألك عبادي عني فَإني قَريبٌ أجِيب دعوةَ الداعِ إذَا دعان** [البقرة: ١٨٦] وقال: **وقَـالَ ربكُـم ادعونِي أستجب لَكُم إن الذين يستكْ ونَ عن عباد سيدخلُونَ جهنم داخرين** [غافر: ٦٠]، وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **ما من داع يدعو ا بدعوة ليس فيها ظلم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه ا با إحدى خصال ثلاث: إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدّخر له من ا مثلها وإما أن يصرف عنه من الشر مثلـها** » فالدعوة التي ليس فيها اعتداء يحصل المطلوب بها أو مثله وهذا غاية الإجابة؛ فإن المطلوب بعينه قد يكون ممتنعا أو مفسدا للداعي أو لغيره، والداعي جاهل لا يعلم ما فيه المفسدة عليه، والرب قريب مجيب، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، والكريم الرحيم إذا سئل شيئا بعينه وعلم أنه لا يصلح للعبد إعطاؤه أعطاه نظيره، كما يصنع الوالد بولده إذا طلب منه ما ليس له فإنه يعطيه من ماله نظيره، ولله المثل الأعلى).

قوله: (وَدَلِيلُ الخَوْفِ قَوْلُهُ تَعَالى: **إنما ذَلكُم الشّيطَانُ يخوف أولياَءه فَلاَ تخافُـوهم وخافُون إنْ كُنتم مؤمنِ** [آل عمران: ١٧٥]).

- أي دليل كون الخوف عبادة قوله تعالى: **فلا افوهم وخافون إن كنتم مـؤمنـ** [آل عمران: ١٧٥].

- الأمر بالخوف من الله تعالى دليل على أنه عبادة يحبّها الله.
- والنهي عن الخوف من أولياء الشيطان دليل على تحريمه.
- الخوف من الله وسلامة القلب من الخوف من أولياء الشيطان دليل على صحّة الإيمان.
- **وّف أولياءه** [آل عمران: ١٧٥] معناه: يعظمهم في نفوسكم بوساوسه لتخافوهم، وقول المفسرين واللغويين: (يخوفكم بأوليائه) تفسير باللازم، وهو أحد مسالك التفسير.

o قال الفراء: مثل ذلك قوله تعالى: **لينذر يوم التلاق** [غافر: ١٥] معناه: لينذركم يوم التلاق.

قوله: (وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالى: **فَمن كَانَ يرجوا لقَاَءَ ربه فَلْيعملْ عملاً صالحاً ولا يشـرك بعبادة ربه أحداً** [الكهف: ١١٠]).

- أي الدليل على أن الرجاء عبادة يحبها الله تعالى قوله تعالى: **فمن كان يرجـو لقـاء ربه..** [الكهف: ١١٠] الآية؛ ففي هذه الآية مدح الرجاء بما دلّ على أن الله يحبّه؛ فعلمنا أنه عبادة.

- للمفسرين في معنى هذه الآية ثلاثة أقوال:

o القول الأول: الرجاء هنا على بابه وهو الطمع في الثواب، وهذا قول سعيد بن جبير قال: (ثواب ربه) رواه ابن جرير، وهذا تفسير ببعض اللازم؛ لأن الثواب مما وعد الله به عباده المؤمنين إذا لاقوه.

o نظير هذه الآية قوله تعالى: **إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا با ياة الدنيا واطمأنوا با...** [يونس: ٧، ٨] الآيتين.

o لمّا استبدلوا رجاء لقاء الله بالرضا بمتاع الحياة الدنيا علمنا أنه استبدال للأدنى بالأعلى؛ وهذا مستلزم لمعنى الثواب الذي هو خير وأبقى من متاع الدنيا.

o رجاء لقاء الله يشمل رجاء رؤية الله تعالى وهو رجاء المقربين وهو أعظم النعيم، ورجاء التنعم بثوابه في جنات النعيم، وكل ذلك مما يشمله معنى الثواب

- القول الثاني: الرجاء هنا بمعنى الخوف؛ وهو قول مقاتل وابن قتيبة، واستشهد له بقول أبي ذؤيب الهذلي:

إذا لسعته النحل لم يرجُ لسعها وخالفها في بيت نوب عوامل

o (لم يرجُ لسعها) أي لم يخفه، قال الزجاج: ومثله قول الله تعالى: **ما لكم لا ترجون وقارا** [نوح: ١٣].

- القول الثالث: الرجاء هنا بمعنى اليقين؛ أي من كان يوقن بلقاء الله فليعمل عملاً صالحاً، ونظيره قول الله تعالى: **قال الذين يظنون أنم ملاقوا ا** [البقرة: ٤٦] يظنون هنا أي: يوقنون.

قوله: (وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿وعلى ا فتوكلوا إنْ كُنتم مـؤمنين﴾ [المائدة: ٢٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالى: ﴿ومن يتوكلْ على ا فهو حسبه﴾ [الطلاق: ٣]).

- الأمر بالتوكل دليل على أنه عبادة.
- ﴿وعلى ا فتوكلوا﴾ [المائدة: ٢٣] دليل على وجوب إفراد الله تعالى بالتوكل.
- ﴿فهو حسبه﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه.

الدرس التاسع: الرغبة والرهبة والخشوع والخشية والإنابة

قال رحمه الله:

ودليل الرغبة والرهبة والخشوع قوله تعالى: **إنهم كانوا يسارعونَ في الْخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبا وكانوا لنا خاشعين** [الأنبياء: ٩٠].

ودليل الخشية قوله تعالى: **فلا تخشوهم واخشوني** الآية [البقرة: ١٥٠].

ودليل الإنابة قوله تعالى: **وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له** الآية [الزمر: ٥٤].

عناصر الدرس:

- الهجرة في سبيل الله
- ١، ٢: الرغبة والرهبة
  - معنى الرغبة والرهبة
  - أقسام الرغبة والرهبة
- ٣: الخشوع
  - معنى الخشوع
  - أنواع الخشوع
  - بيان معنى الخشوع الشركي
- ٤: الخشية
  - معنى الخشية
  - فضل خشية الله تعالى
  - درجات الخشية
  - بيان معنى الخشية الشركية
- ٥: الإنابة
  - معنى الإنابة
  - التناسب بين الخشية والإنابة
  - الإنابة سبب الهداية
  - تعرّض الشيطان لأهل الإنابة

الرغبة والرهبة

● الرَّغْبَة والرَّغَب: الرجاء والطمع.

● والرَّهْبَةُ والرَّهَب: الخوف والخشية.

● الرغبة والرهبة عبادتان جليلتان، قال الله تعالى في مدح أنبيائه: **إنهم كانوا يسارعونَ في الْخيرات ويدعوننا رغَبَاً ورهباً وكانوا لنا خاشع** [الأنبياء: ٩٠]، وفيه حث على الاتساء بهم.

● الرَّغَب والرَّهَب من صفات العبادة الملازمة لها، فكل عابد راغب راهب.

● قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وكل داع فهو راغب راهب طامع خائف، وكل سائل راغب راهب فهو عابد للمسؤول، وكل عابد له فهو أيضا راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه؛ فكل عابد سائل، وكل سائل [أي بهذا المعنى] عابد؛ فأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه)ا.هـ.

● الرغبة والرهبة بهذا المعنى عبادة لا يجوز صرفها لغير الله تعالى قال تعالى: **وإلى ربك فَارغَب** [الشرح: ٨] تقديم الجار والمجرور يدل على الحصر، أي لا ترغب إلا إلى الله.

● في الصحيحين من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: « **إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة اضطجع على شقك الأ ن قـل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وأ أت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به** ».

● الرغبة والرهبة يحملان معاني تعبدية من التذلل والخضوع والمحبة والتعظيم والرجاء والخوف، وهذه عبادات يجب إخلاصها لله جل وعلا؛ فمن صرفها لغير الله فقد أشرك بالله شركاً أكبر مخرجاً عن الملة والعياذ بالله.

● وهذا أمر تُشَاهَدُ آثارُه فيمن يعبد غير الله عز وجل من عباد القبور والأولياء والجن والأشجار والأحجار وغيرها، يكون في قلب العابد لها رغبة ورهبة تعبدية مشتملة على التذلل والخضوع والمحبة والرجاء والخوف.

• المسلمون يتفاضلون في أداء هذه العبادات كما تقدم بيانه في نظائره ؛ وكلما كان العبد أعظم رغبة في فضل الله تعالى ورحمته كان أكثر تعبداً من هذا الوجه.

• تعظم الرغبة في نفس المؤمن بأمرين :

o الأمر الأول : تفكّره في أسماء الرحمة والإحسان لله جل وعلا وتأمُّله آثارَها في الخلق والأمر فيزداد بذلك علماً ويقيناً ورغبة في فضل الله عز وجل واشتياقاً إلى لقائه والنظر إلى وجهه الكريم الذي هو أقصى غاية النعيم، نسأل الله من فضله.

o الأمر الثاني : تأمّل ما أخبر الله به من ثوابه وفضله العظيم في الدنيا والآخرة لمن أطاعه واتبع هداه، والوقوف عند الآيات التي فيها وصف النعيم الذي أعدّه الله لعباده المؤمنين وتحريك القلب للتشوّق إليه ؛ فتزداد رغبته في ثواب الله وفضله ورحمته وبركاته.

• **وإ ربك فارغب** [الشرح: ٨] سرّ إخلاص الرغبة هو اعتقاد العبد الكفاية في ربه جل وعلا والثقة به، واليقين بأن فضله كافيه ومغنيه ؛ فمتى امتلأ قلبه يقينا بهذا كانت رغبته خالصة لله تعالى.

• الرغبة الصادقة هي التي يتبعها العمل واتباع الهدى، وأما من يتمنى الأماني ويقعد عن العمل فإنه غير صادق الرغبة وإنما هو متمنٍّ عاجز مثبَّط.

• قال الله تعالى عن المنافقين : **ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدةً ولكن كـره اللـه انبعاثهم فثبطهم وقيلَ اقْعدوا مع القَاعدين** [التوبة: ٤٦]، وقال عن المخذول من بني إسرائيل : **ولكنه أخلد إ الأرض واتبع هواه** [الأعراف: ١٧٦].

• هؤلاء منافقون لم يريدوا الخروج ولم يعدوا له العدة وإنما تظاهروا بأنّهم مع المؤمنين وقلوبهم غير راغبة في الجهاد في سبيل الله ؛ فَكَرِهَ انبعاثهم على هذا الوجه فثبطهم.

• قال الله تعالى : **وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بـا وبرسـوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسا ولا ينفقون إلا وهم كارهون** [التوبة: ٥٤] ؛ فحالهم يبيّن عدم صدق رغبتهم، وهو من أسباب عدم قبول أعمالهم.

• لا يطالَب العبد من الأسباب إلا بما يستطيع كما قال تعالى : **فَاتقُوا الله ما اسـتطَعتم** [التغابن: ١٦]، **وأعدوا لَهم ما استطَعتم** [الأنفال: ٦٠]، **لَا يكَلف الله نفْسا إلا وسعها** [البقرة: ٢٨٦]،

لا يكلف الله نفْسا إلا ما آتاها [الطلاق: ٧].

● إذا بذل العبد ما يستطيع من الأسباب وتوكل على الله فقد حقق التوكل وصدقَ الرغبةَ فكان موعوداً وعداً لا يتخلّف بتحقيق مطلوبه أو أفضل منه.

● فإن غلبه أمر بعد ذلك أو حصل له ما يكره من المصائب التي يقدرها الله عز وجل عليه ابتلاء واختباراً فهو غير ملوم، بل هو موعود بأن يعوضه الله خيراً مما فاته، وأن يثيبه على ما أصابه ثواباً عظيماً.

● الرغبة الصادقة تحمل على الجدّ في العمل من غير تعلق بالأسباب بل يتعلق القلب بالله جل وعلا وحده، وهذا هو تخليص العبادة لله جل وعلا.

● من تخليص العبادة أن يحذر المؤمن من الآفات التي تضعف الرغب إلى الله جل وعلا من الغفلة عن ذكر الله، وتعظيم الدنيا، والتعلق بالأسباب، وضعف الصبر واليقين.

● كلّ ما تقدم من الكلام في الرغبة قُلْ نظيرَه في عبادة الرهبة فهي عبادة لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل.

● ومن تفكر في أسماء الجلال لله تعالى كأسماء العظيم القهار الكبير الجبار والقوي المتعال المحيط المتكبر ونحوها من الأسماء الجليلة العظيمة وتأمل آثارها في الخلق والأمر عظمت رهبة الله تعالى في نفسه وذلّت نفسه لله وخضعت، فأسلمت له وطلبت مرضاته.

● الرهبة الصادقة تزكّي النفس من خصال ذميمة من شرّها: الكِبْر والعُجْب والغرور، وتطهّر القلب من الرياء والنفاق وطلب الدنيا بعمل الآخرة، وتسمو بهمّة صاحبها فلا يُخلد إلى الأرض ولا يتّبع هواه؛ فتنأى عن قلبه المطامع الدنيوية الصارفة عن المقامات العلية، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

● ما تقدّم كلّه في بيان الرغبة والرهبة التي تحمل معاني تعبدية.

● أما الرغبة التي لا تحمل معنى العبادة وكذلك الرهبة التي لا تحمل معنى العبادة وهي الرغبة في نفع أسباب الخير، والرهبة من أسباب الشر؛ فليست عبادة، بل هي رغبة ورهبة يقتضيهما الطبع وحب حصول المنفعة والسلامة من المضرة.

● في الصحيحين من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: (قَدِمَت عليَّ أمي

وهي مشركةٌ في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: (قدمت علي أمي وهي راغبةٌ أَفَأَصِلُ أمي؟ قال: «**نعم، صلي أمك**»).

- وكذلك الرهب الذي لا يحمل معنى العبادة هو رهب طبيعي ويكون حكمه بحسب ما يفضي إليه، وقال الله تعالى: **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبونَ به عدو الله وعدوكم** [الأنفال: ٦٠].

- وقال الله تعالى عن سحرة فرعون: **فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم** [الأعراف: ١١٦]، ووقال: **فإذا حبالهم وعصيهم يخيلُ إليه من سحرهم أنها تسعى (٦٦) فأوجس في نفسه خيفةً موسى (٦٧) قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى (٦٨)** [طه: ٦٦- ٦٨].

- في أمثال العرب: رَهَبُوت خيرٌ من رَحَمُوت؛ أي: أن تُرهب خير من أن تُرحم.

o هذه الخيفة والرهبة طبيعية لا يلام عليها الإنسان في الأصل، وإنما هي كمثل رهبة الأعداء والسباع ونحوها.

- وكذلك الرغبة في أسباب الخير مما أحوج الله بعض الناس به إلى بعض ما يرجى نفعه لا لوم على الإنسان فيه إذا كان متبعاً لهدى الله عز وجل في ذلك، متقياً ربه جل وعلا، ولم يتعلق قلبه بهذه الأسباب.

أقسام الرغبة والرهبة

- الرغبة والرهبة تنقسم إلى قسمين:

o **القسم الأول:** رغبة العبادة ورهبة العبادة وهي الرغبة والرهبة التي تحمل معاني التعبد من الذل والمحبة والتعظيم فهذه عبادة لا يجوز صرفها لغير الله جل وعلا.

o القسم الثاني: الرغبة والرهبة الطبيعيتان وهما اللتان يحمل عليهما مقتضى الطبع ولا يكون فيهما معاني التعبد؛ فهذه على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: لا لوم فيها على العبد، وذلك إذا لم تحمل هذه الرغبة الرهبة العبد على ارتكاب محظور لا يعذر فيه، أو ترك مأمور لا يعذر بتركه، ولم يتعلق قلبه بالأسباب.

الدرجة الثانية: محرمة وهي التي تحمل العبد على ترك مأمور لا يعذر بتركه أوفعل محظور لا يعذر بفعله، وتختلف درجة التحريم بحسب درجة المخالفة؛ فإن خالف في صغيرة كان إثمها بحسبها، وإن ارتكب كبيرة من الكبائر بسبب هذه الرغبة والرهبة كان إثمه أعظم، أمّا إذا أدّى به ذلك إلى ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام فهو كافر والعياذ بالله كما تقدم بيانه في مسألة الخوف.

الدرجة الثالثة: الرغبة والرهبة التي هي شرك أصغر من شرك الأسباب، وهي أن يتعلق قلب العبد بالأسباب.

الخشوع

- الخشوع في اللغة أصله السكون، قال الله تعالى: **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزت وربت** [فصلت: ٣٩]، ويفسَّر في كل موضع بحسبه.
  - فخشوع الأصوات: سكونها وصمتها قال تعالى: **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا** [طه: ١٠٨].
  - وخشوع الأبصار: خضوعها وذلّتها وانخفاضها قال الله تعالى: **قلوبٌ يومئذٍ واجفةٌ (٨) أبصارها خاشعةٌ** [النازعات: ٨، ٩] وقال تعالى: **خاشعةً أبصارهم ترهقهم ذلةٌ** [القلم: ٤٣].
- وخشوع القلب: ذلُّه وخضوعه وإخباته.
- وخشوع الجوارح: سكونها عن الحركة المنافية للخشوع.
- الخشوع في الصلاة يشتمل على معنيين:
  - خشوع القلب بالتذلل والخضوع لله جل وعلا.
  - وخشوع الجوارح بأداء الصلاة بطمأنينة وترك العبث والحركة المنافية للخشوع.
- قال الله تعالى: **قد أفلح المؤمنونَ (١) الذين هم في صلاتهم خاشعونَ** [المؤمنون: ١، ٢].
  - الخشوع هنا يشمل: خشوع القلب الذي هو الأصل، وخشوع الجوارح، وخشوع البصر في الصلاة.
  - البكاء أَثَرٌ من آثار الخشوع، فقد يخشع العبد في صلاته ولا يبكي، وقد يبكي فيكون بكاؤه من أثر خشوعه.

• الناس يتفاضلون في الخشوع كما قال الله تعالى: **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا (١٠٦) قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا (١٠٧) ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا (١٠٨) ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا (١٠٩)** [سورة الإسراء: ١٠٦- ١٠٩].

• الخشوع عبادة لله تعالى لا يجوز صرفها لغيره عز وجل.

o من تأمّل أحوال عُبَّاد القبور والأشجار والأضرِحَة ورأى تمسّحهم وطوافهم وخوفهم ورجاءهم وخشوعم وخضوعهم عرف معنى الخشوع الشركي.

• أما الخشوع الذي لا يحمل معنى التعبد وإنما يقتضيه الإطلاق اللغوي فليس بشرك، وهذا له شواهد في كلام العرب، واستعمال الناس له في بعض الإطلاقات ولا يراد به المعنى التعبدي.

• تطلقه العرب وصفاً للجبان تعييراً له، وكذلك قليل الصبر ومن استكان لعدوه، ويحذرون من هذه الصفة ويتبرؤون منها.

o قال ابن خفاف:

وإِذا افْتَقَرْتَ فلاَ تَكُنْ مُتَخشِّعاً ... تَرْجُو الفَواضِلَ عندَ غيرِ المُفْضِلِ

• ومن اعترف به منهم فهو كمن اعترف بالذل والاستكانة إما لِكِبَرِه أو غلبَة الحوادث عليه وقلة حيلته.

• ومنه قول الشاعر:

فأَصبَحْتُ مِمَّا أَحدثَ الدهرُ خاشعاً ... وكنتُ لِرَيبِ الدهرِ لا أَتَخَشَّعُ

• المسكين سمي مسكيناً لما فيه من التخشع والاستكانة.

• إذا كان في القلب خشوع لأمر من أمور الدنيا وخضوع لها بمعنى التعلق وعبودية الدنيا فهذا شرك أصغر والعياذ بالله كما سبق بيانه.

هذا الخشوع يكون لدى بعض العشاق ونحوهم، ومن ذلك قول الأحوص:

ألا فارحَمِي مَن قد ذَهَبَتِ بعَقْلِهِ ... فأمسى إليكم خاشعاً يتضرَّعُ

o فهذا شرك أصغر قادح في كمال التوحيد الواجب؛ فإن أدى بصاحبه إلى ارتكاب

ناقض من نواقض الإسلام القولية أو الفعلية أو الاعتقادية فهو كافر والعياذ بالله.

الخشية

- الخشية: شدة الخوف، وهي مبنية على العلم، وبهذين المعنيين فُرّق بينها وبين الخوف وإن كان بينهما تقارب في المعنى.
- الخشية فيها معنى الخوف الشديد المبني على العلم بعظمة المخشي منه، قال الله تعالى: **إنّما يخشى اللّه من عباده الْعلماءُ** [فاطر: ٢٨].
- إفراد الله تعالى بالخشية من سِمَات الأنبياء كما في قوله تعالى: **الّذين يبلّغونَ رسالات اللّه ويخشونه ولا يخشونَ أحداً إلّا اللّه وكفَى بِاللّه حسِيباً** [الأحزاب: ٣٩].
- أمر الله تعالى بإفراده بالخشية فقال تعالى: **أ شونم فَاللّه أحقّ أنْ تخشوه إنْ كُنتم مؤمنِ** [التوبة: ١٣].
- الخشية تحمل معاني تعبدية من التذلل والمحبة والتعظيم والانقياد.
- الخشية هي أعظم ما يحمل العبد على التقوى؛ فهو يخشى من غضب إلهه عليه وحرمانه من رضاه وفضله، ويخشى أن يحل عليه سخطه وعقوبته، ويخشى أن يخذله ويتخلى عنه.
- هذه المعاني التعبدية من أخلصها لله جل وعلا فهو مؤمن موحّد وليّ من أولياء الله تعالى؛ قد أعدّ الله له الثواب العظيم والمقام الكريم.
- أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين بأنهم يخشونه بالغيب، كما قال تعالى: **وأزلفَت الجنّةُ للمتّق غَير بعيدٍ (٣١) هذَا ما توعدونَ لكُلّ أَوّابٍ حفيظٍ (٣٢) من خشي الرّحمن بِالْغيبِ وجاءَ بِقَلْبٍ منِيبٍ (٣٣) ادخلُوها بِسلامٍ ذَلك يوم الْخلُود (٣٤) لَهم ما يشاءُونَ فيها ولَدينا مزيدٌ(٣٥)** [ق: ٣١- ٣٥].
  - o **ولَدينا مزيدٌ** نكر المزيد للتشويق إليه، وقد روي عن جماعة من الصحابة والتابعين أن المزيد هو رؤية المؤمنين لربهم جل وعلا، وهذا المزيد أفضل مما في الجنة من النعيم، نسأل الله تعالى من فضله.
- وقال تعالى: **إنّ الّذين آمنوا وعملُوا الصّالحات أُولَئك هم خير الْبرِيّة (٧) جزاؤهم عند ربِّهم جنّات عدنٍ تجري من تحتها الْأنهار خالدين فيها أبدا رضي اللّه عنهم ورضوا**

عنه ذَلك لمن خشي ربّه (٨) [البينة: ٧، ٨].

- إخلاص عبادة الخشية لله تعالى باب عظيم لبركات كثيرة عظيمة لا يقدر قدرها إلا الله جل وعلا:

  - فهي مفتاح لفهم القرآن وتدبره والاعتبار بما فيه والتذكر النافع الذي يزداد به اليقين ويرتفع به الإيمان وتزكو به النفس، ويتيسّر به اتباع هدى الله تعالى.
  - بيّن الله تعالى أن مقصوده الأعظم من إنزال كتابه هو تذكير أهل خشيته ومخاطبتهم به؛ قال الله تعالى: **طه (١) ما أنزلنا عليك القُرآنَ لتشقى (٢) إلّا تذْكرةً لمن يخشى** [طه: ١- ٣].
  - فأهل الخشية هم أحق الناس بهذا الكتاب الكريم وأسعد الناس به، والرسالة لهم فيه خاصة وهي للناس عامة، فلهم فيه امتياز لا يزاحمون عليه، من التوفيق لفهمه والانتفاع به وحسن التذكر والتبصر والاعتبار.
  - يفتح الله لأهل الخشية في فهم القرآن ما لا يفتح لغيرهم لأنهم يقرؤونه بقلوب منيبة إلى الله معظمة لله ولكتابه مقبلة على الله تتشوّق لمعرفة هدى الله؛ فيهديهم الله بسبب ما يعلمه في قلوبهم.

- قال الله تعالى: **إنما تنذر الذين يخشونَ ربهم** [فاطر: ١٨]، وقال تعالى: **فَذَكر إنْ نفَعت الذكْرى (٩) سيذكر من يخشى** [الأعلى: ٩، ١٠] وهذا وعد من الله لأهل خشيته أنهم سيذكرون وينتفعون من كتابه.

- التذكر المراد هنا يشمل ثلاثة أمور:

  - **الأمر الأول:** التذكر الذي يحمل على محبة الله جل وعلا، ومحبة لقائه والتقرب إليه من تذكر صفات الله عز وجل وكرمه وفضله وإحسانه؛ فإن العبد إذا عظمت محبة الله تعالى في قلبه أحبَّ ما يذكره به، ومن أحبَّ ذِكْر الله أحبَّ الله له أن يتذكر، ومن كره ذكر الله كان جزاؤه من جنس عمله إلا أن يعفو الله عنه ويتوب عليه.

صدق المحبة يحمل على الخشية من الانقطاع عن الله جل وعلا والحرمان من رضوانه، ولذلك إذا بلغهم من نصوص الكتاب والسنة أن من عقوبة بعض الذنوب أن صاحبها لا يكلمه الله ولا ينظر إليه أورثهم ذلك خشية خاصة يجدونها في قلوبهم.

الحرمان من رضا الله عز وجل وتكليمه والنظر إليه عقوبة عظيمة لا تحتملها قلوب من صدقت محبتهم لله جل وعلا.

مما يدلّ على ذلك قول الله تعالى في عقوبة الكفار: **كلا إنهم عـن ربهـم يومئـذٍ لمحجوبونَ (١٥) ثُم إنهم لَصالُوا الْجحيم** [المطففين: ١٥، ١٦] فبدأ بالعقوبة الأهمّ على نفوسهم بعدما تظهر لهم الحقائق.

o **الأمر الثا :** التذكر الذي يحمل على رجاء فضل الله عز وجل وحسن ثوابه؛ فإنه إذا تذكر ما أعده الله لعباده من الثواب والفضل العظيم دعاه ذلك إلى الازدياد من الأعمال الصالحة لما يرجو من حسن ثوابها.

صدق الرجاء يحمل على الخشية من فوات ثواب الله عز وجل وفضله.

o **الأمر الثالـث:** التذكر الذي يحمل على الخوف من الله تعالى والخوف من سخطه وعقابه، وهذا ما يزجره عن ارتكاب المحرمات والتفريط في أداء الفرائض.

الخوف الصادق يحمل على خشية التعرض لسخط الله وعقابه.

- هذه الأمور الثلاثة (المحبة والرجاء والخوف) هي أركان العبادة، وعليها مدراها، وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالخشية كما سبق بيانه.
- بهذا تعلم شيئاً من الفرق بين الخشية والخوف، وأن خشية العبادة لها لوازم تعبدية من المحبة والخوف والرجاء.
- تأمّل ما وصف الله تعالى به أهل خشيته عند تلاوتهم أو سماعهم لآيات الله تتلى عليهم ومعرفتهم بأنهم هم المعنيون أولاً بما فيه من العبر والبينات.
- قال الله تعالى: **أَفَمن شرح اللّه صدره للْإِسلَامِ فَهو علَى نورٍ من ربّه فَويلٌ للْقَاسـية قُلُوبهم من ذكْرِ اللّه أُولَئك في ضلَالٍ مبِ ٍ (٢٢) اللّه نزّلَ أَحسن الْحديث كتابا متشـابِها مثَانِي تقْشعرّ منه جلُود الّذين يخشونَ ربّهم ثُمّ تل جلُودهم وقُلُوبهم إِلَى ذكْرِ اللّه ذَلـك**

هدى اللَّه يهدي بِه من يشاءُ ومن يضللِ اللَّه فَما لَه من هادٍ (٢٣) [الزمر: ٢٢، ٢٣]

o جعل الله قسوة القلب علامة بيّنة على الضلال.

• من تأمّل العبر والآيات البينات التي جمعها الله لأهل خشيته وبيّنها لهم وأرشدهم إلى الاعتبار بها كما قال تعالى: **إن في ذَلك لَعبرةً لمن يخشى** [النازعات: ٢٦] علِم أن أهل الخشية هم أهل الخطاب الخاص في القرآن الكريم.

• أهل الخشية هم أهل التذكر والتفكر، وهم أهل الاعتبار والتبصر، وهم أحرص الناس على الهداية وأعظمهم فرحاً بما يقربهم من الله تعالى ويدنيهم منه، وأشدهم حرصاً على التحرز مما يسخطه جل وعلا.

• سبب ذلك أنهم على يقين عظيم بأن فوزهم وفلاحهم ونجاتهم مداره على رضوان الله تعالى عنهم، وأنه ليس بينهم وبين الله سبب يتمسكون به إلا ما يرشدهم إليه من العمل الصالح واتباع هداه جل وعلا.

• فأهل الخشية هم العلماء على الحقيقة، كما قال الله تعالى: **أمن هو قَانِتٌ آناءَ الليل ساجِدا وقَائما يحذَر الْآخرةَ ويرجو رحمةَ ربه قُلْ هلْ يستوي الذين يعلَمونَ والذين لَا يعلَمونَ إنما يتذَكر أولُو الْأَلْبابِ** [الزمر: ٩].

• تأمّل هذا المثال: قال الله تعالى: **أَلم تر أَنّ اللّه أَنزلَ من السّماءِ ماءً فَأَخرجنا بِه ثَمراتٍ مختلفًا أَلْوانها ومن الْجِبالِ جددٌ بِيضٌ وحمرٌ مختلفٌ أَلْوانها وغَرابِيب سودٌ (٢٧) ومن النّاسِ والدّوابِّ والْأَنعامِ مختلفٌ أَلْوانه كَذَلك إِنّما يخشى اللّه من عباده الْعلَماءُ إِنّ اللّه عزيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنّ الّذين يتلُونَ كتاب اللّه وأَقَاموا الصّلَاةَ وأَنفَقُوا ممّا رزقْناهم سرّا وعلَانِيةً يرجونَ تجارةً لَن تبور (٢٩) ليوفّيهم أُجورهم ويزيدهم من فَضله إِنّه غَفُورٌ شكُورٌ(٣٠)** [فاطر: ٢٧- ٣٠]

o جمع الله لأهل الخشية مواضع الاعتبار والتفكر من الآيات المتلوّة والكونية وهما طرق معرفة الله جلّ وعلا.

o ووعدهم أن يوفيهم أجورهم ويزيدهم زيادة من عنده تليق بفضله وكرمه سبحانه لم يبينها لهم بل أخفاها لهم ليتشوقوا إليها.

o وأخبرهم أنه غفور شكور، فيغفر لهم ذنوبهم وسيئاتهم ويفتح لهم أبواب الرجاء في مغفرته وعفوه وتجاوزه، وهو تعالى شكور لا يضيع لهم أي عمل صالح يعملونه ولو كان مثقال ذرة، بل يقبله منهم وينميه لهم ويضاعف لهم مثوبته.

o وأرشدهم الله تعالى إلى التفكر في آياته الكونية المخلوقة وآياته المتلوة، فهذا الماء الذي ينزل من السماء هو ماء واحد وتخرج به ثمرات مختلف ألوانها؛ فكذلك وحي الله تعالى المنزل هو وحي واحد ولكن انظر إلى اختلاف آثاره في قلوب الناس وأعمالهم؛ فمنتفع ومحروم، ومستقل ومستكثر، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى.

• وقال تعالى: **يا أيها النّاس أنتم الفُقَراءُ إلى اللّه واللّه هو الغنيّ الحميد (١٥) إنْ يشأ يذْهبكُم ويأت بِخلْقٍ جديدٍ (١٦) وما ذَلك على اللّه بِعزيزٍ (١٧) ولا تزر وازِرةٌ وزر أخرى وإنْ تدع مثْقَلةٌ إلى حملها لا يحملْ منه شيءٌ ولو كانَ ذَا قُربى إنّما تنذر الّذين يخشـونَ ربّهم بِالغيبِ وأقاموا الصّلاةَ ومن تزكّى فإنّما يتزكّى لنفْسِه وإلى اللّـه المصـ (١٨)**

[فاطر: ١٥- ١٨].

• وعد الله عباده الذين يخشونه بالغيب بأن يغفر لهم ذنوبهم، وهذا يدلك على أنه ليس من شرط الذين يخشون ربهم أنهم معصومون من الذنوب والخطايا، بل قد يقعون في بعضها، وهم على ذلك يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، ويستغفرون ربهم ويتبعون السيئة الحسنة، ويتوبون إلى الله ويستغفرونه، وبذلك مدحهم الله وأثنى عليهم ووعدهم بمغفرة ذنوبهم، قال الله تعالى: **إنّ الّذين يخشونَ ربّهم بِالغيبِ لَهم مغفرةٌ وأجرٌ كَبِ** [الملك: ١٢].

• يتفاضل أهل خشية الله تفاضلاً عظيماً فهم على درجات لا يحصيهم إلا من خلقهم.

• فمن كان معه أصل الإسلام فمعه أصل الخشية، وكلما ازداد العبد من الخشية ازداد نصيبه من تكميل منازل العبودية لله تعالى والفوز بفضله ورحمته وما يفتح الله له به من الفضل العظيم بتذكر آياته والانتفاع بعظاته واتباع هدى الله الذي أرشده إليه.

• أعلاهم درجة السابقون المقربون الذين وصفهم الله تعالى بقوله: **إنّ الّذين هم مـن خشية ربّهم مشفقُونَ (٥٧) والّذين هم بِآيات ربّهم يؤمنونَ (٥٨) والّذين هم بِـربّهم لَـا يشركُونَ (٥٩) والّذين يؤتونَ ما آتوا وقُلُوبهم وجِلَةٌ أنّهم إلى ربّهم راجِعونَ (٦٠) أولَئك**

يسارعونَ في الْخيرات وهم لَها سابِقُونَ (٦١) ولَا نكَلِّف نفْسا إِلَّا وسعها ولَـدينا كتـابٌ ينطق بِالْحقِّ وهم لَا يظْلَمونَ (٦٢) [المؤمنون: ٥٧- ٦٢].

- كل ما سبق في خشية العبادة.
- أما ما يطلق عليه لفظ الخشية وهو لا يحمل معاني تعبديه ؛ فهذا حكمه حكم الخوف الطبيعي يكون بحسب ما يحمل عليه.
  - o فأما من لم تحمله هذه الخشية على ارتكاب محظور ولا ترك مأمور فهي خشية طبيعية لا يلام عليها كأن يخشى السباع والهوام والطغاة.
- وأما من حملته تلك الخشية على ارتكاب محظور لا يعذر بارتكابه أو ترك مأمور به لا يعذر بتركه فهو مذنب آثم وإثمه على حسب جرمه ؛ فإن أدَّت به هذه الخشية إلى فعل صغيرة من الصغائر فإثمه بحسبه ؛ وإن أدّت إلى فعل كبيرة كان إثمه أعظم ، وهو ملوم مذموم على الحالين.
- قال الله تعالى: **أَلَم تر إِلَى الَّذين قيلَ لَهم كُفُّوا أَيديكُم وأَقيموا الصَّلَاةَ وآتوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتب علَيهم الْقتالُ إِذَا فَرِيقٌ منهم يخشونَ النَّاس كَخشية اللَّه أَو أَشدَّ خشيةً وقَـالُوا ربَّنا لم كَتبت علَينا الْقتالَ لَولَا أَخَّرتنا إِلَى أَجلٍ قَرِيبٍ قُلْ متاع الدّنيا قَليلٌ والْآخرةُ خيرٌ لمن اتَّقَى ولَا تظْلَمونَ فَتيلًا (٧٧) أَينما تكُونوا يدرِككُّم الْموت ولَو كُنتم في بروجٍ مشيَّدةٍ وإِنْ تصبهم حسنةٌ يقُولُوا هذه من عند اللَّه وإِنْ تصبهم سيِّئَةٌ يقُولُوا هذه من عندك قُلْ كُلٌّ مـن عند اللَّه فَمالِ هؤلَاءِ الْقَومِ لَا يكَادونَ يفْقَهونَ حديثًا (٧٨)** [النساء: ٧٧، ٧٨].
- تكثر هذه الخشية المذمومة عند المنافقين، بل ربما أخرجتهم من دائرة الإسلام والعياذ بالله وذلك إذا حملتهم على ما ينقض الإسلام كموالاة الكفار على المؤمنين ونحو ذلك، قال الله تعالى: **يا أَيها الَّذين آمنوا لَا تتَّخذُوا الْيهود والنَّصارى أَولياءَ بعضهم أَولياءُ بعضٍ ومـن يتولَّهم منكُم فَإِنَّه منهم إِنَّ اللَّه لَا يهدي الْقَوم الظَّالم (٥١) فَترى الَّذين في قُلُوبِهِم مرضٌ يسارِعونَ فيهِم يقُولُونَ نخشى أَنْ تصيبنا دائرةٌ فَعسى اللَّه أَنْ يأتي بِالْفَتح أَو أَمرٍ من عنـده فَيصبِحوا علَى ما أَسرّوا في أَنفُسِهِم نادم (٥٢) ويقُولُ الَّذين آمنوا أَهؤلَاءِ الَّذين أَقْسموا بِاللَّه جهد أَيمانِهِم إِنَّهم لَمعكُم حبِطَت أَعمالُهم فَأَصبحوا خاسرِين (٥٣)** [المائدة: ٥١- ٥٣].
- فمن حملته هذه الخشية على ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام كموالاة الكفار وطاعة

الطواغيت فيما يخرج من الملّة فهو كافر بذلك، حاله كحال المنافقين النفاق الأكبر.

- وأما من منعته خشيته من الله من ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام لكن بقي في قلبه تعلّق بالدنيا لخشيته من فوات بعض متاعها؛ فكان في قلبه نوع تعلقٍ مصحوب بتذلل وخوف ورجاء فهذا قد وقع في الشرك الأصغر وعبودية الدنيا، كما سبق بيانه، والعياذ بالله.

الإنابة

- الإنابة: هي الرجوع والإقبال إلى الله تعالى.
- قال قتادة في قوله تعالى: **وأَنِيبوا إِلَى ربكُم** [الزمر: ٥٤]: أي أقبلوا إلى ربكم.
- وقال عبد الرحمن بن زيد: (الإنابة: الرجوع إلى الطاعة، والنزوع عما كانوا عليه، ألا تراه يقول: **منِيبِ إِلَيه واتقُوه** [الروم: ٣١]).
- الإنابة من آثار خشية الله وعلامة عليها؛ كما قال تعالى: **هذَا ما توعدونَ لكُلِّ أَوابٍ حفِيظٍ (٣٢) من خشي الرحمن بِالْغيبِ وجاءَ بِقَلْبٍ منِيبٍ (٣٣)** [ق: ٣٢، ٣٣].
- من أحب الله تعالى أناب إليه، ومن رجا فضله تعالى أناب إليه، ومن خاف عذابه أناب إليه.
- فمصدر الخشية: المحبة والخوف والرجاء، وثمرة الخشية الإنابة إلى الله تعالى كما قال تعالى: **اللّه نزلَ أَحسن الْحديث كتابا متشابِها مثَانِي تقْشعر منه جلُود الَّذين يخشونَ ربهم ثُم تلين جلُودهم وقُلُوبهم إِلَى ذكْرِ اللّه ذَلك هدى اللّه يهدي بِه من يشاءُ ومن يضللِ اللّه فَما لَه من هادٍ** [الزمر: ٢٣].
- وقد بين الله تعالى أن المنتفعين بآياته والمتذكرين والمتبصرين هم أهل الخشية، وأهل الإنابة.
- فإذا أطلقت الخشية فلأنها سبب الإنابة والحامل عليها، وإذا أطلقت الإنابة فلأنها هي الثمرة المقصودة من الخشية.
- قال تعالى: **هو الَّذي يرِيكُم آياته وينزلُ لَكُم من السماءِ رِزقًا وما يتذَكَّر إِلَّا من ينِيب (١٣) فَادعوا اللَّه مخلصين لَه الدين ولَو كَرِه الْكَافرونَ** [غافر: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: **تبصرةً وذكْرى لكُلِّ عبدٍ منِيبٍ** [ق: ٨].

- العبد المنيب هو الذي جمع الخشية وأسبابها من المحبة والخوف والرجاء.
- جعل الله الإنابة من الأوصاف التي مدح بها أنبياءه فقال تعالى: **إن إبراهيم لحليمٌ أواهٌ منيبٌ** [هود: ٧٥]، وقال عن شعيب أنه قال: **وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** [هود: ٨٨].
- وأوحى الله تعالى إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قوله: **وما اختلفتم فيه من شيءٍ فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب** [الشورى: ١٠].
- ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في استفتاح تهجده « **اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت** » متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
- (وإليك أَنَبْتُ): تقديم الجار والمجرور يفيد الحصر، وفيه معنى إخلاص الإنابة لله تعالى.
- أمر الله تعالى عباده بالإنابة إليه فقال تعالى: **قُلْ يا عبادي الذين أسرفُوا على أنفُسِهم لا تقْنطُوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفُور الرّحيم (٥٣) وأنِيبوا إلى ربكُم وأسلموا له من قَبلِ أنْ يأتيكُم العذَاب ثُم لا تنصرونَ** [الزمر: ٥٣، ٥٤].
- جمع الله تعالى في هاتين الآيتين الأسباب الثلاثة الحاملة على الإنابة وهي:
  - **السبب الأول:** تحبيبهم إليه تعالى، وتذكيرهم بصفاته المقتضية لمحبته فهو ربهم وهم عباده، وهو الرحيم الذي لا يؤيس عباده من رحمته، الغفور الذي يغفر الذنوب جميعاً مهما بلغت فلا يستعظمه ذنب أن يغفره، وهو الودود الذي تودد إلى عباده بحسن مخاطبتهم رحمة بهم وإحساناً إليهم وهو الغني عنهم جل وعلا، ورفع من شأنهم إذ أضافهم إليه في خطابه لهم **يا عبادي** ؛ فمن تأمل هذه الأسماء الحسنى والصفات العليا وآثارها أحبّ الله تعالى وأناب إليه.
  - **السبب الثا :** الرجاء في رحمته ومغفرته وفضله العظيم **لا تقْنطُوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا** [الزمر: ٥٣].
  - **السبب الثالث:** التخويف من عذابه جل وعلا **من قَبلِ أنْ يأتيكُم العذَاب ثُـم لـا تنصرونَ** [الزمر: ٥٤].
- من تدبّر هاتين الآيتين عرف أسباب الإنابة، وأنها ترجع إلى المحبة والخوف والرجاء التي

هي أصول العبادة.

● وقال تعالى: **فَأَقِم وجهك للدّين حنِيفًا فطْرةَ الله التي فَطَر الناس علَيها لَا تبديلَ لخلْق الله ذَلك الدين الْقَيِّم ولَكن أَكْثَر الناسِ لَا يعلَمونَ (٣٠) منِيبِ إِلَيه واتقُوه وأَقيموا الصلَاةَ ولَا تكُونوا من الْمشرك (٣١) من الذين فَرقُوا دينهم وكَانوا شيعا كُل حزبٍ بِما لَـديهم فَرِحـونَ** [الروم: ٣٠- ٣٢].

الإنابة سبب الهداية

● بيّن الله تعالى أن الإنابة إليه سبب الهداية التي هي أعظم المطالب ومفتاح الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

○ قال الله تعالى: **قُلْ إِنّ اللّه يضلّ من يشاءُ ويهدي إِلَيه من أَناب (٢٧) اَلّذين آمنوا وتطْمئنّ قُلُوبهم بِذكْرِ اللّه أَلَا بِذكْرِ اللّه تطْمئنّ الْقُلُوب (٢٨)** [الرعد: ٢٧، ٢٨].

○ وقال تعالى: **اللّه يجتبِي إِلَيه من يشاءُ ويهدي إِلَيه من ينِيب** [الشورى: ١٣].

● من حقق التوكل والإنابة فقد حقق العبودية لله تعالى؛ قال ابن القيم رحمه الله: (التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة؛ فإن الدين استعانة وعبادة؛ فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة).

○ وفي الفاتحة: **إِياك نعبد وإِياك نستع** [الفاتحة: ٥] وبهما اكتمال دين العبد.

تعرّض الشيطان لأهل الإنابة

● مما ينبغي التفطن له ما نبه إليه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: (الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه والتقرب إليه والاتصال به؛ فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم، ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة.

● قال: (ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم؛ لأنه لم يسلك شرع الله ومنهاجه؛ بل هو مقبلٌ على هواه في غفلةٍ عن ذكر ربه).

تنبيه:

- ما سبق كلّه في الإنابة التي تحمل معاني العبادة فإخلاصها لله تعالى واجب، ومن صرفها لغير الله تعالى فلا شك في كفره.
- قد يطلق لفظ الإنابة في اللغة ولا يراد به هذه المعاني التعبدية وإنما يراد به المعنى اللغوي العام وهو الرجوع والإقبال؛ فيقال: أنابت المرأة إلى زوجها إذا رجعت إليه بعد نشوز.
- قال الشاعر:

ولقد رأيت سبيئة من أرضها   تسبى القلوب وما تنيب إلى هوى

- وقال النابغة الشيباني:

كأنّ ظهورَها حُزُمٌ أنابَتْ   بِها أُصُلاً إلى الحيّ الإماءُ

o (حُزُمٌ) جمع حُزْمَة، وهي حزم الحطب.

o (أُصُل) جمع أصيل وهو العصر، وهو وقت رجوع الإماء من أعمالهن حاملاتٍ حزم الحطب على رؤوسهن مقبلات إلى منازل الحي؛ فسمَّى هذا الرجوع والإقبال إنابة.

o هذا الإطلاق إنما يراد به أصل المعنى اللغوي، وهو عارٍ من المعنى التعبدي.

- سبب التنبيه على ذلك أنه ينبغي لطالب العلم أن يعلم أن هذه الألفاظ قد تطلق ويراد بها المعنى التعبدي، وقد تطلق ويراد بها المعنى اللغوي المجرد عن اللوازم التعبدية، وهو استعمال صحيح جائز في مواضعه لا حرج فيه.
- من غفل عن هذا الأمر ربما تشدد في منع إطلاق هذه الألفاظ جهلاً منه بأنها تطلق إطلاقاً سائغاً على معانٍ لا محذور فيها.

شرح عبارات المتن

قوله: (وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَالْخُشُوعِ قَوْلُهُ تَعَالى: **إنهم كانوا يسارعونَ في الْخيـرات ويدعوننا رغَبَاً ورهباً وكانوا لنا خاشعين** [الأنبياء: ٩٠]).

- وجه الدلالة أن الله تعالى مدح هذه الأعمال بما يدلّ على محبته إياها وحثّه عليها فدلّ على أنها عبادات يجب إخلاصها لله تعالى.

قوله: (وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ قَوْلُهُ تَعَالى: **فَلا تخشوهم واخشونِي** [البقرة: ١٥٠]).

- الأمر بالخشية دليل على أنها عبادة يحبّها الله تعالى؛ والنهي عن خشية غيره جلّ وعلا والأمر بخشيته وحده دليل على وجوب إخلاص هذه العبادة لله تعالى.

قوله: (وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ قَوْلُهُ تَعَالى: **وأنِيبوا إلى ربكُم وأسلموا له** [الزمر: ٥٤] الآية).

- الأمر بالإنابة دليل على أنه عبادة يجب إخلاصها لله تعالى.
- **وأسلموا له** [الزمر: ٥٤] قال ابن جرير: (يقول: واخضعوا له بالطاعة والإقرار بالدين الحنيفي)

o جمع ابن جرير بين المعنى اللغوي والشرعي للإسلام؛ فلفظ الإسلام يُطلق ويراد به الخضوع والإذعان، ويُطلق ويراد به دين الإسلام، وهما متلازمان.

o على المعنى الأول المراد بالإسلام الخضوع والإذعان لله تعالى والانقياد إليه وترك محادته ومعصيته.

o وعلى المعنى الثاني: المراد: ادخلوا في دين الإسلام، ودين الإسلام مبناه على الخضوع والانقياد لله وحده لا شريك له.

الدرس العاشر: الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر

قال رحمه الله:

ودليل الاستعانة قوله تعالى: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ [الفاتحة: ٥] وفي الحديث: «إذا استعنت فاستعن بالله».

ودليل الاستعاذة قوله تعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ [الفلق: ١] وقوله تعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ [الناس: ١].

ودليل الاستغاثة قوله تعالى: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ الآية [الأنفال: ٩]. ودليل الذبح قوله تعالى: قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] ومن السنة: «لعن الله من ذبح لغير الله». ودليل النذر قوله تعالى: يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا [الإنسان: ٧].

عناصر الدرس:

- الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة
  - معنى الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة
  - بيان التناسب بين هذه العبادات
  - تحقيق الاستعانة
  - أنواع الاستعانة
- الذبح
  - معنى الذبح
  - أقسام الذبح
- النذر
  - معنى النذر
  - أقسام النذر
  - فضل الوفاء بالنذر
  - ملخص لأحكام النذر

الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة

- الاستعانة هي طلب الإعانة على تحصيل منفعة.
- والاستعاذة هي طلب الإعاذة من ضرّ يخشى وقوعه.
- والاستغاثة هي طلب الإغاثة لتفريج كربة، فالاستغاثة أخص منهما لأنها تكون عند الشدة.
- هذا الطلب يكون بالقلب والقول والعمل.
- الاستعانة أوسع هذه المعاني الثلاثة وهي عند الإطلاق تشملها جميعاً، فتكون الاستعاذة هي طلب الإعانة على دفع مكروه، والاستغاثة هي طلب الإعانة على تفريج كربة.
- الاستعانة بابها واسع وهي من أعظم العبادات وأجلها حتى إنها جعلت قسيمة العبادة في سورة الفاتحة وهي من العبادة لأهميتها فقال تعالى: **إياك نعبد وإياك نستع** [الفاتحة: ٥].
- الاستعانة بمعناها العام تشمل الدعاء والتوكل والاستعاذة والاستغاثة والاستهداء والاستنصار والاستكفاء وغيرها.
- بيان ذلك أن كل ما يقوم به العبد من قول أو عمل يرجو به تحصيل منفعة أو دفع مفسدة فهو استعانة.
- وحاجة العبد إلى الاستعانة بالله تعالى لا تعدلها حاجة، بل هو مفتقر إليه في جميع حالاته؛ فهو محتاج في كل أحواله إلى الهداية والإعانة عليها، ومحتاج إلى تثبيت قلبه على الحق، ومغفرة ذنبه وستر عيبه وحفظه من الشرور والآفات وقيام مصالحه.
- العبد حارث همام يجد في قلبه في كل وقت مطلوباً من المطلوبات يحتاج إلى الإعانة على تحقيقه.
- الله تعالى هو المستعان الذي بيده تحقيق النفع ودفع الضر، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو سبحانه.
- هذا الأمر تكرر تأكيده في القرآن العظيم في مواضع كثيرة:
  - منها: قوله تعالى: **وإنْ يمسسك الله بِضرّ فَلا كاشف لَه إلّا هـو وإنْ يمسسك بِخير فَهو على كُلّ شيءٍ قَديرٌ** [الأنعام: ١٧].

o وقوله: **وإنْ يمسسك اللّه بِضرّ فَلَا كَاشف لَه إِلَّا هو وإنْ يردك بِخيـر فَلَـا رادّ لفَضله يصيب بِه من يشاءُ من عباده وهو الْغفُور الرّحيم** [يونس: ١٧].

o وقوله: **ولَئن سأَلْتهم من خلَق السّماوات والْأَرض لَيقُولُنّ اللّه قُلْ أَفَرأَيتم ما تدعونَ من دون اللّه إنْ أَرادنِي اللّه بِضرّ هلْ هنّ كَاشفَات ضرّه أَو أَرادنِي بِرحمـةٍ هـلْ هـنّ ممسِكَات رحمته قُلْ حسبِي اللّه علَيه يتوكَّلُ الْمتوكِّلُونَ** [الزمر: ٣٨].

o وقوله: **ما يفْتحِ اللّه للنّاسِ من رحمةٍ فَلَا ممسِك لَها وما يمسِك فَلَا مرسلَ لَه من بعده وهو الْعزِيز الْحكيم** [فاطر: ٢].

o وقوله: **أَم من هذَا الَّذي هو جنْدٌ لَكُم ينصركُم من دون الرّحمنِ إِن الْكَافرونَ إِلَّا في غُرورٍ (٢٠) أَم من هذَا الَّذي يرزقُكُم إِنْ أَمسك رِزقَه بلْ لَجّوا في عتوٍّ ونفُورٍ** [الملك: ٢٠، ٢١].

فالرزق هو جلب النفع، والنصر هو دفع الضر.

o وقوله: **فابتغوا عند ا الرزق** [العنكبوت: ١٧].

o وقوله: **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه** [الحجر: ٢١] وتقديم الظرف للحصر.

o وقوله: **وأن إ ربك ا نتهى** [النجم: ٤٢].

• قال ابن القيم رحمه الله: (**وإن من شيء إلا عندنا خزائنه** [الحجر: ٢١] متضمن لكنز من الكنوز وهو أن كلّ شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه، وقوله: **وأن إ ربـك ا نتـهى** [النجم: ٤٢] متضمن لكنز عظيم وهو أن كل مراد إن لم يُرَد لأجله ويتصل به وإلا فهو مضمحل منقطع؛ فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها؛ فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه؛ فهو غاية كل مطلوب؛ وكل محبوب لا يحب لأجله؛ فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله؛ فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه؛ فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه)

• قال: (فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: **وإن من شيء إلا عندنا خزائنـه** [الحجر: ٢١] واجتمع ما يراد له كله في قوله: **وأن إ ربك ا نتهى** [النجم: ٤٢] فليس وراءه سبحانه غاية

تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى).

● قال: (وتحت هذا سرٌّ عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقرُّ ولا يطمئنُّ ولا يسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يحب ويراد؛ فمراد لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين؛ فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعمته ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد)ا.هـ.

● المقصود أنه لا يحصل لعبد نفع في أمر من أمور دينه ودنياه إلا بالله جل وعلا، فهو المستعان وحده على كل ذلك.

● وكل سبب من الأسباب التي يبذلها العبد لتحقيق النفع أو دفع الضر لا يستقل بالمطلوب، فلا يوجد سبب مستقل بالمطلوب، بل لا بد أن يكون معه سبب مساعد ولا بد معه أيضاً من انتفاء المانع، ولا يكون كل ذلك إلا بإذن الله جل وعلا.

● من أبصر هذا حقيقةً أسلمَ قلبَه لله جل وعلا، وعَلِمَ أنه لا يكون إلا ما يشاء الله، وأن ما يطلبه من خير الدنيا والآخرة لا يناله إلا بإذن الله وهدايته ومشيئته، وأن لنيل ذلك أسباباً هدى الله إليها وبيّنها.

● من كان على يقين بهذا قام في قلبه أنواع من العبودية لله جل وعلا من المحبة والرجاء والخوف والرغب والرهب والتوكل وإسلام القلب له جل وعلا والثقة به وإحسان الظن فيه.

● يجعل الله في قلب المؤمن بسبب هذه العبادات العظيمة من السكينة والطمأنينة والبصيرة ما تطيب به حياته وتندفع به عنه شرور كثيرة وآفات مستطيرة.

● الناس في العبادة والاستعانة على أقسام؛ فأفضلهم الذين أخلصوا العبادة والاستعانة لله تعالى فحققوا **إياك نعبد وإياك نستع** [الفاتحة: ٥] واستعانوا بالله تعالى على عبادة الله كما أرشد النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل أن يقول دبر كل صلاة: « **اللهم أع على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك** ». رواه أحمد، وهؤلاء بأفضل المنازل.

● فَقِه معاذ بن جبل هذا الحديث أحسن الفقه؛ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

عن معاذٍ أنه قال: (أما أنا فأنام ثم أقوم فأقرأ فأحتسب في نومتي ما أحتسب في قومتي). متفق عليه، ولهذا الخبر قصة يجدر الوقوف عليها.

- هذا أمر قد يغفل عنه كثير من الناس؛ فإن من أخلص قلبه لله جل وعلا جعل ما يفعله من المباحات سبباً للتقوي على طاعة الله جل وعلا وحسن عبادته حتى تكون حياته كلها لله كما قال الله تعالى لنبيه: **قُلْ إِنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي للّه ربِّ العالم (١٦٢) لا شريك له وبِذَلك أمرت وأنا أوّلُ المسلم** [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

- المسلمون يتفاضلون في هاتين الصفتين تفاضلاً عظيماً فهم على درجات فيهما لا يحصيهم إلا من خلقهم، فمن حقق إخلاص العبادة والاستعانة فهو سابق بالخيرات بإذن ربه.
- يكون لدى بعض الناس ضعف في إخلاص العبادة، وضعف في إخلاص الاستعانة.
- والتقصير في إخلاص العبادة تحصل بسببه آفات عظيمة تحبط العمل أو تنقص ثوابه كالرياء والتسميع وابتغاء الدنيا بعمل الآخرة، وأخف من هؤلاء من يؤدي هذه العبادات لله لكن لا يؤديها كما يجب؛ فيسيء فيها ويخلّ بواجباتها لضعف إخلاصه وقلة إيمانه.
- والتقصير في الاستعانة تحصل بسببه آفات عظيمة من الضعف والعجز والوهن فإن أصابه ما يحِبُّ فقد يحصل منه عجب واغترار بما يملك من الأسباب، وإن أصابه ما يكره فقد يبتلى بالجزع وقلة الصبر.
- وكلا التقصيرين لا يحصل لصاحبه طمأنينة قلب ولا سكينة نفس ولا تطيب حياته حتى يحقق هذين الأمرين.

تحقيق الاستعانة

- تحقيق الاستعانة يكون بأمرين:

o **أحدهما:** التجاء القلب إلى الله تعالى والإيمان بأن النفع والضر بيده جل وعلا وأنه مالك الملك ومدبر الأمر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه سميع عليم وقريب مجيب، فيستعين به راجياً إعانته.

o **والآخر:** بذل الأسباب التي هدى الله إليها وبينها، فيبذل في كل مطلوب ما أذن الله تعالى به من الأسباب.

• هذان الأمران أرشد إليهما النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: « **احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز** »

- الحرص على ما ينفع عام في أمور الدين والدنيا.
- والاستعانة بالله تكون بطلب عونه وتأييده وتحقيق ما ينفع.
- والعجز هو: ترك بذل السبب مع إمكانه ؛ فنُهي عنه.

• رتَّب النبي صلى الله عليه وسلم هذه الكلمات الثلاث ترتيباً بديعاً لتوافق الحال ؛ فإن معرفة المطلوب ومعرفة نفعه والحرص عليه سابقة للاستعانة على تحقيقه، ثم تكون الاستعانة مرتبة بعدها ؛ فيطلب العبد العون من ربه جل وعلا على تحقيق ما ينفعه وأن يهديه لتحصيله من الوجه الذي يحبه ويرضاه، ثم يبذل الأسباب التي أذن الله بها.

• إذا قام العبد بهذه الأمور فقد حقق الاستعانة ؛ فإن تحقق له ما يطلب كان من الشاكرين، وإن أصابه ما يكره من فوات مطلوبه قال: « **قدر الله وما شاء فعل** » فصبر لذلك وأحسن الظن بالله، ورجا أن يعوضه ربه خيراً فيما فاته، والله تعالى كريم لا يضيع أجر العاملين، ولا يخيب رجاء من صدق الرجاء فيه.

• وأما ترك الأخذ بالأسباب فهو عجز مذموم، كما أن تعلق القلب بها شرك مذموم.

أنواع الاستعانة

• أفضل أنواع الاستعانة وأكملها وأحبها إلى الله الاستعانة بالله على طاعة الله، وكلما كان المؤمن أشد حباً لله ورجاء في فضله وخوفاً من سخطه وعقابه كان على هذا الأمر أحرص، وعرف أن حاجته إليه أشد.

• والمؤمن مأمور بأن يستعين الله تعالى في جميع شؤونه حتى في شسع نعله فإنه إذا لم ييسره الله لم يتيسر، وقد روي في ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم مختلف في صحته، ومعناه صحيح، وقد أمر الله تعالى بالسؤال من فضله فقال: ﴿ **واسألوا الله من فضله** ﴾ [النساء: ٣٢] وهو يشمل فضله في الدنيا والآخرة.

• من الناس من يغلب عليه الاستعانة بالله لتحقيق المطالب الدنيوية حتى تشغله عن المطالب الأخروية فإن تحقق له ما يطلب من أمور الدنيا فرح به، وإن حُرمه ابتلاء واختباراً

جزع وسخط ؛ فهذا النوع في قلوبهم عبودية للدنيا ، وقد تُعجّل لهم مطالبهم فتنة لهم ثم تكون عاقبتهم سيئة.

- سبب ذلك أنهم شابهوا الكفار فيما ذمهم الله به ؛ فقال تعالى : **من كَانَ يريد الْعاجِلَةَ عجّلْنا لَه فيها ما نشاءُ لمن نريد ثُمّ جعلْنا لَه جهنّم يصلاها مذْمومًا مدحورًا (١٨) ومن أراد الْآخرةَ وسعى لَها سعيها وهو مؤمنٌ فَأولَئك كَانَ سعيهم مشكُورًا (١٩) كُلًّا نمـدّ هؤلَـاءِ وهؤلَاءِ من عطَاءِ ربّك وما كَانَ عطَاءُ ربّك محظُورًا (٢٠) انظُر كَيف فَضّلْنا بعضهم علَـى بعضٍ ولَلْآخرةُ أَكْبر درجاتٍ وأَكْبر تفْضيلًا (٢١)** [الإسراء: ١٨- ٢١].
- وقال: **من كان يريد حرث الآخرة نزد له حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له الآخرة من نصيب** [الشورى: ٢٠].
- وقال: **من كان يريد ا ياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعما م فيهـا وهـم فيهـا لا يبخسون (١٥) أولئك الذين ليس م الآخرة إلا النار** [هود: ١٥، ١٦]
- أصل بلاء الكفار إيثارهم الحياة الدنيا على الآخرة كما قال تعالى: **بل تؤثرون ا يـاة الدنيا (١٦) والآخرة خ وأبقى** [الأعلى: ١٦، ١٧] وقال: **وويل للكافرين من عذاب شـديد (٢) الذين يستحبون ا ياة الدنيا على الآخرة** [إبراهيم: ٢، ٣]. وقال: **فأما من طغـى (٣٧) وآثر ا ياة الدنيا (٣٨) فإن ا حيم هي ا أوى (٣٩)** [النازعات: ٣٧- ٣٩].
- الناس في إرادة الدنيا على ثلاثة أقسام:
  - **القسم الأول:** الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة إيثاراً مطلقاً فهي همهم ولأجلها عملهم ؛ فهؤلاء هم الكفار الذين عناهم الله تعالى في الآيات السابقة ، ويلتحق بهم كل من ارتكب ناقضاً من نواقض الإسلام بسبب إيثاره للحياة الدنيا ، والعياذ بالله.
  - **القسم الثا :** الذين لديهم نوع إيثار للحياة الدنيا حملهم على ترك بعض الواجبات واقتراف بعض المحرمات فهؤلاء هم أهل الفسق من المسلمين.
  - **القسم الثالث:** الذين استعانوا بأمور الدنيا على ما ينفعهم في الآخرة ، فأخذوا منها ما يستعينون به على إعفاف أنفسهم والتقوي على طاعة الله ؛ فهؤلاء هم الناجون السعداء ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمرو بن العاص رضي الله عنها : « **نعم ا ال الصـا**

للرجل الصا ». رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد.

أقسام الاستعانة

- الاستعانة على قسمين:

o **القسم الأول:** استعانة العبادة، وهي التي يصاحبها معانٍ تعبدية تقوم في قلب المستعين من المحبة والخوف والرجاء والرغب والرهب فهذه عبادة لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل، ومن صرفها لغيره فهو مشرك كافر.

قال الله تعالى فيما علّمه عباده المؤمنين: **إياك نعبد وإياك نستع** [الفاتحة: ٥]؛ وتقديم المعمول يفيد الحصر، فيستعان بالله جل وعلا وحده، ولا يستعان بغيره، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس: « **وإذا استعنت فاستعن با** » رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وكذلك استعاذة العبادة واستغاثة العبادة فإنه لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل؛ فمن صرفها لغير الله عز وجل فهو مشرك شركاً أكبر مخرج عن الملة والعياذ بالله كما يفعله عباد القبور والأولياء فإنه يقوم في قلوبهم من العبوديات لمن يدعونهم ويستعينون بهم ويستعيذون بهم ويستغيثون بهم ما هو من أعظم الشرك والكفر بالله جل وعلا.

الاستعانة ملازمة للعبادة فكل عابد مستعين؛ فإنه لم يعبده إلا ليستعين به على تحقيق النفع ودفع الضر.

o **القسم الثا :** استعانة التسبب، وهو بذل السبب رجاء نفعه في تحصيل المطلوب مع اعتقاد أن النفع والضر بيد الله جل وعلا، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

هذه الاستعانة ليس فيها معانٍ تعبدية وهي كما يستعين الكاتب بالقلم على الكتابة؛ وكما يستعين على معرفة الحق بسؤال أهل العلم.

- استعانة التسبب حكمها بحسب حكم السبب وحكم الغرض فإذا كان الغرض مشروعاً والسبب مشروعاً كانت الاستعانة مشروعة، وإذا كان الغرض محرماً أو كان السبب محرماً لم تجز تلك الاستعانة، فإن تعلق القلب بالسبب كان ذلك شركاً أصغر من شرك الأسباب.

- الاستعانة المشروعة: هي بذل الأسباب المشروعة لتحقيق المطالب المشروعة؛ كالاستعانة

على إعفاف النفس بالكسب الطيب والزواج، والاستعانة على دفع المرض بالدواء واختيار الطبيب الحاذق ونحو ذلك فهذه استعانة تسبب مشروعة وقد تجب في أحوال.

- لكن إذا تعلق القلب بالسبب كتعلق المريض بالطبيب فهذا من شرك الأسباب كما سبق إيضاحه.

- ومثال الاستعانة المحرّمة: الاستعانة بالحيل المحرمة على الكسب غير المشروع.

- الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة من المسائل المهمة التي تتعلق بها حاجة العبد في جميع أحواله.

- قال الله تعالى: **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة** [البقرة: ١٤٥].

  - الاستعانة هنا بالصبر والصلاة هي من باب استعانة التسبب؛ فالصبر والصلاة سببان عظيمان للاستقامة على دين الله جل وعلا والفوز بفضله ورضوانه وهما أصل كل خير.

- وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من السّاعي، من تشرّف لها تستشرفْه، ومن وجد ملْجأ أو معاذا فَلْيعذْ به** »، وفي رواية عند مسلم: « **فليستعذ** » ومعناهما واحد، والمقصود الاستعاذة بهذه الأسباب من الوقوع في تلك الفتن؛ فهي استعاذة تسبب، والكلام في الاستعاذة والاستعانة واحد.

الذبح

- الذبح المراد به ذبح القرابين من الأنعام.

- والذبح من الشعائر التعبدية الظاهرة فيفعله الموحدون لله جل وعلا، ويفعله المشركون تقرباً إلى معبوداتهم الباطلة لجلب النفع أو دفع الضر أو طلب الشفاعة أو الشكر.

- والذبح على قسمين: ذبح فيه معنى التعبّد، وذبح ليس فيه معنى التعبّد.

- أمّا الذبح الذي يكون فيه معنى التعبّد فهو ما أهلّ به لغير الله؛ إمّا بذكر اسم المذبوح له عند الذبح أو بقصد التقرب للمذبوح له.

- من الذبح التعبّدي: ذبح الهدي والأضاحي والنذور؛ فهذا الذبح عبادة صرفه لغير الله تعالى شرك أكبر.

• يجب على العبد أن لا يذبح إلا باسم الله تعالى، قال الله تعالى: **فصل لربك وانحر** [الكوثر: ٢]

• النحر يكون للإبل، والذبح للبقر والغنم، وحكمهما واحد.

• وقال الله تعالى: **قُلْ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (١٦٢) لا شريك له وبذلك أمرت** [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

• قوله: **ونسكي** : **النسك** هو كل ما يُتعبَّد به، وأشهر ما يطلق عليه لفظ النسك: الذبح، وبه فسَّر هذه الآية جماعة من السلف منهم مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة.

• النَّسيكة في اللغة: الذبيحة، وجَمْعُها نُسُك وَنَسَائِك.

• فالذبح الذي يكون على وجه التقرب أو يذكر عليه اسمٌ: عبادة من صرفه لغير الله جل وعلا فهو مشرك كافر سواء أكان المذبوح من بهيمة الأنعام أم غيرها.

• السبب في ذلك أن الذابح إذا أهلَّ باسم غير الله فقد أشرك به، وإذا قصد تقديم هذه الذبيحة قُرْباناً لغير الله جل وعلا فهو مشرك كافر بهذا التقرب.

• الذبح من الشعائر التعبدية الظاهرة؛ وكان من مظاهر الشرك المعروفة لدى المشركين أنهم يذبحون لمعبوداتهم تقرباً بين يدي حوائجهم أو شكراً، ولا يزال هذا في المشركين إلى اليوم.

• مِنَ المشركين مَنْ إذا عجز عن تقريب شيء من بهيمة الأنعام قرَّب دجاجة أو حيواناً صغيراً أو شيئاً حقيراً، وكل ما تقرب به إلى غير الله جل وعلا على وجه التعبد فهو شرك أكبر.

• لحرمة هذا الأمر حُرِّمَ أن يذبح المسلم في المكان الذي يُذبح فيه لغير الله جل وعلا؛ ففي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داوود وابن ماجه من حديث ثابت بن الضحاك الأنصاري رضي الله عنه وهو ممن بايع تحت الشجرة، قال: نذر رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينحر إبلا ببُوانَةَ؛ فأتى النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقال: (إني نذرت أن أنحر إبلا ببوانة)؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « **هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟** »

قالوا: لا.

قال: « **هل كان فيها عيد من أعيادهم؟** »

قالوا: لا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أوف بنذرك؛ فإنه لا وفاء لنذر معصية ا ، ولا فيما لا لك ابن آدم**».

O هذا الرجل الناذرُ اسمُه كردم اليساري رضي الله عنه كما في مصنف ابن أبي شيبة ومسند الإمام أحمد عن ابنته ميمونة رضي الله عنها أنها كانت حاضرة سؤاله للنبي صلى الله عليه وسلم.

- بل حرِّم أكلُ ما لم يذكر اسم الله عليه كما قال الله تعالى: **ولا تأكلوا مما لم يـذكر اسم الله عليه وإنه لفسق** [الأنعام: ١٢١]، فما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه، والميتة التي تموت ولم تذبح ويسمى الله عليها حرام لا يجوز أكلها.
- وأما من نسي التسمية من المسلمين فذبح ولم يسمِّ نسياناً فقد اختلف أهل العلم في حلِّ ذكاته على ثلاثة أقوال أصحها وهو قول جمهور الأئمة جواز أكلها لأنه لم يتركها عمداً وإنما نسي التسمية ولو ذكرها لم يتركها، وقد قال الله تعالى: **ربنا لـا تؤاخـذنا إن نسـينا أو أخطأنا** [البقرة: ٢٨٦].

O حكى ابن جرير الإجماع على جواز أكلها واعتبر ما روي عن ابن سيرين من المنع شاذاً.

O وأما من ترك التسمية عامداً فجمهور أهل العلم على أن ذبيحته لا تؤكل.

O كلّ ذبح ذكر عليه اسم عند الذبح فهو عبادة لا يجوز صرفها لغير الله تعالى.

- **القسم الثا** : الذبح الذي لا يكون فيه معنى التعبد، وإنما يذبح للَّحم أو لغرض آخر لا يكون فيه معنى التقرب ولا يكون معه تسمية.

O هذا النوع من الذبح ليس بعبادة، ولا يحلُّ أكله لأجل أنه لم يذكر اسم الله عليه.

O ومن هذا النوع ذبائح الكفار التي يذبحونها للَّحم ولا يسمون عليها.

- ومن هذا النوع أيضاً: العقر الجاهلي، وهو ذبح البهيمة عند قبر الميت، وهو من أعمال الجاهلية، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا عقر الإسلام**» رواه أبو داوود وأحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
- وأهل الجاهلية الأولى ومن شابههم لهم في ذلك اعتقادات باطلة فيعقرون على الميت إما

جزعاً، أو لاعتقاد أن الميت يبعث عليها، أو لأنه جواد كريم فيكرَّم بهذه العقيرة بعد موته كما كان يكرم أضيافه، وكل هذه الاعتبارات باطلة والذبح بسببها محرم، وهو من إتلاف المال المحرم.

- ومن فعله من أهل الإسلام فقد شابَه أهل الجاهلية في هذا الفعل وذبيحته محرمة ولا نقول إنها شرك لأنه لم يذبح باسم غير الله ولم يتقرب بذلك إلى غير الله، كما روى الوالبي عن مجنون ليلي وهو قيس بن الملوح أنه لما أتاه خبر موت أبيه عقر ناقته على قبره، وقال في ذلك:

عقرت على قبر الملوّح ناقتي　　　بذي الرمث لما أن جفاه أقاربه
فقلت لها كوني عقيراً فإنني　　　غداة غدٍ ماش وبالأمس راكبه

- من العرب من يَعْقِلُ الناقة عند قبر الميت فيتركها لا تُعلف ولا تسقى حتى تموت، ويسمونها البَلِيّة، كما قال لبيد:

تأوي إلى الأطناب كل رذيَّة　　　مثل البليَّة قالص أهدامها

o يقول: إنه من كَرَمه أن بيته مأوى لكل رَذيَّة وهي المرأة الهزيلة التي قلصت ملابسها عنها من المجاعة حتى أشبهت البليَّة لما أصابها من الجَهْد والمشقة.

- وقال الحارث بن حلزة اليشكري يصف معالجته للهمّ بركوب ناقته:

أتلهَّى بها الهواجرَ إذ كلّ　　　ابنِ همٍّ بليَّةٌ عمياء

o أي إذا كان صاحب الهمّ مكباً على نفسه منهمكا في همّه كالبلية العمياء حتى يقضي عليه همُّه؛ فإني أمضي الهمّ بركوب ناقتي في هاجرة الظهيرة وألهو بها حتى يذهب همي.

- والمقصود أن الذبح إذا لم يحمل معاني تعبدية بحيث لا يذكر عليه اسم ولا يتقرب به إلى أحد فليس من ذبح العبادة، ولا يحلّ أكله، ومن ذلك ذبح الإتلاف، وقتل البعير الهائج دفاعاً عن النفس فإنّه إذا لم يسمّ فيهما؛ ففعله ليس فيه معنى العبادة، ولا يجو أكله لترك التسمية.

النذر

- **النذر** في لسان العرب: الإيجاب، فمن نذر شيئاً على نفسه فقد أوجبه عليها وألزمها به.

- قال عنترة:

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتَمي عرضي ولم أشتمهما ... والناذِرَين إذا لم ألقهما دمي

- أي: أنهما أوجبا على أنفسهما قتله، وكان بعض العرب يفعلون ذلك فينذرون دماء من يريدون قتلهم ثأراً، ويعلنون ذلك؛ فمن وَفَّى بنذره افتخر بذلك، ومن حار نذره كان ذلك عاراً عليه، كما قال بشر بن أبي خازم الأسدي:

..... حارَ نذرُك يابنَ سعدى ... وحق لنذر مثلك أن يحور

- وقال مزرّد الغطفاني يصف شدة جري حصانه:

يرى الشدَّ والتقريب نذراً إذا عدا ... وقد لحقت بالصلب منه الشواكل

O الشدّ: هو إحضار الجهد عند الجري، ولذلك يسمَّى إحضاراً أيضاً، والتقريب: مقاربة الشدّ والإحضار، فهو دونه.

O والصلب: الظهر، والشواكل: جمع شاكلة وهي ما رقَّ من لحم البطن مما يلي الخاصرتين.

O معنى بيت مزرّد: أن حصانه من أصالته وقوة شكيمته إذا جرى يرى أن شدة العدو أو مقاربة الشد فرض واجب عليه لا يرضى لنفسه بأقل منه، بمنزلة النذر الذي قطعه على نفسه ولزمه الوفاء به.

- ومعنى النذر في الشرع هو معناه في اللغة: فما أوجبه العبد على نفسه لله جل وعلا سمي نذراً، ولذلك فهو عبادة، فمن تعبد بهذا النذر لغير الله جل وعلا فقد أشرك الشرك الأكبر والعياذ بالله.

- يدخل في ذلك كل عبادة يوجبها العبد على نفسه من العبادات المشروعة في الأصل كالصلاة والصدقة والصيام والتلاوة وغيرها.

- أكثر ما يكون تقديم النذور في الصدقات، وتسمى تلك الصدقة المنذورة: نذيرة وجمعها نُذُور ونذائر؛ فلذلك قد يُطلق هذا اللفظ إطلاقاً خاصاً على الصدقات.

- النذر من شعائر التعبد الظاهرة، ولذلك يفعله الموحدون لله جل وعلا، ويفعله

المشركون تقرباً لما يعبدونه من دون الله جل وعلا ، تعالى الله عما يشركون.

- المشركون يقدمون تلك النذور بين يدي حوائجهم عند طلب الشفاعة وسؤال الحاجات أو شكراً بعد حصول نعمة أو ارتفاع بلاء ؛ فمن نذر لغير الله جل وعلا فقد أشرك سواء أكان النذر بين يدي طلب الحاجة أم شكراً ، لما في ذلك من معنى التعبد.
- وقد يطلق لفظ النذر على مطلق إيجاب الفعل دون إرادة معنى التعبد كأن يَنذُرَ ألا يكلّم فلاناً ، أو لا يأكل نوعاً من الأكل ، فهذا يطلق عليه لفظ النذر لكنه ليس فيه معنى التعبد.
- قد يكون هذا النذر في معصية كأن ينذر أخذ مال رجل بغير وجه حق أو ينذر سفك دمه أو ينذر التفريق بين زوجين ونحو ذلك فهذا كله محرم ولا يجوز الوفاء به.
- قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **من نذر أن يطيع ا فليطعه، ومن نذر أن يعصي ا فلا يعصه** » رواه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها.

أقسام النذر

- النذر له تقسيمات باعتبارات مختلفة ، فيقسم باعتبار حقيقته إلى **نذر عبادة ونذر إلـزام** مجرد من معنى العبادة ، وهذا هو موضوعنا :
  - **فالقسم الأول:** نذر العبادة وهو الذي يحمل معاني التعبد فيكون بقصد التقرب بين يدي الحاجة أو الشكر فهذا عبادة من صرفه لغير الله جل وعلا فهو مشرك شركاً أكبر مخرجاً عن الملة والعياذ بالله.

من النذر الشركي ما يفعله المشركون من تقديم القرابين والنذور فيأتي أحدهم بشيء ولو حقير ينذره لقبر الولي عند طلب الحاجة أو شكراً فهذا شرك أكبر والعياذ بالله ، وإن لم يكن فيه لفظ النذر ، فالعبرة بحقيقة الحال.

- **القسم الثا :** النذر الذي يراد به الإلزام المجرد عن معاني التعبد كأن ينذر ألا يكلم فلاناً وإن لم يكن فيه لفظ النذر ، كأن يقول رجل لابنه لئن لم تأتني فكلامك علي حرام ، أو لا أكلمك أبداً ، أو لأضربنك مائة سوط ، ونحو ذلك ، فهذا يسمى نذراً لأنه ألزم نفسه به ، وليس فيه معنى التعبد.
- لكن لو قال : لِلْوَلِيِّ الفلاني عليَّ نذر أن لا أكلمك ، فهذه عبادة لأنه قصد بهذا النذر

التقرب لذلك الولي ؛ فيكون بذلك مشركاً والعياذ بالله.

تقسيمات أخرى للنذر

- ويقسم النذر باعتبار تعليقه بشرط إلى نذر مشروط ونذر غير مشروط.
- **فالنذر ا شروط** هو الذي علّقه الناذر على شرط إن تحقق هذا الشرط ألزم نفسه بالنذر، وإن لم يتحقق لم يلزمه، كأن يقول: (لله علي إن برئت من مرضي أن أصوم شهراً) ؛ فإذا برئ لزمه الوفاء بنذره.
- يجب الوفاء بالنذر ما لم يكن في الوفاء به مشقة ظاهرة فحينئذ يتحلل منه بكفارة يمين لما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (من نذر نذراً لم يسمّه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً في معصية فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً لا يطيقه فكفارته كفارة يمين). رواه أبو داوود مرفوعا، وقال ابن حجر: وإسناده صحيح إلا أن الحفاظ رجحوا وقفه.
- في هذا الباب أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ومسائل محل بحثها ودراستها كتب الفقه، لكن أنبه إلى أن الوفاء بالنذر شأنه عظيم، وإخلافه كبيرة من الكبائر.

فضل الوفاء بالنذر

- مدح الله عباده الذين يوفون بالنذر فقال: فقال تعالى: **إن الأبرار يشربونَ من كـأسٍ كانَ مزاجها كافُورًا (٥) عينًا يشرب بِها عباد الله يفَجرونها تفْجِـيرًا (٦) يوفُـونَ بِالنـذْرِ ويخافُونَ يومًا كانَ شره مستطـيرًا (٧) ويطْعمونَ الطعام علَى حبه مسكينًا ويتيمـًا وأسـيرًا (٨) إنما نطْعمكُم لوجه الله لَا نريد منكُم جزاءً ولَا شكُورًا (٩) إنا نخاف من ربنـا يومـًا عبوسًا قَمطَرِيرًا (١٠) فَوقَاهم الله شر ذَلك الْيومِ ولَقَّاهم نضرةً وسرورًا (١١) وجزاهم بِما صبروا جنةً وحرِيرًا (١٢)** [الإنسان: ٥- ١٢].
- فجعل من أول صفاتهم أنهم يوفون بالنذر ؛ والوفاء بالنذر في هذه الآية يشمل أداء الفرائض التي أوجبها الله عليهم، وما أوجبوه على أنفسهم تقرباً لله جل وعلا.
- قال ابن كثير: (وقوله: **يوفُونَ بِالنذْرِ ويخافُونَ يومًا كانَ شره مسـتطـيرًا** [الإنسان: ٧] أي: يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على

أنفسهم بطريق النذر).

• وقال تعالى في الحجاج: **ثُم لْيقْضوا تفَثَهم ولْيوفُوا نُذُورهم ولْيطوفُوا بِالْبيت الْعتيق(٢٩)** [الحج: ٢٩]؛ قال مجاهد: (**ولْيوفُوا نُذُورهم**: نذر الحجّ والهَدي، وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحجّ).

ولْيوفُوا نذُورهم اللام هنا للأمر.

• الوفاء بالنذر من صفات الأبرار الذين مدحهم الله عز وجل وشكر سعيهم وذكر ثوابهم العظيم.

• وعدم الوفاء بالنذر من خصال المنافقين المذمومة، بل هو من أسباب النفاق والعياذ بالله؛ كما قال تعالى: **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فَضله لَنصدقَن ولَنكُونن من الصالحين (٧٥) فَلَما آتاهم من فَضله بخلُوا بِه وتولوا وهم معرضونَ (٧٦) فَأَعقَبهم نِفَاقًا في قُلُوبِهم إِلَى يومِ يلْقَونه بِما أَخلَفُوا الله ما وعدوه وبِما كَانوا يكْذبونَ** [التوبة: ٧٥- ٧٧].

• في الصحيحين من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **خ كم قر الذين يلونهم الذين يلونهم - قال عمران: لا أدري أذكر بعد قرنه قرن أو ثلاثة - يء قوم ينذرون ولا يفُون، و ون ون ولا يؤ ون، ويشهدون ولا يستشهدون، ويظهر فيهم السمن** »؛ فجعل من أول صفاتهم أنهم ينذرون ولا يوفون.

• نهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن النذر وبيَّن أنه لا يأتي بخير ففي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: (نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن النذر وقال: « **إنه لا يأ ، وإ ا يستخرج به من البخيل** »).

• في رواية في صحيح مسلم: « **النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخره، وإ ا يستخرج به من البخيل** ».

• وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **لا تنذروا فإن النذر لا يغ من القدر شيئاً، وإ ا يستخرج به من البخيل** ».

• وفي مصنف ابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم: « **إياكم والنذر؛ فإنّ ا لا ينعم نعمة على الرشا، وإ ا هـو شـيء يستخرج به من البخيل** ».

• من نذر نذراً معلقا بشرط حصول نعمة أو اندفاع نقمة؛ فإنّ النذرَ لا يغيّر من القَدَر شيئاً، وإنما يُستخرَجُ به ممَّن بخل على نفسه بالتقرب إلى الله تعالى، لأنه إذا حصلت هذه النعمة وجب عليه الوفاء وإلا ارتكب كبيرة من الكبائر بإخلاف وعدِه لله.

• **وأما النذر غ ا شروط،** فهو الذي يُقصد به التعبّد والتقرّب بلا شرط؛ كأن يقول: لله عليَّ أن أعتكف ليلة، كما في الصحيحين من حديث ابن عمر: أن عمر قال: يا رسول الله إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام قال: « **أوف بنذرك** ».

• والنذر يجب الوفاء به سواء أكان مشروطاً أم غير مشروط، إذا كان طاعة لله جل وعلا.

في باب النذر مسائل مهمة محل بحثها كتب الفقه، لكن ملخصها:

• نذر الطاعة يجب الوفاء به ما لم يكن فيه مشقة فإن وجدت المشقة تحلل منه بكفارة يمين.

• نذر المعصية حرام، ولا يجوز الوفاء به، واختلف أهل العلم في وجوب الكفارة فيه على قولين مشهورين، والأرجح لزومها لأثر ابن عباس المتقدم.

• نذر المباح الذي ليس بقربة ولا محرم، كمن نذر ألا يأكل نوعاً من الأكل، أو نذر أن يشتري شيئاً مباحاً؛ فهذا يخير فيه الناذر بين الوفاء بنذره والتكفير عنه.

• من نذر نذراً فيما لا يملك فنذره باطل، لما في صحيح مسلم من حديث عمران بن الحصين أن امرأة نذرت أن تذبح العضباء لما نجت عليها من العدو؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « **سبحان ا ! بئسما جزتنا، نذرت إن ا اها ا عليها لتنحرنا، لا وفاء لنذر معصية، ولا فيما لا لك العبد** ».

• النذر غير المسمَّى كأن يقول: إن شُفيت فعليَّ نذر، ولا يُسَمِّي هذا النذر؛ فكفارته كفارة يمين؛ إلا إذا نوى تسمية النذر في نفسه نية جازمة ولم يتكلم به؛ ففيه خلاف بين أهل العلم، وأفتى بعض التابعين أن عليه الوفاء بما نوى.

• النذر الذي خرج مخرج اليمين كأن يقصد به التوكيد أو التصديق أو التكذيب فحكمه حكم اليمين فإن كان على خلاف ما ذكر فكفارته كفارة يمين.

● لا يشترط في النذر أن يكون بلفظ النذر، بل كل ما أدَّى معنى النذر فله حكمه.

شرح عبارات المتن

قوله: (وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»

● أي الدليل على أن الاستعانة عبادة؛ وأنه يجب إخلاصها لله تعالى.

قوله: (وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وَقَوْلُهُ تَعَالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

● الكلام في أحكام الاستعاذة كالكلام في أحكام الاستعانة.

● ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ الأمر بالاستعاذة دليل على أنها عبادة يحبها الله عز وجل؛ فيجب إخلاص هذه العبادة لله تعالى.

● الفلق اسم جامع لكل ما يُفلق، ومنه فلق الصبح، وفلق الحب والنوى، وفلق الأرض بالنبات، وفلق الأرحام بالأجنّة، وفلق الشدائد بالمخارج؛ فلا يملك هذا الفلق إلا الله تعالى وحده.

● لا يملك الفلق إلا ربُّ الفلق، فلا يخرج شيء من شيء إلا بإذنه، ولا يُفرج همّ إلا بإذنه، ولا تُزال حجب ما ينفع المرء إلا بإذن ربّ الفلق جل وعلا.

● الذي فلق للأجنّة مخرجاً من غير قوّة منها على ذلك ولا معرفة ولا تدبير لا يعجزه أن يفلق لك مخرجا مما أحاط بك من الهموم والشدائد وأنت تلجأ إليه.

● الفلَق فَعَلٌ بمعنى مفعول، كالسلب بمعنى المسلوب، والحلَب بمعنى المحلوب والحصب بمعنى المحصوب قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أي تُحصب بهم جهنم كما يُحصب بالحجارة، وذلك دليل على أنهم يُقذفون فيها قذفاً شديداً.

قوله: (وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] الآية).

- لما منّ الله تعالى عليهم باستجابته لهم لمّا استغاثوه دلّ ذلك على أن الاستغاثة عبادة يحبّها الله ويرضاها فيجب إخلاصها لله تعالى.
- استغاثة العبادة يجب إخلاصها لله تعالى كما سبق بيانه في نظائره، وأمّا قوله تعالى: **فاستغاثه الذي هو من شيعته على الذي من عدوّه** [القصص: ١٥] فتلك استغاثة تسبب خالية من معاني التعبّد؛ كما سبق بيانه.

قوله: (وَدَلِيلُ الذَّبْحِ قَوْلُهُ تَعَالى: قُلْ إِنَّ صـلاتي ونسكـي ومحيـاي وممـ ـاتي ـ ربِّ العالم (١٦٢) لاَ شريك له [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]**، وَمِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ: «لَعـن ا ُ من ذَبح لغير ا ـ »).**

- وجه الدلالة من الآية أن النسك هو الذبح على قول جماعة من الأئمة، وهو مما يشمله معنى الآية على القول الآخر.
- جاء النسك في هذه الآية في موضع المدح فدلّ على أنه عبادة يحبها الله تعالى فيجب إخلاصها له جلَّ وعلا.
- الحديث رواه مسلم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله: (ودليل النذر قوله تعالى: يوفون بالنذر و افون يوما كان شره مستط ا [الإنسان: ٧]**).**

- وجه الدلالة أن الله تعالى أثنى على عباده الذين يوفون بالنذر؛ فدلّ على أن النذر عبادة يجب إخلاصها لله تعالى.
- **مستط ا** أي منتشراً فاشياً.

أسئلة وتطبيقات على الدروس السابقة (٢)

س١ : ما رأيك في من يقول : خلق الإنسان لعمارة الأرض؟

س٢ : مفكر إسلامي بحث في كتب التراث الإسلامي عن معنى (لا إله إلا الله) فوجد هذه التفسيرات :

أ) أي : لا معبود بحق إلا الله.

ب) أي لا رب إلا الله.

ج) أي : هو واحد في ذاته لا قسيم له ، واحد في صفاته لا شبيه له ، واحد في أفعاله لا شريك له.

د) معنى (لا إله إلا الله) للعوام لا معبود إلا الله ، ومعناها للخواص لا محبوب ولا مقصود إلا الله ، ومعناها لأخص الخواص لا موجود إلا الله.

هـ) معنى (لا إله إلا الله) لا نافع إلا الله ، ولا ضار إلا الله ، ولا معز إلا الله ، ولا مذل إلا الله ، ولا مانع إلا الله.

و) معنى (لا إله إلا الله) أي : لا مستغنياً عن كل ما سواه ومفتقراً إليه كل ما عداه إلا الله تعالى.

فخلص إلى أن معنى (لا إله إلا الله) مسألة مختلف فيها ، واختلاف العلماء رحمة ، ولا إنكار في مسائل الخلاف.

فما رأيك في هذه النتيجة التي توصل إليها؟

وناقش هذه التفسيرات تفسيراً تفسيراً.

س٣ : رجل سئل عن معنى (لا إله إلا الله) فلم يعرف معناها ، أو أجاب إجابة خاطئة ؛ فهل يعدّ من المسلمين؟

الدرس الحادي عشر: الأصل الثاني وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة

(مرتبة الإسلام)

قال رحمه الله:

الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة؛ وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

وهو ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان.

وكل مرتبة لها أركان.

فأركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام.

فدليل الشهادة: قوله تعالى: **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** [آل عمران: ١٨]. ومعناها: لا معبود بحق إلا الله وحده.

«لا إله»: نافيا جميع ما يعبد من دون الله. «إلا الله» مثبتا العبادة لله وحده، لا شريك له في عبادته، كما أنه ليس له شريك في ملكه.

وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى: **وإذْ قالَ إبراهيم لأبيه وقومه إنني براءٌ مما تعبدونَ (٢٦) إلا الذي فطرني فإنه سيهدين (٢٧) وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه لعلهم يرجعونَ** [الزخرف: ٢٦- ٢٨]، وقوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُوْنِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [آل عمران: ٦٤].

ودليل شهادة أن محمدا رسول الله قوله تعالى: **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ** [التوبة: ١٢٨].

ومعنى شهادة أن محمدا رسول الله طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد: قوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ [البينة: ٥].

ودليل الصيام قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ [البقرة: ١٨٣].

ودليل الحج قوله تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ [آل عمران: ٩٧].

عناصر الدرس:

- أنواع المعرفة.
- بيان معنى الدين.
- بيان معنى مراتب الدين.
- بيان معنى الإسلام.
- بيان أركان الإسلام
- بيان دليل شهادة أن لا إله إلا الله
- بيان معنى لا إله إلا الله
- الرد على من أخطأ في معنى "لا إله إلا الله"
- دليل شهادة أن محمداً رسول الله
- دليل الصلاة
- دليل الزكاة
- دليل الصيام
- دليل الحج

قوله: (الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلاَمِ بِالأَدِلَّةِ).

- سبق بيان معنى الأصل وأنه ما يبنى عليه، وسبق بيان التناسب بين هذه الأصول الثلاثة وأنها مأخوذة من الشهادتين، وأن هذه الثلاثة هي أصول الدين، وعليها مدار مسائله.
- المعرفة على نوعين: المعرفة التي يترتب عليها أثرها؛ فيتبعها الانقياد والاستجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وهذه هي المعرفة المحمودة.
- والمعرفة الأخرى: المعرفة التي يُراد بها الفهم والإدراك المجرد، وهذه حجة على صاحبها إن لم يقم بحقها.

o قال الله تعالى: **الذين آتيناهم الكتاب يعرفُونه كما يعرفُونَ أبناءهم الذين خسِروا أنفُسهم فَهم لاَ يؤمنونَ** [الأنعام: ٢٠]، وقال تعالى: **الذين آتيناهم الكتاب يعرفُونه كما يعرفُونَ أبناءَهم وإن فَريقاً منهم ليَكْتمونَ الْحق وهم يعلَمونَ** [البقرة: ١٤٦].

o قال قتادة: (يعرفون أن الإسلام دين الله، وأن محمداً رسول الله يجدون ذلك مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل). رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

o وقال تعالى: **ولَما جاءَهم كتابٌ من عند الله مصدقٌ لما معهم وكَانوا من قَبلُ يستفْتحونَ علَى الَّذين كفَروا فلَما جاءَهم ما عرفُوا كفَروا بِه فَلَعنةُ الله علَى الْكَافرين** [البقرة: ٨٩].

o فهؤلاء لا تنفعهم معرفتهم، وإنما يزدادون بها ضلالاً وطغيانا ثم تكون حجّة عليهم.

- إذا أطلق لفظ المعرفة في النصوص في موضع مدح أو حثّ فالمراد به المعرفة المحمودة، وإذا أطلق في موضع ذم أو احتجاج على صاحبها؛ فالمراد بها معرفة الإدراك وفهم الخطاب.

بيان معنى الدِّين

- يطلق لفظ (الدّين) في لسان العرب على معانٍ لها أصول جامعة منها العادة والانقياد والذل والحكم والجزاء.
- فالدين هو ما ينقادُ العبد لِحُكْمِهِ بتذلل وخضوع واعتياد.
- من إطلاق لفظ الدين على معنى العادة قول المثقِّب العَبْدي في ناقته:

إذا مـا قمـتُ أرحلُهـا بلَيـل — تـأوَّهُ آهـةَ الرجـل الحـزينِ
تقـول إذا دَرَأْتُ لهـا وضـيني — أهـذا دينـه أبـداً وديـني
أكـلَّ الـدهرِ حـلّ وارتحـال — أمـا يُبقِـي علـيَّ ومـا يَقِـيني

o قال أبو منصور الأزهري: (دَرَأْتُ الوضِينَ إِذا بَسَطْتَه على الأَرض ثم أَنَخْتَه عليه لتَشُدَّ عليه الرَّحْلَ).

- ومن إطلاقه على الذل والانقياد والدخول في الطاعة قول الأعشى:

هـو دان الربـاب إذ كرهـوا الديـ — ـن دراكـاً بغـزوة وصـيال
ثـم دانـت بعـد الربـاب وكانـت — كعـذاب عقوبـة الأقـوال

o دانَ الرَّبابَ: أي أذلها، ثم دانت بعد الرباب أي ذلت وانقادت.

- ويطلق على الحكم والسلطان كما في قوله تعالى: **ما كَانَ لِيأخذَ أخـاه فـي ديـن الْملك** [يوسف: ٧٦].

- ويطلق على الحساب والجزاء كما في قوله تعالى: **مالـك يـومِ الـدين** [الفاتحة: ٤] أي الحساب والجزاء الذي يدان فيه الناس بأعمالهم، وقوله: **يومئذ يوفيهم ا دينهم ا ـق** [النور: ٢٥].

- فهذه أشهر المعاني التي يطلق عليها لفظ الدِّين في اللغة.

- معرفة المعنى اللغوي لألفاظ العقيدة تعين على فهم المعنى الشرعي؛ فبين الإطلاقين اللغوي والشرعي تناسب، وغالباً ما يكون المعنى الشرعي مخصصاً لإطلاق المعنى اللغوي.

- إذا انتفى المعنى اللغوي انتفى المعنى الشرعي؛ فالذي لا ينقاد لحكم الله عز وجل الشرعي ولا يخضع لأوامر شريعة الإسلام لا يكون داخلاً في دين الإسلام، كما قال الله تعالى: **قَاتلُوا الذين لَا يؤمنونَ بِالله ولَا بِالْيومِ الْآخر ولَا يحرمونَ ما حرم الله ورسولُه ولَا يدينونَ دين الْحق من الذين أُوتوا الْكتاب حتى يعطُوا الْجِزيةَ عن يدٍ وهم صاغرونَ (٢٩)** [التوبة: ٢٩].

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال: دنته فدان أي أذللته فذل ويقال يدين الله ويدين لله أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له فدين الله عبادته وطاعته

والخضوع له)ا.هـ.

- فمعنى الدخول في دين الإسلام هو الانقياد لأحكام الشريعة الإسلامية والتزام أوامرها ونواهيها على وجه التعبد.

بيان معنى الإسلام

قوله: (**الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلاَمِ بِالأَدِلَّةِ**).

- المراد بالإِسْلاَمِ هنا شريعة الإسلام التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم، ونسخ الله بها جميع الأديان السابقة؛ فقال الله تعالى: **ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبلَ منه وهو في الآخرة من الخاسرين** [آل عمران: ٨٥].

- قوله: (**بالأَدِلَّةِ**) هذا فيه بيان وجوب معرفة الحق بدليله فيكون متبعاً صاحب حجة، لا مقلّداً لا حجة له.

- مَنْ عَلِم الحق بدليله في مسألة من المسائل فهو عالمٌ بها، فإن كان هذا دأبه في مسائل العلم أن يعرفها بدليلها وكثر ذلك منه؛ فهو من العلماء.

  o قال ابن القيم رحمه الله:

والعلم معرفة الهدى بدليله ما ذاك والتقليد يستويان

قوله: (**وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ، والانقيادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ**).

- هذا تعريفٌ للإسلام بمعناه الشرعي.

- في بعض النسخ (والخلوص من الشرك)، أي: السلامة من الشرك.

  o قال شيخنا الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله: (والمعروف عنه في النسخ الصحيحة التي قُرِأت على العلماء (البراءة من الشرك وأهله)؛ لأن البراءة تشمَل الخلوص وزيادة، وهي الموافقة لقول الله جل وعلا: **وإذْ قالَ إبراهيم لأبيه وقومه إنني براءٌ مما تعبدونَ (٢٦) إلا الذي فطرني** [الزخرف: ٢٦، ٢٧]).

- الإسلام في اللغة مصدر أسلمته إسلاماً، ولا يسمى إسلاماً حتى يتحقق فيه وصفان:

  o **أحد ا:** الإخلاص والبراءة من المشاركة والعلّة وغيرها مما يقدح في الإسلام.

o **والآخر:** تمكين المسَلَّم للمسلّم له وانقياده له في كل موضع بحسبه.

- مما يوضح هذا المعنى قوله تعالى: **ضرب الله مثلًا رجلًا فيه شركاءُ متشاكسونَ ورجلًا سلمًا لرجلٍ هلْ يستويان مثَلًا الْحمد لله بلْ أكْثَرهم لَا يعلمونَ** [الزمر: ٢٩].

o متشاكسون أي: مختلفون متنازعون غير متفقين، بل يسيئ بعضهم إلى بعض.

o **ورجلًا سلمًا لرجلٍ** أي خالصاً له منقاداً إليه، ليس لأحد فيه شراكة، وهذا مثل ضربه الله لتقبيح الشرك، وتحسين الإسلام.

- المقصود: أن المسلم هو الذي أسلم دينه لله فلم يجعل لله شريكاً فيه وانقاد لأوامر الله جل وعلا، قال الله تعالى: **ومن أحسن دينًا ممن أسلَم وجهه لله وهو محسِنٌ** [النساء: ١٢٥]، وقال تعالى: **ومن يسلم وجهه إلَى الله وهو محسِنٌ فَقَد استمسك بِالْعروة الْوثْقَى** [لقمان: ٢٢].

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد فُسِّرَ إسلام الوجه لله بما يتضمن إخلاص قصد العبد لله بالعبادة له وحده، **وهو محسِنٌ** بالعمل الصالح المشروع المأمور به، وهذان الأصلان جماع الدين: أن لا نعبد إلا الله، وأن نعبده بما شرع، لا نعبده بالبدع)ا.هـ.

- إسلام الوجه هو: إسلام القصد والنية وتخليصها من قصد الشرك مع الله جل وعلا.

- إطلاق لفظ الوجه على القصد معروف في لسان العرب، وفي الحديث المتفق على صحته: « **ووجهت وجهي إليك** »، وقال بشر بن أبي خازم الأسدي:

إِلَيكَ الوَجهُ إِذ كانَت مُلوكي ... ثِمادَ الحَزنِ أَخطَأَها الرَبيعُ

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً: (الوَجْهُ يتناول المتوجِّه والمتوجَّه إليه، كما يقال: أي وجه تريد؟ أيْ: أيَّ وجهة وناحية تقصد، وذلك أنهما متلازمان، فحيث توجَّه الإنسان توجَّه وجْهُه، ووجهُهُ مستلزمٌ لتوجُّهِهِ، وهذا في باطنه وظاهره جميعاً، فهذه أربعة أمور، والباطن هو الأصل، والظاهر هو الكمال والشعار؛ فإذا توجَّه قلبُه إلى شيء تَبِعَه وجْهُه الظاهر، فإذا كان العبد قصده ومراده وتوجهه إلى الله فهذا صلاح إرادته وقصده، فإذا كان مع ذلك محسناً فقد اجتمع أن يكون عمله صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، وهو قول عمر رضي الله عنه: (اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً).

- وقال: (العمل الصالح هو الإحسان، وهو فعل الحسنات وهو ما أمر الله به، والذي أمر الله به هو الذي شرعه الله، وهو الموافق لسنة الله وسنة رسوله، فقد أخبر الله تعالى أنه من أخلص قصده لله وكان محسناً في عمله فإنه مستحق للثواب سالم من العقاب).
- الخلاصة أن الإسلام لا بد فيه من جمع أمرين:
  - **الأمر الأول:** الاستسلام والانقياد لأمر الله جل وعلا.
  - **الأمر الثا :** الإخلاص والبراءة من الشرك في ذلك.
- فالمسلم هو الذي أخلص دينه لله جل وعلا، وانقاد لأمره.
- بهذا تعلم أن المشرك غير مسلم لأن دينه ليس بخالص لله جل وعلا، والمستكبر غير مسلم لأنه ممتنع غير منقاد لأمر الله جل وعلا، قال الله تعالى: **لَن يستنكف الْمسِـيح أَنْ يكُونَ عبدًا لّله ولَا الْملَائكَةُ الْمقَربونَ ومن يستنكف عن عبادته ويستكْبِر فَسيحشرهم إِلَيه جميعًا** [النساء: ١٧٢].
- قال ابن تيمية: (الإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده؛ فمن استسلم له ولغيره كان مشركًا، ومن لم يستسلم له كان مستكبرًا عن عبادته، والمشرك به، والمستكبر عن عبادته: كافرٌ، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده، وطاعته وحده؛ فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره)ا.هـ.
- وهذا يدلّك على أن المسلمين يتفاضلون في إسلامهم بتفاضل الإخلاص وكمال الانقياد، فكلما كان العبد أحسن إخلاصاً وانقياداً كان أحسن إسلاماً.
- في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **إذا أحسن أحدكم إسلامه؛ فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثا ا إ سـبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب له ثلها** ».
- فالإسلام يتضمن معنى الإخلاص، إخلاص العبادة من الشرك في الاعتقاد والقول والعمل، وإخلاص الانقياد لله تعالى بطاعته، وذلك بامتثال أمره واجتناب نهيه.
- توحيد الربوبية حجة في وجوب توحيد العبادة؛ فكما أن الله تعالى هو الملك الخالق الرازق المدبر للأمر، وحده لا شريك له في ذلك؛ فكذلك يجب أن يخلص العبد عبادته

لله تعالى ويسلمها له جل وعلا، فيخلصها من الشرك بعبادة غير، ويخلّصها من الإباء المنافي للانقياد.

بيان مراتب الدين

قوله: (**وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلاَمُ، وَالايمَانُ، وَالإِحْسَانُ**).

- أي إن دين الإسلام على ثلاث مراتب دلَّ عليها حديث جبريل عليه السلام؛ فإنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام، وسأله عن الإيمان، وسأله عن الإحسان، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث: « **هذا جـ يل أتاكم يعلمكم دينكم** ».
- هذه المراتب متفاضلة؛ فأفضلها مرتبة الإحسان، وتليها مرتبة الإيمان، وتليها مرتبة الإسلام؛ فهي على هذه المراتب الثلاث، وأوسعها مرتبة الإسلام، وأخص منها مرتبة الإيمان، وأخص منهما مرتبة الإحسان؛ فكل محسن مؤمن مسلم، ولا ينعكس.
- هذه المعاني الثلاثة لها وصف أصل ووصف كمال؛ فالمسلم لا بد له من قدر من الإيمان يصح به إسلامه، والمسلم معه أيضاً أصل الإحسان وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والتوحيد أعظم الحسنات.
- لكن لا يسمى محسناً حتى يأتي بالإحسان كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: « **أن تعبد ا كأنك تراه فإن تكن تراه فإنه يراك** ».
- وكذلك لا يسمى مؤمناً حتى يأتي بالقدر الواجب من الإيمان؛ فأما ضعيف الإيمان وناقص الإيمان فيسمى مسلماً أو مؤمناً ناقص الإيمان.
- وهذا كما لا يوصف من عَلِمَ بعض المسائل في العلم بأنّه عالم حتى يجمع من أبواب العلم ما يستحق به هذا الوصف، وكما أن من فعل شيئاً من أفعال الوضوء كالمضمضة وغيرها لا يسمى متوضئاً حتى يكمل فروض الوضوء الواجبة؛ فيكون متوضّئا.

قوله: (**وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ**).

- لفظ الأركان لم يرد في النص النبوي؛ لكن فهم أهل العلم من حديث « **بـ الإسلام على س** » أن هذه الخمس هي أصول الإسلام التي بني عليها، وما يبنى عليه الشيء فهو ركن له.

• **الركن:** هو الأصل الذي يُعتمد عليه في البنيان وغيره، ولا يكون ركناً حتى يكون فيه معنى القوة والدعامة ليحتمل ما يبنى عليه، وإذا انهدَّ الركن انهدَّ ما بني عليه.

• ركن الجبل جانبه وأصله الذي يعتمد عليه أعلاه، قال متمم بن نويرة:

فلـو أَنَّ مـا أَلْقَـى يُصِـيبُ مُتالِعـاً   أَوِ الرُّكْنَ من سلْمَى إِذاً لَتَضَعْضَعَا

○ متالع وسلمى جبلان، و(تضعضع): سقط وانهد ولم يثبت.

• **والمرتبة والرتبة:** هي المنزلة، ومراتب السُّلَّم درجاته، واحدتها مرتبة، قال الفرزدق:

كَـأَنَّ يَـدَيها في مَراتِـبِ سُـلَّمٍ   إِذا غاوَلَت أَوبَ الذِراعَينِ بِالرِجلِ

• وأصل إطلاق هذا اللفظ كما قال الخليل بن أحمد: (المراتب في الجبال والصحاري، وهي الأعلامُ التي تُرَتَّبُ فيها العيونُ والرُقباءُ)ا.هـ.

• وقال الأصمعي: (المرتَبةُ: المَرْقَبَةُ، وهي أعلى الجبلِ).

• وقال ابن سيده في المحكم: (كل مقام شديد: مرتبة، قال الشماخ:

ومـرتبة لا يستـقال بِهـا الـردى   تلافى بها حلمي عن الجهل حاجز)

• والأمر الثابت الدائم يسمى راتباً.

• وهذه الأوصاف التي تشعر بالعلو والشدة والإحكام والثبات والتنظيم تطلق على الأمور المعنوية كما تطلق على الأمور الحسية.

○ فيقال: (رجل له مرتبة في قومه) إذا كان ذا منزلة عالية ومقام ثابت محكم يجعله في منعة ورفعة لديهم، فإذا فَقَدَ هذه المعاني وَهَت مرتبته، كما قال ذو الرمة:

أَلا رُبَّ مَن يَهوَى وَفاتي وَلو دَنَت   وَفـاتي لَـذَلَّت لِلعَـدُوِّ مَراتِبُـه

• المقصود: أن مراتب الدين يترتب بعضها على بعض ترتباً تصدق عليه الأوصاف المذكورة؛ فهي كبناء أصله واسع هو المرتبة الأولى وهي مرتبة الإسلام، ثم تترتب عليه مرتبة أصغر دائرة منه هي مرتبة الإيمان، ثم تترتب عليهما مرتبة ثالثة أقل دائرة منهما وأعلى منهما، وهي مرتبة الإحسان، نسأل الله تعالى بلوغها والثبات عليها حتى الممات.

أركان الإسلام

قوله: (فَأَرْكَانُ الإِسْلاَمِ خَمْسَةٌ، وَالدّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ: « **بنِي الإسلام على خمسٍ؛ شهادة أنْ لاَ إله إلا ا ُ وأن محمداً رسولُ ا ـِ ، وإقَامِ الصلاَة، وإيتاءِ الزكَاة، وصومِ رمضانَ، وحج البيت** »).

- هذه الأمور الخمسة هي أركان الإسلام وأصوله التي يقوم عليها إسلام العبد.
- تضمنت هذه الخمسة قواعد الإسلام وشعائره العظام، وهي أصول العبادات وينبني على كل أصل أنواع من العبادات.
- هذه الأصول على مراتب؛ فأصل هذه الأركان الشهادتان فلا يدخل العبد في الإسلام حتى يشهد الشهادتين، ولا تصح منه سائر الفرائض قبل أن يشهد الشهادتين.
- وعمود الإسلام الصلاة كما في حديث معاذ بن جبل مرفوعاً في المسند والسنن.
- فإذا استقر الأصل وقام عمود الإسلام ثبت وصف الإسلام للعبد، فإن لم يقم بهذا الأصل أو انتقض بارتكاب ما ينقض الشهادتين فليس من المسلمين.
- وإذا سقط عمود إسلام المرء فلا إسلام له؛ كما في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **ب العبد وب الشرك تـرك الصلاة** ».
- وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي وابن ماجة من حديث بريدة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر** ».
- وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند موته: (لا حظّ في الإسلام لمن ترك الصلاة). رواه مالك في الموطأ.
- وأما الأركان الثلاثة الأخرى فقد أجمع أهل العلم على أن من تركها جاحداً لوجوبها فهو كافر لأنه مكذب لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا التكذيب ينقض الشهادتين.
- وكذلك من تركها إباء وامتناعاً عن الانقياد لشريعة الإسلام فهو كافر لأن هذا الإباء

والامتناع ينقض الشهادتين.

- وأما من تركها تهاوناً وكسلاً من غير جحد لوجوبها ولا امتناع عن الانقياد لأحكام الشريعة فالصحيح من أقوال أهل العلم أنه مرتكب لكبيرة من الكبائر وأن إسلامه ناقص ولا يكفر بذلك لبقاء أصل الإسلام وعموده، لكنه متوعّد بالعذاب الشديد على تركه لهذه الفرائض العظيمة كما دلَّت على ذلك الأحاديث الصحيحة في وعيد تارك الزكاة وتارك الصيام.

- **هذه الأركان الخمسة من الشعائر التعبدية الظاهرة** فيعملها الموحدون لله جل وعلا، ويعمل المشركون نظائرها تقرباً لآلهتهم.

o فشهادتهم ما يهلّون به من ألفاظ الشرك التي تتضمن الشهادة لآلهتهم بأنها تنفع وتضر وتستحق أن تعبد، وما يشهدون به لمتبوعيهم بأنهم أحق من يتبع.

o ولهم صلوات يؤدونها لآلهتهم وإن اختلفت في كيفيتها عن صلاة المسلمين، كما قال الله تعالى عن المشركين: **وما كانَ صلاتهم عند البيت إلّا مكاءً وتصدية** [الأنفال: ٣٥] فالأقوال والأفعال المنتظمة التي تؤدى على وجه التعبد هي صلاة وإن اختلفت كيفيتها عن صلاة المسلمين.

o وتقديمهم للأموال والقرابين هو نظير أداء الزكاة عند المسلمين، وإن لم يسموها زكاة، ذلك أن منهم من يجعل على نفسه قدراً معلوماً من المال يتقرب به، ومنهم من يُفرض عليه هذا المال بأسماء مختلفة.

o وكذلك الصيام منهم من يصوم تقرباً وطمعاً في أشياء يرجوها من تلك الآلهة التي يتقرب إليها وإن اختلف صيامه عن صيام المسلمين فمنهم من يصوم عن الكلام، ومنهم من يصوم عن بعض الأطعمة ومنهم من يواصل الصيام أياماً عن كل شيء فيجوع نفسه ويشق عليها طمعاً أن تتنزل عليه الشياطين ويظن أنهم خدام مرسلون من تلك الآلهة، وكل إمساك تُقُرِّبَ به إلى غير الله جل وعلا فهو صيام.

o وكذلك الحج يفعله المشركون وهو من الشعائر الظاهرة لديهم فمنهم من يقطع المسافات البعيدة لزيارة قبر يُعبَد من دون الله جل وعلا؛ فيحج إليه ويطوف حوله ويذبح له

ويفعل ما يضاهي به حج المسلمين، فهذا حج وإن لم يسمّوه حجاً فالعبرة بحقائق الأشياء.

- فعلم بذلك أن هذه الخمسة هي أصول العبادات الظاهرة ويجب إخلاصها لله جل وعلا، كما أن أصول العبادات الباطنة المحبة والخوف والرجاء ويجب إخلاصها لله جل وعلا.

قوله: (وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ).

- الدليل هو الذي يدلّ على الهدى ويرشد إليه، ودليل القوم هاديهم الذي يرشدهم إلى الطريق الصحيح.
- كان العرب إذا سافروا في طريق لا يعرفونه يتخذون دليلاً يرشدهم لئلا يهلكوا في المفاوز ويضلوا عن قصدهم؛ ويكون ذلك الدليل بصيراً بالطرق والأعلام وموارد الماء فيدلهم على الطريق ويدلهم على ما يتزودون به من الماء لئلا يهلكوا عطشاً، فمن امتثل دلالة الدليل نجا وبلغ المقصد ومن خالفه كان على خطر من الهلاك والضلال عن مقصده.
- وكذلك في الأمور المعنوية إذا صح الدليل، وكان وجه الاستدلال صحيحاً صحت الدلالة وتبيَّن بذلك الهدى والصواب.
- وسميت الآيات والأحاديث أدلة، وواحدها دليل لأنها تدل على الهدى وتبيّنه وترشد إليه، ومن خالف دلالة الدليل الصحيح كان على خطر من الضلال والشقاء.

قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: إن الدين عند ا ـ الإسلام [آل عمران: ١٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ومـن يبتغ غَير الإسلامِ ديناً فَلَن يقْبلَ منه وهو الآخرة من ا ـَاسرين [آل عمران: ٨٥]).

- قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى) أي الذي هداني وأرشدني إلى ما قلت وبينت هو قوله تعالى: **إن الدين عند ا ـ الإسلام** [آل عمران: ١٩].
- المراد بالإسلام في هذه الآية الإسلام الشرعي العام الذي هو دين الأنبياء جميعاً وهو التوحيد، وعلى هذا تفاسير السلف لمعنى الإسلام في هذه الآية.
- قال قتادة في قوله تعالى: **إن الدين عند ا ـ الإسلام** [آل عمران: ١٩]: (الإسلام: شهادة أنّ لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وهو دين الله الذي شرع لنفسه، وبعث به رسله، ودلّ عليه أولياءه، لا يقبل غيرَه ولا يجزى إلا به). رواه ابن جرير.

- وفيه دلالة على وجوب التوحيد وأنه الدين الذي يقبله الله تعالى، والإسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم أصله التوحيد لله جل وعلا.

- قال ابن القيم رحمه الله: (وقد دلَّ قوله: **إن الدين عند ا ـ الإسلام** [آل عمران: ١٩] على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه، قال أوَّل الرسل نوح: **فَإنْ توليتم فَما سألتكُم من أجر إنْ أجري إلا على اللـ ـه وأمرت أنْ أكُونَ من الْمسلم** [يونس: ٧٢]، وقال إبراهيم وإسماعيل: **ربنا واجعلْنا مسلمين لَك ومن ذُريتنا أُمةً مسلمةً لَك** [البقرة: ١٢٨]، **ووصى بِها إبراهيم بنِيه ويعقُوب يا بنِي إن الله اصطَفَى لَكُم الدين فَلَا تموتن إلا وأَنتم مسلمونَ** [البقرة: ١٣٢]، وقال يعقوب لبنيه عند الموت: **ما تعبدونَ من بعدي قَالُوا نعبد إلَهك** [البقرة: ١٣٣] إلى قوله **ونحن لَه مسلمونَ** [البقرة: ١٣٣]، وقال موسى لقومه: **إنْ كُنتم آمنتم بِالله فَعلَيه توكلُوا إنْ كُنتم مسلم** [يونس: ٨٤]، وقال تعالى: **فَلَما أَحس عيسى منهم الْكُفْر قَالَ من أنصاري إلَى الله قَالَ الْحواريونَ نحن أنصار الله آمنا بِالله واشهد بِأَنا مسلمونَ** [آل عمران: ٥٢]، وقالت ملكة سبأ: **رب إني ظَلَمت نفْسِي وأَسلَمت مع سلَيمانَ لله رب الْعالَم** [النمل: ٤٤]؛ فالإسلام دين أهل السموات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل الله من أحد ديناً سواه)ا.هـ.

- وقال ابن كثير رحمه الله: (قوله: **إن الدين عند ا ـ الإسلام** [آل عمران: ١٩] إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم، الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد صلى الله عليه وسلم، فمن لقي الله بعد بعثته محمدًا صلى الله عليه وسلم بدِين على غير شريعته، فليس بمتقبل. كما قال تعالى: **ومن يبتغِ غَير الإسلامِ دينًا فَلَن يقْبلَ منه وهـ ـو في الآخرة من الْخاسرين** [آل عمران: ٨٥]).ا.هـ.

قوله: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ومن يبتغِ غَير الإسلامِ ديناً فَلَن يقْبلَ منه وهو الآخرة من ا َاسرين [آل عمران: ٨٥]).

- للسلف في المراد بالإسلام في هذه الآية قولان:

o **القول الأول:** هو دين الإسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم، وأصله

الشهادتان، وعليهما مدار التوحيد، وأن هذه الآية نسخت جميع الأديان السابقة من اليهودية والنصرانية والصابئية وبقايا الحنيفية.

o **القول الثا** :المراد به الإسلام العام الذي هو دين جميع الأنبياء، وهو توحيد الله تعالى

• قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقوله تعالى: **ومن يبتغ غَير الإسلامِ ديناً** [آل عمران: ٨٥] الآية عام في الأولين والآخرين بأن دين الإسلام هو دين الله الذي جاء به أنبياؤه وعليه عبادة المؤمنون كما ذكر الله ذلك في كتابه من أول رسول بعثه إلى أهل الأرض نوح وإبراهيم وإسرائيل وموسى وسليمان وغيرهم من الأنبياء والمؤمنين)ا.هـ.

• وأجمعوا على أن المراد بالإسلام في قوله تعالى: **اليوم أكْملت لَكُم دينكُم وأتممـت عليكُم نِعمتي ورضيت لَكُم الْإسلام دينًا** [المائدة: ٣]، هو دين الإسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم.

دليل الشهادة

قوله: (وَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **شهد ا ُ أنه لا إله إلا هو وا َلائكَةُ وأولُوا العلْـم قَائمـاً بِالْقسط لا إله إلا هو الْعزيز ا كَيم** [آل عمران: ١٨]، وَمَعْنَاهَا: لاَ مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلاَّ اللهُ.

(لاَ إِلهَ) نَافِياً جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، (إِلَّا اللهُ) مُثْبِتاً العِبَادَةَ للَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ).

• قوله تعالى: **شهد ا ُ أنه لا إله إلا هو وا َلائكَةُ وأولُوا العلْمِ قائماً بِالْقسط لاَ إله إلـا هو الْعزيز ا كَيم** [آل عمران: ١٨].

• لفظ الشهادة وما تصرف منه يطلق على معنيين مشهورين:

o المعنى الأول: الحضور والمعَاينَة والإبصَار، كما في قوله تعالى: **وليشهد عـذَابهما طَائفَةٌ من الْمؤمنِ** [النور: ٢].

o المعنى الثاني: الإخبار البيّن الجازم عن أمرٍ ذي شأن، وهو المراد هنا كما في قوله تعالى: **شهد ا ُ أنه لا إله إلا هو** [آل عمران: ١٨].

o وقد اجتمع المعنيان في قوله تعالى: **وجعلُوا الْملَائكَةَ الَّذين هم عباد الرحمنِ إناثًـا**

أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألونَ (١٩) [الزخرف: ١٩].

أشهدوا استفهام إنكاري، أي: هل حضروا خلقهم وعاينوه؟

و **شهادتهم** أي إخبارهم الجازم في هذا الأمر العظيم.

- والمقصود أن الشهادة بالمعنى الثاني تتضمن معاني الإخبار والبيان والجزم عن أمر ذي شأن؛ فإذا تحققت هذه الأوصاف سمي شهادة وإن لم يكن فيه لفظ الشهادة، ولذلك سمى الله تعالى هذا الزعم منهم شهادة.
- والشهادة إذا لم تكن بحق فهي شهادة زور.
- وسمي قول (لا إله إلا الله) شهادة لأنه إخبار بيّن جازم عن أمر ذي شأن.
- قوله تعالى: **شهد ا ُ أنه لا إله إلا هو وا َلائكةُ وأولُوا العلْمِ قائماً بِالْقسط لا إله إلـا هو الْعزِيز ا َكيم** [آل عمران: ١٨].

o أي أن الله تعالى وملائكته وأولوا العلم يشهدون أنه لا إله إلا الله.

o قال ابن القيم رحمه الله: (وقوله تعالى: **قَائماً بِالْقسط** القسط هو العدل؛ فشهد الله سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيده، وبالوحدانية في عدله، والتوحيد والعدل هما جماع صفات الكمال؛ فإن التوحيد يتضمن تفرده سبحانه بالكمال والجلال والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواه، والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب وموافقة الحكمة)ا.هـ.

بيان معنى لا إله إلا الله

قوله: (وَمَعْنَاهَا: لاَ مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ؛ (لاَ إِلَهَ) نَافِياً جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، (إِلا اللهُ) مُثْبِتاً العِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ).

- معرفة معنى (لا إله إلا الله) واجبة لأنها مفتاح الدخول في الإسلام فيجب معرفة معناها مع القدرة؛ فإذا لم يستطع معرفة معناها كفاه القيام بمقتضاها، فإذا كان لا يعبد إلا الله، ويعتقد بطلان ما يعبد من دون الله؛ فقد أتى بالمراد من هذه الكلمة.

o وذلك كما لو دعي أعجمي للإسلام فأسلم وقال هذه الكلمة وهو لا يفقه معناها لكنه

يعتقد مقتضاها فإنها تنفعه بإذن الله.

O وكذلك لو سألت مسلماً عن معنى (لا إله إلا الله) فأخطأ تفسيرها فإن كان لا يعبد إلا الله ويشهد بالبراءة مما يعبد من دون الله ؛ فهو مسلم موحّد وإن أخطأ في التفسير.

O أما إذا كان لا يعتقد مقتضاها فإنها لا تنفعه ولو كان يعرف معناها ؛ فإذا كان يقول: (لا إله إلا الله) وهو يرى جواز اتخاذ وسائط بينه وبين الله يدعوهم ويتقرب إليهم فهو مشرك كافر، وإن قال: (لا إله إلا الله).

- **ومعنى (لا إله إلا الله):** أي لا معبود بحق إلا الله جل وعلا.

O (لا) حرفٌ لنفي الجنس، إذا دخل على النكرة المباشرة غير المكررة نصبها وجوباً اسماً له ورفع الخبر.

O إله: اسم (لا) منصوب تحققت فيه شروط وجوب النصب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة.

O والإله هو المألوه أي المعبود الذي تألهه أي تتعبد له الخلائق محبة وتذللاً وتعظيماً.

O وخبر (لا) محذوف لظهور العلم به وتقديره (حق)، وحذف خبر (لا) عند ظهور المراد به شائع عند العرب، قال ابن مالك:

وشاع في ذا الباب إسقاط الخبر إذا المراد مع إسقاطه ظهر

O (إلا الله) استثناء يتضمن إثبات وصف الإله لله وحده جل وعلا دون ما سواه ؛ فهو الإله الحق، وكل ما اتُّخذ إلهاً من دونه فهو باطل كما قال تعالى: **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** [الحج: ٦٢].

O وقد قدر بعض النحاة خبر لا بـ (موجود) وهو خطأ باعتبار وصحيح باعتبار آخر، والصحيح الذي لا خطأ فيه وتدل عليه الأدلة الصحيحة تقديره بـ(حق).

O الذين قدَّروه بـ(موجود) إن كان مرادهم مطلق وجود ما يعبد من دون الله فهذا خطأ ؛ فإن الآلهة التي اتخذت من دون الله كثيرة، قال الله تعالى: **وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ** [الفرقان: ٣]، وكم حطم النبي صلى الله عليه وسلم من صنم اتخذ إلها من دون الله!!

o وإن كان مرادهم بالوجود: الوجود المعتبر شرعاً فهذا حق ويدلُّ عليه قوله تعالى: **إن الله يعلم ما يدعونَ من دونِه من شيءٍ** [العنكبوت: ٤٢] وقال: **ذَلك بِأن الله هو الحـق وأن ما يدعونَ من دونِه الباطلُ** [الحج: ٦٢] فهي آلهة باطلة ليست بشيء.

o ولكن الله أرشدنا في التعبير أن نأخذ بالقول الذي لا يتذرع متذرّع بتفسيره بالباطل على منهج: **يا أيها الذين آمنوا لا تقُولُوا راعنا وقُولُوا انظُرنا** [البقرة: ١٤].

o فتقديره بـ(حق) هو الصواب حينئذ، وهو مرادف للوجود الشرعي.

● وحذف خبر (لا) شائع عند العرب ويقدر في كل مقام بحسبه، كما لو سُئلت: من عندك؟ فقلت: لا أحد؛ فإنك تريد: لا أحد عندي، فلو ذكرت خبر (لا) خالفت البلاغة في القول.

● ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((**لا عدوى ولا ط ة ولا هامـة ولا صـفر**))، فشهر صفَر موجود، ولكنّ المنفي هو الاعتبار الشرعي لاعتقادهم فيه، وكذلك الطيرة موجودة، ولكن المنفي هو الاعتبار الشرعي لها، وهكذا يقدر الخبر في كل مقام بحسبه.

● وتقدير الخبر المحذوف مبنيٌّ على فهم المعنى المراد؛ ففي كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله) ليس المنفي الوجود الكوني للآلهة التي تعبد من دون الله بالباطل، وإنما المنفي هو الاعتبار الشرعي لها وأنها تستحق شيئاً من العبادة.

● ولذلك كثرت الأدلة من الكتاب والسنة على إبطال استحقاق غير الله للعبادة، قال تعالى: **واتخذُوا من دونِه آلهةً لا يخلُقُونَ شيئًا وهم يخلَقُونَ ولا يملكُونَ لأنفُسِهم ضـرا ولا نفعًا ولا يملكُونَ موتًا ولا حياةً ولا نشورًا** [الفرقان: ٣]، وقال: **أيشركُونَ ما لـا يخلُـق شيئًا وهم يخلَقُونَ** [الأعراف: ١٩١]، وقال: **اعبدوا الله ما لَكُم من إلَهٍ غَيره** [الأعراف: ٥٩].

● وفائدة الإعراب بيان المعنى المراد، فكلّ إعراب أدَّى معنى باطلاً فهو خطأ مردود.

● ينبغي لطالب العلم أن يعتني بإعراب كلمة التوحيد عناية جيّدة؛ لأن من المشركين من يكون صاحب علوم وحجج كما يكون ذلك لدى بعض القبوريين فإن منهم من يكون عارفاً بشيء من العلوم اللغوية والشرعية لكنه على ضلال مبين بتقريره الشرك ومحاولة الاحتجاج له؛ فينبغي لطالب العلم أن يعرف من الحجج اللغوية ما يدفع به شبهات المبطلين.

● وقد يطلع بعض طلاب العلم على بعض ما يكتب في إعراب هذه الكلمة لعلماء

معروفين من النحاة واللغويين ويطلع على خطأ في ذلك، فلا يغرّه صدور هذا الخطأ من بعض أكابر النحاة فإن الإعراب تبع لفهم المعنى، ولذلك لا يجوز أن يتكلم في إعراب القرآن من لا يحسن معرفة التفسير وأصوله ولو بلغ في علم النحو ما بلغ.

- أفرد بعض النحاة وشرّاح الأحاديث إعراب كلمة التوحيد برسائل مفردة منها: رسالة لابن هشام النحوي(ت: ٧٦١هـ)، للزركشي (٧٩٤هـ)، وللملا علي قاري(ت: ١٠١٤هـ)، وللكوراني (ت: ١١٠١هـ).
- أكثر ابن هشام النحوي في رسالة له مستقلة في إعراب (لا إله إلا الله) من الأوجه الإعرابية حتى أوصلها إلى عشرة أوجه، وأورد فيها أقوالاً لعدد من النحاة منهم المعتزلة ومنهم الأشاعرة ومنهم من أهل السنة، وفي توجيهات بعض النحاة نظر ظاهر.
- إذا تبين هذا؛ فاعلم أن العرب - وهم أهل الفصاحة- لما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم قولوا: (لا إله إلا الله) استنكفوا واستكبروا، وعادوا الرسول وآذوه وأخرجوه من بلده وشاقّوه وشاقوا أصحابه وقطعوا أرحامهم، وقذفوهم بالزور والبهتان والأوصاف الشنيعة انتصاراً لآلهتهم، كما بين الله تعالى حالهم بقوله جل وعلا: **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون (٣٥) ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون (٣٦) بل جاء بالحق وصدق المرسلين (٣٧)** [الصافات: ٣٥- ٣٧].
- سبب ذلك كلّه معرفتهم بمعنى "لا إله إلا الله"، وأن الشهادة بها شهادة ببطلان عبادة ما يعبد من دون الله جل وعلا، والدخول في دين الإسلام.
- ولو كان معناها ما فسَّره به من أخطأ في تفسير كلمة التوحيد لما كان لهذه العداوة موجب.
- معرفة ما اشتهر من التفسيرات الخاطئة لكلمة التوحيد، وكشف بطلانها مهم للطالب.
- قد يجد طالب العلم لدى بعض الفرق اضطراباً في تفسير كلمة التوحيد؛ فمنهم من يفسرها تفسيراً صحيحاً، ومنهم من يخطئ في تفسيرها.
- نقل عن الأشاعرة نحو أربعة أقوال في تفسيرها:

o ففسر بعضهم الإله بأنه المعبود بحق وأن لا إله إلا الله معناها لا معبود بحق إلا الله، وهذا هو التفسير الصحيح الموافق لتفسير أهل السنة والجماعة.

- وفسر بعضهم الإله بأنه القادر على الاختراع، وأن معنى (لا إله إلا الله) أي لا قادر على الاختراع إلا الله، وهذا قصر لمعنى كلمة التوحيد على نوع من أنواع توحيد الربوبية.
- وفسر بعضهم الإله بأنه المستغني عن كل ما سواه المفتقر إليه كل ما عداه.
- وفسر بعضهم لا إله إلا الله بأن معناها: (أنه واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له)
- والتفسيران الأخيران قاصران أيضاً مخالفان للأدلة الصحيحة، ولا تقتضيهما اللغة.

• وتفسير كلمة التوحيد ببعض معاني الربوبية خطأ كبير شاع لدى بعض الفرق وراج لدى جهلة العوامّ، وانتشر بسبب ذلك من البدع والشركيات ما الله به عليم.

• على طالب العلم أن يفقه الدلائل على أن المشركين الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقرون أن الله تعالى هو الخالق الرازق المدبر للأمر ولم يدخلهم ذلك في الإسلام.

• فلو كان معنى (لا إله إلا الله) هو ما شهدوا به من معاني الربوبية لم يكن لمعارضتهم وامتناعهم عن قول (لا إله إلا الله) وجه.

• تأمّل ما رواه الإمام أحمد وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وغيرهم من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أن مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل.

قال: فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول؛ فلو بعثت إليه فنهيته؛ فبعث إليه أو قال جاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب مجلس رجل.

قال: فخشي أبو جهل إن جلس النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنب أبي طالب أن يكون أرقَّ له عليه؛ فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد النبيُّ صلى الله عليه وسلم مجلساً قُرْب عمّه؛ فجلس عند الباب.

قال أبو طالب: أي ابنَ أخي ما بال قومك يشكونك؟! يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول وتفعل وتفعل، فأكثروا عليه من اللَّحْوِ؛ فتكلم النبي عليه الصلاة والسلام فقال: « **يا عمّ إ أريدهم على كلمة واحدة يقولونا تدين م العرب**

ونـؤدي إلـيهم بـا العجـم ا زيـة)؛ ففزعوا لكلمته ولقوله ؛ فقال القوم : " كلمة واحدة؟!! نعم وأبيك وعشرا ، وما هي؟ قال أبو طالب : وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ قال : ((لا إله إلا ا))

قال : فقاموا فَزِعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون : أجعلَ الآلهـةَ إلَهـا واحـدًا إن هـذَا لَشيءٌ عجابٌ [ص: ٥].

قال : وقرأ من هذا الموضع إلى قوله : لَمـا يـذُوقُوا عـذَابِ [ص: ٨]). والحديث رواه الترمذي أيضاً والنسائي ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، وابن حبان في صحيحه.

O فتأمل كيف أنهم كانوا أعرف بمعنى (لا إله إلا الله) من بعض أصحاب هذه الفرق الضالة ؛ فإنهم فهموا من هذه الكلمة أنها تقتضي بطلان عبادة ما يعبد من دون الله تعالى.

● وبعض المتصوفة يقولون : إن معنى (لا إله الا الله) للعوام لا معبود إلا الله ، ومعناها للخواص لا محبوب إلا الله ، ومعناها لأخص الخواص لا موجود إلا الله ، وهذا التفسير كفر مبين شاهد على صاحبه بعقيدة الحلول والاتحاد التي هي من أكفر الكفر ، والعياذ بالله.

● المقصود من هذا العرض التنبّه للتفسيرات الخاطئة لكلمة التوحيد ، وأنها قد تصدر من أناس لهم مكانة علمية فلا يغتر بذلك طالب العلم.

قوله: (وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: وإذْ قَالَ إبراهيم لأبِيه وقَومه إننِي برآءٌ ممـا تعبدونَ (٢٦) إلا الذي فَطَرنِي [الزخرف: ٢٦، ٢٧] الآيَة، وَقَوْلُهُ: قُلْ يا أهلَ الْكتابِ تعالَوا إلَى كَلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكُم أنْ لاَ نعبد إلاَّ ا ولاَ نشرك بِه شيئاً ولاَ يتّخذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الْلّـه فَإنْ توَلّوا فَقُولُوا اشهدوا بِأنا مسلمونَ [آل عمران: ٦٤]).

● أي إن هاتين الآيتين تفسران معنى كلمة التوحيد.

● فأما الآية الأولى وهي قوله تعالى : **وإذْ قَالَ إبراهيم لأبِيه وقَومه إننِي برآءٌ مما تعبدونَ (٢٦) إلا الذي فَطَرنِـي** [الزخرف: ٢٦، ٢٧] فتضمنت البراءة مما يعبد من دون الله جل وعلا ، وإثبات العبادة لله وحده ، وهذا هو معنى التوحيد.

O لا بد في التوحيد من نفي وإثبات ، نفي استحقاق غير الله للعبادة والبراءة مما يعبد من

دون الله، وإثبات العبادة لله وحده؛ فلا يكون موحّداً إلا من جمع بين النفي والإثبات.

O وهذا أمر يدل عليه المعنى اللغوي للتوحيد، فجعل الشيء واحداً يستلزم إثباتاً ونفياً، إثبات الوحدانية له، ونفي مشاركة غيره له.

• وأما قوله تعالى: **قُلْ يا أهلَ الْكتابِ تعالَوا إلى كَلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكُم أنْ لا نعبد إلا ا ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فَإنْ تولوا فَقُولُوا اشهدوا بِأنا مسلمونَ** [آل عمران: ٦٤].

O **السَّوَاء** في لسان العرب: النَّصَف والعدْل، وأصل ذلك أن العرب إذا تنازعوا وحصل بينهم قتل وجراحات وأرادوا الصلح تداعوا إلى السَّواء فيصطلحون على أمرٍ يكون فيه إنصاف للمتنازعين يسوَّى فيه بينهم في الدماء والحقوق.

O قال زهير ابن أبي سلمى:

أَرونا سُنَّةً لا ضيم فيها ... يُسَوَّى بَينَنا فيها السَّواءُ

فَإِن تَدعُوا السَّواءَ فَلَيسَ بَيني ... وَبَينَكُمُ بَني حِصنٍ بَقاءُ

O ومن العرب من تأخذه العزة بالإثم، والبَطَر بالقوة فيأبى الدعوة إلى السَّواءِ، كما قال عنترة: أبينا فما نُعطي السَّواءَ عدوَّنا ... قياماً بأعضادِ السراء المعطّفِ

O يكون السَّواء عند العرب في الأمور المادية من الجراحات والمعاوضات ويكون في الأمور المعنوية من الدعاوى والمقاولات والتهاجي.

O قال ابن جرير: (**إلى كَلمةٍ سواءٍ** [آل عمران: ٦٤] يعني: إلى كلمة عدل بيننا وبينكم، والكلمة العدل، هي أن نوحِّد الله فلا نعبد غيره، ونبرأ من كل معبود سواه، فلا نشرك به شيئًا).

O الكلمة تطلق في اللغة على الجملة المفيدة، وأما اصطلاح النحويين على أن الكلمة اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، فيجعلون الاسم كلمة، والفعل كلمة، والحرف الذي جاء لمعنى كلمة؛ فهذا اصطلاح حادث، ولا مشاحة في الاصطلاح، لكن ليتفطَّن إلى أن معنى الكلمة في لسان العرب ليس هو المعنى الاصطلاحي عند النحاة.

O قال الله تعالى: **حتى إذَا جاءَ أحدهم الْموت قَالَ رب ارجِعون (٩٩) لَعلي أعمـلُ**

صالحًا فيما تركْت كلا إنها كلمةٌ هو قائلُهـا [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] فسمّى هذه الجملة المفيدة كلمة، والأدلة والشواهد على هذا الإطلاق كثيرة جداً؛ فكلمة التوحيد: هي كلمة (لا إله إلا الله).

o والكلمة السَّواء التي دعا الله تعالى إليها هي: **أنْ لا نعبد إلّا ا ¯ ولا نشرك بِه شـيئاً ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللّه** [آل عمران: ٦٤].

o وهذه الآية بيّنت معنى التوحيد، وأن تفسيره الصحيح الذي لا يصح غيره أنه عبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من كل ما يعبد من دون الله جل وعلا. **أنْ لا نعبد إلا ا ¯ ولا نشرك بِه شيئاً** [آل عمران: ٦٤].

- قوله تعالى: **ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللّه** [آل عمران: ٦٤].

o قال ابن عطية: (واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً هو على مراتب: **أعلاهـا** اعتقادهم فيهم الألوهية وعبادتهم لهم على ذلك، كعزير وعيسى ابن مريم، وبهذا فسّر عكرمة، **وأد ذلك** طاعتهم لأساقفتهم ورؤسائهم في كل ما أمروا به من الكفر والمعاصي والتزامهم طاعتهم شرعاً، وبهذا فسّر ابن جريج؛ فجاءت الآية بالدعاء إلى ترك ذلك كله)ا.هـ.

- ودلّ قوله تعالى: **فَإنْ تولوا فَقُولُوا اشهدوا بِأنا مسلمونَ** [آل عمران: ٦٤] على أن من قام بذلك فهو من المسلمين، ومن أبى وتولّى فليس بمسلم.

قوله: (وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: لَقَد جآءَكُم رسولٌ مـن أنفُسِـكُم عزيزٌ علَيه ما عنِتم حريصٌ عليكُم بِا ُؤمِنِ رؤوفٌ رحيمٌ [التوبة: ١٢٨]، وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ، وَأَنْ لاَ يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ).

- هذا فيه بيان دليل شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيان معناها.
- سيأتي شرح ذلك بالتفصيل المناسب إن شاء الله تعالى عند بيان الأصل الثالث.

قوله: (وَدَلِيلُ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: وما أمروا إلّا ليعبدوا اللّـه مخلص له الدين حنفاَءَ ويقيموا الصّلاةَ ويؤتوا الزكَاةَ وذَلك دين القَيمة [البينة: ٥]).

- هذه الآيات فيها بيان معنى التوحيد وأنه عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا معنى

الإخلاص، أن لا تجعل لله شريكاً في عباده.

- **حنفاء** مستقيمين على طاعته.
- **ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة** هذا فيه الدليل على الركن الثاني والثالث من أركان الإسلام، وقرْنهما بالتوحيد في أسلوب الحصر دليل على عظم شأنهما.

قوله: (وَدَلِيلُ الصِّيَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **يا أيها الّذين آمنوا كُتب عليكُم الصّيام كما كُتب علـى الّذين من قَبلكُم لعلّكُم تتقُونَ** [البقرة:١٨٣]).

- فرض صيام شهر رمضان بنزول هذه الآية في السنة الثانية من الهجرة.
- لم يفرض شيء من الصيام على المسلمين قبل الهجرة.
- وبعد الهجرة فرِض صيام يوم عاشوراء؛ ثم نُسخ فرضه وترك على الاستحاب بعد فرض صيام رمضان.
- عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان يوم عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية؛ فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة صامه وأمر بصيامه؛ فلما فرض رمضان كان هو الفريضة وترك يوم عاشوراء؛ فمن شاء صامه ومن شاء تركه) متفق عليه.

قوله: (وَدَلِيلُ الحَجِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: **ولله على النّاسِ حج البيت من استطاع إليه سبِيلاً ومن كفَر فإن اللّه غَنِي عنِ الْعالَم** [آل عمران: ٩٧]).

- هذا فيه بيان أدلة إضافية على أن الصلاة والزكاة والصيام والحج عبادات عظيمة، وقد دل على ذلك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة.
- أجمع العلماء على أن هذه العبادات من العبادات العظيمة؛ فمن أداها لغير الله تعالى فهو مشرك كافر.
- وسبق بيان أن هذه العبادات العظيمة هي من الشعائر التعبدية الظاهرة وأن المسلمين يؤدونها لله تعالى، وأن المشركين يؤدون نظائرها لآلهتهم التي يدعونها من دون الله جل وعلا.
- هذا والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني عشر: مرتبة الإيمان (١/ ٢)

قال رحمه الله:

(الْمَرْتَبَةُ الثّانِيَةُ: الإيمَانُ

وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أعْلاَهَا قَوْلُ لاَ إِلهَ إِلا اللّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ.

وَأَرْكَانُهُ سِتّةٌ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللّهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ؛ كُلُّهُ مِنَ اللّهِ.

وَالدّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **لَيس البِرّ أنْ تولّوا وجوهكُم قبلَ الْمشرق والمغربِ ولكنّ البِرّ من آمن بِاللّه واليومِ الآخر والْملائكة والْكتابِ والّنبِيّ** الآية [البقرة: ١٧٧].

وَدَلِيلُ الْقَدَرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **إِنّا كُلّ شيءٍ خلقْناه بِقدر** [القمر: ٤٩]).

عناصر الدرس:

- بيان معنى الإيمان
- درجات الإيمان
- معنى شعب الإيمان
- أركان الإيمان
- أدلة أركان الإيمان
- الركن الأول: الإيمان بالله تعالى
- مراتب الإيمان بالله تعالى.

قوله: (الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ).

- المرتبة الثانية من مراتب دين الإسلام هي مرتبة الإيمان.
- وهذه المرتبة أخص من سابقتها، فإيمان أصحابها أعظم من إيمان أصحاب المرتبة السابقة، فهم مسلمون مؤمنون، ولذلك يقال: كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمن.
- **الإيمان** عند أهل السنة والجماعة: اعتقاد بالجَنان وقول باللسان وعمل بالأركان.
  - o الجَنان: هو القلب، **والأركان** هي: الجوارح كالحواس والأطراف وغيرها.
- ومن أهل العلم من يختصر العبارة فيقول: **الإيمان قول وعمل.**
  - o **فيقصد بالقول:** قول القلب أي تصديقه، وقول اللسان.
  - o ويقصد بالعمل: عمل القلب وهو العبادات القلبية من المحبة والخوف والرجاء والخشية والرغبة والرهبة والإنابة وغيرها، وعمل الجوارح يشمل البصر والسمع والمشي والتناول والنكاح وغيرها.
- المؤمنون يتفاضلون في الأقوال والأعمال، ولذلك يتفاضلون في الإيمان.
- الإيمان يزيد وينقص، فيزيد بالطاعة، وينقص بفعل المعصية وبترك الطاعات، كما قال الله تعالى: **ويزداد الذين آمنوا إ آنا** [المدثر: ٣١]، وقال: **وإذَا تليت عليهم آياته زادتهم إ آنا** [الأنفال: ٢]، وقال: **ليزدادوا إ آنا مع إ انِهم** [الفتح: ٤].
- يزيد الإيمان بالطاعة وهي امتثال الأمر واجتناب النهي؛ فكلما امتثل أمر وجوب أو استحباب زاد إيمانه، وكلما اجتنب محرماً أو مكروها احتساباً زاد إيمانه.
- والمسلم هو الذي أتى بأصل الإيمان، وقد يأتي بالقدر الواجب منه، وقد يأتي بالكمال المستحب، وقد يقع في الذنوب والمعاصي والكبائر فينقص إيمانه بسبب ذلك.
- الإيمان على ثلاث درجات:
  - o **الدرجة الأو :** درجة أصل الإيمان، ويسمى مطلق الإيمان، وهو ما يصح به إسلام العبد؛ فهذا يسمى به مسلماً، وإن كان معه أصل الإيمان، لكن لا يقال هو مؤمن لأن هذا فيه تزكية له لم يبلغها؛ فلا ينفى عنه أصل الإيمان ولا يثبت له وصف حقيقة الإيمان.

قال ابن القيم: (كما أن الرجل يكون معه جزء من العلم والفقه ولا يسمى به عالما فقيها).

وبيان ذلك أنه لا يصح إسلام العبد حتى يشهد الشهادتين، وهذا يستلزم الإيمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم والإتيان بأركان الإسلام الظاهرة، ولا يُتصور أن يشهد أن لا إله إلا الله وهو لم يؤمن بالله.

ولا يكون مسلماً حتى يجتنب نواقض الإسلام، ومن ذلك أنه يصدّق بخبر الله تعالى وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم وهذا قَدْر من الإيمان لا يصح الإسلام إلا به.

ومن هذه الطبقة أصحاب الكبائر من المسلمين، فإن معهم أصل الإيمان وهم قد حققوا الدرجة الأولى من درجات العبودية لله تعالى فاجتنبوا الشرك الأكبر واجتنبوا نواقض الإسلام.

فأصحاب هذه الدرجة لا نكفرهم كما تفعل الخوارج، ولا نقول إنهم بمنزلة بين المنزلتين أي بين الإسلام والكفر كما تقول المعتزلة، بل هم مسلمون ومعهم أصل الإيمان، لكنهم لم يحققوا الإيمان الواجب، ففيهم إيمان وفيهم فسق بسبب عصيانهم.

يُسمى صاحب هذه المرتبة عند بعض أهل العلم **بالفاسق الملّي**، أي أنه فاسق، وهو على ملة الإسلام.

وهؤلاء نحبهم لإسلامهم ونبغضهم لعصيانهم؛ فيجتمع في حقهم الحب والبغض، كما جمعوا بين الإيمان والعصيان.

والتعامل معهم يكون على ما تقتضيه أحكام الشريعة؛ فيهجر بعضهم في مواضع الهجر، ويتألّف بعضهم، ويناصحون ويدعى لهم بالهداية، ونحب لهم الخير ونكره لهم البقاء على العصيان.

- **الدرجة الثانيـة:** درجة كمال الإيمان الواجب؛ فمن حقق الإيمان الواجب بأداء الواجبات واجتناب المحرمات إيماناً واحتساباً فهو مؤمن.
- **الدرجة الثالثة:** درجة كمال الإيمان المستحب، وتشمل الإيمان الواجب والمستحب، وأصحاب هذه الدرجة هم المحسنون؛ فإنهم تقربوا إلى الله تعالى بالفرائض والنوافل

واجتنبوا المحرمات والمكروهات، وحققوا الإيمان بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم؛ فكان سعيهم لله، وهذا السعي يشمل الحب والبغض والعطاء والمنع، وهذه جوامع خصال الإيمان؛ كما في سنن أبي داوود وغيره من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « **من أحب وأبغض وأعطى ومنع فقد اسـتكمل الإ ان** »

o قال ابن القيم رحمه الله في إغاثة اللهفان شارحاً هذا الحديث: (فإن الإيمان علم وعمل والعمل ثمرة العلم وهو نوعان: عمل القلب حبا وبغضا ويترتب عليهما عمل الجوارح فعلا وتركا وهما العطاء والمنع؛ فإذا كانت هذه الأربعة لله تعالى كان صاحبُها مستكملَ الإيمان وما نقص منها فكان لغير الله نقص من إيمانه بحسبه).

o والحب لله أعم من الحب في الله، فهو يشمل محبة كل ما يُحَبّ لله جل وعلا من الأشخاص والأعمال والأقوال والأحوال والمقاصد والأخلاق والأمكنة والأزمنة وغيرها.

o وكذلك العطاء لله أعمّ من أن يكون المراد به عطاء المال، بل هو شامل لكل ما يُعطى من مال وجاه وعلم وجهد ووقت، وكذلك المنع.

o فمن كان حبه لله، وبغضه لله، وعطاؤه لله، ومنعه لله، فهو مؤمن مستكمل الإيمان؛ نسأل الله تعالى من فضله.

- والمقصود: أن الإيمان على ثلاث درجات: درجة أصل الإيمان، ودرجة الإيمان الواجب، ودرجة كمال الإيمان؛ فالدرجة الأولى هي: مرتبة الإسلام، والدرجة الثانية: مرتبة الإيمان، والدرجة الثالثة: مرتبة الإحسان.
- فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً.
- وكان بعض السلف يوضح هذا الأمر برسم بياني كما روي عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أنه رسم دائرة واسعة وقال: هذا الإسلام، ثم رسم دائرة في وسطها أصغر منها وقال: وهذا الإيمان، ثم قال: (فإذا زنا وسرق خرج من الإيمان إلى الإسلام، ولا يخرجه من الإسلام إلا الكفر بالله عز وجل). رواه عبد الله بن الإمام أحمد وابن منده والآجري واللالكائي.

o قال ابن منده: (وهذا مذهب جماعة من أئمة الآثار واحتجوا بخبر عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة رضي الله عنهم).

- وقال ابن تيمية في رسالته قاعدة في المحبة: (قول النبي صلى الله عليه وسلم: **« لا يـزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشـرب الخمـر حين يشربها وهو مؤمن »** على بابه، لو كان بغضه لما أبغضه الله من هذه الأفعال تامّا لما فعلها؛ فإذْ فعلها فإمّا أن يكون تصديقه بأن اللهَ يبغضها فيه ضعف، أو نَفْسُ بغضِهِ لما يبغضه الله فيه ضعف، وكلاهما يمنع تمام الإيمان الواجب)

- وهذا التفريق بين الإسلام والإيمان استُدِل له بآيات من القرآن الكريم:

- منها قوله تعالى: **﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾** [الحجرات: ١٤]، **وهذه الآية للسلف في تفسيرها قولان مشهوران:**

- **القول الأول:** أن الإسلام المثبَت لهم هو مرتبة الإسلام، وأنهم لم يبلغوا مرتبة الإيمان، وهو قول الزهري وإبراهيم النخعي وأحمد بن حنبل واختاره ابن جرير وابن تيمية وابن كثير وابن رجب.

- **القول الثاني:** أن الإسلام المثبَت لهم هو الإسلام الظاهر الذي لا يقتضي أن يكون صاحبه مسلماً حقاً في الباطن، وذلك كما يحكم لأهل النفاق بالإسلام الظاهر، وإن كانوا كفاراً في الباطن؛ لأن التعامل مع الناس هو على ما يظهر منهم؛ فمن أظهر الإسلام قبلنا منه ظاهره ووكلنا سريرته إلى الله، فيعامل معاملة المسلمين ما لم يتبين لنا بحجة قاطعة ارتداده عن دين الإسلام.

- وهذا هو قول مجاهد والشافعي والبخاري ومحمد بن نصر المروزي وأبي المظفر السمعاني والبغوي والشنقيطي واستدلوا بقوله تعالى: **﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾** [الحجرات: ١٤] قالوا: فهؤلاء لم يدخل الإيمان في قلوبهم بنص القرآن، ومن لم يدخل الإيمان في قلبه فليس بمسلم على الحقيقة، وإنما إسلامه بلسانه دون قلبه.

- وأصحاب القول الأول يقولون إن الإيمان المنفي عنهم هو ما تقتضيه مرتبة الإيمان، فهم لم يعرفوا حقيقة الإيمان وإنما أسلموا على جهل فيثبت لهم حكم الإسلام؛ **﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ**

الْإِ انُ فِي قُلُوبِكُم [الحجرات: ١٤] أي لم تباشر حقيقة الإيمان قلوبكم.

- وابن القيم رحمه الله قال بالقول الأول في بدائع الفوائد، وقال بالقول الثاني في إعلام الموقعين.
- والتحقيق أن دلالة الآية تَسَعُ القولين:

o فإذا أريد بنفي الإيمان في قوله تعالى: **لَمْ تُؤْمِنُوا** [الحجرات: ١٤] نفي أصل الإيمان الذي يَثبت به حكم الإسلام؛ فهؤلاء كفار في الباطن، مسلمون في الظاهر، فيكون حكمهم حكم المنافقين، وقد يتوب الله على من يشاء منهم ويهديه للإيمان.

o وإذا أريد بنفي الإيمان نفي القدر الواجب من الإيمان الذي مدح الله به المؤمنين وسماهم به مؤمنين؛ فهذا لا يستلزم نفي أصل الإيمان والخروج من دين الإسلام، فيثبت لهم حكم الإسلام، وينفى عنهم وصف الإيمان الذي يطلق على من أتى بالقدر الواجب منه.

o وهذا كما في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **وا لا يؤمن! وا لا يؤمن! وا لا يؤمن!** »، قيل: من يا رسول الله؟ قال: « **الذي لا يأمن جاره بوائقه** »؛ فهذا نفى عنه حقيقة الإيمان والقدر الواجب منه الذي مدح الله به المؤمنين وسماهم به، ولا يقتضي أن من فعل ذلك فهو خارج عن دين الإسلام.

o والذي يوضح هذا الأمر أن قول **أَسْلَمْنَا** قد يقوله الصادق والكاذب؛ فإذا قاله الكاذب فهو منافق مدّعٍ للإسلام مخادع للذين آمنوا، يُظهر الإسلام ويبطن الكفر، وإذا قاله الصادق فهو مسلم ظاهراً وباطناً، ومعه أصل الإيمان.

o ولهذا قال الله تعالى: **بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِ انِ إِنْ كُنْـتُمْ صَـادِقِ** [الحجرات: ١٧]؛ فعلق وصف الإيمان بالصدق؛ فمن صدق منهم فهو من أهل الصنف الأول، ومن لم يصدق منهم فهو من أهل الصنف الثاني.

o وهذا يدلّ على جوازِ أن يكون فيمن نزلت فيهم هذه الآيات من هو من أصحاب الصنف والأول، ومنهم من هو من أصحاب الصنف الثاني، وشملت هذه الآيات الصنفين كليهما.

o وهذا مثال بديع لحسن بيان القرآن الكريم، ودلالته على المعاني العظيمة بألفاظ وجيزة.

o والمقصود أن الآية على القول الأول في تفسيرها فيها دلالة على التفريق بين مرتبة الإسلام ومرتبة الإيمان.

- قال محمد بن نصر المروزي: (نقول إن **الرجل قد يسمى مسلماً على وجه :**

o **أحد ا:** أن يخضع لله بالإيمان والطاعة تدينا بذلك يريد الله بإخلاص نية.

o **وا هة الأخرى:** أن يخضع ويستسلم للرسول وللمؤمنين خوفا من القتل والسبي؛ فيقال قد أسلم أي خضع خوفا وتقية، ولم يسلم لله، وليس هذا بالإسلام الذي اصطفاه الله وارتضاه الذي هو الإيمان الذي دعا الله العباد إليه)ا.هـ.

- وكذلك قوله تعالى: **فَأخرجنا من كانَ فيها من المؤمنِ (٣٥) فما وجدنا فيها غَيـر بيتٍ من المسلم** [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

o امرأة لوط كانت مسلمة في الظاهر، لكنها لم تكن مؤمنة.

o وهذه الآية فيها لطيفة وهي أن المؤمنين موعودون بالنجاة، والمسلم غير المؤمن ليس له عهد بالسلامة من العذاب؛ فقد يعذب بمعاصيه في الدنيا وقد يعذب في قبره وقد يعذب في النار، لكنه لا يخلد فيها.

o وهذا نظيره ما ورد في قصة أصحاب السبت فإن الله تعالى أنجى المؤمنين الذين ينهون عن السوء وسكت عن الساكتين عن إنكار المنكر، وأخذ الذين ظلموا بعذاب بئيس.

o أصحاب الكبائر من المسلمين ليس لهم عهد أمان من العذاب كما جعل الله ذلك لأهل الإيمان؛ فقد يُعذّبون، وقد يعفو الله عنهم بفضله وكرمه، وهذا يبين لك الفرق العظيم بين مرتبة الإسلام ومرتبة الإيمان.

o فالمؤمن له عهد أمان بأن لا يعذبه الله ولا يخذله، وأنه لا يخاف ولا يحزن، ولا يضل ولا يشقى، وقد تكفَّل الله له بالهداية والنجاة والنصر والرفعة، وهو في أمان من نقمة الله تعالى وسخطه، وفي أمان من عذاب الآخرة كما قال الله تعالى: **الذين آمنوا ولم يلبِسـوا إ انهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدونَ** [الأنعام: ٨٢].

- ومما ينبغي أن يعلم أن لفظ الإسلام والإيمان إذا أفردا؛ فقد يراد بالإسلام ما يتضمن

معنى الإسلام والإيمان كما في قوله تعالى: **ومن أحسن دينًا ممن أسلم وجهه لله وهو محسنٌ** [النساء: ١٢٥]؛ فإسلام الوجه هنا يشمل معنى الإيمان بلا شك.

• وإذا أطلق لفظ الإيمان شمل معنى الإسلام كما في قوله تعالى: **يا أيها الذين آمنوا** فإنه يخاطب به جميع المسلمين بلا خلاف بين العلماء.

• وإذا جُمع لفظ الإسلام ولفظ الإيمان أريد بالإسلام المعاني الظاهرة من الاستسلام والانقياد والشعائر الظاهرة التي تقتضيها مرتبة الإسلام، وبالإيمان المعاني الباطنة من التصديق والإخلاص والعبادات القلبية التي تقتضيها مرتبة الإيمان.

• وذلك كما في قوله تعالى: **يا عباد لا خوفٌ عليكُم اليوم ولا أنتم تحزنونَ (٦٨) الذين آمنوا بِآياتنا وكانوا مسلم** [الزخرف: ٦٨، ٦٩].

• قال ابن جرير: (وقوله: **الذين آمنوا بِآياتنا** يقول تعالى ذكره: يا عبادي الذين آمنوا وهم الذين صدقوا بكتاب الله ورسله، وعملوا بما جاءتهم به رسلهم، **وكانوا مسلم** يقول: وكانوا أهل خضوع لله بقلوبهم، وقبول منهم لما جاءتهم به رسلهم عن ربهم على دين إبراهيم خليل الرحمن صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، حنفاء لا يهود ولا نصارى، ولا أهل أوثان).

• ولذلك يقال في تلخيص الجواب: إن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

• من عقيدة أهل السنة أنهم لا يكفرون أحداً من المسلمين بكبيرة من الكبائر إلا أن تكون تلك الكبيرة ناقضاً من نواقض الإسلام.

قوله: (وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أعْلاَهَا قَوْلُ لاَ إِلهَ إِلا اللّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ).

• البِضْع ما بين الثلاثة إلى التسعة على أشهر أقوال اللغويين، ويجوز فتح الباء وكسرها، والكسر أشهر قال الله تعالى: **فَلَبِثَ في السجنِ بِضع سنِ** [يوسف: ٤٢].

• والشُّعبة تطلق في اللغة على معانٍ، ومنها الفرع الذي يتجزأ من أصله مع اتصاله به كما في قوله تعالى: **انطَلِقُوا إلى ظل ذي ثَلَاث شعبٍ** [المرسلات: ٣٠].

- يقال: عصا لها شعبتان، إذا انقسم طرفها إلى قسمين كالغصنين، والأغصان المتشعبة من أغصان كبار تسمى شُعَباً ومنه قول طرفة بن العبد:

كَأَنّ السِلاحَ فَوقَ شُعبَةِ بانَةٍ ... تَرى نَفَخاً وَردَ الأَسِرّةِ أَسحَما

  - o (بانة) نوع من الشجر، وهو واحد شجر البان.
- والمقصود أن الإيمان له أصول وأجزاء، وهذه الأجزاء هي شُعَبُه وخصاله، وكلما كثرت هذه الشعب كان نصيب المؤمن من الإيمان أكثر.
- في صحيح البخاري: « **الإ ان بضع وستون شعبة وا ياء شعبة من الإ ان** »
- وفي صحيح مسلم: « **الْإِ انُ بِضعٌ وسبعونَ أو بِضعٌ وسّتونَ شعبةً فَأَفْضلُها قَولُ لَا إِلَـه إِلّا اللّه وأدناها إِماطَةُ الْأَذَى عن الطّرِيقِ والْحياءُ شعبةٌ من الْإِ ان** »
  - o ولفظ "أعلاها" عند محمد بن نصر المروزي وابن حبان والبغوي في شرح السنة وغيرهم.
- وقد يجتمع في المرء بعض شعب الإيمان وبعض شعب النفاق كما في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصـلة مـن النفاق ح يدعها؛ إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر** ».
- وفي مسند الإمام أحمد وسنن النسائي وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **من مات و يغز و دث نفسه بغزو مات على شعبة نفاق** »

قوله: (وَأَرْكَانُهُ سِتّةٌ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللّهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرّهِ؛ كُلُّهُ مِنَ اللّهِ).

- أركان الإيمان هي أصوله التي ينبي عليها.
- وهذه الأركان هي أصول الإيمان، وشعب الإيمان ترجع إلى هذه الأصول، لأن الشعبة لا بد لها من أصل، فالشعبة تتشعّب من أصل.
- وهذا يفيد بالتمثيل أن الإيمان كالشجرة لها أصول وشعب هي أغصانه المتفرعة عنه.
- وقد ورد تشبيه الإيمان بالشجرة كما قال تعالى مشوقاً عباده: **ألم تر كيف ضرب اللّه مثَلاً كَلمةً طَيبةً كَشجرةٍ طَيبةٍ أَصلُها ثَابِتٌ وفَرعها في السماء (٢٤) تؤتي أُكُلَها كُل حـ ٍ**

بإذْن ربها ويضرب اللّه الأمثَالَ للناس لعلهم يتذكرونَ (٢٥) [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

O قال ابن جرير: (مثّل الله مثَلا وشبّه شبَهًا (كلمة طيبة)، ويعني بالطيبة: الإيمانَ به جل ثناؤه)؛ فالكلمة هنا هي كلمة الإيمان وكلمة التوحيد فهي أصل الإيمان.

- فإذا كان الإيمان راسخاً كان أعلى فروع هذه الشعب هو قول (لا إله إلا الله) لأنه حينئذ يعبّر عما وقر في القلب وصدَّقته الجوارح من معانى الإيمان.
- لكن إذا كانت هذه الكلمة يقولها من ليس بمؤمن لم ينفعه قولها بلسانه وهو غير مؤمن بها لأنها حينئذ لا تكون قائمة على أصل.
- والمقصود أن هذه الأركان الستة هي أصول الإيمان ومنها تفرعت شعبه.
- وشعب الإيمان هي أنواع الإيمان وخصاله، ومنها قلبي وقولي وعملي.
- وقد مثل النبي صلى الله عليه وسلم لكل نوع بمثال: فقول (لا إله إلا الله) قول باللسان، وإماطة الأذى عمل، والحياء عمل قلبي.

قوله: (وَالدّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ليس البِرّ أنْ تولّوا وجوهكُم قبـلَ المشرقِ والمغربِ ولكنّ البِرّ من آمن بِاللّه واليومِ الآخرِ والملائكَة والكتابِ والنّبِيّ [البقرة: ١٧٧] **الآية).**

- في هذه الآية ذكر الله تعالى خمسة أصول من أصول الإيمان، وفي حديث جبريل ذكر مع هذه الأصول الخمسة الإيمان بالقدَر.
- والإيمان بالقَدَر من لازمِ الإيمانِ بالله تعالى، لأنّ القَدَرَ هو من فعل الله جل وعلا، وإذا أُفْرِدَ في بعض المواضع فهو لأهميته.
- وفي بعض الآيات يذكر الله تعالى أصلين من أصول الإيمان وهما الإيمان بالله واليوم الآخر كما في قوله تعالى: **يا أيها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرّسولَ وأولـي الأمر منكُم فَإنْ تنازعتم في شيءٍ فَردّوه إلى اللّه والرّسولِ إنْ كُنتم تؤمنونَ بِاللّه واليومِ الآخر ذَلك خيرٌ وأحسن تأويلًا (٥٩)** [النساء: ٥٩]، وقوله تعالى: **والّذين ينفقُونَ أموالَهم رئَاءَ النّاس ولَا يؤمنونَ بِاللّه ولَا بِاليومِ الآخر ومن يكُنِ الشّيطَانُ له قَرِينًا فَساءَ قَرِينًا (٣٨) وماذَا عليهم لَو آمنوا بِاللّه واليومِ الآخر وأنفَقُوا ممّا رزقَهم اللّه وكَانَ اللّه بِهم عليمًا(٣٩)** [النساء: ٣٨، ٣٩]،

وهذا كثير في القرآن الكريم.

• وفي بعض المواضع يذكر الإيمان بالله والرسل كما في قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾** [النساء: ١٥٢].

• وفي بعض المواضع يذكر لفظ الإيمان بالله وحده كما في قوله تعالى: **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥)﴾** [النساء: ١٧٥]، وقوله تعالى: **﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾** [الطلاق: ١١].

• وفي بعض المواضع يذكر لفظ الإيمان مطلقاً دون ذكر متعلَّقِه كما في قوله تعالى: **﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾** [المؤمنون: ١].

• فإذا قيل: الإيمان بالله واليوم الآخر؛ فإن الإيمان بالله يشمل الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله وقدره، فإن هذه الأصول تضاف إلى الله تعالى إضافة لغوية صحيحة، وأما اليوم الآخر فلا يضاف إليه تعالى؛ فلا يقال: ويومه الآخر.

• وإذا ذكر الإيمان بالله وبالرسل دخلت بقية أصول الإيمان فيما أخبرت به الرسل، وكل ما أخبرت به الرسل يجب الإيمان به وتصديقه، وهذا الأصول العظيمة من الإيمان بالملائكة والكتب واليوم الآخر والقدر من أعظم ما أخبرت به الرسل.

• وإذا أفرد الإيمان بالله وحده دخل في ذلك جميع ما أمر الله تعالى بالإيمان به.

• وإذا أطلق لفظ الإيمان دون متعلقه فالمراد به الإيمان الذي أمر الله تعالى به وأحبه ومن أعظم ذلك الإيمان بهذه الأصول العظيمة.

• وهذا يبيّن لك أن هذه الأصول العظيمة يدل بعضها على بعض، ويستلزم بعضها بعضاً، وأن من رام أن يفرّق بينها فيؤمن ببعض ويكفر ببعض فهو كافر بها كلها.

• ومن كفر بأصل من هذه الأصول فهو كافر خارج عن دين الإسلام.

• قد يقع عند العبد خطأ ومخالفة في بعض لوازم الإيمان بهذه الأصول مع إيمانه بها على وجه الإجمال؛ فهذا يكون حكمه بحسب ما خالف فيه؛ فقد يكون كافراً إذا كان ما

خالف فيه ناقضاً من نواقض الإسلام، وقد يكون مبتدعاً، وقد يكون عاصياً.

قوله: (وَدَلِيلُ الْقَدَرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** [القمر: ٤٩]).

- هذه الآية فيها ذكر القَدَر، وأن الله تعالى قد خلق كلَّ شيء بقدر، فمن آمن بذلك فقد آمن بالقدر.
- والإيمان بالقدر من أصول الإيمان العظيمة المذكورة في حديث جبريل نصاً.

أركان الإيمان

الإيمان بالله تعالى:

- الإيمان بالله تعالى يستلزم الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، والقيام بواجب هذا الإيمان اعتقاداً وقولاً وعملاً.
- فأما الإيمان بوجود الله تعالى فلم يخالف فيه إلا قلَّة من الناس، وهم الملاحدة وهم طوائف؛ فمنهم الدهرية الطبائعية الذين ينسبون كل شيء للطبيعة، ومنهم الشيوعية والداروينية، ومنهم البهائية والبابية وهاتان الفرقتان من فرق الشيعة.
- ومن الملاحدة من يقرّ بوجود الله تعالى لكنَّه يفسّر وجوده تفسيراً خاطئاً كالدهرية الإلهية وهم طائفة من الفلاسفة يزعمون أن وجودَ الرب تعالى وجودٌ مطلق لا صفة له.
- وهؤلاء الذين ينكرون وجود الله تعالى من أعظم الناس اضطراباً وتناقضاً، فإن الإيمان بوجود الله تعالى أمر تقتضيه الفطرة فمن أنكره وقع في التناقض والاضطراب ولا بد.
- وقد حكى الله تعالى عن فرعون وهو مِن أشهر من أظهر القول بإنكار وجود الله تعالى أنه وقع في هذا الاضطراب والتناقض؛ فأنكر وجود الله تكبّراً وإباء مع يقينه بوجوده في قرارة نفسه، ولمّا مسّه عذاب الرجز سأل مؤسى أن يدعو ربّه ليكشف عنه العذاب.

○ قال الله تعالى: **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩)** [القصص: ٣٨، ٣٩].

o وقال تعالى: **ولمّا وقع عليهم الرّجز قالوا يا موسى ادع لنا ربّك بما عهد عندك لئن كشفت عنّا الرّجز لنؤمننّ لك ولنرسلنّ معك بني إسرائيلَ (١٣٤) فلمّا كشفنا عنهم الرّجز إلى أجلٍ هم بالغوه إذا هم ينكثونَ (١٣٥)** [الأعراف: ١٣٤، ١٣٥].

● والملاحدة أضعف الناس حجة إذا ناظرهم من يحسن المناظرة كما ذكر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام ونبأ محاجة الملك له قال الله تعالى: **ألم تر إلى الّذي حاجّ إبراهيم في ربّه أنْ آتاه اللّه الملك إذْ قالَ إبراهيم ربّي الّذي يحيي ويميت قالَ أنا أحيي وأميت قالَ إبراهيم فإنّ اللّه يأتي بالشّمس من المشرق فأت بها من المغربِ فبهت الّذي كفَر واللّه لا يهدي القَوم الظّالم** [البقرة: ٢٥٨].

● وأما الإيمان بربوبية الله تعالى فهو الإقرار بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المالك المدبر المحيي المميت.

● وهذا الإقرار لا يدخل العبد في الإسلام بل يلزمه للدخول في الإسلام توحيد الألوهية بأن يعبد الله وحده لا شريك له؛ فإن المشركين الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقرون بوجود الله، ويقرون بربوبيته لكنهم لم يوحدوا الله تعالى في العبادة فلم يدخلوا في دين الإسلام.

● وأما الإيمان بألوهية الله تعالى؛ فهو الإقرار بأنه لا يستحق العبادة إلا الله جل وعلا؛ إقراراً جازماً يتبعه العمل؛ ولا يكون مؤمناً بألوهية الله تعالى إلا من كفر بما يُعبد من دون الله، وَعَبَدَ الله وحده لا شريك الله.

● وهذه المرتبة العظيمة هي التي وقعت فيها الخصومة بين الرسل وأقوامهم، وهي التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقاتل الناس حتى يؤمنوا بها وهي مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله.

● وأما الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا فيكون بالإقرار الجازم بما أثبته الله تعالى لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ولا تشبيه ولا تعطيل إقراراً جازماً يتبعه العمل بمقتضاه.

o فنؤمن بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا وبما دلت عليه من المعاني الجليلة وأنه لا شبيه له فيها، وأن الله تعالى له الكمال المطلق فلا يلحقه نقص في أسمائه ولا صفاته ولا أفعاله،

قد تنزّه عن الشرور والنقائص والعيوب وسائر ما لا يليق بكماله المقدس.

o ونتعبّد لله تعالى بمقتضى أسمائه وصفاته :

فإيماننا بأسماء السميع البصير واللطيف الخبير والعليم المحيط ونحوها من الأسماء الحسنى التي تدل على العلم والإحاطة تقتضي منا مراقبة الله تعالى في شؤننا كلها، فنعبده جل وعلا وكأننا نراه، فنأتي الطاعات ونجتنب المعاصي ونحن نعتقد أن الله تعالى يرانا ويعلم سرنا وعلانيتنا، ولا يخفى عليه شيء من أمرنا.

وإيماننا بصفات الرحمة والكرم والإحسان يقتضي تعظيم محبة الله جل وعلا وتعظيم الرجاء في فضله ورحمته وبركاته.

وإيماننا بصفات القوة والقدرة والقهر يقتضي تعظيم الخوف من الله جل وعلا فلا نقدم على معصيته ولا نتخلف عن طاعته، ولا نيأس من نصره.

وكل اسم من الأسماء الحسنى وصفة من الصفات العليا لها آثارها العظيمة الجليلة، ولها مقتضياتها من أنواع العبودية لله جل وعلا.

• وهذه المرتبة من الإيمان خالف فيها طوائف من الفرق الضالة وهي على صنفين: معطلة ومشبّهة.

o **فأما ا عطلة:** فهو وصف جامع لفِرَقٍ نَفَتْ أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العليا أو نفت بعضها وهذا هو معنى التعطيل، ومن أشهر هذه الفرق: الجهمية والمعتزلة والكلابية والماتريدية والأشاعرة، وهي على درجات في التعطيل.

o **وأما ا شبهة:** فهم الذين شبهوا الله تعالى بخلقه، والتشبيه وقع فيه بعض الأشخاص الذين اشتهر عنهم القول به ومنهم من نص السلف على كفره كداود الجواربي والمغيرة بن سعيد العجلي وهشام بن الحكم الرافضي وهشام الجواليقي.

o وكان في بعض قدماء الروافض تشبيه ومن فرقهم المشبهة: السبئية والمغيرية والسحابية الذين يزعمون أن علياً في السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه.

o وممن وقع في التشبيه من الفرق المشتهرة الكرامية وغلاة الصوفية من الحلولية والاتحادية وهؤلاء من أعظم الفرق تشبيهاً وكفراً والعياذ بالله، ولهم أقوال شنيعة في الكفر والتشبيه.

الدرس الثالث عشر: مرتبة الإيمان (٢/٢)

قال رحمه الله:

(الْمَرْتَبَةُ الثّانِيَةُ: الإيمَانُ

وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أعْلاَهَا قَوْلُ لاَ إِلهَ إِلا اللّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ.

وَأَرْكَانُهُ سِتّةٌ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللّهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ؛ كُلُّهُ مِنَ اللّهِ.

وَالدّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السّتّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **لَيسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ** الآية [البقرة: ١٧٧].

وَدَلِيلُ الْقَدَرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** [القمر: ٤٩]).

عناصر الدرس:

- الركن الثاني: الإيمان بالملائكة.
- الركن الثالث: الإيمان بالكتب
- الركن الرابع: الإيمان بالرسل.
- الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر.
- الركن السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره.

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة

- الملائكة، جمع مَلَك، وأصله: مَألَك، ، والألوكة والمألك والمألكة: الرسالة.

  o قال عدي بن زيد: أبلغ النعمان عني مألُكاً أنه قد طال حبسي وانتظاري

- أصل لفظ "الملك": "مألك"، ثم قُدِّمَت اللام ونقلت حركة الهمزة إليها فقيل: (مَلأك)، ثم قلبت الهمزة ألفاً للتسهيل فقيل: ملاك، وعلى الأصل قول الشاعر:

  فلسْتَ لإنسيٍّ ولكنْ لِمَلأَكٍ تَبارَكَ مَن فَوْق السّماواتِ مُرْسِلُهْ

- والإيمان بالملائكة أصل عظيم من أصول الإيمان، وله ثمرات عظيمة، وفوائد جليلة.
- قال ابن القيم رحمه الله: (لا تخلو سورة من سور القرآن عن ذكر الملائكة تصريحا أو تلويحا أو إشارة وأما ذكرهم في الأحاديث النبوية فأكثر وأشهر من أن يذكر).
- وهم خَلْق من خلق الله تعالى، خلقهم الله من نور كما في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **خلقت الملائكة من نور، وخلق الجانّ من مارجٍ من نار، وخلق آدم مما وصف لكم** ».

  o المارج هو: لهب النار المختلط بسوادها، وسمي مارجاً لاضطرابه واختلاطه وخفّته.

- وقد وصف الله تعالى الملائكة في كتابه الكريم بأنهم **عبادٌ مكْرمون** [الأنبياء: ٢٦] خَلْقاً وَخُلُقاً، قد أكرمهم الله تعالى بمحبته وشرّفهم بطاعته، وعصمهم من معصيته، فهم **لا يعصونَ الله ما أمرهم ويفْعلُونَ ما يؤمرونَ** [التحريم: ٦].
- ووصفهم بأنهم **لا يستكْبِرونَ عن عبادته ولا يستحسِرونَ (١٩) يسبحونَ الليلَ والنّهار لا يفْترونَ** [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، لا يستحسرون أي لا ينقطعون عن عبادته من إعياء ولا ملل ولا ضعف.
- وهم متفاوتون في الخلق فمنهم من هو عظيم الخلقة جداً ومنهم من هو دون ذلك كما وصف الله تعالى تفاضلهم في الخلق في قوله تعالى: **الْحمد لله فَاطرِ السماوات والأرض جاعلِ الْملَائكَة رسلًا أُولي أجنِحةٍ مثْنى وثُلَاثَ ورباع يزِيد في الْخلْق ما يشاءُ إن الله علَى كُل شيءٍ قَديرٌ** [فاطر: ١].
- وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم

رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح.

- وفي سنن أبي داوود من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **أذن   أن أحدّث عن ملكٍ من ملائكة ا   تعا   من حملة العرش، ما ب   شحمة أذنه إ   عاتقه مس   ة سبعمائة سنة** ».

- وهم خلق كثير لا يحصيهم إلا من خلقهم سبحانه وتعالى

- في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قصة المعراج أن (البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة).

- وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه رضي الله عنهم إذ قال لهم: « **هل تسمعون ما أ   ع؟** »، قالوا: ما نسمع من شيء. قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: « **إ   لأ   ع أطيط السماء، وما تلام أن تئط، وما فيها موضع ش   إلا وعليه ملك ساجد أو قائم** ». رواه محمد بن نصر المروزي والطحاوي وابن أبي حاتم وابن أبي عاصم والطبراني وغيرهم كلهم من حديث عبد الوهاب بن عطاء عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم. وصححه الألباني.

- وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والبيهقي وتفسير البغوي من حديث إبراهيم بن المهاجر عن مجاهدٍ عن مورقٍ عن أبي ذر قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **إ   أرى ما لا ترون وأ   ع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحق   ا أن تئط، ما فيها موضع أرب   ع أصابع إلا وملكٌ واضعٌ جبهته ساجدًا   ، وا   لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كث   ًا، وما تلذّذ   بالنساء على الفرش، و   رجتم إ   الصعدات   أرون إ   ا** » لوددت أني كنت شجرةً تعضد).

  - (لوددت أني كنت شجرة تعضد) أي تُقْطَع، وقيل: يُنثر وَرَقُها، وهذا من كلام أبي ذر، كما بيّن ذلك الحفاظ.

- وقد وكّلهم الله تعالى بأعمالٍ يعملونها، وهم حفيظون لأعمالهم قائمون بها على أتم وجه كما أمرهم الله؛ فمنهم الموكَّل بالوحي وهو جبريل عليه السلام، ومنهم الموكَّل بالقطر

والنبات وهو ميكائيل، ومنهم الموكل بالنفخ في الصور وهو إسرافيل، ومنهم ملك الموت الموكل بقبض الأرواح، ومنهم ملائكة الرحمة، ومنهم ملائكة العذاب، ومنهم الموكل بالأرحام.

- ومنهم الكتبة الحافظين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: **وإن عليكم لحـافظ (١٠) كرامًا كاتبٍ (١١) يعلمونَ ما تفْعلُونَ (١٢)** [الانفطار: ١٠- ١٢]، وقد مكّنهم الله تعالى من معرفة أعمال العبد كلها حتى ما يهمّ به قبل أن يتحدث به أو يعمل به كما دل عموم قوله تعالى: **يعلمونَ ما تفْعلُونَ** ، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **يقول ا : إذا هم عبدي با سنة فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوهـا عشرة أمثا ا فإن هم بالسيئة فعملها فاكتبوها واحدة وإن تركها فاكتبوها حسنة** » رواه عبد الرزاق وأحمد والبخاري، وفي رواية عند أحمد ومسلم: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **قالت ا لائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة -وهو أبصـر بـه- فقـال: ارقبوه؛ فإن عملها فاكتبوها له ثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنةً، إنّما تركها من جراي** ».
  - من جراي: أي لأجلي.
- ومنهم الملائكة السياحون الذين يتتبَّعون مجالس الذكر.
- ومنهم ملائكة سياحون موكلون بتبليغ النبي صلى الله عليه وسلم سلام من يسلّم عليه من أمته كما في مصنف ابن أبي شيبة وسنن النسائي وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **إن ملائكة سياح الأرض يبلغو عن أم السلام** ».
- ومنهم الحفظة الذين يحفظون العبد من الآفات التي قد لا يراها ولا يعلم بها فيصرفونها عنه ما لم يقدّر الله له شيئا من ذلك، ولو وَكَل الله تعالى الناسَ إلى أنفسهم لم يستطيعوا حفظ أنفسهم.
- وللملائكة أعمال كثيرة لا يحصيها إلا من خلقهم، وهم يحبّون ويبغضون؛ يحبون من يحبه الله، ويبغضون من يبغضه الله، ويستغفرون للذين آمنوا ويدعون لهم بخير، وقد ورد في فضائل بعض الأعمال أن الملائكة تدعو لأصحابها، كما ورد أنهم يدعون على بعض العصاة

من أهل الكبائر، ويلعنون بعضهم.

- والمؤمنون يؤمنون بالله وملائكته كما أثنى الله تعالى عليهم بقوله: **آمن الرسولُ بمـا أنزلَ إليه من ربه والمؤمنونَ كُل آمن بالله وملائكته وكُتبه ورسله لا نفَرق بين أحـدٍ مـن رسله وقَالُوا سمعنا وأطَعنا غُفْرانك ربنا وإليك الْمص** [البقرة: ٢٨٥].

- والإيمان بالملائكة يكون بالتصديق بوجودهم وبأعمالهم وبما أخبر الله تعالى عنهم وأخبر به عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم، ومحبتهم لمحبة الله تعالى لهم بلا مجاوزة للحد؛ فلا يُرفعون فوق منزلتهم التي جعلها الله لهم ولا يُدعون من دون الله ولا يستشفع بهم ولا يصرف لهم أي نوع من أنواع العبادة.

- وأما المخالفون في الإيمان بالملائكة فهم أصناف ومن أشهرهم:

  - **الصنف الأول:** الذين أنكروا وجود الملائكة، وهؤلاء هم الملاحدة، وكذلك بعض الذين لديهم نزعات إلحادية مع إقرارهم بوجود الله، لكنهم لا ينسبون إليه شيئاً، ويفسرون كل ما يحدث بالظواهر الطبيعية، حتى خلق الإنسان والأفلاك ينسبونه للطبيعة، فمن هؤلاء من يفسر الملائكة بقوى الخير والصفات النفسانية الحسنة في الإنسان، ويفسر الشياطينَ بقوى الشر والخصال الشريرة.

  - **الصنف الثا :** الفلاسفة القدماء الذين يعتقدون أن الملائكة هي التي تتصرّف في الكون وتدبّره، وهم لا يسمونهم الملائكة وإنما يسمونهم الأرواح والعقول المدبرة والنفوس الخيرة، ولذلك يجوّزون دعاء الأجرام العلوية من الكواكب السبعة وغيرها، ويزعمون أن من توجّه إليها بالدعاء؛ فإن تلك الأرواح تتنزل عليه وتقضي حوائجه.

ولذلك يكون في كلامهم وكلام من يتلقى عنهم "روحانية عطارد" و"روحانية الزهرة" ونحو ذلك يجعلون للكواكب روحانيات ونفوساً مدبرة ومؤثرة ومتصرفة في بعض شؤون العالم، وهذا كفر بالله جل وعلا.

وهـذه العقيـدة تلقفهـا بعـض السـحرة الـذين تعـاطوا التنجـيم، ولـذلك يتقربـون إلى الكواكب ويزعمون أنهم يخاطبون الملائكة؛ وهم في الحقيقة إنما يـدعون الشـياطين، كمـا قال الله تعالى: **ويوم يحشرهم جميعًا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبـدون (٤٠) قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجـن أكثـرهم بهـم مؤمنون (٤١) فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعًا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون (٤٢)** [سبأ: ٤٠- ٤٢].

وهـذا نظـير مـا يحصـل لـبعض عبَّـاد الأصـنام والأوثـان فـإنهم ربـما دعـوا بعـض تلـك المعبـودات فخرجـت علـيهم بعـض الشـياطين متمثلـة لهـم علـى شـكل بعـض المخلوقـات المرئية فتنة لهم.

o **الصـنف الثالـث:** الـذين يبغضـون بعـض الملائكـة ويعـادونهم، ومـن هـؤلاء اليهـود المغضوب عليهم الذين أعلنوا بغضهم لجبريل عليه والسلام وعداوتهم له، وفيهم نـزل قـول الله تعـالى: **قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقًا لما بين يديه وهدًى وبشرى للمؤمنين (٩٧) من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فـإن الله عدو للكافرين (٩٨)** [البقرة: ٩٧، ٩٨].

o **الصنف الرابع:** الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله، ولـديهم اعتقـادات أخـرى كفريّـة باطلة في الملائكة، ومن هؤلاء مشركو العرب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: **وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا سبحانه بل عباد مكرمـون (٢٦) لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون (٢٧) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (٢٨) ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين (٢٩)** [الأنبياء: ٢٦- ٢٩]، قولـه: **وجعلوا له من عباده جـزءًا إن الإنسان لكفور مبين (١٥) أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين (١٦) وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلًا ظل وجهه مسودا وهو كظيم (١٧) أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين (١٨) وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا أشـهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون (١٩) وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك**

من علمٍ إنْ هم إلا يخرصونَ (٢٠) أم آتيناهم كتابًا من قَبله فَهم بِه مستمسِـكُونَ (٢١) بلْ قَالُوا إنا وجدنا آباءَنا على أمةٍ وإنا على آثَـارِهم مهتـدونَ [الزخرف: ١٥- ٢٢]، وقوله: وجعلُوا بينه وبين الْجِنة نسباً [الصافات: ١٥٨].

قال مجاهد وقتادة: قالت كفار قريش الملائكة بنات الله، وأنه تزوج من سروات الجن، والملائكة بناته منهم، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

o **الصنف ا امس:** الذين يدعون الملائكة من دون الله تعالى ويطلبون منهم الشفاعة وقضاء الحوائج وهذا كله من العبادة التي من صرفها لغير الله عز وجل فهو مشرك كافر؛ قال الله تعالى: ما كَانَ لبشر أنْ يؤتيه الله الْكتاب والْحكْم والنبوةَ ثُم يقُولَ للناسِ كُونوا عبادًا لي من دون الله ولَكن كُونوا ربانِيِ بِما كُنتم تعلمونَ الْكتاب وبِما كُنتم تدرسونَ (٧٩) ولَا يأمركُم أنْ تتخذُوا الْملَائكَةَ والنبِي أربابًا أيـأمركُم بِـالْكُفْرِ بعـد إذْ أنـتم مسلمونَ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

- والمشركون يغرّ بعضهم بعضاً، ويلبسون على أنفسهم، ومنهم من يزعم أنه يدعو الملائكة وهو إنما يدعو الشياطين: كما قال الله تعالى: ويوم يحشرهم جميعًا ثُـم يقُـولُ للْملَائكَة أهؤلَاءِ إياكُم كَانوا يعبدونَ (٤٠) قَالُوا سبحانك أنت ولينا من دونِهم بلْ كَـانوا يعبدونَ الْجِن أكْثَرهم بِهِم مؤمنونَ [سبأ: ٤٠، ٤١].

o وقال تعالى: قُلِ ادعوا الَّذين زعمتم من دونِه فَلَا يملكُونَ كَشف الضر عنكُم ولَا تحويلًا (٥٦) أُولَئك الذين يدعونَ يبتغونَ إلَى ربهِم الْوسيلَةَ أيهم أقْرب ويرجونَ رحمتـه ويخافُونَ عذَابه إن عذَاب ربك كَانَ محذُورًا (٥٧) [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

قال ابن جرير: (وقيل: إن الذين أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم هذا القول، كانوا يعبدون الملائكة وعزيرا والمسيح)، هذا أحد الأقوال في تفسير الآية.

o وقال تعالى: وكَم من ملَكٍ في السماوات لَا تغنِي شفَاعتهم شيئًا إلا من بعـد أنْ يأذَنَ الله لمن يشاءُ ويرضى [النجم: ٢٦].

o وقال تعالى: ولَا يشفَعونَ إلا لمنِ ارتضى وهم من خشيته مشفقُونَ [الأنبياء: ٢٨].

o وقال تعالى: قُلِ ادعوا الذين زعمتم من دون الله لَا يملكُـونَ مثْقَـالَ ذَرةٍ فـي

السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شركٍ وما له منهم من ظهيرٍ (٢٢) ولا تنفع الشفاعةُ عنده إلا لمن أذنَ له [سبأ: ٢٢، ٢٣].

● فالتوجه إلى غير الله تعالى بالدعاء وطلب الشفاعة شرك أكبر مخرج عن الملة والعياذ بالله؛ سواء أكان الدعاء لملك أم نبي أم ولي أم غيره.

الركن الثالث: الإيمان بالكتب

● المراد بالكتب: الكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله عليهم السلام، ومنها صحف إبراهيم، والتوراة التي أنزلها الله على موسى، والزبور الذي أنزله على داوود والإنجيل الذي أنزله على عيسى، والقرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وعلى أنبياء الله وسلم.

● فنؤمن بما أنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم، ونؤمن بما أنزل على الأنبياء من قبله ما علمنا من ذلك وما لم نعلم، ونؤمن بأنها حق من عند الله جل وعلا.

● وقد أثنى الله تعالى على عباده المتقين بذلك في أول سورة البقرة فقال: **الم (١) ذَلِكَ الْكتاب لا ريب فيه هدًى للْمتقين (٢) الذين يؤمنونَ بِالْغيبِ ويقيمونَ الصلاةَ ومما رزقْناهم ينفقُونَ (٣) والذين يؤمنونَ بما أنزلَ إليك وما أُنزلَ من قَبلك وبالآخرة هم يوقنونَ (٤) أولَئك علَى هدًى من ربهم وأولَئك هم الْمفْلحونَ (٥)** [البقرة: ١- ٥]

● وقد أمر الله تعالى نبيّه بالإيمان بكتبه فقال: **وقُلْ آمنت بما أنزلَ الله من كتابٍ وأُمرت لأعدلَ بينكُم** [الشورى: ١٥] من كتاب عام في جميع الكتب التي أنزلها الله تعالى.

o قال ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالى ذكره: وقل لهم يا محمد: صدّقت بما أنزل الله من كتاب كائنا ما كان ذلك الكتاب، توراة كان أو إنجيلاً أو زبوراً أو صحفَ إبراهيم، لا أكذب بشيء من ذلك تكذيبكم ببعضه معشر الأحزاب، وتصديقكم ببعض).

● وأمر الله تعالى المؤمنين بذلك فقال: **يا أَيها الَّذين آمنوا آمنوا بِاللَّه ورسوله والْكتابِ الَّذي نزَّلَ علَى رسوله والْكتابِ الَّذي أُنزلَ من قَبلُ** [النساء: ١٣٦].

● فالإيمان بالكتب فرض واجب، وهو من أصول الإيمان العظيمة.

● واليهود والنصارى وقعوا في التكذيب ببعض الكتب وإنكار بعض ما جاء فيها، كما

ذمهم الله تعالى بقوله: **وقالت اليهود ليست النصارى على شيءٍ وقالت النصارى ليست اليهود على شيءٍ وهم يتلونَ الكتاب** [البقرة: ١١٣].

- قال ابن كثير: (قال: إن كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أي: يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة، فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يد صاحبه).
- والكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله عليهم السلام جاءت بالأمر بتوحيد الله جل وعلا، والنهي عن الشرك، وكلٌ ما أخبر الله تعالى به فيها فهو حق وصدق.
- وأما الشعائر التعبدية فقد جعل الله لكل أمة شريعة يتعبدون بها لا تلزم غيرهم، إلا الشريعة التي بعث الله بها محمداً صلى الله عليه وسلم وهي شريعة الإسلام فهي عامة لجميع المكلفين من الإنس والجنّ إلى قيام الساعة كما قال الله تعالى: **وما أرسلناك إلا كافةً للناس** [سبأ: ٢٨]

وقال: **قُلْ يا أيها الناس إني رسولُ اللّه إليكُم جميعًا** [الأعراف: ١٥٨].

- وفي الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **وكان الن يبعث إ قومه خاصة وبعثت إ الناس عامة** »؛ فشريعة الإسلام ناسخة لما قبلها من الشرائع وهي عامة لجميع المكلفين.
- وقال الله تعالى: **لكُل جعلْنا منكُم شرعةً ومنهاجًا** [المائدة: ٤٨]، قال ابن عباس: سبيلاً وسنة، وقال قتادة: الدين واحد والشريعة مختلفة.

O قال ابن جرير: (للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحلُّ الله فيها ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء بلاءً، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره: التوحيدُ والإخلاصُ لله، الذي جاءت به الرسل).

الركن الرابع: الإيمان بالرسل

- الإيمان بالرسل أصل عظيم من أصول الإيمان؛ فهم الواسطة في تبليغ رسالات الله تعالى؛ وهم الذين بينوا للناس الهدى ودين الحق، أرسلهم الله تعالى رحمة بعباده:

o ليبلغوهم رسالات ربهم، ويرشدوهم إلى الصراط المستقيم المفضي إلى رضوان الله تعالى وجنات النعيم، ويبشروا بذلك من آمن بهم وأطاعهم واتبع سبيلهم.

o وليحذروا من أسباب سخط الله وعذابه.

o وليقيموا الحجة على الناس بالبلاغ، فمن بلغته الحجة وجب عليه الإيمان والاتباع، فإن كذّب وتولى استحق العذاب الأليم، ولم تكن له حجة عند ربه.

• وقد جمع الله مقاصد إرسال الرسل الثلاثة في قوله تعالى: **رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكُونَ للناس على اللّه حجةٌ بعد الرسل** [النساء: ١٦٥]؛ فإن الله تعالى لا يعذّب أحداً على مخالفة حتى تقوم عليه الحجة الرسالية كما قال الله تعالى: **وما كُنا معذبِ حتى نبعثَ رسـولاً** [الإسراء: ١٥].

• وقد أوجب الله تعالى على رسله البلاغ المبين وهو البيّن الواضح الذي لا لبس فيه، فقال تعالى: **فَهلْ على الرسل إلا الْبلاغُ الْمبِ** [النحل: ٣٥].

• وشهد الله تعالى لهم بأنهم أدوا ما أوجب الله عليهم فقال: **ما كانَ على النّبِـيّ مـن حرجٍ فيما فَرض اللّه له سنّةَ اللّه في الّذين خلَوا من قَبلُ وكَانَ أمر اللّه قَدرًا مقْدورًا (٣٨) الّذين يبلّغونَ رسالَات اللّه ويخشونه ولَا يخشونَ أحدًا إلّا اللّه وكَفَى بِاللّه حسِيبًا (٣٩) ما كَانَ محمّدٌ أبا أحدٍ من رجالكُم ولَكن رسولَ اللّه وخاتم النّبِيّ وكَانَ اللّه بِكُـلّ شـيءٍ عليمًا** [الأحزاب: ٣٨- ٤٠].

فشهد الله لأنبيائه بأنهم بلغوا رسالات ربهم البلاغ المبين.

• ولذلك أرسل الله تعالى كل رسول بلسان قومه ليبين لهم وجعل رسولهم منهم فقال تعالى: **وما أرسلْنا من رسولٍ إلّا بِلسان قَومه ليبيّن لَهم فَيضلّ اللّه من يشاءُ ويهدي مـن يشاءُ وهو الْعزيز الْحكيم** [إبراهيم: ٤].

• وأعظم الرسل بياناً وأفصحهم لساناً وأحسنهم هدياً نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا أصل عظيم من أصول الدين، وهو اعتقاد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بيّن البيان الكامل الذي يحبه الله ويرضاه، والذي تقوم به الحجة، وتتضح به المحجة فلا يزيغ عنها إلا هالك.

- والبيان الكامل يقتضي ثلاثة أمور متلازمة:
  - **الأمر الأول:** العلم التام بكل ما يلزم بيانه.
  - **الأمر الثا :** النصح والأمانة.
  - **الأمر الثالث:** الفصاحة في المنطق وحسن تبليغ الرسالة لمن أرسله الله إليهم.
- فمن قدح في أمر من هذه الأمور الثلاثة فقد قدح في بيان النبي صلى الله عليه وسلم.
- ولو فَقِهَ أصحاب الأهواء هذا الأمر حق الفقه لسَلِمُوا من شر عظيم، وسلّموا للنبي صلى الله عليه وسلم بحسن بيانه وكمال نصحه وبراعة فصاحته، ولم يدخلوا في حديثه متأولين محرفين زاعمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد ظاهر ما يدلّ عليه كلامُه من أمورٍ كَبُرَ عليهم اعتقادها، حتى صرَّح بعضهم أن ظواهر النصوص غير مرادة، وأنه إذا تعارض العقل والنقل قدم العقل، فارتكبوا بسبب ما زينه لهم الشيطان بدعاً عظيمة شنيعة، ولولا ما عَرَضَ لبعضهم من الشبه وما يعذر به بعضهم من الجهل في بعض المسائل لخرجوا من الدين بهذا الاعتقاد والعياذ بالله.
- ومن زعم أن الله تعالى لم يرسل رسولاً فهو كافر ظانّ بالله تعالى ظنّ السوء زاعم أنّ الله تعالى يترك عباده سدى، يخلقهم ويعبدون غيره، ويقرهم على ذلك! ؛ قال الله تعالى: **أيحسب الإنسانُ أن يترك سدًى** [القيامة: ٣٦]، وقال: **وما خلقْنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا ذَلك ظَن الذين كفَروا فَويلٌ للذين كفَروا من النار** [ص: ٢٧]، وقال: **وما قَدروا اللّه حق قَدره إذْ قَالُواْ ما أنزلَ اللّه علَى بشر من شيءٍ** [الزمر: ٦٧]، وقال: **الذين كَذبوا بِالْكتابِ وبِما أرسلْنا بِه رسلَنا فَسوف يعلَمونَ (٧٠) إذ الْأَغْلَالُ في أعناقهم والسلَاسلُ يسحبونَ (٧١) في الْحميم ثُم في النار يسجرونَ (٧٢)** [غافر: ٧٠- ٧٢].
  - الكتاب اسم جنس فيعم جميع الكتب.
  - والذي أرسل الله به الرسل هو دين الإسلام بمعناه الشرعي العام، وهو التوحيد.
- فالأنبياء دينهم واحد وهو الإسلام وشرائعهم شتى، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **الأنبياء إخوة لعلّات أمهاتم شتى ودينهم واحد** »، وفي رواية « **الأنبياء أبناء علات** ».

o و(الإخوة لعلات) هم الإخوة من أب واحد وأمهات شتى.

• قال ابن القيم رحمه الله: (النبي شبَّه دين الأنبياء الذين اتفقوا عليه من التوحيد وهو عبادة الله وحده لا شريك له والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله ولقائه بالأب الواحد لاشتراك جميعهم فيه، وهو الدين الذي شرعه الله لأنبيائه كلهم؛ فقال تعالى: **شرع لكُم من الدين ما وصى به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أنْ أقيموا الدين ولا تتفرقُوا فيه** [الشورى: ١٣]؛ وقال البخاري في صحيحه: باب ما جاء أن دين الأنبياء واحد وذكر هذا الحديث، وهذا هو دين الإسلام الذي أخبر الله أنه دين أنبيائه ورسله من أولهم نوح إلى خاتمهم محمد فهو بمنزلة الأب الواحد، وأما شرائع الأعمال والمأمورات فقد تختلف؛ فهي بمنزلة الأمهات الشتّى)ا.هـ.

• وفي باب الإيمان بالرسل مسائل عظيمة ينبغي لطالب العلم أن يتفقَّه فيها.

• والمقصود هنا بيان أن الإيمان بالرسل أصل من أصول الإيمان، وأنه يجب علينا أن نؤمن بهم جميعاً ولا نفرق بين الله ورسله ولا نفرق بين أحد من رسل الله فنؤمن ببعض ونكفر ببعض؛ فمن كذّب برسول منهم فقد كذب بهم جميعاً لأن دعوتهم واحدة وهي دين الإسلام وهم كلهم صادقون فيما يخبرون به عن ربهم جل وعلا فمن كذب أحداً منهم فقد كذّبهم كلَّهم، وهو كافر حقاً لأنه لم يُسْلِمْ لله تعالى، ولم يسلّم لأمره بتصديق رسله عليهم السلام.

• قال الله تعالى: **إنّ الّذين يكْفُرونَ بِاللّه ورسله ويريدونَ أنْ يفرّقُوا بين اللّه ورسله ويقُولُونَ نؤمن بِبعضٍ ونكْفُر بِبعضٍ ويريدونَ أنْ يتّخذُوا بين ذَلك سبِيلًا (١٥٠) أولَئك هم الْكَافرونَ حقًّا وأعتدنا للْكَافرين عذَابًا مهِينًا (١٥١) والّذين آمنوا بِاللّه ورسله ولَم يفرّقُوا بين أحدٍ منهم أولَئك سوف يؤتيهم أجورهم وكَانَ اللّه غَفُورًا رحيمًا (١٥٢)** [النساء: ١٥٠-١٥٢].

• وأثنى الله تعالى على الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بقوله: **آمن الرسولُ بِما أنزلَ إلَيه من ربه والْمؤمنونَ كُل آمن بِاللّه وملآئكَته وكُتبِه ورسله لا نفَرق بين أحدٍ من رسله...** [البقرة: ٢٨٥].

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر

- الإيمان باليوم الآخر أصل عظيم من أصول الإيمان، من كذّب به كفر، وسمّي باليوم الآخر لأنه لا يوم بعده في الدنيا، وفيه تقوم الساعة، فالمكذب به مكذّب بالساعة ومكذب بالبَعْث ومكذب بالحساب والجزاء، وهذه كلها أصول عظيمة من أصول الإيمان.
- هذا الأصل العظيم فيه مسائل عظيمة مبسوطة في كتب الاعتقاد، والمهم في هذه المرحلة معرفة هذه المباحث على سبيل الإجمال.
- ومن الإيمان باليوم الآخر:
  - الإيمان بما يكون في البرزخ بين الحياة الدنيا والآخرة من عذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين، كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم.
  - وقيام الناس لرب العالمين في يوم الفصل.
  - والإيمان بالحوض والشفاعة ونصب الموازين ونشر الصحف ونصب الصراط ودخول الكفار والمنافقين وبعض أصحاب الكبائر من المسلمين في النار، ثم يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ويبقى الكفار والمنافقون النفاق الأكبر خالدين في نار جهنم لا يخفف عنهم العذاب وما هم منها بمخرجين، والعياذ بالله.
  - ونؤمن بأن الجنة حق، وأن الله تعالى قد أعدّها لعباده المؤمنين يدخلونها برحمته وفضله، وهم فيها خالدون، في النعيم المقيم الذي لا ينقطع ولا ينقص ولا يتكدّر
  - والجنة على درجات، والمؤمنون يتفاضلون فيها تفاضلاً عظيماً بحسب أعمالهم.
  - والمؤمنون يرون ربهم عز وجل في عرصات القيامة وبعد ما يدخلون الجنة، ورؤية الله تعالى هي أعلى مراتب النعيم وأعظم الفضل وغاية المطالب عند المؤمنين الذين أخلصوا له الدين، نسأل الله تعالى من فضله.
  - وهم على مراتب ودرجات في الرؤية بحسب قربهم من الله عز وجل.
- والمخالفون في هذا الأصل على درجتين:
  - **الدرجـــة الأو :** الكفار المكذبون بالبعث، وهم طوائف من المشركين الوثنيين والملاحدة، وبعض الفلاسفة القدماء الذين يزعمون أن الحشر للأرواح دون الأجساد.

وهؤلاء كلهم كفار لجحدهم معلوماً من الدين بالضرورة، وتكذيبهم خبر الله عز وجل وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم.

o **الدرجة الثانية:** المبتدعة الذين أنكروا بعض تفاصيل ما يكون في اليوم الآخر من الحوض والشفاعة ورؤية المؤمنين لربهم عز وجل؛ فهؤلاء مَن بلغته منهم الأحاديث الصحيحة وهو عارف بمعناها عارف بصحتها ثم كذّب بها فهو كافر لتكذيبه النبي صلى الله عليه وسلم.

o ومن عرضت له شبهة تأول بسببها معنى غير ما أجمع عليه السلف الصالح ودل عليه لفظ النبي صلى الله عليه وسلم بمقتضى لسان العرب فهو مبتدع ضال، ولا يكفَّر لأجل الشبهة التي عرضت له، ولأنه لم يقصد تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، لكنه على خطر عظيم بسبب ما وقع فيه من البدعة.

الركن السادس: الإيمان بالقدر

- الإيمان بالقدر أصل عظيم من أصول الإيمان، والقدر هو تقدير الله تعالى لكل شيء وهو يتضمن علم الله تعالى به وكتابته له في اللوح المحفوظ ومشيئته بوقوعه وعموم خلقه لكل شيء.

كما قال تعالى: **إنا كُل شيءٍ خلقْناه بِقَدر** [القمر: ٤٩].

وقال: **وخلَق كُل شيءٍ فَقَدره تقْديرًا** [الفرقان: ٢].

وقال: **وكُل شيءٍ عنده بِمقْدار** [الرعد: ٨].

وقال: **قَد جعلَ الله لكُل شيءٍ قَدرًا** [الطلاق: ٣].

- فالإيمان بالقدر يتضمن أربع مراتب من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقدر:

o **ا رتبة الأو :** الإيمان بعلم الله تعالى الأزلي بكل شيء كما قال تعالى: **إن الله بِكُل شيءٍ عليمٌ** [الأنفال: ٧٥].

o **ا رتبة الثانية:** الإيمان بأن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ كل شيء، والكتابة من أدلة العلم، كما قال الله تعالى: **وعنده مفَاتح الْغيبِ لَا يعلَمها إِلَّا هو ويعلَم ما في الْبر والْبحر وما تسقُطُ من ورقَةٍ إلا يعلَمها ولَا حبةٍ في ظُلُمات الْأَرضِ ولَا رطْبٍ ولَا يابِسٍ إلـا فـي**

كتابٍ مبين [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: **وما تكُونُ في شأنٍ وما تتلُو منه من قُرآنٍ ولا تعملُونَ من عملٍ إلّا كُنا عليكُم شهودًا إذْ تفيضونَ فيه وما يعزب عن ربك من مثْقَالِ ذَرةٍ في الْأرضِ ولا في السماءِ ولا أصغر من ذَلك ولا أكْبر إلّا في كتابٍ مبين** [يونس: ٦١].

○ وقال تعالى: **وما من دابةٍ في الْأرضِ إلّا على اللّه رزقُها ويعلم مستقرها ومستودعها كُلٌ في كتابٍ مبين** [هود: ٦]، وقال تعالى: **ألَم تعلَم أنّ اللّه يعلم ما في السماءِ والأرضِ إنّ ذَلك في كتابٍ إنّ ذَلك على اللّه يسير** [الحج: ٧٠]، وقال تعالى: **وما من دابةٍ في الْأرضِ ولا طَائر يطير بِجناحيه إلّا أممٌ أمثَالُكُم ما فَرطْنا في الْكتابِ من شيءٍ ثُم إلَى ربهِم يحشرونَ** [الأنعام: ٣٨].

○ وفي صحيح البخاري وغيره من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنهما أنّ ناساً من أهل اليمن قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: جئناك لنتفقَّه في الدين، ولنسألَك عن أوَّلِ هذا الأمر ما كان؟ قال: « **كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كلَّ شيءٍ** ».

○ الذكر هنا هو اللوح المحفوظ وهو المراد في قوله تعالى: **ولَقَد كَتبنا في الزبورِ من بعد الذكْرِ أن الْأرض يرِثُها عبادي الصالحونَ** [الأنبياء: ١٥].

○ **المرتبة الثالثة:** الإيمان بمشيئة الله تعالى، وأنه لا يكون إلا ما يشاؤه الله عز وجل، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، قال الله تعالى: **وما تشاؤونَ إلا أن يشاء الله** [الإنسان: ٣٠]، وقال: **ولَو شاء اللّه لَجمعهم علَى الْهدى** [الأنعام: ٣٥]، وقال: **ولَو شاء ربك ما فَعلُوه** [الأنعام: ١١٢]، وقال: **وما كَانَ لنفْسٍ أن تؤمن إلا بِإِذْنِ اللّه** [يونس: ١٠٠]، وقال: **إن الله يفْعلُ ما يشاء** [الحج: ١٨]، وقال: **إن الله يفْعلُ ما يريد** [الحج: ١٤]، وقال: **يخلُق الله ما يشاء** [النور: ٤٥]، وأدلة المشيئة في الكتاب والسنة كثيرة جداً.

○ **والمشيئة** هي الإرادة الكونية، فإن الإرادة تطلق في الكتاب والسنة ويراد بها الإرادة الكونية المرادفة للمشيئة، وتطلق ويراد بها الإرادة الشرعية التي هي الأمر والنهي.

فأما **الإرادة الكونية** فإنها نافذة ولا بدَّ؛ لأن ما شاء الله كان وما شاء لم يكن.

وأما **الإرادة الشرعية** وهي الأمر والنهي فقد يمتثله العباد وقد لا يمتثلون وهو مدار الابتلاء والاختبار.

o لو شاء الله تعالى أن يجعل عباده كلهم مؤمنين مطيعين لفعل، ولو شاء أن يجعلهم كلهم عصاة لفعل، لكنه تعالى ابتلاهم بالأمر والنهي وجعل لهم قدرة واختياراً فمن امتثل بقدرته واختياره أثابه الله، ومن عصى الله بقدرته واختياره استحق العقاب.

o **ا رتبة الرابعة:** الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء، كما قال تعالى: **الله خالق كُل شيءٍ** [الزمر: ٦٢]، وقال تعالى: **والله خلَقَكُم وما تعملُونَ** [الصافات: ٩٦].

● فمعنى القدر يتضمن هذه المراتب الأربعة.

● الله تعالى هو الخالق وما سواه مخلوق، فأسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله غير مخلوقة، وما سوى الله فإنه مخلوق، وذلك أن الله تعالى له الخلق والأمر كما قال تعالى: **ألا لَه الْخلْق والأمر** [الأعراف: ٥٤]؛ فلذلك فإنّ القرآن غير مخلوق؛ لأنّه كلام الله تعالى، وكلام الله غير مخلوق.

● والقدر لا يعارض الشرع، فإن العبد مكلف حقيقةً وله قدرة وإرادة فيطيع ويعصي باختياره، وله قدرة يتمكن بها من فعل ما يستطيع، والعبد لا يكلف إلا ما يستطيع كما قال تعالى: **فَاتقُوا الله ما استطَعتم** [التغابن: ١٦].

● مما يدفع عن العبد كثير من الإشكالات والتحيرات التي وقع فيها الضالون في هذا الباب من المشركين والمبتدعة أن يعرف العبد معاني أسماء الله الحسنى، ويتفقه في آثارها في الخلق والأمر؛ فإن فقه الأسماء الحسنى عصمة من الضلالة في كثير من الأبواب التي ضل فيها الضالون.

● فمن آمن بأن الله تعالى هو الإله الودود الحميد العدل، الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً؛ تبين له ضلال الجبرية الذين يزعمون أن العصاة مجبورون على عصيانهم.

● ومن آمن بأن الله تعالى هو العليم القدير والملك الحق وأنه خالق كل شيء وأنه فعال لما يريد وأنه هو الحكيم البصير يهدي ويثيب رحمة منه وفضلاً، ويضل ويعاقب من يستحق

العقاب حكمة منه وعدلاً، تبيّن له ضلال القدريّة في هذا الباب.

- جعل الله تعالى لقضاء الخير أسباباً من فعلها أثابه على ذلك بقضاء الخير، وجعل لقضاء الشر أسباباً من فعلها فقد تعرض لقضاء الشر والعياذ بالله؛ كما جعل للتوفيق والخذلان أسباباً بيَّنها في كتابه الكريم وبينها النبي صلى الله عليه وسلم في سنته التي هي كالمحجة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

- فمن تمسَّك بالكتاب والسنة واعتصم بالله هدي إلى صراط مستقيم، ومن أعرض وخاصَم ربه وتعمَّق في القدر مخاصماً ومعترضاً كان على شفا هلكة، ولم يزدد إلا حيرة وضلالاً.

- فاليقين والطمأنينة والعلم النافع والبصيرة لا تكون إلا بالتسليم لله تعالى والإيمان به وإحسان الظن به جل وعلا والرضى به رباً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وبالإسلام دينا.

- فمن كان كذلك ذاق طعم الإيمان وهدي إلى الصراط المستقيم في هذا الباب وغيره.

- واعلم أن المخالفين في باب الإيمان بالقدر أنواع:

o **النوع الأول:** المنكرون للقدر جملة، ومن هؤلاء طوائف من المشركين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وغلاة القدرية الذين أنكروا علم الله بأفعال العباد قبل صدورها منهم، وهم أتباع معبد الجهني، وهؤلاء كفار وقد حدثت هذه الفرقة في أواخر عصر الصحابة، وذُكروا لعبد الله بن عمر؛ فكان ذلك سبب تحديثه بحديث جبريل الطويل.

O في صحيح مسلم وغيره عن يحيى بن يعمر قال: (كان أول من قال في القدر بالبصرة معبدٌ الجهني؛ فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجَّين أو معتمرين؛ فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر؛ فوُفِّقَ لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله؛ فظننت أن صاحبي سَيَكِلُ الكلام إلي؛ فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قِبَلَنا أناس يقرءون القرآن ويتقفَّرون العلم - وذكر من شأنهم - وإنهم يزعمون أن لا قَدَرَ وأَنّ الأَمَرَ أُنُفٌ؛ فقال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريءٌ منهم وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أنّ لأحدهم مثل أحدٍ ذهباً؛ فأنفقه ما

قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر.

o ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديدٌ بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحدٌ...) فذكر حديث جبريل الطويل.

o وقد نُقل عن بعض السلف أنهم قالوا: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقرُّوا به خُصِمُوا وإن أنكروه كفروا.

o **النوع الثا :** المخاصمون والمعترضون، وهؤلاء إمامهم إبليس لعنه الله، وقد وقع في مخاصمة الله تعالى في القَدَرِ طوائف من المشركين والزنادقة وبعض أهل البدع.

وقد يقع في شيء من ذلك بعض عصاة المسلمين وهو على خطر في هذه المنازعة؛ والواجب الإيمان بالقدر والتسليم لله تعالى.

o وما أحسن ما قال ابن القيم رحمه الله: (فأكثر الخلق، بل كلهم إلا مَن شاء الله يظنون باللهِ غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوْءِ، فإن غالبَ بنى آدم يعتقد أنه مبخوسُ الحق، ناقصُ الحظ وأنه يستحق فوقَ ما أعطاهُ اللهُ، ولِسان حاله يقول: ظلمنى ربِّى، ومنعنى ما أستحقُه، ونفسُه تشهدُ عليه بذلك، وهو بلسانه يُنكره ولا يتجاسرُ على التصريح به، ومَن فتّش نفسَه، وتغلغل فى معرفة دفائِنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامِناً كُمونَ النار فى الزِّناد، فاقدح زنادَ مَن شئت يُنبئك شَرَارُه عما فى زِناده، ولو فتَّشت مَن فتشته، لرأيت عنده تعتُّباً على القدر وملامة له، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغى أن يكون كذا وكذا، فمستقِلٌ ومستكثِر، وفَتِّشْ نفسَك هل أنت سالم مِن ذلك؟

فَإنْ تَنجُ مِنْهَا تنج مِنْ ذِى عَظِيمَةٍ وَإلاَّ فَإنِّى لاَ إخَالُكَ نَاجِيَاً

o وقال: (فليعتنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا الموضعِ، وليتُبْ إلى الله تعالى وليستغفِرْه كلّ وقت من ظنه بربه ظن السّوْءِ، وليظنّ السّوْءَ بنفسه التى هى مأوى كل سوء، ومنبعُ كل شر، المركَّبة على الجهل والظلم، فهى أولى بظن السّوْءِ من أحكم الحاكمين، وأعدلِ العادلين، وأرحمِ الراحمين، الغنيِّ الحميد، الذى له الغنى التام، والحمدُ التام، والحكمةُ التامة، المنزّهُ عن كل سوءٍ فى ذاته وصفاتِهِ، وأفعالِه وأسمائه، فذاتُه لها الكمالُ المطلقُ مِن

كل وجه، وصفاتُه كذلك، وأفعالُه كذلك، كُلُّها حِكمة ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماؤه كُلُّها حُسْنَى)ا.هـ.

- النوع الثالث: الذين ضلوا في باب المشيئة وهم طائفتان من الفرق الضالة:

الطائفة الأو : القدرية ومن أشهرهم المعتزلة ومتأخروا الشيعة.

الطائفة الثانية: الجبرية ومن أشهرهم الأشاعرة والماتريدية.

- ومما ينهى عنه في باب القدر الخوض في تعليل أفعال الله جل وعلا بلا علم؛ فمن تكلم في هذا الباب العظيم بلا علم كان على خطر من الضلال، وهذا هو منشأ ضلال الفرق التي ضلت في هذا الأصل العظيم، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تائيته:

وأصل ضلال الخلق من كل فرقة ... هو الخوض في فعل الإله بعلة
فإنهمو لم يفهموا حكمة له ... فصاروا على نوع من الجاهلية

هذا والله تعالى أعلى وأعلم وأحكم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدرس الرابع عشر: مرتبة الإحسان (١/ ٢)

قال رحمه الله:

(الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ رُكْنٌ وَاحِدٌ؛ وَهُوَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ).

عناصر الدرس:

- بيان معنى الإحسان
- ميزان الإحسان
- فضل الإحسان
- درجات الإحسان
- خصال الإحسان في العبادات
  - إحسان الوضوء
  - إحسان الصلاة
  - إحسان النفقة
  - إحسان الجهاد في سبيل الله

بيان معنى الإحسان

قوله: (الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ رُكْنٌ وَاحِدٌ؛ وَهُوَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ).

- المرتبة الثالثة من مراتب الدين هي مرتبة الإحسان.
- فسر النبي صلى الله عليه وسلم الإحسان بقوله: « **أن تعبد ا كأنك تراه فإن تكـن تراه فإنه يراك** »
- جمع النبي صلى الله عليه وسلم في هذه العبارة الموجزة الغنية بلوازمها وآثارها ما يكفي اللبيب في معرفة معنى الإحسان الذي يحبه الله.
- قال النووي رحمه الله: (قوله صلى الله عليه وسلم: « **الإحسان أن تعبد ا كأنك تراه فإن تكن تراه فإنه يراك** » هذا من جوامع الكلم التي أوتيها صلى الله عليه وسلم، لأنا لو قدّرنا أن أحدنا قام في عبادة، وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به؛ فقال صلى الله عليه وسلم: اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان؛ فإنّ التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه؛ فلا يقدم العبد على تقصيرٍ في هذا الحال للاطلاع عليه، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد؛ فينبغي أن يعمل بمقتضاه؛ فمقصود الكلام الحثّ على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك، وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعا من تلبسه بشيء من النقائص احتراما لهم واستحياء منهم؛ فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلعا عليه في سره وعلانيته)ا.هـ.
- الإحسان المراد هنا هو الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو متضمن للإحسان إلى من أمر الله عز وجل بالإحسان إليهم أمر وجوب أو ندب، لأن الذي يفعله تقرباً إلى الله عز وجل فهو متعبد لله تعالى بهذا الإحسان.
- فالإحسان في عبادة الله تعالى ينتظم جميع معاني الإحسان، وهو أعلى مقامات العبادة وأجلها؛ فالمقام الأول هو مقام الإسلام، والمقام الثاني هو مقام الإيمان، والمقام الثالث

هو مقام الإحسان.

- إذا أطلق الثناء على الإحسان فهو شامل لكلّ ما يُتعبد الله عزّ وجل بالإحسان فيه، فيكون الإحسان في العبادات القاصرة والمتعدية وفي معاملة الناس.
- والإحسان ضد الإساءة ويطلق هذا اللفظ في لسان العرب على معنيين:
  - ا ء الأول: الإتقان والإجادة.
  - وا ء الثا : التفضل والزيادة.
- قال الله تعالى: الذي أحْسَنَ كُل شَيْءٍ خَلَقَـهُ [السجدة: ٧] فالإحسان هنا يفسره قوله تعالى: صُنْعَ اللهِ الذِي أتْقَنَ كُل شَـيْءٍ [النمل: ٨٨] أتقن في تفاسير السلف بمعنى: أحكم وأحسن وسوى وأوثق وهي معان متقاربة.
- وقوله: الذِي خَلقَ فَسَوى [الأعلى: ٢] وقوله: لَقَدْ خَلقْنا الْإنسَانَ فِي أحْسَنِ تَقْوِ ٍ [التين: ٤] والتقويم هنا التعديل وتسوية الخلق بإجماع المفسرين، كما في قوله تعالى: الـذِي خَلقَكَ فَسَواكَ فَعَدَلكَ [الانفطار: ٧] قرئ في السبع بالتخفيف والتشديد (فعدَّلك).
- وقال الحارث بن جحدر الحضرمي يصف قطيعاً من الظباء:

حِماشِ الشَوى نُجلِ العُيونِ سَوانِقٍ ... مِنَ البَقلِ حورٍ أَحسَنَ الخَلقَ خالِقُهْ

- ويقال: فلان أحسن صنعته إذا أتقنها وأجادها، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (قيمة كل امرئ ما يحسنه).
- والذي يحسن العمل هو الذي يأتي به على وجه حسن، وهذا الوصف يصدق على المعنيين فيكون العمل متقناً ليس فيه إساءة، ويكون فيه معنى التكميل والتتميم والزيادة على القدر الواجب.
- فالذي يؤدي العبادة على القدر الواجب بحيث لا يكون مسيئاً فيها؛ فهو قد أحسنها، والذي يكمل آدابها ومستحباتها فهو محسن إحساناً أبلغ من الإحسان السابق.
- وهذا يدلك على أن الإحسان يتفاضل فيه الناس؛ فيكون عمل أحسن من عمل، وعبادة أحسن من عبادة.

ميزان الإحسان

- مدار الإحسان في كل عبادة على أمرين:
  - **الأمر الأول:** الإخلاص لله تعالى بأن يؤديها كأنه يرى الله تعالى فإن لم يكن يراه فإن الله يراه.
  - **الأمر الثا :** اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم في تلك العبادة بأدائها بلا غلو ولا تفريط.
- وهذا يكون في كل عبادة ومعاملة بحسبها.
- هدي النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الهدي فمن جاوزه فهو غالٍ غير محسن، ومن فرّط فيه فهو جافٍ غير محسن؛ فالمتابعة تحفظ العبد من الغلو والتقصير.
- ونواقض الإحسان في العبادة: الشرك، والبدعة، والغلو، والتفريط.
- فالمشرك في عبادة الله تعالى شركاً أكبر أو أصغر غير محسن في عبادته بل هو مسيء غاية الإساءة، والمبتدع غير محسن، والغالي المتنطع غير محسن، والمفرط المتساهل غير محسن، فهؤلاء كلهم غير محسنين في أعمالهم.
  - قال الله تعالى في المشركين: **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَنثُورًا** [الفرقان: ٢٣].
  - وقال النبي صلى الله عليه وسلم في المبتدعة: « **من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد** » متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.
  - وقال في الغلاة: « **هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون** » رواه مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
  - وقال للمسيء صلاته: ارجع فصلّ فإنك لم تصل.
- يتفاضل المؤمنون في أعمال الإحسان لتفاضلهم في الإخلاص وتفاضلهم في إحسان المتابعة.

فضل الإحسان

- الإحسان أعلى مراتب الدين، وأسمى غايات السالكين، وثوابه أحسن الثواب في الدنيا والآخرة، وأهله أحبّ الناس إلى الله وأسعدهم برحمته وفضله وبركاته.
- وقد نُقِلَ عن جماعة من السلف في بيان فضل بعض المحسنين أنهم لم يَسْبِقوا بكثرة صلاة ولا صيام وإنما بشيء وقر في قلوبهم.
- قال الله تعالى: **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** [الملك: ٢]، وقال: **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** [هود: ٧]، وقال: **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** [الكهف: ٧].
  - o بيَّنَ الله تعالى أن الغاية من خلق الخلق ليبلونا أيّنا أحسن عملاً، وهي غاية أخصّ من مطلق العبادة.
- قال فضيل بن عياض: (**أَحْسَنُ عَمَلاً** : أخلصه وأصوبه)، وقال: (العمل لا يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا؛ الخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السنة)ا.هـ.
- المراد من العبد هو إحسان العمل؛ فكثرة العمل بلا إحسان من جهد البلاء، وقليلٌ حسنٌ يحبّه الله خير من كثير غير حسن.
- قال ابن القيم رحمه الله:

والله لا يرضى بكثرة فعلنا   لكن بأحسنه مع الإيمان
فالعارفون مرادهم إحسانه   والجاهلون عموا عن الإحسان

- من أعظم فضائل الإحسان أن الله يحبّ المحسنين، وقد تكرر ذكر أن الله **بّ ا سن** في خمسة مواضع في القرآن الكريم، وهو أكثر عملٍ تكرر ذكر محبة الله لأهله.
- وذكر الله تعالى في خمسة مواضع أيضاً أنه لا يضيع أجر المحسنين.
- ومن فضائله قول الله تعالى: **إن ر ة ا قريب من ا سن** [الأعراف: ٥٦]، وقوله: **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** [الرحمن: ٦٠] وقوله: **و زي الذين أحسنوا با سـ** [النجم: ٣١]

وقوله: ﴿للذين أحسنوا ا س وزيادة﴾ [يونس: ٢٦] وقد فسّرت الزيادة برؤية الله جلّ وعلا، وهذه غاية الأماني وأحسن الثواب.

- من عاجل ثواب المحسنين ما يثيبهم به في الدنيا كما قال الله تعالى في موضعين من كتابه الكريم ﴿للذين أحسنوا هذه الدنيا حسنة﴾ [النحل: ٣٠] و[الزمر: ١٠].

درجات الإحسان

- الإحسان على درجتين من حيث حكمه:
- **الدرجة الأو :** الإحسان الواجب، وهو أداء العبادة على القدر الواجب بإخلاص واتباع بلا غلوّ ولا تفريط؛ فمن أدى العبادة على هذا الوجه فهو محسن الإحسان الواجب فيها.

o والذي لا يؤدي هذا الإحسان ظالم لنفسه كما قسم الله تعالى الناس إلى فريقين لا ثالث لهما، محسن وظالم لنفسه مبين، كما قال تعالى في خليله إبراهيم: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]، وكل من المشرك والمبتدع والغالي والمفرّط قد وقعوا في ظلم أنفسهم.

- **الدرجة الثانية:** الإحسان المستحب، وهو أداء العبادة بتكميل واجباتها ومستحباتها وتعظيم النية فيها لله جل وعلا، فيكون في العبادة قوة إخلاص ومتابعة فيؤديها كأنه يرى الله عز وجل، فمن أدى العبادة على هذا الوجه فهو محسن، وهذا هو الإحسان المراد هنا.

خصال الإحسان في العبادات

إحسان الوضوء

- فإحسان الوضوء يكون بإسباغه وتكميل فروضه وآدابه وعدم مجاوزة القدر المشروع في عدد الغسلات.لما في مسند الإمام أحمد وسنن النسائي وابن ماجة من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن الوضوء؛ فأراه ثلاثا ثلاثا، ثم قال: «**هكذا الوضوء فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم**».
- الزائد على القدر المشروع غير محسن، والمقصر عنه غير محسن، والموسوس غير محسن.

إحسان الصلاة

- وإحسـان الصـلاة يكـون بإقامتهـا وأدائهـا في أول وقتهـا، وتكميـل واجباتهـا وآدابهـا وأن يصليها كأنه يرى الله عز وجل.
- من أخل بأركانها وواجباتها فليس بمحسن، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للمسيء صلاته: « **ارجع فصلّ فإنك تصل** » متفق عليه.
- والساهي عن الصلاة غير محسن، والذي لا يخشع في صلاته غير محسن.
- وفي صحيح مسلم عن عمرو بن سعيد بن العاص قال: كنـت عنـد عثمـان فـدعا بطَهـور فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول: « **ما من امرئٍ مسلمٍ ضره صـلاةٌ مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارةَ ا قبلها من الذنوب مـا يُؤتَ كبـ ة، وذلك الدهر كله** ».
- وعن نافع مولى ابن عمر قال: سمعت ابن عمر يقول: أتـى رجـلٌ الـنبيَّ صـلى الله عليـه وسلم؛ فقال: يا رسول الله حـدِّثني بحديث واجعلـه مـوجزًا؛ فقـال لـه الـنبي صـلى الله عليـه وسلم: « **صل صلاةَ مودع؛ فإنك إن كنت لا تراه فإنه يراك، وأْيس ا أيدي الناس تكن غنيا، وإياك وما يُعتذر منه** ». رواه الطبراني والبيهقـي في الزهـد والخطيـب البغـدادي والضـياء المقدسي وحسّنه الألباني.
- وفي مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجه من حديث أبي أيـوب الأنصـاري رضـي الله عنـه قال: كان النبي صلى الله عليـه وسـلم يقـول: « **صل صلاة مودع كأنك تراه فإن كنـت لا تراه فإنه يراك** »
- قال بكرٌ المزنيُّ: (إذا أردت أنْ تنفعَك صلاتُك فقل: لعلِّي لا أُصلِّي غيرها).
- وكان من فقه بعض الصحابة رضي الله عنهم أنهم يخففون الصلاة إذا خافوا الوسواس؛ كما روى الطحاوي في مشكل الآثـار عـن أبي رجـاء العطـاردي قـال: قلـت للـزبير بـن العـوام رضـي الله عنـه: مـا لـي أراكـم يـا أصـحاب محمـد مـن أخـف النـاس صـلاة؟ فقـال: (نبـادر الوسواس).
- ويوضحه ما في الحلية لأبي نعيـم عـن أنـس قـال: كنّـا إذا صـلّينا خلـفَ الـزبير بـن العـوام

فأخف الصلاة قلت: يا أصحاب محمد ما لي أراكم أخف الناس صلاة؟ قال: (إنا نبادر الوسواس، ولكنكم أهلَ العراق يطيل أحدكم الصلاة حتى يغيب في صلاته).

- فالصلاة الموجزة التامة التي يحسنها صاحبها خير من الصلاة الطويلة التي لا يحسنها.

إحسان النفقة

- الإحسان في الإنفاق يكون بأدائه احتساباً لله عز وجل خوفاً وطمعاً لا يريد ممن أحسن إليه جزاء ولا شكوراً، ولا يُتْبِعُ نفقَتَه منًّا ولا أذى.
- في النفقة عملان عمل للقلب وعمل للجوارح؛ فعمل القلب ألا يريد بالنفقة إلا وجه الله تقرباً إليه خوفاً وطمعاً، لا يريد ممن أنفقه عليهم جزاء ولا شكوراً.

o قال الله تعالى: **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** [المؤمنون: ٦٠].

o وقال عن عباده الأبرار: **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)** [الإنسان: ٩- ١١].

- الإحسان إلى الناس خوفاً من الله عز وجل يطهر القلب من العجب والغرور والتعالي بالنفقة والمفاخرة والمباهاة بها.
- وبهذا تعلم أنه ليس كل منفق محسناً، بل من الناس من ينفق الأموال الكثيرة في وجوه الخير وتكون وبالاً عليه وعذاباً يعذّب به، لفساد قصده ونيّته، وفساد سلوكه في الإنفاق، وكل ذلك مخالف للإحسان.
- مما يفسد النية في الإنفاق: **الرياء** و**الفخر** و**العجب** و**التعالي**.
- ومما يبطل ثواب الصدقة: **المنّ** و**الأذى**، والمنّ من الأذى لأن الذي يُمنّ عليه يتأذى بذلك، وفيه أيضاً سوء أدب مع الله عز وجل.
- والأذى في الإنفاق وصف جامع لخصال كثيرة منها:

o المنّ وهو أعظمها وهو من كبائر الذنوب، والذي ينظر إلى أن ماله منّة مِنَ الله تعالى عليه، استخلفه فيه لينظر كيف يعمل في هذه الأمانة لا يمنّ بإنفاقه، وإنما يمنّ من غفل عن

هذا الأمر العظيم ؛ قال الله تعالى : **آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ** [الحديد: ٧].

o **ومن الأذى في الإنفاق:** المماطلة فيه، والتعالي بالنفقة على المحتاج، والتعسير عليه في أخذها، حتى لا يكاد يأخذ المحتاج حقَّه إلا بشق الأنفس.

وقد قيل :

وأفضلّ البرِّ ما لا مَنَّ يتبعه ولا تقدَّمه شيء من المطَل

o **ومن الأذى:** أن يخرج ما تعافه نفسه من رديء ما يملك، وقد أمر الله بالإنفاق من طيب المال، كما قال تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** [البقرة: ٢٦٧].

- تعترض المنفق فتنتان عند إرادة الإنفاق: إحداهما: وسوسة من الشيطان ليكون إنفاقه لغير وجه الله تعالى، والأخرى: الشح والتردد؛ ومن وقع في إحداهما كان مسيئاً غير محسن.
- وقد وعد الله تعالى المحسنين في الإنفاق بالفضل العظيم كما قال تعالى: **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)** [البقرة: ٢٦٢- ٢٦٤].

o وهذا المثل من أبلغ الأمثلة وأعظمها عبرة، والعرب تشّبه قليل الخير والبركة من الناس بالصفا الأصلد الذي لا ينبت كلأً ولا يوري ناراً.

قال تأبط شراً: وَلَستُ بجلبٍ جلبِ ريحٍ وقرَّةٍ وَلا بصَفاً صَلدِ عَنِ الخَيرِ معزلِ

o الجِلْبُ: هو السَّحَاب المعترض كأنه جَبَل، يُرى عظيماً ولا ماءَ فيه ولانفع، وإنما يجلبُ الريح والبرْد، ويُضْرَبُ مثلاً للذي يَعِدُ الوعود العظيمة وهو في حقيقة الأمر يؤذي ولا ينفع؛ كما قال نهشل الدارمي:

كَجِلبِ السوءِ يُعْجِبُ مَنْ رآهُ ... وَلا يَسْقِي الحَوَائِم مِن لَمَاقِ

الحوائم: الطيور الحائمة، واللَّماق: المُذْقَة اليسيرة.

o والشاهد قوله: (ولا بصفا صلد عن الخير معزلِ)

o والصفا الصلد هو: الحجر الكبير الصلب الأملس لا ينبت كلأ ولا يوري ناراً، تجعله العرب مثلاً للرجل الذي لا يُنتفع به.

o ومما يوضح هذا المعنى قول الحطيئة:

لا يُبعِدِ اللهُ مَن يُعطي الجزيلَ ومَن ... يَحبو الجَليلَ وما أَكْدَى وَلا نَكدا

وَمَن تُلاقيهِ بِالمَعروفِ مُبتَهِجاً ... إِذا اجرَهَدَّ صَفا المَذمُومِ أَو صَلَدا

o وقال الأصمعي: (صَلَدَ الزّنادُ إذا صَوَّت ولم يخرج ناراً).

o فقوله تعالى: **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا** [البقرة: ٢٦٤]؛ أي إن مثل هذا المنفق المغترّ بنفقته، وهو يظنّ أنها تنفعه - وقد أبطلها بالمن والأذى- كمثل صفوان صلد لا نفع فيه ولا خير، إذْ كان ما فعله من الخير باطلاً، وإنما هو كتراب غطّى الصفوان فلما أصابه المطر تبيّنت حقيقته وبقي صلداً؛ فهذا مَثَل المسيء في نفقته.

o وأما مثل المحسن فكما قال الله تعالى: **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** [البقرة: ٢٦٥]؛ نسأل الله من فضله.

o وتأمَّل كيف شبَّه الله تعالى آياته ومواعظه بالماء الذي إذا نزل على مكان طيّب صالحٍ للنبات قد ثُبّت غرسه فإنه ينفعه ويثمره وينميه، وأما الصفوان الأصلد الذي غطي بالتراب فإنه يكشفه على حقيقته ويعرّيه.

o فالمحسن في نفقته كالذي يغرس في جنة طيبة مباركة، قد ثبت غرسها تثبيتاً حتى استقر في تلك الأرض الطيبة فكان ما يصيبها من الماء نافعا لها منبتاً لغرسها حتى ينمو نباتها ويؤتي ثماره ضعفين.

o وأما المسيء في نفقته فمحلّ غرسه خبيث لا يستقر فيه الغرس وإنما هو كتراب على صفوان؛ يغترّ به صاحبه فإذا أصابه المطر تركه صلداً لا أثر فيه لنبات ولا غرس، ولا تُرجى

منه ثمرة، ولا يقدر منه على شيء.

o فانظر إلى اختلاف آثار آيات القرآن الكريم على قلوب العباد فمنتفع بها مبارك له فيها، ومحروم من بركتها معذّب بها، والعياذ بالله.

• من الإحسان في الإنفاق أن يكون المنفق مبادراً بنفقته فرب مال قليل يكون أعظم عند الله لأنه أُنفق في وقت حاجة شديدة فسبق به صاحب المال الكثير.

• من الإحسان في النفقة أن يكون المنفق في حال إنفاقه مستشعر الخوف من الله واليقين بالرجوع إليه، ويرجو بنفقته أن يصرف الله عنه عذابه ويمنّ عليه بالقبول وتزكية النفس.

• قال تعالى: **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة** [المؤمنون: ٦٠] وقال: **الذي يؤ ماله يتزكى** [الليل: ١٨] وقال: **خذ من أموا م صدقة تطهرهم وتـزكيهم بـا** [التوبة: ١٣] وقال: **ويتخذ ما ينفق قربات عند ا ..** [التوبة: ٩٩] الآية.

إحسان الجهاد في سبيل الله

• يُعرف إحسان عبادة الجهاد بما دلَّ عليه الكتاب العزيز، وما دلَّت عليه السنة النبوية الشريفة، وبما عرف من سير الأئمة الذين أحسنوا الجهاد في سبيل الله.

• الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، ومظهر عزته، ولا يخلو حال العبد المؤمن من حالة من حالات الجهاد؛ فهو بين استصحابها، واستصحاب حكمها.

• قال الله تعالى: **وجاهدوا ا حق جهاد هو اجتباكم وما جعل عليكم الدين من حرج** [الحج: ٧٨] وقال تعالى: **وجاهدوا سبيل ا لعلكـم تفلحـون** [المائدة: ٣٥]، وقال تعالى: **إ ا ا ؤمنون الذين آمنوا با ورسوله يرتابوا وجاهدوا بأموا م وأنفسـهم سبيل ا أؤلئك هم الصادقون** [الحجرات: ١٥].

• في الجهاد ينقسم المؤمنون إلى مستطيع للجهاد بماله ونفسه، ومستطيع بأحدهما، ومن لا يستطيع بماله ولا بنفسه، وكل هؤلاء يمكنهم إدارك مرتبة الإحسان فيه.

• من رحمة الله عز وجل أن يسّر السبيل لهؤلاء الأصناف الثلاثة لبلوغ مرتبة الإحسان، وعلى كل صنف أعمال إذا قاموا بها بلغوا بها مرتبة الإحسان في الجهاد.

• جمع الله خصال الإحسان في الجهاد بالنفس في قوله تعالى: **وَكَأَيِنْ مِنْ نَبِي قَاتَلَ مَعَـهُ**

رِبِّيونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) [آل عمران: ١٤٦- ١٤٨].

o ربيون أي جماعات كثيرة، وقيل: هم العلماء الأتقياء يقال لهم ربيون وربانيون.

• دلت هذه الآيات على أن المجاهد الذي يقوم بهذه الخصال من المحسنين الذين يحبهم الله عز وجل.

• صفات إحسان القتال المذكورة في الآية ترجع إلى تحقيق الصبر واليقين.

o الصبر يحمل على عدم الوهن والضعف والاستكانة.

o واليقين يحمل على تحقيق الاستعانة بالله واتباع هداه على نور وبصيرة.

• قدَّموا الاستغفار ليقينهم بأنهم إن خذلوا فإنما خذلانهم من قبل أنفسهم بتفريطهم وتقصيرهم ومخالفتهم هدى الله فيما وصَّاهم به، فاستغفروا الله تعالى من الأسباب الموجبة للخذلان، وسألوه الثبات والنصر على الكافرين لتكون كلمة الله هي العليا.

• القيام بهذه العبادات العظيمة يُذهب عن القلب العجب والغرور والرياء والسمعة وإرادة الدنيا بعمل الآخرة لأنه يعلم أنه متى وقع فيها كان على خطر من الخذلان والانتكاس.

• فمن قام بهذه الأمور فهو محسن في جهاده، وقد وعد الله من كان هذا حاله بثواب الدنيا والآخرة، وأخبره بأنه ممن يحبهم، وهذه المحبة لها لوازمها وآثارها وفضلها العظيم الذي لا يقدر قدره إلا الله عز وجل، فيكفي تنبيهاً على فضلها العلم بها.

• وَسَرِّح نظرك في معاني هذه المحبة وآثارها وفضائلها تجدها تجمع من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة ما لا يبلغه وصف واصف، ولا يحيط به خيال متخيِّل.

• وغاية مطالب السالكين وأشرف مقاماتهم أن يكونوا من المحسنين الذين يحبهم الله تبارك وتعالى؛ فهؤلاء المجاهدون المحسنون الذين يطيقون الجهاد في سبيل الله عز وجل.

• من حقق صفات الإحسان في الجهاد أصاب حقيقة الجهاد في سبيل الله؛ فأخلص لله واتبع هداه؛ وأورثه ذلك شجاعة عظيمة وإقداما عجيباً وكان ذلك فاتحة لكرامات عظيمة؛

فبين المجاهد في سبيل الله وبين ربّه عهود عظيمة في الدنيا والآخرة لا يخلفها الله أبداً، يراها من أحسن الجهاد ويؤمن بها، ويعمى عنها غيره.

● مما طمأن الله به المجاهدين ليقدموا ولا يخافوا أنهم لا يجدون من ألم القتل إلا كما يجد أحدنا ألم القَرصة، وهو ألم يسير محتمل، فمن آمن بذلك أقدم.

● عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **ما د الشهيد من أ القتل إلا كما د أحدكم من أ القَرْصَة** ». رواه الدارمي وابن حبان وصححه الألباني.

● أخوف ما يخافه المجاهد أن يخذل بسبب ذنوبه، **إن الذين تولوا منكم يوم التقى ا معان إ ا استز م الشيطان ببعض ما كسبوا** [آل عمران: ١٥٥].

● القسم الثاني: الجهاد بالمال، وشأنه عظيم في الإسلام، وهو من علامات صدق الإيمان، قال الله تعالى: **وجاهدوا بـأموالكم وأنفسـكم سـبيل ا** [التوبة: ٤١]، وقال تعالى: **وأنفقوا سبيل ا ولا تلقوا بأيديكم إ التهلكة وأحسنوا إن ا ب ا سـ ن** [البقرة: ١٩٥] فينبغي أن نتعلم كيف نحسن الإنفاق في سبيل الله.

● يكون الإحسان في الإنفاق بإحسان القصد، وإحسان الحال، وإحسان طريقة الإنفاق، ومنه قدر واجب يأثم المسيء فيه، ومنه مستحب لصاحبه فضل عظيم.

● إحسان القصد يكون بإنفاق المال ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من النفس؛ فبالأول يتحقق الإخلاص، وبالثاني يكون المنفق صادقاً موقناً غير متردد.

● وقد تقدّم الحديث عن إحسان حال الإنفاق وإحسان طريقته.

● وأما القسم الثالث: فهم الذين لا يطيقون الجهاد لضعف أو مرض أو قلة نفقة؛ وهؤلاء لم يحرمهم الله بلوغ مرتبة الإحسان في الجهاد.

● يبلغون مرتبة الإحسان بالنصيحة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم كما قال الله تعالى: **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٩١)** [التوبة: ٩١].

● والنصيحة تجمع معنى الصدق والإخلاص: إخلاص القصد لله عز وجل، والصدق في محبة الله عز وجل ونصرة دينه وإعلاء كلمته، فلا ينطوي قلبُه على غشّ ولا تخاذل عن نصرة

دين الله عز وجل متى استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولا يؤثر القعود وهو يستطيع ، فمن علم الله ذلك من قلبه فهو من المحسنين كما قال الله تعالى : **ما على ا سن من سبيل** [التوبة : ٩١].

- إذا نصح العبد لله ورسوله وصدقت عزيمته وإنما منعه العذر كتبت له نيّته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **إن با دينة أقواماً ما سر مسـ ا ولا قطعـتم وادياً إلا كـانوا معكم... حبسهم العذر** » رواه البخاري.

- فإحسان هؤلاء هو النصيحة لله عز وجل ، وهذه المرتبة من الإحسان ممكنة للمحسنين في كل وقت ، ولا تكلفهم أكثر من إخلاص القصد وصدق العزيمة ، وإنما يحرم خيرها وفضلها من حُرم.

- يخطئ من يظنّ أن المراد بالمحسنين في هذه الآية المنفقون ومن يتطوَّع لعمل الخير مطلقاً ؛ لأنَّ هذه الآية نصٌّ في وصف الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون بأنهم محسنون بشرط النصيحة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

- قال الله تعالى : **إ ا السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنيـاء...** [التوبة : ٩٣] الآية ؛ هؤلاء الأغنياء مسيئون غير محسنين وإن استأذنوا واعتذروا ببعض الأعذار.

الدرس الخامس عشر: مرتبة الإحسان (٢/٢)

قال رحمه الله:

(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسِن فَقَد استمسك بِالْعروة الوثْقَى [لقمان: ٢٢].

- وَقَوْلُهُ تَعَالَى: إن الله مع الذين اتقَوا والذين هم محسِنونَ [النحل: ١٢٨].

- وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ومن يتوكلْ على ا ـ فَهو حسبه [الطلاق: ٣].

- وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وتوكلْ على الْعزيز الرحيم (٢١٧) الذي يراك حـ تقُوم (٢١٨) وتقَلبك في الساجِدين (٢١٩) إنه هو السميع الْعليم (٢٢٠) [الشعراء: ٢١٧- ٢٢٠].

- وَقَوْلُهُ: وما تكُونُ في شأنٍ وما تتلُوا منه من قُرآنٍ ولاَ تعملُونَ من عملٍ إلاّ كُنا عليكُم شهوداً إِذْ تفيضونَ فيه الآية [يونس: ٦١]).

عناصر الدرس:

- طرق معرفة الإحسان
  - بيان القرآن لمعنى الإحسان
  - بيان السنّة لمعنى الإحسان
  - معرفة هدي أئمة المحسنين
- أبواب الإحسان
- الإحسان يكون بالقلب واللسان والجوارح
- معاني لفظ الإحسان في النصوص
- دوام حاجة العبد إلى الاستعانة بالله على الإحسان
- سمات المحسنين
- تيسير الإحسان

طرق معرفة الإحسان

- يعرف الإحسان بأمور:
  - **الأمر الأول:** بيان القرآن الكريم لمعنى الإحسان العام والإحسان في الأمور التي بيّنها الله عز وجل في كتابه.
  - **الأمر الثا :** بيان النبي صلى الله عليه وسلم لمعنى الإحسان بهديه العملي والقولي والإقراري.
  - **الأمر الثالث:** تأمل سير أئمة المحسنين، والاهتداء بهديهم فيما أحسنوا فيه.

بيان القرآن لمعنى الإحسان

- ورد بيان معنى الإحسان في القرآن الكريم والسنة النبوية وهدي السلف الصالح.
  - فأما بيان القرآن لمعنى الإحسان
- أمّا إحسان الدعاء ففي قوله تعالى: **ادعوا ربّكم تضرّعًا وخفيةً إنّه لا يحب المعتدين(٥٥) ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفًا وطمعًا إنّ رحمةَ اللّه قريب من المحسنين** [الأعراف: ٥٥، ٥٦]؛ فالدعاء هنا يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، ومن قام بهذه الأمور التي أمر الله عز وجل بها فهو من أهل الإحسان.
- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وقوله: **إنّ رحمةَ اللّه قريب من المحسنين** [الأعراف: ٥٦] فيه تنبيهٌ ظاهرٌ على أنَّ فِعْلَ هذا المأمور هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله رحمته، ورحمته قريبٌ من المحسنين الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه تضرعًا وخفيةً وخوفًا وطمعًا؛ فَقَدْرُ مطلوبكم منه - وهو الرحمة - بحسب أدائكم لمطلوبه، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم).
- قال: (وقوله تعالى: **إنّ رحمةَ اللّه قريب من المحسنين** [الأعراف: ٥٦] له دلالةٌ بمنطوقه ودلالةٌ بإيمائه وتعليله ودلالةٌ بمفهومه:
  - **فدلالته بمنطوقه** على قرب الرحمة من أهل الإحسان.
  - **ودلالته بإيمائه** وتعليله على أن هذا القرب مستحق بالإحسان، وهو السبب

في قرب الرحمة منهم.

- ودلالته بمفهومه على بعده من غير المحسنين.

فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة ؛ وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة لأنها إحسانٌ من الله عز وجل أرحم الراحمين وإحسانه تبارك وتعالى إنما يكون لأهل الإحسان ؛ لأن الجزاء من جنس العمل وكلما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته.

وأما من لم يكن من أهل الإحسان ؛ فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة ، بُعْدٌ ببُعْدٍ وَقُرْبٌ بقُرْب ؛ فمن تقرب إليه بالإحسان تقرب الله إليه برحمته ، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته.

والله سبحانه يحب المحسنين ، ويبغض من ليس من المحسنين ، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيءٍ منه ، ومن أبغضه الله فرحمته أبعد شيءٍ منه.

والإحسان هاهنا هو فعل المأمور به سواءٌ كان إحسانًا إلى الناس أو إلى نفسه ؛ فأعظم الإحسان : الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله تعالى والإقبال إليه والتوكل عليه وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالًا ومهابةً وحياءً ومحبةً وخشيةً ؛ فهذا هو مقام الإحسان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم - وقد سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان - ؛ فقال : ((**أن تعبـد ا كأنك تراه**)).

فإذا كان هذا هو الإحسان فرحمته قريبٌ من صاحبه ؛ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه).ا.هـ ، وهو من نفيس ما كتب رحمه الله ، وهو من رسالة له في تفسير هاتين الآيتين ، وما تضمنتاه من آداب الدعاء بنوعيه.

- فهاتان الآيتان من سورة الأعراف في بيان معنى الإحسان في العبادة عموماً.

- وقد تقدّم بيان القرآن لمعنى الإحسان في الجهاد في سبيل الله لمن يطيق القتال ومن لا يطيقه ومن يجد النفقة ومن لا يجدها.

- وجاء بيان معنى الإحسان في الابتلاء بأنه يكون بالصبر والتقوى كما قال يوسف عليه السلام : **قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتـ ـقِ**

ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين [يوسف: ٩٠]؛ فالإحسان عند البلوى، يكون بالصبر والتقوى.

• وورد في القرآن الكريم بيان معنى الإحسان في ذبح الهدي وتوزيعه فقال تعالى: **والبدنَ جعلناها لكُم من شعائر الله لكُم فيها خير فاذكُروا اسم الله عليها صوافّ فإذا وجبت جنوبها فكُلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ كذلك سخّرناها لكُم لعلّكُم تشكُرونَ (٣٦) لن ينالَ الله لُحومها ولا دماؤها ولكن يناله التّقوى منكُم كذلك سخّرها لكُم لتكبّروا الله على ما هداكُم وبشّر المحسنين (٣٧)** [الحج: ٣٦، ٣٧].

• والإحسان عند سماع خبر الله عز وجل وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم هو التصديق والتسليم وأن لا يكون في صدر المؤمن حرج من ذلك كما قال تعالى: **والّذي جاءَ بالصّدق وصدّق به أولئك هم المتّقونَ (٣٣) لهم ما يشاءُونَ عند ربّهم ذلك جزاءُ المحسنين** [الزمر: ٣٣، ٣٤]؛ فهؤلاء قد أحسنوا في تصديقهم.

• وهذا الباب لو تأمله من يتدبر القرآن الكريم لعرف به أبواباً من الإحسان، وعرف في كل باب خصال الإحسان التي يحبها الله عز وجل.

• قالله تعالى: **ا نزّل أحسن ا ديث** [الزمر: ٢٣]، وقال: **إن هذا القُرآنَ يهدي للتي هي أقْوم** [الإسراء: ٩]، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (إن أحسن الحديث كتاب الله تعالى وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم).

• وأما بيان سنّة النبي صلى الله عليه وسلم لمعنى الإحسان؛ فيكفي في الإرشاد إليه قول الله تعالى: **لقد كان لكم رسول ا أسوة حسنة** [الأحزاب: ٢١].

• فالتفقه في هدي النبي صلى الله عليه وسلم في العبادات والمعاملات يُعرف به أوجه الإحسان، وبه يُنال الاتساء الحسن.

• وذلك أن هدي النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الهدي؛ فطهوره أحسن الطهور، وصلاته أحسن الصلاة، وإنفاقه أحسن الإنفاق، وصيامه أحسن الصيام، وحجه أحسن الحج، ومعاملته للناس أحسن المعاملة، وهكذا في كبير الأمور وصغيرها؛ وسبيل معرفة ذلك هو التفقه في مسائل الدين.

- ثم أصحابه من بعده هم أحسن الناس هدياً بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم، وأقربهم منه منزلة وأفقههم في دين الله عز وجل.

- وأولاهم بالاتباع من شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالإحسان وأمر باتباع سنتهم وهديهم كالخلفاء الراشدين الذين قال فيهم: « **فعليكم بسنـ وسـنة ا لفـاء الراشـدين ا هدي سّكوا با وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم و دثات الأمور فإن كل دثة بدعـة وكل بدعة ضلالة** ». رواه أحمد وأبو داوود.

- ومن أئمة المحسنين الذين ورد في شأن إحسانهم أحاديث وآثار: الخلفاء الأربعة وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين ومعاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، وعبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصاري، وغيرهم.

- ومن التابعين: أويس القرني وعمرو بن الأسود والربيع بن خثيم وعمر بن عبد العزيز وآخرون.

- ومعرفة سير المحسنين والتعرف على هديهم وأخبارهم وآثارهم مما يعين على فهم معنى الإحسان، والاتساء بهم فيما أحسنوا فيه، وقد بوّب البخاري باباً في صحيحه في كتاب الأدب سماه: (باب في الهَدي الصالح).

- ومن تحرَّى الإحسان وحرص عليه وسأل الله تعالى الإعانة عليه؛ رُجي له أن يوفق للإحسان، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلّم، ومن يتحرّى الخيرَ يُعْطَه، ومن يتوقَّى الشر يُوقه).

أبواب الإحسان

- أبواب الإحسان كثيرة، ففي صحيح مسلم من حديث شداد بن أوس بن ثابت رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **إنّ ا كتب الإحسانَ على كلّ شيء؛ فـإذا قتلتم فأحسِنوا القتلة، وإذا ذ تم فأحسنوا الذّ ة، ولْيحدّ أحدكُم شفْرته ولْيرح ذبيحته** ».

- فالإحسان مكتوب على كل شيء، وإحسان كل شيء بحسبه، وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم هنا الإحسان في الذبح، فمن خالف هديه فلم يحدّ السكين ولم يرح ذبيحته فليس بمحسن في ذبحه.

• وهذا مما يبيّن أهمية الفقه في الدين فإنه به يعرف طالب الإحسان هدي النبي صلى الله عليه وسلم في العبادات والمعاملات؛ فيعرف هديه في الوضوء والصلاة والصدقة والصيام والحج والجهاد والبيوع والطعام والشراب والنوم والنكاح والمعاشرة والبرّ والصلة ومعاملة الناس على اختلاف أصنافهم، وهكذا في سائر الأمور.

• والمؤمن في جميع أحواله لا يخلو من حالة تختص ببعض خصال الإحسان الذي يحبه الله حتى في أكله وشربه ونومه ومعاشرته ومزاحه وبيعه وشرائه وقضائه لشؤونه.

الإحسان يكون بالقلب واللسان والجوارح:

• ١: فأما إحسان القلب فهو لُبّ الإحسان وأصله، وأول ذلك أن يحرص على تحقيق الإحسان في أعمال القلوب من المحبة والخوف والرجاء وغيرها.

• فالعبادات القلبية الحسنة يظهر أثرها على اللسان والجوارح؛ ويدل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**أن تعبد ا كأنك تراه**» وهذا عمل قلبي؛ ومتى تحقق العبد بهذا الوصف وقام بحقه أحسن العبادات الباطنة والظاهرة.

• فلذلك كان الأصل في مرتبة الإحسان العبادات القلبية من المحبة والخوف والرجاء والتوكل والاستعانة والخشية والإنابة والتوبة وغيرها، وهذه العبادات من أحسنها أفلح وفاز فوزاً عظيماً، والإحسان فيها على درجتين:

o الدرجة الأول: الإحسان الواجب، وهو ما تصح به هذه العبادات وتسلم به من الشرك والبدعة والغلو والتفريط.

o الدرجة الثانية: الكمال المستحب، وهو المراد هنا، وهو مضمار تسابق أولياء الله المحسنين، وتفاضلهم فيه كبير عظيم وهم فيه على درجات **هم درجات عند الله واللّـه بصـ يما يعملُونَ** [آل عمران: ١٦٣].

• ومما يدل على أن هذه العبادات القلبية منها واجب ومستحب ما رواه مسلم وأبو داوود النسائي وغيرهم عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما أن امرأة من جهينة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي حبلى من الزنا؛ فقالت: يا نبي الله أصبتُ حداً فأقِمْهُ عليّ؛

فدعا نبي الله صلى الله عليه وسلم وليّها فقال: «**أحسن إليها؛ فإذا وضعت فأتِني بها**».

ففعل: فأمر بها نبي الله فشُدّتْ عليها ثيابها، ثم أَمَرَ بها فرُجِمَت؛ ثم صلَّى عليها؛ فقال له عمر: (تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟!)

قال: «**لقد تابت توبةً لو قُسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم!، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل؟!**».

- والتوبة من الزنا واجبة، وهذه الصحابية رضي الله عنها تابت توبة تزيد على التوبة الواجبة بسبعين ضعفاً!
- فهي قد أحسنت التوبة بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم لها، وكان يجزئها من توبتها جزء من سبعين جزءاً؛ فكان ما زاد على ذلك قربة لها ونافلة مستحبة متقبلة.
- والتوبة الحسنة التي يحبها الله هي التوبة النصوح التي أمر الله عز وجل بها في قوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحًا**﴾ [التحريم: ٨].
- والتوبة النصوح هي الصادقة الخالصة لله عز وجل التي يتوبها العبد خوفاً وطمعاً، خوفاً من عقاب الله وطمعاً في مغفرته وثوابه، ويلزم لصحتها الندم على فعل الذنب، والاعتراف به، والإقلاع عنه لله جل وعلا، والعزم الصادق على أن لا يعود إليه أبداً؛ فمن فعل ذلك فقد أحسن التوبة.
- فتبيّن أن التوبة النصوح تقوم على أمور يتفاضل التائبون في تحقيقها تفاضلاً عظيماً، ﴿**إن الله يحب التوابين**﴾ [البقرة: ٢٢٢]؛ فاللهم إنا نسألك توبة نصوحاً.
- وتفاضل العبادات القلبية يكون في أمرين:
  - **الأمر الأول:** قوة الاحتساب والإتيان بالعبادات القلبية، كما يتفاضلون في المحبة والخوف والرجاء وغيرها من العبادات.
  - **الأمر الثاني:** تعدد المقاصد الحسنة في الأعمال التي يعملها العبد، حتى إن من بركات الإحسان أن يعمل العبدُ العملَ الواحد يكون له فيه مقاصد حسنة متعددة؛ فيثاب عليها جميعاً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.
- ٢: وأما الإحسان بالقول فهو أن يتحرى العبد القول الحسن الطيب الذي يحبه الله في كل

شؤونه ؛ فإذا ذكر الله بلسانه أحسن الذكر، وإذا وعظ أحسن الموعظة، وإذا دعا أحسن الدعوة، وإذا علّم أحسن التعليم، وإذا نصح أحسن النصيحة، وإذا تحدث مع الناس أحسن الحديث إليهم، كما قال الله تعالى: **وقُولُوا للناس حسناً** [البقرة: ٨٣]، وقال: **وقُل لعبادي يقُولُوا التي هي أحسن إن الشيطَانَ يَ غُ بينهم** [الإسراء: ٥٣].

o وكل أمر من هذه الأمور مُبيَّنٌ في القرآن العظيم وهدي النبي الكريم صلى الله عليه وسلم خصالَ الإحسان فيه.

o فالمحسنَ يهديه الله للقول الطيب الحسن الذي يحبه ويرضاه، فيوطّن نفسه ألا يتكلم إلا بخير، وألا يقول إلا قولاً حسناً، وهو أولى الناس باتباع وصية النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: « **من كان يؤمن با واليوم الآخر فليقل خ اً أو ليصمت** ».

o ومن ثمرات هذا الإحسان وبركاته أن يكون المحسن محبوباً لدى الناس، مقبول القول لديهم، وما ذلك إلا لاتباعه هدى الله في معاملة الناس والتحدث إليهم، فلا يقول إلا ما يحبه الله من القول الحسن، ومن كان حاله كذلك فهو محسن إلى الناس كافّ أذاه عنهم، قاطع على الشيطان عمله في الإفساد والنزغ بينه وبين من يحدثهم.

o وبهذا تعلم أن من يؤذي الناس بلسانه فهو من أبعد الناس عن الإحسان، كما روى الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله إنّ فلانة تقوم الليل وتصوم النهار وتفعل وتصدّق وتؤذي جيرانها بلسانها!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **لا خ فيها هي من أهل النار** ».

قالوا: وفلانة تصلى المكتوبة وتصدق بأثوار ولا تؤذي أحداً.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **هي من أهل ا نة** ».

الأثوار جمع ثور وهو قطعة من الأَقِط، وفي رواية الحاكم: (وتتصدق بأثوار من أَقِط).

o وفي سنن الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: « **ما من شيء أثقل ميزان العبد ا ؤمن يوم القيامة من حسـن ا لـق، وإن ا يـبغض الفاحش البذي** ».

o والإساءة في القول نقيض للإحسان، وأنواع الإساءة في القول كثيرة، منها: قول الزور والبهتان والكذب والغيبة والنميمة والإيذاء والفحش والبذاءة واللغو والإلحاف في السؤال.

o فالذي يقع في هذه المساوئ غير محسن، والإساءة في القول ترجمان لسوء في القلب.

o وليُعلم أن الغلظة في القول في مواضعها ليست من الإساءة، بل هي من الإحسان الذي يحبه الله.

• والأقوال الحسنة متفاضلة، وأحسنُ القول وَصَفَه الله تعالى بقوله: **ومن أحسن قَولًا ممّن دعا إلى اللّه وعملَ صالحًا وقَالَ إِنّنِي من الْمسلمين** [فصلت: ٣٣]؛ فالداعي إلى الله الذي يعمل الصالحات ويعلن انتسابه للإسلام ويعتز به من أهل الإحسان في القول.

o وبه تعلم أن الداعي إلى الضلالة والصد عن سبيل الله أسوأ الناس قولاً، والذي يخالف عملُه قولَه غير محسن، بل هو مسيء بمخالفته.

o ومن سمات **المحسنين** حرصهم على القول الحسن في مواضع تأكده وجوباً أو استحباباً، كأن يترتب على القول الحسن نصرة حق في موقف يحتاج فيه إلى كلمة حق ناصرة، أو دفاع عن مظلوم فينصره بكلمة حق، أو ذبٍّ عن عرض مسلم، أو إصلاحٍ بين الناس، أو صَدِّ فساد عن المسلمين، أو غير ذلك من المواقف التي ربما تكون كلمة واحدة حسنة تقال فيها سبباً لسعادة العبد وفلاحه، كما قال الله تعالى عن الذين عرفوا الحق وشهدوا به: **وإذَا سمعوا ما أنزلَ إلى الرّسولِ ترى أعينهم تفيض من الدّمعِ ممّا عرفُوا من الْحقّ يقُولُونَ ربّنا آمنّا فَاكْتبنا مع الشّاهدين (٨٣) وما لنا لا نؤمن بِاللّه وما جاءَنا من الْحقّ ونطْمع أنْ يدخلنا ربّنا مع الْقومِ الصّالحين (٨٤) فَأثَابهم اللّه بِما قَالُوا جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذَلك جزاءُ الْمحسنين** [المائدة: ٨٣- ٨٥].

• وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **إن العبد ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في نار جهنم** ».

• والمقصود أن إحسان القول على ثلاث درجات:

o **الدرجة الأولى**: تجنّب القول السيئ الذي يبغضه الله عز وجل وأسوؤه قول الشرك بالله

عز وجل والصد عن سبيله وقول الزور والغيبة والنميمة والفحش والبذاءة وغيرها.

o وقول الفُحْشِ في اللغة يعمّ قول الخنا المستقذر والسباب المقذع، قال النابغة يمدح امرأة: بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها لم تؤذ أهلاً ولم تُفْحِش على جار

o وقال سلمة بن الخرشب الأنماري رداً على عامر بن الطفيل:

وإنك يا عام بن فارس قرزل معيد على قيل الخنا والهواجر

o عام: ترخيم لاسم عامر، وهو عامر بن الطفيل كان قد شبب بأسماء الفزارية بقول سيء وأقذع في سبّ قومها لما فرّ هارباً من وقعة المرورات وهو من أيام الجاهلية، وعامر هذا هو صاحب الغَدَرَات الذي قتل أصحاب بئر معونة رضي الله عنهم وهم من قراء الصحابة وخيارهم.

o والشاهد قوله: (معيد على قيل الخنا والهواجر) الهواجر من القول هو السباب المقذع، والخنا هو القول الماجن، وكلا النوعين من فاحش القول.

o **الدرجة الثانية:** الإتيان بالقول الحسن الواجب، في حق الله عز وجل وفي حق الناس، فأما القول الحسن في حق الله عز وجل فأحسنه وأوجبه كلمة التوحيد، ثم ما يجب عليه من الأذكار الحسنة والأدعية الواجبة في الصلاة وفي غيرها، وما يجب عليه من الأقوال الحسنة في حق الناس، وأحق الناس بالقول الحسن الوالدان كما أمر الله تعالى بقوله: **وقل ما قولاً كر اً** [الإسراء: ٢٣] أي طيباً حسناً.

o ومما يجب من القول الحسن: رد السلام، وبيان الحق عند وجوب بيانه، ونصرة الحق، والذب عن عرض المسلم، وغيرها من المواطن التي يجب فيها القول الحسن مع الاستطاعة.

o **الدرجة الثالثة:** القول الحسن المستحب، وهذه الدرجة مترتبة على الدرجتين السابقتين، وهي تشمل نوافل الأقوال الحسنة من التلاوة والذكر والدعاء والدعوة إلى الله تعالى، وما يندب إليه من الإحسان إلى الناس كتعزية المصاب بقول حسن، وتثبيت المبتلى، وإعانة المستعين، ومكافأة صانع المعروف، وغيرها من الأقوال الحسنة المستحبة التي من أداها مع ما قبلها فهو من أهل الإحسان في القول.

- **٣:** وأما إحسان العمل فهو من أثر إحسان عمل القلب وإحسان القول.

- والأعمال الحسنة **على نوع :**
- **النوع الأول:** العبادات العملية فهذه أداؤها على وجه حسن بإخلاص واتباع بلا غلو ولا تفريط هو الإحسان المطلوب ؛ فمن كان هذا دأبه في عباداته فهو من أهل الإحسان فيها ، ويتفاضل المحسنون في هذه المرتبة تفاضلاً عظيماً.
- **النوع الثا :** معاملة الناس ، والإحسان في معاملة الناس على **ثلاث درجات:**

الدرجة الأو : كف الأذى ، فالذي لا يكف أذاه عن الناس فليس بمحسن ، بل هو من أبعد الناس عن الإحسان ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

الدرجة الثانية: أداء الحقوق الواجبة ، وأخصها حق الوالدين وحق الأرحام والجار ، ومن بينه وبينه معاملة تقتضي حقاً خاصاً كالشركاء من حق بعضهم على بعض الصدق والبيان ، وحق المؤتمِن على المؤتَمن أداء الأمانة ، وحق المشتري على البائع أن لا يغبنه في سعرها وأن يبيّن له عيبها إن كان فيها عيب ، ونحو ذلك من الحقوق الواجبة ، التي من لم يؤدها فهو مسيء غير محسن.

- فالعاقّ والقاطع والغاشّ والمخادع والخائن والمختلس والسارق مسيؤون غير محسنين.
- فمن كف أذاه عن الناس وأدى الحقوق الواجبة فهو محسن الإحسان الواجب.
- **الدرجة الثالثة:** الإحسان المستحب ، وهو أنواع ويجمعه أنه ما زاد على القدر الواجب من وجوه الإحسان وهي كثيرة متنوعة فالصدقة إحسان ، والكلمة الطيبة إحسان ، وتبسمك في وجه أخيك إحسان إليه ، وتوسعة المجلس له إحسان ، وكل هذه الأعمال الحسنة يثاب عليها العبد إذا احتسب فيها نية صالحة.

معاني لفظ الإحسان في النصوص:

- لفظ الإحسان يطلق في النصوص على معان :
  - المعنى الأول: إحسان العمل وإتقانه ، فمن أتى بالعمل على وجه حسن فهو محسن.
  - المعنى الثاني: فعل الحسنات ، كما قال الله تعالى : **ومن أحسن دينًا ممن أسلم وجهه وهو محسن** [النساء: ١٢٥] فالإحسان الأول غير الإحسان الثاني.

وقال تعالى: **من جاء بِالْحسنة فَلَه عشر أمثَالهـا** [الأنعام: ١٦٠] والذي يجيء بالحسنة محسن، ودرجته في الإحسان بحسب استكثاره من الحسنات.

وقال تعالى: **وأقم الصّلَاةَ طَرفَي النّهارِ وزلَفًا من اللّيـل إنّ الْحسـنات يـذْهبن السّيِّئَات ذَلك ذكْرى للذّاكرين (١١٤) واصبِر فَإِنّ اللّه لَا يضيع أجر الْمحسِـنِ** [هود: ١١٤، ١١٥].

- المعنى الثالث: البر والإفضال إلى المخلوقين في كل مقام بحسبه قال تعالى: **وبِالْوالدين إحسانًا** [الإسراء: ٢٣]، و **وقُولُوا للناس حسناً** [البقرة: ٨٣]، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **من كان يؤمن با والیوم الآخر فلیحسن إ جاره** ».
- ويكثر - عند إرادة هذا المعنى — أن يُعَدَّى لفظ الإحسان بالباء أو اللام أو إلى، كما في الأمثلة السابقة.
- وهو يصدق على الإحسان بالمال والجاه والعلم والبدن وغيرها من أوجه الإحسان.
- وقوله تعالى: **وقَد أَحسن بِي** [يوسف: ١٠٠] لفظ الإحسان فيه متضمن لمعنى العناية، ولذلك عدي بحرف الباء.

- ويطلق لفظ الإحسان ويراد به ما يشمل هذه المعاني كلها كما في قوله تعالى: **وأَحسِنوا إن اللّه يحب الْمحسِنِ** [البقرة: ١٩٥]، وقوله: **إن اللّه يأمر بِالْعدلِ والإِحسـان** [النحل: ٩٠] وقوله: **إِنْ أحسنتم أحسنتم لأَنفُسِكُم** [الإسراء: ٧].

حاجة العبد إلى الاستعانة بالله على الإحسان

- حاجة العبد إلى سؤال الله تعالى الإعانة على الإحسان لازمة دائمة، كما دلّ على ذلك حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أَنّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَخذ بيدهِ، وقال: « **يا معاذُ، وا إ لَأُحبّك** ».

فقال: « **أُوصيك يا معاذُ، لا تدعنّ كلّ صلاةٍ أنْ تقُولَ: اللهمّ أعنّي على ذكْرِك وشكْرِك وحسنِ عبادتك** ». رواه أحمد وأبو داوود والنسائي، وفي رواية النسائي: قال مُعَاذٌ: (وَأَنَا أُحِبُّكَ).

• هذا الحديث يدل على أن العبد لا يستغني عن سؤال الله الإحسان أبداً، فمن فقه ذلك أيقن بافتقاره إلى الله تعالى في كل وقت.

• ومعاذ بن جبل رضي الله عنه من أئمة المحسنين ومما وصاه به النبي صلى الله عليه وسلم ما رواه هنّاد بن السري في الزهد وابن أبي شيبة في مصنفه والطبراني في الكبير وغيرهم عن محمد بن عمرو بن علقمة قال: حدثنا أبو سلمة قال: قال معاذ بن جبل: يا رسول الله أوصني. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **اعبد ا كأنك تراه، واعدد نفسك مـع ا وتى، واذكر ا عند كل حجر وشجر، وإذا عملت السيئة فاعمل نبها حسـنة، السـر بالسر والعلانية بالعلانية** ».

« **وأخ ك ا هو أملك بك من ذلك؟** ».

قال: يا رسول الله وما هو؟

قال: « **هذا** » وأشار إلى لسانه.

قال معاذ: يا رسول الله هو ذا وأشار إلى لسانه

قال: « **وهل يكبّ الناس على مناخرهم النار إلا هذا** ».

o وأبو سلمة هو عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف لم يدرك معاذ بن جبل، فالإسناد فيه انقطاع لكنه له شواهد يحسّن بها، وقد حسنه الألباني، وأورده في السلسلة الصحيحة.

• وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن معاذ بن جبل قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فأصاب الناس ريح فتقطعوا، فضربت ببصري فإذا أنا أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: لأغتنمن خلوته اليوم، فدنوت منه فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يقربني - أو قال - يدخلني الجنة، ويباعدني من النار؟

قال: « **لقد سألت عن عظيم، وإنه ليس على من يسره ا عليه، تعبد ا ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة ا كتوبة، وتؤ الزكاة ا فروضة، و ج البيت، وتصوم رمضان، وإن شئت أنبأتك بأبواب ا** ».

قلت: أجل يا رسول الله.

قال: « **الصوم جنة، والصدقة تكفر ا طيئة، وقيام العبد جوف الليل يبتغي به وجه**

ا »، ثم قرأ الآية **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** [السجدة: ١٦].

ثم قال: « **إن شئت أنبأتك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه** ».

قلت: أجل يا رسول الله.

قال: « **أما رأس الأمر فالإسلام، وأما عموده فالصلاة، وأما ذروة سنامه فا هاد، وإن شئت أنبأتك بأملك الناس من ذلك كله** ».

قلت: ما هو يا رسول الله؟

فأشار بإصبعه إلى فيه.

فقلت: وإنا لَنُؤَاخَذَ بكل ما نتكلم به؟!

فقال: « **ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على مناخرهم جهنم إلا حصائد ألسنتهم، وهل تتكلم إلا ما عليك أو لك؟!** ».

هذه رواية البيهقي، والحديث رواه أبو داوود الطيالسي وعبد الرزاق وأحمد وابن أبي شيبة والترمذي وابن ماجه وغيرهم من طرق وبألفاظ متقاربة، إلا أن سياق البيهقي من أتمها.

- قال يونس بن عبيد: (لا تجد من البرّ شيئاً واحداً يتبعه البرُّ كلُّه غير اللسان؛ فإنّك تجد الرجل يكثر الصيام ويفطر على الحرام، ويقوم الليل ويشهد بالزور بالنهار - وذكر أشياء نحو هذا - ولكن لا تجده لا يتكلم إلا بحق؛ فيخالف ذلك عمله أبدا).

سمات المحسنين:

- مما يعين على بلوغ مرتبة الإحسان أن يتعرف طالب هذه المرتبة على سمات المحسنين وهديهم ودلِّهم، ألا ترى أن طالب كل صنعة ينظر إلى أربابها المبرزين فيها فيرتسم طرائقهم ويحذو حذوهم حتى يعدَّ منهم.
- فكذلك طالب الإحسان ينبغي له أن يتعرف على سمات المحسنين ويصحبهم أحياء وأمواتاً فأما المحسنون الأحياء فهم من أندر الموجود بل هم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، وحيثما وُجِد واحد منهم فصحبته غنيمة عظيمة لأنه قدوة صالحة يتمثل بها.
- وكم قد سمعنا من بعض مشايخنا مواقف رأوها في صحبتهم لمشايخهم ولبعض الصالحين

كان لها أثر بالغ في نفوسهم، حتى إن منهم من إذا ذكر بعض أولئك لا يكاد يتمالك نفسه من البكاء لقوة ما أثرت فيه تلك المواقف، وكانت أبلغ من دروس نظرية كثيرة يتلقاها العبد وقلبه غافل عن عقل معانيها كما ينبغي.

● وأما الأموات فسير كثير منهم محفوظة مسطرة من تأملها وفقه آثارهم ومآثرهم تجلَّت له بعض معاني الإحسان بمفهومه العام الواسع الذي يشمل جميع شؤون العبد في عباداته ومعاملاته ويجمعه ما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم في كلمته الجامعة الماتعة: «**أن تعبد ا كأنك تراه فإن تكن تراه فإنه يراك**».

● وقد تأملت سمات المحسنين الجامعة لهم فوجدت أهمها وأظهرها: الصدق والإخلاص، والنصيحة لله ولرسوله ولكتابه وللمؤمنين، والسكينة، والبعد عن التكلف، وترْكهم ما لا يعنيهم، وقد طويت شرحها اختصاراً.

تيسير الإحسان:

● واعلم – أحسن الله إليك – أن بلوغ مرتبة الإحسان أمر عظيم، وهو يسير لمن يسّره الله له، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه: «**لقد سألت عن عظيم، وإنه ليس على من يسره ا عليه**».

● ومن أدلة ذلك أن الله تعالى أمر بالإحسان ورغَّب فيه؛ فقال تعالى: **وأحسِنوا إن اللّه يحب المحسِنِ** [البقرة: ١٩٥]، وقال: **إن ا يأمر بالعدل ولإحسـان** [النحل: ٩٠]، وليس في الشريعة تكليف بما لا يُطاق، ولا ترغيب فيما لا ينال.

● لا يرغّب الله في أمر ثم يعسّره على عباده إلا أن يأتوا من أسباب الخذلان ما يُحرَمون بسببه التوفيق له، وأما الصادق المجتهد فحريّ بالفوز بمطلوبه.

● ومن أعظم أسباب التوفيق للإحسان: تعظيم أوامر الله، وشكر نعمه، وكثرة ذكره، والمجاهدة فيه.

● فأما تعظيم أوامر الله عز وجل فإنه علامة على تقوى القلب كما قال الله تعالى: **ذَلك ومن يعظم شعائر الله فَإنها من تقْوى الْقُلُوبِ** [الحج: ٣٢].

• وأما شكر النعمة فإن الله تعالى يحب الشاكرين ويوفقهم لما يحبه لهم، ولَمَّا اعترض المشركون على هداية ضعفاء المؤمنين قال الله تعالى: **أليس الله بأعلم بالشاكرين** [الأنعام: ٥٣].

• وأما كثرة الذكر فتجلي القلب، وتطرد الشيطان، وتزيد محبة الرب جل وعلا في قلب العبد، ومحبة الرب جل وعلا لعبده، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره، فلا يزال العبد يذكر الله بقلبه ولسانه حتى يوفق للإحسان.

• وقد قال الله تعالى: **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كَانَ يرجو اللـه واليوم الآخر وذَكَر الله كثـًا** [الأحزاب: ٢١].

• ولذلك وصَّى النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل بكثرة الذكر؛ كما في سنن النسائي من حديث أبي عبد الرحمن الحبلي عن الصنابحيّ عن معاذ بن جبل قال: أخذ بيدي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: ((**إ لأحبكّ يا معـاذ**))؛ فقلت: (وأنا أحبك يا رسول الله)؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**فلا تدع أن تقول كل صـلاة ربّ أع على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**)).

o الذكر والشكر عبادتان وتقديمها لأهميتهما ولأنهما من أسباب التوفيق لحسن العبادة.

• ومن جاهد لبلوغ هذه المرتبة وتحراها فحري أن ينالها وقد قال الله تعالى: **والـذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإن الله لمع المحسِنِ (٦٩)** [العنكبوت: ٦٩].

• وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه وهو من الأربعة الذين أوصى معاذ بن جبل عند موته بالتماس العلم عندهم: (إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحرى الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه)، وقد روي هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعاً، ورجّح الحفاظ وقفه على أبي الدرداء رضي الله عنه.

• وليس من شرط بلوغ مرتبة الإحسان أن يكون العبد مكثراً من الأعمال، وإنما المطلوب إحسان العمل بأداء الفرائض والتقرب بما يتيسر من النوافل بلا تنطع ولا تفريط.

• ولا يستطيع العبد إحصاء الأعمال الصالحة كلها والإتيان بها، كما في مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجة من حديث ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((**استقيموا ولن صوا واعلموا أن خ أعمالكم الصلاة، ولا افظ على الوضوء إلا مؤمن**)).

- وقد نُقِلَ عن جماعة من السلف في بيان فضل بعض المحسنين أنهم لم يَسْبِقوا بكثرة صلاة ولا صيام وإنما بشيء وقر في قلوبهم.
- وليس من شرط المحسن أن تكون جميع أعماله حسنة، بل إذا كان الغالب على شأنه الإحسان ومقاربته فهو من أهل الإحسان إن شاء الله تعالى.
- وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((**سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يدخل أحداً ا نة عمله**)).

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: ((**ولا أنا إلا أن يتغمد ا منه غفرةٍ ور ة**)).

- فالسداد هو الإحسان، والمقاربة هي مقاربة الإحسان.
- بل ليس من شرط المحسن أن يكون معصوماً من الذنوب، فقد يقع في الذنب كثير من المحسنين لكنهم منيبون توّابون إذا عملوا سيئة أتبعوها حسنة فمحتها، السرُّ بالسر والعلانية بالعلانية، كما أرشد النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه بذلك في الحديث المتقدم ذكره، وفي الحديث الآخر: ((**اتق ا حيثما كنت، وأتبع السيئة ا سنة حها وخالق الناس لق حسن**)). رواه أحمد والترمذي وغيرهما.
- والتوبة من العمل غير الحسن مشروعة متقبلة ولذلك يشرع للعبد أن يستغفر الله تعالى بعد أداء العبادة كما ورد في الصلاة والحج وغيرها لما قد يقع في عبادته من التقصير في إحسانها، فالاستغفار ونوافل العبادات مما يجبر به تقصير العبد في عبادته.
- والإحسان أعلى مراتب الدين، والمحسنون فيه متفاضلون وأعلاهم مرتبة الصديقون.
- وقد زعم بعض الصوفية أن فوق مرتبة الإحسان مرتبة وهي مرتبة الفَناء، وله تفسيرات وأنواع عندهم، منها ما هو مقبول إذا فسّر تفسيراً صحيحاً، ولا يجاوز في حقيقته مرتبة الإحسان، ومنها ما هو ضلال مبين.
- واعلموا أن هذه الكلمات وإن استطالها من استطالها فهي مختصرة ملخصة ذكرت فيها خلاصة ما اطلعت عليه وما فتح الله به من تأصيل مسائل هذا الباب؛ فلا يستطل طالب العلم هذه المباحث الملخصة، وقد جُمعَت له في موضع واحد لتختصر عليه كثيراً من الوقت

والجهد وتعينه على فقه مسائل هذا الباب.

• ووراء كل مسألة ما وراءها من التفصيلات والأدلة والآثار والأخبار والأمثلة والقصص التي طويت ذكرها اختصاراً، وإنما ذكرت ما أحسب أنه يفي بالغرض في هذا المقام.

قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى** [لقمان:٢٢].

- وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** [النحل:١٢٨].

- وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** [الطلاق:٣].

- وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **وتوكل على العزيز الرحيم (٢١٧) الذي يراك حين تقوم (٢١٨) وتقلبك في الساجدين (٢١٩) إنه هو السميع العليم** [الشعراء: ٢١٧- ٢٢٠].

- وَقَوْلُهُ: **وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه** الآية [يونس:٦١]).

• هذه أدلة من القرآن الكريم لبيان معنى الإحسان وفضله.

• فأما قوله تعالى: **ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى** [لقمان: ٢٢]؛ الوثقى أي التي لا أوثق منها.

• فتبيّن أن الإحسان هو أفضل العمل، وأنه لا يكون إلا بإسلام الوجه إلى الله تعالى، أي يكون قصد العبد خالصاً لله تعالى ويكون منقاداً لأوامره جل وعلا مطيعاً له.

• وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** [النحل: ١٢٨]؛ فيه بيان فضل المحسنين وأنهم فائزون بمعية الله تعالى الخاصة التي تقتضي محبته ونصره وتأييده وهدايته وحفظه وغير ذلك من المعاني الجليلة العظيمة التي جعلها الله تعالى لأهل معيته الخاصة.

• وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** [الطلاق: ٣]؛ التوكل من أجل العبادات، والذي يحقق التوكل من المحسنين في توكلهم فهو متوكل على الله مؤمن بأن الله يراه ويعلم حاله؛ فتحقق فيه وصف الإحسان.

• ومما يوضح هذا المعنى قوله تعالى: **وتوكل على العزيز الرحيم (٢١٧) الذي يراك**

ﺣ تقُوم (٢١٨) وتقَلُّبك في السّاجِدين (٢١٩) إِنّه هو السّميع الْعليم [الشعراء: ٢١٧- ٢٢٠].

• وَقَوْلُهُ: وما تكُونُ في شانٍ وما تتلُوا منه من قُرآنٍ ولاَ تعملُونَ من عمـلٍ إلاّ كنّـا عليكُم شهوداً إذْ تفيضونَ فيه الآية [يونس: ٦١]).

o تفيضون فيه أي: تأخذون فيه.

o ومن آمن بأن الله تعالى شهيد على جميع أعماله وقام بحق هذا الإيمان من إحسان العبادة فهو من أهل مرتبة الإحسان.

قوله: (وَالدّلِيلُ مِنَ السُّنّةِ: حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ عَلَيْهِ السّلامُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ: (بَيْنَما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ صَلى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشّعَرِ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السّفَرِ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النّبِيِّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ.

فَقَالَ: يَا مُحَمّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ؟

فَقَالَ: « أنْ تشهد أنْ لا إله إلاّ اللّه، وأنّ محمّداً رسولُ اللّه، وتقيم الصّـلاةَ، وتـؤتي الزّكـاةَ، وتصوم رمضانَ، وتحجّ الْبيت إن استطعت إِليه سبِيلاً ».

فَقَالَ: صَدَقْتَ، فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ.

قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ؟

قَالَ: « أنْ تؤمن بِا ـ، وملائكَته، وكُتبِه، ورسله، واليومِ الآخر، وبِالقَدرِ خيره وشرّه ».

قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟

قَالَ: « أنْ تعبد ا ـ كأنّك تراه، فَإنْ لم تكُن تراه فَإنّه يراك ».

قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السّاعَةِ؟

قَالَ: ((ما المَسؤولُ عنها بِأعلَم من السّائِلِ)).

قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟

قَالَ: ((أنْ تلد الأمَةُ ربّتها، وأنْ ترى الحُفَاةَ العراةَ العالَةَ رِعاءَ الشّاءِ يتطاولُونَ في البنيان)).

قَالَ: فَمَضَى فَلَبِثْنَا مَلِياً.

فَقَالَ صَلى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: ((يا عمر؛ أتدري من السّائلُ))؟

قُلْنَا: اللّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: ((هذَا جبريلُ أتاكُم يعلّمكُم أمر دينِكُم))).

- هذا الحديث يسمى حديث جبريل عليه السلام، وهو من أجلّ الأحاديث النبوية، وفيه بيان مراتب الدين، وبعض أشراط الساعة، وذكر فيه أركان الإسلام وأركان الإيمان ومعنى الإحسان وقد سبق شرح ذلك ولله الحمد.
- وسبق بيان سبب تحديث ابن عمر رضي الله عنهما بهذا الحديث عن أبيه.
- وسيأتي شرح هذا الحديث بالتفصيل المناسب إن شاء الله تعالى عند شرح الأربعين النووية.

هذا، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أسئلة وتطبيقات على الدروس السابقة (٣)

تمهيد:

هذه الأسئلة مستفادة من وقائع وأسئلة مما يستفتي فيه الناس في مسائل لها صلة بالدروس التي سبقت، وحرصت على أن تكون هذه الأسئلة أقرب إلى صياغة السائلين وعبارات أصحاب الدعوات الباطلة ليتعرف الطالب على موضع الخلل ويرده.

ومما ينبغي التفطن له أن الدعوات الباطلة قد تتضمن بعض الحق فيغتر بها بعض الناس لما فيها من بعض الحق، وبعضهم يعبر عن باطله بعبارات جميلة ورنانة ربما يستحسنها من لا يعرف حقيقتها، وذلك كما يسمي المنافقون أعمالهم التي يعملونها في إفساد الدين إصلاحاً وإحساناً وتوفيقاً، وهذه الألفاظ من الألفاظ المحببة إلى النفوس السوية، لكن حقيقة أعمالهم ليست إصلاحاً ولا إحساناً ولا توفيقاً.

والموقف الصحيح أن يميز المؤمن الحق من الباطل، فيقبل الحق ويرد الباطل، ويراعي المقاصد الشرعية، ولا يقبل حكم أصحاب تلك الدعوات على دعواتهم بالألفاظ الحسنة المحببة حتى يعرف الوصف الشرعي الصحيح لتلك الأعمال.

س١ : يطلق بعض المفكرين عبارات مفادها أن الإسلام يحترم الديانات السماوية الأخرى، وأن أتباع هذه الديانات كلهم مؤمنون لا فرق بينهم إلا في اختلاف الشرائع، فكل هذه الأديان جاءت من الله، والإسلام دين المحبة والسلام، والمسلم الحق هو الذي ينفتح على الآخرين ويتحاور معهم ويتقبلهم؛ فما رأيك في هذه الدعوات؟

س٢ : ما تقول فيمن يقول: إن الحدود والتعزيرات التي جاء بها الإسلام حق وعدل لكنها خاصة بالزمان الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم لأن تلك العقوبات كانت شائعة في ذلك الزمان، وأما في العصر الحاضر مع التطور والتقدم المدني ظهرت وسائل للعقاب أقل وحشية وأكثر ملاءمة لروح الإسلام وسماحته؛ فالأخذ بها أولى تطبيقاً للمبادئ العامة للشريعة؟

س٣ : أيهما أفضل إطالة الصلاة أم تخفيفها؟

س٤ : تاجر مسلم يريد أن يبلغ مرتبة الإحسان في المعاملة ويخشى أن يخسر في تجارته فما توجيهك له؟

س٥ : رجل أساء إلى مسلم إساءة بالغة أضرّت به ثم ندم وأراد التوبة ؛ وخشي إن أخبره بإساءته وطلب سماحه أن يترتب على ذلك شر كبير، فكيف يصنع حتى يحقق التوبة ويتحلل من تبعة إساءته؟

الدرس السادس عشر: بيان الأصل الثالث من أصول الدين
وهو معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم (٢/١)

قال رحمه الله:

(الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ.
وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ، وَهَاشمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ العَرَبِ، وَالعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ، عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ.
وَلَهُ مِنَ العُمْرِ ثَلاَثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاَثٌ وَعِشْرُونَ نَبِياًّ رَسُولاً.

عناصر الدرس:

- بيان معنى شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- ما تستلزمه شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.
  - معنى التصديق، وبيان ما ينقضه وينقصه.
  - معنى الطاعة، وبيان ما ينقضها وينقصها.
  - معنى المحبة، وبيان ما ينقضها وينقصها.
- أقسام البدع
- نسب النبي صلى الله عليه وسلم.
- عُمْر النبي صلى الله عليه وسلم

بيان معنى شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم

- هذا الدرس في بيان الأصل الثالث من أصول الدين، وهو معرفة النبي صلى الله عليه وسلم.
- وهذا الأصل العظيم تنبني عليه مسائل كثيرة من مسائل الاعتقاد، فلذلك ينبغي أن يعتنى بدراسته جيداً.
- شهادة أن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أصل من أصول الدين، لا يدخل عبدٌ في الإسلام حتى يشهد هذه الشهادة.
- وهذه الشهادة العظيمة ينبني عليها منهج الإنسان وعمله، وبها تتعلق نجاته وسعادته.
- لا تصحّ المتابعة إلا بهذه الشهادة العظيمة، والله تعالى لا يقبل من عبد عملاً ما لم يكن خالصاً له جل وعلا، وعلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.
- فالإخلاص هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، والمتابعة هي مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- ولما كانت الأعمال لا بد فيها من قصد وطريقة تؤدى عليها عُدّت الشهادتان ركناً واحداً.
- وشهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم تستلزم أموراً عظيمة يمكن إجمالها في ثلاثة أمور كبار من لم يقم بها لم يكن مؤمناً بالرسول صلى الله عليه وسلم:
  - **الأمر الأول:** تصديق خبره.
  - **الأمر الثا :** امتثال أمره.
  - **الأمر الثالث:** محبته صلى الله عليه وسلم.
- وما يعود على أحد هذه الأمور الثلاثة بالبطلان فهو ناقض لشهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا انتقضت هذه الشهادة انتقض إسلام العبد.
- الإسلام لا بد فيه من خضوعٍ لله وإخلاص وانقياد، ومن لم يشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة صحيحة فليس بمنقادٍ ولا خاضعٍ لأحكام الإسلام فلا يكون مسلماً، وإن ادعى الإسلام.

الأمر الأول: تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم

- فأما الأمر الأول: وهو تصديق خبره صلى الله عليه وسلم، فهو أصل عظيم من أصول الدين، وهذا التصديق ينقضه أمران:
  - o الأمر الأول: التكذيب.
  - o والأمر الثاني: الشك.
- فكلٌّ من المكذب والشاك غير مصدق ولا مؤمن بالرسول صلى الله عليه وسلم.
- والتكذيب على درجتين:

o **الدرجة الأو:** التكذيب المطلق؛ فيدّعي أنه كذاب في أصل رسالته أي أن الله لم يرسله، أو يكذّبه فيما يخبر به عن الله جل وعلا وعن أمور الغيب.

وهذا هو تكذيب المشركين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم وتكذيب بعض أصحاب الملل الأخرى كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم.

وكذلك المنافقون النفاق الأكبر الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ويضمرون العداوة لله ولرسوله وللمؤمنين فهؤلاء وإن شهدوا بألسنتهم أن محمداً رسول الله إلا أنهم كفار كاذبون كما قال الله تعالى فيهم: **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ** [المنافقون: ١]؛ فهم كاذبون في دعواهم أنهم يشهدون أن محمداً رسول الله، وإنما نطقوا بهذه الشهادة نفاقاً، ولو كانوا صادقين في شهادتهم له بالرسالة لقاموا بما يلزم من تصديق خبره وطاعة أمره ومحبته.

والمنافقون مخالفون لهذه الأمور ناقضون لها؛ فهم مبغضون للرسول صلى الله عليه وسلم ولما جاء به، وعاصون له، ومكذبون ومشكّكون في أخباره.

فهذه هي الدرجة الأولى من درجات التكذيب وهو التكذيب المطلق.

o **الدرجة الثانية:** تكذيب بعض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا قد يقع من بعض من يقرّ برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ويكذبه في بعض أخباره، كإقرار بعض اليهود والنصارى بأنه رسول، لكن رسالته للعرب وليست لجميع الناس؛ وكتكذيب

بعض من ينتسب للإسلام لبعض أخبار النبي صلى الله عليه وسلم مع إقراره بصحتها عنه.

- فمن كذّب النبي صلى الله عليه وسلم في شيء من أخباره فهو كافر بإجماع أهل العلم، ولا ينفعه إقراره بأنه رسول الله ولا تصديقه له في بعض أخباره.
- وكذلك المشكك في بعض أخبار النبي صلى الله عليه وسلم فهو كافر غير مصدق.
- ولا يستقيم إسلام العبد حتى يصدّق الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما يخبر به.
- ويجب التفريق بين تكذيب خبر الرسول بعد الإقرار بصحته إليه، وبين تكذيب الخبر المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
  - o فتكذيب الخبر المنسوب الذي لم تتحقق صحته عن النبي صلى الله عليه وسلم أو تأوّله المتأوّل على غير معناه الصحيح ليس له حكم تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم.
  - o وذلك لأن الأخبار المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم قد تصحّ نسبتها وقد لا تصح، وإذا صحت النسبة فقد يصح تفسير المعنى على ما فهمه المتلقي وقد يفهم منه فهماً خاطئاً مخالفاً لنص صحيح صريح فيكذب الخبر بناء على ما صح عنده من مخالفته للنص المحكم الصحيح؛ فهذا ليس بتكذيب للنبي صلى الله عليه وسلم في حقيقة الأمر.
  - o ولذلك قد يكون لبعض الناس عذر في تكذيب بعض ما يبلغهم من الأخبار الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم يمنع من تكفيرهم؛ إما بسبب جهلهم بصحة نسبته للنبي صلى الله عليه وسلم، وإما بسبب عدم فهمهم لمعناه على الوجه الصحيح وإما لشبهة أخرى عرضت لهم، وغالب ما يمنع تكفير أصحاب البدع هو هذه الشُّبَه المانعة من التكفير.
  - o أما من أقرّ بصحة نسبة الخبر الصحيح للنبي صلى الله عليه وسلم، وأقر بمعرفته لمعناه الصحيح ثم كذّبه بعد ذلك فلا شك في كفره.
- كثير من المسائل التي يذكرها العلماء في نواقض الإسلام راجعة إلى هذا الأصل، وهو أنها تقتضي تكذيب خبر النبي صلى الله عليه وسلم.

الأمر الثاني: طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم

- طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تتحقق بامتثال ما أمر به حسب الاستطاعة، واجتناب ما نهى عنه.

- والطاعة من لوازم التصديق ؛ فمن كان تصديقه صحيحاً أذعن بالطاعة ، ومن كان في قلبه مرض الشك والتكذيب ظهر أثر مرضه على عمله.

- طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فرض واجب ، وهي طاعة لله جل وعلا كما قال الله تعالى : **مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** [النساء : ٨٠] ، وقال : **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** [التغابن : ١٢] ، وقال : **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** [الحشر : ٧].

- وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم علامة على صدق محبّته ومن ثوابها محبّة الله تعالى للعبد المطيع كما قال الله تعالى : **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ** [آل عمران : ٣١ ، ٣٢]، ولذلك تسمّى هذه الآية آية الامتحان.

- وطاعة الرسول من أسباب الرحمة ؛ كما قال الله تعالى : **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** [آل عمران : ١٣٢] ، وقال : **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** [الأنبياء : ١٧].

- وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **ذروني ما تركتكم؛ فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، ما نهيتكم عنه فانتهوا، وما أمرتكم فأتوا منه ما استطعتم** ».

- إذا أطلق لفظ الطاعة والاتباع في النصوص شمل امتثال أمره واجتناب نهيه وتصديقه ومحبته لأن الاتباع الصحيح لا يتحقق إلا بهذه الأمور.

- والمخالفون في الطاعة على درجتين :

  o **الدرجة الأولى :** الذين لا يرون أنه يلزمهم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فهؤلاء كفار غير مسلمين ، وإن أقرّوا بصحة رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكل من لم ير طاعة الرسول واجبة عليه لازمة له فهو كافر غير مسلم ؛ لأنه ممتنع عن الطاعة متولٍّ غير منقاد لحكم الرسول صلى الله عليه وسلم.

  وقد قال الله تعالى : **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** [النساء : ٦٥].

ومن هؤلاء من يظهر الطاعة ويبيّن الامتحان حقيقته ولا يأتي من أمر الرسول إلا بما يوافق هواه ورغبته وهذا من شأن المنافقين الذين قال الله فيهم: **﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)﴾** [النور: ٤٧- ٥٢].

فلا يستقيم إيمان عبد حتى يسمع ويطيع.

o **الدرجة الثانية:** الذين يؤمنون بأنه يلزمهم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في كبير الأمور وصغيرها وأن ما أوجبه عليهم فهو واجب، وما حرّمه عليهم فهو حرام، ويلتزمون ذلك، لكنهم يخالفون في بعض الأمر فيرتكبون بعض المحرمات ويتركون بعض الواجبات مع إقرارهم بعصيانهم فهؤلاء من عصاة المسلمين، وهم آثمون مستحقون للعذاب بقدر ما عصوا الرسول فيه، ولا يكفرون إلا إذا أفضت معصيتهم إلى ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام، والعياذ بالله.

• وقد ضلت طوائف من أهل البدع في هذا الباب فكفَّروا مرتكب الكبيرة كما فعلت الخوارج وقالوا بأن أهل الكبائر خالدون مخلدون في نار جهنم.

• ومن أهل البدع من قال: هم في منزلة بين المنزلتين فليسوا بمسلمين ولا كفار وهم يوم القيامة خالدون في نار جهنم، وهذا قول المعتزلة.

o وكلا الطائفتين يسميهم أهل السنة الوعيدية.

o وهؤلاء ينكرون شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر وشفاعة الشافعين الذين يأذن الله بشفاعتهم يوم القيامة كشفاعة الشهداء والصالحين وشفاعة الأطفال لأهليهم وغيرهم ممن صح الخبر عن النبي صلى الله عليهم وسلم بأنهم يشفعون لبعض من استحق النار من المسلمين بسبب عصيانه ومنهم من يدخلها ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين ورحمة

أرحم الراحمين.

o وأهل السنة والجماعة لا يكفرون أصحاب الكبائر من المسلمين، بل يقولون: هم من عصاة المسلمين، وهم على خطر من عصيانهم، وترجى لهم الرحمة والمغفرة وتنفعهم دعوات المسلمين وصدقاتهم وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعة الشافعين فمنهم من تدركه الشفاعة قبل العذاب فينجو ويسلم، ومنهم من يعذب ما شاء الله أن يعذب ثم ينجو بعد ذلك، ولا يخلد في النار إلا كافر.

• خير الهدي هدي محمّد صلى الله عليه وسلم، فاتّباع هديه يفضي بصاحبه إلى أحسن العواقب في الدنيا والآخرة، وأما مخالفة أمره صلى الله عليه وسلم فإنها تعرض صاحبها للفتنة والعذاب الأليم كما قال الله تعالى: **فليحذر الذين الفون عن أمره أن تصـيبهم فتنـة أو يصيبهم عذاب أليم** [النور: ٦٣].

• هذا تلخيص لأهم المسائل المتعلقة بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وأحكام العصاة.

الأمر الثالث: محبة الرسول صلى الله عليه وسلم.

• محبة الرسول صلى الله عليه وسلم فرض واجب، لا يصح الإيمان إلا به، بل يجب تقديم محبته صلى الله عليه وسلم على محبة النفس والأهل والولد والمال، كما قال الله تعالى: **قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِـ تُكُمْ وَأَمْـوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَـا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِ** [التوبة: ٢٤].

• وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يؤمن أحدكم ح أكون أحب إليه من والده وولده والناس أ ع**».

وفي رواية لمسلم: «**لا يؤمن عبد ح أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أ ع**».

• وفي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب؛ فقال له عمر: (يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي)؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا والذي نفسي بيده ح أكـون أحب إليك من نفسك**»؛ فقال له عمر: (فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي).

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **الآن يا عمر** ».

- وهذا المعنى يشهد له قوله تعالى : **النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ** [الأحزاب : ٦]، قال ابن جرير : (**النَّبِيُّ** محمد **أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ** يقول : أحق بالمؤمنين به **مِنْ أَنْفُسِهِمْ** أن يحكم فيهم بما يشاء من حكم ، فيجوز ذلك عليهم).

- وقد قال الله تعالى : **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا** [الأحزاب : ٣٦].

- وتقديم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على محبة النفس والأهل والولد والناس أجمعين على ثلاثة درجات ، وهي درجات الاتباع :

  - **الدرجة الأولى :** وهي التي لا يصح الإسلام إلا بها وهي تقديم محبته فيما يلزم منه البقاء على دين الإسلام ، والمخالف في هذه الدرجة هم الكفار الأصليون والمرتدّون الذين ارتكبوا ناقضاً من نواقض الإسلام فقدّموا ما يحبونه من معصية الرسول صلى الله عليه وسلم على محبة الرسول ؛ فخرجوا من دين الإسلام بهذه المخالفة.

  - **الدرجة الثانية:** درجة الوجوب ، فيطيع الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به أمر وجوب ، ويجتنب ما نهى عنه نهي تحريم ، والذين يؤدي هذه الدرجة هو مؤمن متقٍّ مؤدٍّ للطاعة الواجبة ، والمخالف فيها هو الذي يقدّم ما تحبه نفسه وتهواه على طاعة الرسول وهو عاص مخالف للأمر مستحق للعقاب بقدر مخالفته.

  - **الدرجة الثالثة:** درجة الاستحباب والكمال ، وهو طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به أمر استحباب على ما يستطيع العبد ، واجتناب ما ينهى عنه نهي كراهة ، وهذه الدرجة من حقَّقها فهو من أهل الإحسان ، ومن خالف فيها بما لا يلحقه بالمخالفين في الدرجة الثانية فهو غير آثم ، لكن يفوته من الخير والفضل بقدر ما فرّط فيه.

- فتبيّن أن تقديم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على محبة النفس والأهل والولد والناس أجمعين على هذه الدرجات الثلاث منها ما لا يصح الإسلام إلا به ، ومنها ما هو واجب ، ومنها ما هو كمال مستحب.

- ويكون معنى نفي الإيمان في قوله صلى الله عليه وسلم : « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون**

أحب إليه... » على ثلاث درجات:

- **نفي أصل الإ ان**، وهذا للمخالفين في الدرجة الأولى.
- **نفي الإ ان الواجب**، وهذا للمخالفين في الدرجة الثانية.
- **نفي كمال الإ ان**، وهذا للمخالفين في الدرجة الثالثة.

- ومما يتصل بهذه المسألة وهي محبة الرسول صلى الله عليه وسلم أن لها لوازم من لم يأت بها لم تكن محبته صادقة:
- وهذه اللوازم هي: طاعة الرسول ونصرته ومحبة أصحابه وموالاتهم ومحبة دعوة الرسول ونصرتها ويجمع ذلك كله النصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم؛ كما في الصحيحين من حديث تميم الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **الدين النصـيحة** » قلنا: لمن؟ قال: « **ولرسوله ولأئمة ا سلم وعامتهم** ».
- والنصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم واجبة وهي تستلزم الصدق والإخلاص في المحبة والطاعة والنصرة والتصديق.
- ومن قصر في واجب من هذه الواجبات فهو مقصّر في النصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم، وإثمه على حسب تقصيره، كما تقدم شرحه في درجات مخالفة الاتباع.
- فنصيحة المسلم للرسول صلى الله عليه وسلم تكون بحسب اتباعه له؛ فكلما كان أكثر اتباعاً كان أكثر نصحاً.
- ومما ينقض هذه المحبة: البغض والإيذاء والسب والاستهزاء.
    - ومن وقع في هذه الأمور التي تستلزم عدم محبة النبي صلى الله عليه وسلم فهو كافر بإجماع العلماء.
- والناس في محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أقسام:
    - القسم الأول: الجفاة المقصِّرون في محبة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء على درجتين: كفار، وعصاة.

فأما الكفار فهم الذين يبغضون الرسول صلى الله عليه وسلم أو يبغضون شيئاً مما جاء به من شريعة الإسلام.

وأما العصاة فهم الذين يخالفون أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فيرتكبون بعض المحرمات ويتركون بعض الواجبات مع طاعتهم له فيما يلزم منه بقاؤهم على دين الإسلام.

o القسم الثاني: الغلاة الذين غلوا في دعوى محبة النبي صلى الله عليه وسلم وهؤلاء على درجتين: مشركون ومبتدعة:

فأما **ا شركون** فهم الذين غلوا في النبي صلى الله عليه وسلم حتى صرفوا له بعض أنواع العبادة من الدعاء والنذر وطلب المدد وقضاء الحوائج وغير ذلك.

وأما **ا بتدعة** فهم الذين غلوا في مدحه فأطروه وجاوزوا الحدَّ المأذون فيه من المدح والثناء ولم يصرفوا له شيئاً من أنواع العبادة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله) رواه البخاري من حديث عمر بن الخطاب، ومن الغلو ما يفعله بعض الصوفية من بدعة الموالد النبوية وغيرها من مظاهر الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم.

o **القسم الثالث: ا هتدون ا تبعون دي الـ** صلى الله عليه وسلم وهدي أصحابه الكرام والتابعين لهم بإحسان بلا غلو ولا تفريط، وهؤلاء هم الناجون السعداء.

- بعض العلماء يضيف في مقتضيات شهادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأن لا يعبد الله إلا بما شرع)، وهذا يندرج تحت طاعته صلى الله عليه وسلم، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد** ». متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها؛ فابتداع شيء من العبادات محرم لا يجوز، والمبتدع عاص ببدعته.

أقسام البدع

- والبدع لها تقسيمات مهمة ينبغي لطالب العلم أن يضبطها، منها أنها **تنقسم سـب حكمها إ قسم :** بدع مكفرة، وبدع مفسقة.

o **فأما البدع ا كفرة** فهي التي يكون فيها ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام كأن تتضمن تلك البدعة شركاً أكبر بصرف العبادة لغير الله عز وجل كما يفعله بعض غلاة

الشيعة والباطنية والصوفية، أو يكون فيها تكذيب لخبر الله عز وجل وخبر رسوله وادعاء ما يخالف دين الإسلام بالضرورة كدعوى بعض فرق الشيعة أن القرآن ناقص محرّف، ودعوى بعض غلاة الصوفية أن أقطابهم يعلمون الغيب ويطلعون على اللوح المحفوظ، ودعوى الجهمية نفي أسماء الله عز وجل وصفاته.

وضابط البدع المكفّرة أنها هي التي تتضمن ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام.

o **القسم الثا : البدع ا فسقة،** وهي التي لا يكون فيها ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام من الشرك الأكبر أو التكذيب أو غيرها من النواقض، وهذه غالب البدع العملية من مثل ما يحدثه بعض المبتدعة من الموالد والأذكار المبتدعة والزيادة على القدر المشروع في بعض العبادات، وتخصيص بعض الأزمنة والأمكنة بعبادات لم يرد تخصيصها بها.

- هذا تلخيص موجز لما تقتضيه شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي مسائل كبار من مسائل أصول الدين ينبغي لطالب العلم أن يفقهها جيداً.

قوله: (الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ).

- أي الأصل الثالث من أصول الدين وهو معرفة النبي صلى الله عليه وسلم.
- وأتى به مضافاً إلى المخاطبين (نبيكم) لإشعارهم بأن هذا الأمر يخصهم ويتصل بهم فهو نبيهم ورسولهم الذي أرسل إليهم، فيجب عليهم أن يعتنوا بمعرفته وأداء حقه.
- وباب الإضافة عند العرب واسع فهي تضيف لأدنى ملابسة، ولا عتبارات متعددة.
- فالرسول صلى الله عليه وسلم، هو رسول الله، باعتبار المرسِل وهو الله تعالى كما قال تعالى: **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ** [الفتح: ٢٩]، وقال: **ءَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ** [الحجرات: ١٥] وقال: **فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِ** [التغابن: ١٢]، وهو رسولنا لأنه أرسل إلينا كما قال تعالى: **أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ** [البقرة: ١٨]، وهو نبي الله باعتبار المنبّئ الذي نبَّأه وهو الله تعالى، وهو نبينا باعتبار أنه منبَّأٌ إلينا.
- ويضاف أيضاً إلى بعض أوصافه وما أتى به فيقال: نبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة.
- والمعرفة المرادة هنا هي المعرفة المحمودة كما سبق بيانه.

نسب النبي صلى الله عليه وسلم

قوله: (وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ العَرَبِ، وَالعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ، عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ).

- عبد المطلب اسمه شيبة، وعبد المطلب لَقَبٌ لُقِّبَ به، لأنَّ عمَّه المطَّلب أردفه خلفه لما جاء به من يثرب، وقد تغيَّر لونه من السفر فظنوه عبداً له فقيل عبد المطلب.
- وهاشم لقب أيضاً، واسمه عمرو، ويقال له: عمرو العُلا، ولُقِّبَ بهاشم لِهَشْمِهِ الثريد لقومه من كَرَمه، وقيل فيه:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ... قومٍ بمكة مسنتين عجاف

- o وهذا البيت نسب لعبد الله بن الزِّبَعْرَى من قصيدة له قال فيها:

كانت قريشٌ بيضةً فتفقأت ... فالمحّ خالصُه لعبد مناف
الخالطين فقيرَهم بغنيّهم ... والظاعنين لرحلة الأصياف
والرائشين وليس يوجد رائش ... والقائلين هَلُمّ للأضياف
عمرو العلا هشم الثريد لقومه ... قوم بمكة مسنتين عجاف

- o ونسب البيت السابق لغيره.
- o والمسنتون الذين أصابتهم سَنَةٌ أي مجاعة.

- وقريش لقب للنضر بن كنانة، وقيل لقب لفهر بن مالك، والأول أصح لما رواه الإمام أحمد وأبو داوود الطيالسي وابن أبي شيبة وغيرهم من حديث مسلم بن هيضم عن الأشعث بن قيس الكندي رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في وَفْدٍ لا يرون إلا أني أفضلهم؛ فقلت: (يا رسول الله إنا نزعم أنكم منا)؛ قال: « **ن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا ننتفي من أبينا** »؛ قال: فكان الأشعث يقول: (لا أوتى برجل نفى قريشاً من النضر بن كنانة إلا جلدته الحدَّ). والحديث صححه الألباني.
- وقد ذكر الزهري فيما رواه عبد الرزاق وغيره أنه كان بين بني عبد مناف وبني آكل المرار

من كندة خلطة في الجاهلية أي: تناسب.

- واختلف في سبب تلقيب النضر بقريش على أقوال كثيرة، لم أقف منها على قول تطمئن النفس لصحته.
- ونسب النبي صلى الله عليه وسلم إلى عدنان متفق عليه عند أهل العلم بالحديث والأنساب.
- قال البخاري في صحيحه في كتاب المناقب: (باب مبعث النبي صلى الله عليه وسلم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان).
- قال ابن القيم: (إلى هاهنا معلوم الصحة، متفق عليه بين النسابين، ولا خِلاف فيه البتة، وما فوق "عدنان" مختلف فيه. ولا خلاف بينهم أن "عدنان" من ولد إسماعيل عليه السلام)ا.هـ.
- وما بعد عدنان للنسابين فيه أقوال مختلفة لم أقف على حجة صحيحة لقول منها.
- قال عروة بن الزبير: (ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معدّ بن عدنان). رواه ابن وهب وابن سعد وابن أبي حاتم وغيرهم.
- وقال أبو بكر بن سليمان بن أبي حَثْمَة وهو من علماء التابعين ومن أهل العلم بالأنساب والأشعار: (ما وجدنا في علم عالم ولا في شعر شاعر أحداً يعرف ما وراء معدّ بن عدنان بثبت). رواه ابن سعد وابن وهب وغيرهما.
- وأما ما أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معد بن عدنان بن أدد ثم يمسك ويقول: (كذب النسابون قال الله عز وجل ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨])؛ فهذا خبر موضوع، لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم.
- لكن صح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ: (وعاداً وثمود وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ

لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ) [إبراهيم: ٩] ثم يقول: (كذب النسابون). رواه ابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم.

o هكذا في قراءة ابن مسعود.

- وقال السيوطي في الدر المنثور: (وأخرج ابن الضريس عن أبي مجلز قال: قال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنا أنسب الناس؛ قال: إنك لا تنسب الناس؛ قال: بلى؛ فقال له علي رضي الله عنه: أرأيت قوله تعالى: وعاداً و وداً وَأَصْحَابَ الرس وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا [الفرقان: ٣٨]؟ قال: أنا أنسب ذلك الكثير.
قال: أرأيت قوله: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قوم نوح وعاد و ود وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إلا الله [إبراهيم: ٩]؟ فسكت).

- لم أقف على إسناده عند ابن الضُّرَيس، وأبو مجلز هو لاحق بن حميد السدوسي، من قراء التابعين وفضلائهم.

عمر النبي صلى الله عليه وسلم

قوله: (وَلَهُ مِنَ العُمْرِ ثَلاَثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاَثٌ وَعِشْرُونَ نَبِياً رَسُولاً).

- هذا دليله ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين؛ فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة، ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة؛ فمكث بها عشر سنين، ثم توفي صلى الله عليه وسلم).

- فيكون مدة نبوته ثلاث وعشرون سنة، وعمره ثلاث وستون.

الدرس السابع عشر: بيان الأصل الثالث من أصول الدين
وهو معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم (٢/٢)

قال رحمه الله:

(نُبِّئَ بِإقْرَا، وَأُرْسِلَ بِالْمُدَّثِّرِ، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ.

بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إلى التَّوْحِيدِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿يا أيها المدثر (١) قم فأنذر (٢) وربك فكبر (٣) وثيابك فطهر (٤) والرجز فاهجر (٥) ولا تمنن تستكثر (٦) ولربك فاصبر﴾** [المدثر: ١- ٧].

وَمَعْنَى: **﴿قم فأنذر﴾** يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إلى التَّوْحِيدِ.

﴿وربك فكبر﴾ أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ.

﴿وثيابك فطهر﴾ أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ.

﴿والرجز فاهجر﴾ الرُّجْزُ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا وَأَهْلِهَا، وَالبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا، وَعَدَاوَتُها وَأَهْلِهَا، وَفِرَاقُها وَأَهْلِهَا.

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إلى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إلى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَصَلَّى في مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالهِجْرَةِ إلى المَدِينَةِ).

عناصر الدرس:

- شرح قوله: (نبّئ بإقرأ وأرسل بالمدثر)
- الفرق بين الرسول والنبي
- بلد النبيّ صلى الله عليه وسلم
- بم بُعث النبي صلى الله عليه وسلم
- تفسير صدر سورة المدّثر
- مدّة مكث النبي صلى الله عليه وسلم في مكة بعد البعثة
- فرض الصلوات الخمس.

قوله: (نُبِّئَ بِإقْرَا، وَأُرْسِلَ بِالمُدَّثِّرِ).

- النبوَّة منزلة يختص الله بها من يشاء من عباده ؛ فيوحي إليهم من أمره ما يشاء.
- وقد ختمت النبوة بنبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قال الله تعالى: **ما كانَ محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكُم ولَكن رسولَ الله وخاتم النبيِ** [الأحزاب: ٤٠].
- وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء؛ كلما هلك ن خلفه ن ، وإنه لا ن بعـدي، وسيكون خلفاء فيكثُرون** » قالوا: فما تأمرنا؟ قال: « **أوفوا ببيعة الأول فالأول، أعطـوهم حقهم؛ فإن ا سائلهم عما استرعاهم** ».
- وقد أجمع أهل العلم على ختم النبوة والرسالة بمحمد صلى الله عليه وسلم وأنه لا نبي بعده ولا رسول.
- وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي ومستدرك الحاكم وغيرها من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **إن الرسالة والنبـوة قـد انقطعت فلا رسول بعدي ولا ن** ». قال: فشقَّ ذلك على الناس.

قال: قال: « **ولكن ا بشرات** »، قالوا: يا رسول الله وما المبشرات؟

قال: « **رؤيا الرجل ا سلم وهي جزء من أجزاء النبوة** ». صححه الألباني.

- فكل من ادَّعى النبوة أو الرسالة بعد النبي صلى الله عليه وسلم فهو كذاب.
- قوله: (**نُبِّئَ بِـإقْرَأ**) أي كان مبدأ نبوته عليه السلام لما نزل عليه أول سورة العلق: **اقْرأ بِاسم ربك الذي خلَق (١) خلَق الْإنسانَ من علَقٍ (٢) اقْرأ وربك الْأكْرم (٣) الذي علـم بِالْقلَم (٤) علم الْإنسانَ ما لَم يعلَم (٥)** [العلق: ١- ٥].

  - o وخبر بدء الوحي رواه البخاري في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها.
  - o وما كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم من الرؤى الصادقة قبل الوحي هو من إرهاصات النبوة والتهيئة لها.
  - o وبدأت النبوة ببدء الوحي لما نزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء بأول سورة العلق.

- ثم فتر الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك، **واختلف مدة فترة الوحي على أقوال:**

  - **فقال الشـ ـع :** كانت مدة فترة الوحي سنتان ونصف، رواه عنه الإمام أحمد في التاريخ كما في فتح الباري لابن حجر، وهو قول بعيد.
  - **وروى ابن سعد عن ابن عباس** أنها كانت أياماً، لكن إسناد هذه الرواية واهٍ جداً.
  - والله أعلم بمدة تلك الفترة، لكن صح أن أوّل ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد فترة الوحي أول سورة المدثر.
  - في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: « **بينا أنا أمشي عت صوتا من السماء فرفعت بصري؛ فإذا الملك الذي جاء راء جالس على كرسي بـ السـماء والأرض ففَرِقْت منه فرجعت فقلت زملو زملو ؛ فدثرو ؛ فأنزل ا تعا : يا أيها الْمدثر (١) قُم فَأَنذر (٢) وربك فَكَبر (٣) وثيابك فَطَهر (٤) والرجز فَـاهجر** [المدثر: ١- ٥]». وهي الأوثان، قال: ثم تتابع الوحي).
  - الذي قال في تفسير الرُّجز: (وهي الأوثان) هو أبو سلمة بن عبد الرحمن كما في رواية عند البخاري: قال: (وهي الأوثان التي كان أهل الجاهلية يعبدون).
  - وفي رواية في صحيح البخاري أيضاً أن هذه الحادثة كانت قبل أن تفرض الصلاة.

- قوله: (**وَأُرْسِلَ بِالْمُدَّثِّرِ**) يريد أن نزول صدر سورة المدثر كان بداية الرسالة، لما تضمنته من الأمر بالنذارة.
- وهذا الاستنباط قد قال به جماعة من أهل العلم.
- قال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية لما ذكر أن أول ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم سورة اقرأ ثم سورة المدثر قال: (وبهذا حصل الإرسال إلى الناس، وبالأول حصلت النبوة).
- وقال نحو هذا القول الحليمي شيخ البيهقي، وابن تيمية في منهاج السنة النبوية.

الفرق بين الرسول والنبي

- والتفريق بين الرسول والنبي من المسائل التي كثرت فيها أقوال أهل العلم وحصل فيها لبس واشتباه، وفيها مواضع متفق عليها.
- وتلخيص ذلك أن الفرق بين الرسول والنبي يتضح ببيان أمرين:
- **الأمر الأول:** أن النبوة منزلة، والرسالة منزلة أخص منها، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسول، وهذا الأمر عليه قول جماهير العلماء ولا أعرف إماماً معروفاً بالعلم والإمامة في الدين يخالف في هذا القول.

o وقد نقل عن بعض المعتزلة أنه لا فرق بين الرسول والنبي، وقال به بعض من اشتبه عليه الأمر من أهل السنة، فإنهم زعموا أن لا فرق بين الرسول والنبي فكل رسول نبي وكل نبي رسول، وهذا الزعم باطل؛ فإن الفرق بين الرسول والنبي متحقق لدلالة قول الله تعالى: **وما أرسلْنا من قَبلك من رسولٍ ولَا نبي إلا إذَا تمنى ألْقَى الشيطَانُ في أمنِيته...** [الحج: ٥٢] الآية، وقوله تعالى: **الذين يتبِعونَ الرسولَ النبِي** [الأعراف: ١٥٧]، وقوله: **فَآمنوا بِالله ورسوله النبِي** [الأعراف: ١٥٨]، وقوله تعالى عن بعض أنبيائه: **وكَانَ رسولًا نبِيا** [مريم: ٥١].

o ولما في الصحيحين من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة اضطجع على شقك الأ ن قل "اللهم إ أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وأ أت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذى أرسلت؛ فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به**))، قال البراء بن عازب: فرددتها على النبي صلى الله عليه وسلم فلما بلغت "اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت" قلت: "ورسولك"، قال: ((**لا، ونبيك الذي أرسلت**)).

o ولدلالة حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين في حديث الشفاعة الطويل وفيه أن الناس يأتون نوحاً فيقولون له: (أنت نوح أول الرسل إلى أهل الأرض). وقد علم بنص الحديث أن آدم عليه السلام نبي مكلم.

• **الأمر الثا :** بيان الفرق بين مطلق الإرسال ومنزلة الرسالة ؛ فمطلق الإرسال حاصل للأنبياء كلهم كما دل عليه قول الله تعالى : **وما أرسلْنا من قَبلك من رسولٍ ولَا نبِي إلا إذَا تمنى أَلْقَى الشيطَانُ في أُمنِيته فَينسخ الله ما يلْقي الشيطَانُ ثُم يحكم الله آياته والله علـيمٌ حكيمٌ** [الحج : ٥٢].

• فالرسول مرسل ، والنبي مرسل ، لكن رسالة الرسول أخص من رسالة النبي ومنزلة الرسالة أخص وأعلى من منزلة النبوة ولذلك قدم ذكر الرسول على ذكر النبي في هذه الآية.

• ويدل على ثبوت قدر من الإرسال للأنبياء ما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((**إنه يكن نـ قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خ ما يعلمه م، وينذرهم شر ما يعلمه م**)).

• فهذا حق واجب على جميع الأنبياء لم يستثن منه أحد منهم.

• وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن الناس يأتون نوحاً فيقولون له : (يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض) فعلم بذلك أن نوحاً عليه السلام أول الرسل ، ونبوة آدم عليه السلام ثابتة ، بل هو نبي مكلَّم كما في حديث أبي ذر وأبي أمامة في المسند والمستدرك وغيرهما ، وتكليم الله تعالى لآدم ثابت بنص القرآن ، ولا بد له ولمن معه من شرع يتعبدون الله تعالى به كما قال الله تعالى : **لكُلٍ جعلْنـا مـنكُم شرعةً ومنهاجًا** [المائدة : ٤٨]، وقد قال الله تعالى : **قُلْنا اهبِطُوا منها جميعًا فَإِما يأتينكُم منـي هدًى فَمن تبِع هداي فَلَا خوفٌ علَيهِم ولَا هم يحزنونَ** [البقرة : ٣٨]، واتباع الهدى هو امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه ، وهو معنى الشريعة.

• وهذا يقتضي أنه أمر بتبليغ ذلك الهدى زوجه وذريته ، ومع ذلك فهو نبي مكلم وليس برسول لدلالة حديث أبي هريرة.

• ونظير هذه المسألة مسألة الإيمان والإسلام ؛ فكل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم بمؤمن ، ولا بد في الإسلام من قدر من الإيمان يصح به ، وإلا فلو انتفى الإيمان جملة عن العبد لانتفى عنه الإسلام جملة.

• والمقصود أن الرسالة منزلة أخص من منزلة النبوة وأعلى منها ، كما أن الرسل أيضاً على

منازل متفاضلة بعضهم أفضل من بعض كما قال الله تعالى: **تلْك الرسلُ فَضـلْنا بعضـهم علَى بعضٍ منهم من كَلَم الله ورفَع بعضهم درجاتٍ** [البقرة: ٢٥٣] وقال تعالى: **ولَقَد فَضـلْنا بعض النبِيين علَى بعضٍ** [الإسراء: ٥٥].

• وأفضل الرسل أولوا العزم الخمسة المذكورون في قوله تعالى: **شرع لَكُم من الدّينِ ما وصى بِه نوحًا والذي أوحينا إلَيك وما وصينا بِه إبراهيم وموسى وعيسى أَنْ أقيموا الـدّين ولَا تتفَرقُوا فيه كَبر علَى الْمشركين ما تدعوهم إلَيه الله يجتبِي إلَيه من يشاءُ ويهدي إلَيه من ينِيب** [الشورى: ١٣]، وفي قوله تعالى: **وإِذْ أَخذْنا من النبِيين ميثَاقَهم ومنـك ومـن نـوحٍ وإِبراهيم وموسى وعيسى ابنِ مريم وأَخذْنا منهم ميثَاقًا غَليظًا** [الأحزاب: ٧].

o وأفضل الخمسة الخليلان محمد وإبراهيم عليهما السلام.

o وأفضل الخليلين نبينا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

توضيح

• من أهل العلم من يقول: إن الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه ولم يؤمر بالتبليغ.

• وهذا القول اشتهر عند أهل العلم وفي نشأته والتعبير عنه بهذا التعبير لبس ينبغي توضيحه حتى يتضح الأمر لطالب العلم.

• وأول من نُسب إليه هذا القول بهذا التعبير فيما أعلم أبو سليمان الخطابي (٣٨٨هـ) رحمه الله، ونص كلامه في كتابه أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري: (والفرق بين النبي والرسول أن النبيَّ هو المنبَّأُ –فعيل بمعنى مُفعَل– والرسول هو المأمور بتبليغ ما نُبِّئَ وأُخبر به؛ فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا).

• وهذا القول اختصره ابن الأثير في جامع الأصول فقال: (قال الخطابي: والفرق بين النبي والرسول: أن الرسول هو المأمور بتبليغ ما أنبئ وأخبر به، والنبي هو المخبَر ولم يؤمر بالتبليغ، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا).

• فأضاف كلمة (ولم يؤمر بالتبليغ) من باب التوضيح لما فهمه، واشتهر هذا التعريف لدى المتأخرين لشهرة الكتاب، ولنسبة هذا القول لأبي سليمان الخطابي رحمه الله وهو

من أجلّ شراح الأحاديث.

● وقد قال بنحو هذه الإضافة البيهقي (ت:٤٥٨هـ) رحمه الله فقال: (والنبوة اسم مشتق من النبأ وهو الخبر إلا أنّ المراد به في هذا الموضع خبر خاص، وهو الذي يكرم الله عز وجل به أحدا من عباده فيميزه عن غيره بإلقائه إليه، ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي ووعظ وإرشاد ووعد ووعيد؛ فتكون النبوة على هذا الخبر والمعرفة بالمخبرات الموصوفة فالنبي صلى الله عليه وسلم هو المخبر بها؛ فإن انضاف إلى هذا التوقيف أمرٌ بتبليغه الناس ودعائهم إليه كان نبيا ورسولا، و إن ألقي إليه ليعمل به في خاصته ولم يؤمر بتبليغه والدعاء إليه كان نبيا ولم يكن رسولا؛ فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا).

● وهذا القول في أصله مأثور عن مجاهد بن جبر فيما رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما ذكره السيوطي في الدر المنثور، وهو موجود في التفسير المطبوع باسم تفسير مجاهد، وهو الذي يرويه عبد الرحمن بن الحسن الهمذاني وجادة عن إبراهيم بن ديزيل الحافظ أنبأنا آدم بن أبي إياس، قال أنبأنا ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: **رسولاً نبيـاً** [مريم: ٥١] قال: (النبي هو الذي يُكَلَّم ويُنْزَلُ عليه ولا يُرْسَلُ، والرسولُ هو الذي يُرسَل).

● وقال الفراء: (فالرسول النبيّ المرسل، والنبي: المحدَّث الذي لم يُرسَل).

● وقال ابن جرير في آية الحج: (فتأويل الكلام: ولم يرسل يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم، ولا نبيّ محدث ليس بمرسل).

● فهذا أصل هذا القول، لكن قول من قال (ولم يؤمر بتبليغه) كان هو منشأ الإشكال، ومع ذلك احتمله الجمهور إذ كان الأصلان السابقان متقررين.

● ومن أهل العلم من ردَّ هذا التعبير إذ فهموا من قولهم: (لم يؤمر بالتبليغ) النفي المطلق.

● وفرَّع بعضهم عليه لوازم باطلة ليست مرادة لأصحاب هذا القول.

● وهذا الأمر مما ينبغي لطالب العلم التفطن له، وله نظائر في المسائل العلمية، وهو أن أقوال أهل العلم التي يذكرونها لتوضيح بعض المسائل أو التعبير عن بعض الأقوال بعبارات جامعة مما يقع فيه الاجتهاد لإصابة المعنى المراد ثم قد يكون في تعبيرهم عموم غير مراد إذ ألفاظ العلماء ليست كألفاظ الوحي.

• وطالب التحقيق في هذه المسائل ينبغي له النظر في أصول الأقوال ونشأتها وعبارة العلماء عنها ليضع الأقوال مواضعها، فإن الغالب عليهم أنهم إنما يترجمون عن معان مقررة بعبارات تبينها وتوضح المراد منها حسب اجتهادهم، ويقع في تلك الألفاظ ما لهم فيه مراد وقد يفهمه بعضهم على غير مرادهم.

• فلا ينبغي لطالب العلم أن يحمله الخطأ في التعبير عن القول – إن وجد – على رده جملة؛ فانظر الفرق بين كلام مجاهد والفراء والطبري والخطابي وكلام ابن الأثير والبيهقي ومن تبعهم.

• بل انظر الفرق بين كلام البيهقي وما اشتهر لدى أهل العلم أن الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه.

O فقول البيهقي: (ليعمل به في خاصته) دليل على وجود قدر من التبليغ يؤمر به النبي فبذلك تعلم أن مرادهم هو مراد من تقدم لكنهم أرادوا تفسير لفظ الإرسال بما يبينه لئلا يكرر اللفظ، والتبليغ هو مقتضى الإرسال كما قال تعالى: **ما على الرسول إلا البلاغ** [النحل: ٣٥]؛ ففسروا اللفظ بمقتضاه.

• وقال الله تعالى: **ما كانَ على النبي من حرجٍ فيما فرض الله له سنةَ الله في الذين خلوا من قبلُ وكانَ أمر الله قدرًا مقدورًا (٣٨) الذين يبلغونَ رسالات الله ويخشونه ولا يخشونَ أحدًا إلا الله وكفى بالله حسيبًا (٣٩)** [الأحزاب: ٣٨، ٣٩].

o فقال: **ما كانَ على النبي** [الأحزاب: ٣٨] فذكره بوصف النبوة، ثم قال: **سنةَ الله في الذين خلوا من قبلُ** [الأحزاب: ٣٨] وهم الأنبياء بلا خلاف، ثم وصفهم فقال: **الذين يبلغونَ رسالات الله** [الأحزاب: ٣٩].

فالتبليغ من واجبات النبوة.

• فقول هؤلاء العلماء: (وأمر بتبليغه) هو معنى قول من تقدم (وأرسل) لأن الأمر بالتبليغ هو مقتضى الإرسال.

• فليس مرادهم من قولهم: (ولم يؤمر بتبليغه) نفي مطلق الإرسال والتبليغ، وإنما المراد نفي مقتضى ما تختص به منزلة الرسالة عن منزلة النبوة؛ فإن منزلة الرسالة تقتضي تميز

(الرسول) برسالة لا يشترك معه فيها (النبي)، وهذا هو القدر المنفي عن النبي في قول العلماء، ولم يريدوا نفي الإرسال عنه جملة.

أقوال العلماء في مسألة الفرق بين الرسول والنبي

- ولأهل العلم في التفريق بين الرسول والنبي أقوال، أشهرها خمسة أقوال:
- **القول الأول:** هو المتقدم ذكره، وهو أشهر الأقوال، وقد بيّنت ما فيه من الإشكال وجوابه.
- **القول الثا :** أن الرسول هو الذي يأتيه جبرئيل بالوحي عياناً وشفاهاً، والنبي هو الذي تكون نبوّته إلهاماً أو مناماً، وهذا قول الثعلبي في تفسيره، وتبعه الواحدي والبغوي والخازن، وحكاه الماوردي في تفسيره قولاً، ولم يعزه لأحد، وكذلك فعل أبو المظفر السمعاني، وقد اعتمده كثير من الشيعة.
  - وهذا القول في التفريق لا يصح فإن النبي صلى الله عليه وسلم إنما نبئ بنزول: **اقْرأ بِاسمِ ربك الذي خلَق** [العلق: ١]؛ وأما قول عائشة رضي الله عنها في الصحيحين: (كان أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح).
  - فالمراد به مقدمات النبوة، لا النبوة نفسها، فإن بدء النبوة كان بنزول قوله تعالى: **اقْرأ بِاسمِ ربك الذي خلَق** [العلق: ١].
  - قال النووي نقلاً عن القاضي عياض وغيره من العلماء: (إنما ابتدئ صلى الله عليه وسلم بالرؤيا لئلا يفجأه الملك ويأتيه صريح النبوة بغتة فلا تحتملها قواه البشرية)، وبنحوه قال غير واحد من أهل العلم رحمهم الله تعالى.
- **القول الثالث:** أن الرسول من أنزل معه كتاب، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله، وهذا قول الزمخشري في تفسيره، واختاره النسفي.
- **القول الرابع:** الرسول من أرسل إلى قوم مخالفين ليبلغهم رسالة الله، والنبي من كان

يعمل بشريعة من قبله، ولم يرسل إلى أحد ليبلغه رسالة الله، وهذا قول شيخ الإسلام ابن تيمية، نص عليه في رسالة النبوات.

o قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول).

o وكلام شيخ الإسلام يشكل عليه نبوة آدم عليه السلام، وكذلك اشتراط المخالفة في الرسالة إذ لا أعلم عليه دليلاً، وإن كان دليله استقراء أحوال الرسل والأنبياء على ما ذكر في النصوص، فيقال: قد دل النص على أن لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن، والعداوة تقتضي المخالفة وتدل عليها باللزوم، وكذلك المقاتلة كما في قوله تعالى: **وكأين من نبي قاتلَ معه ربيونَ كثير** [آل عمران: ١٤٦]، لكن قوله تعالى: **وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن** [الأنعام: ١١٢]، أصرح في الدلالة لشمولها جميع الأنبياء.

• **القول الخامس:** الرسول من أوحي إليه بشريعة جديدة يدعو الناس إليها، والنبي من بعث لتقرير شرع سابق، وهذا القول ذكره عبد القاهر بن طاهر البغدادي حكاية عن اعتقاد الأشاعرة، واختاره البيضاوي وأبو السعود، وقد حكاه قولاً أبو المظفر السمعاني وأبو حيان، لكن البغدادي ذكر أن آدم عليه السلام هو أول الرسل.

o والبيضاوي أيضاً خالف هذا القول في موضع آخر من تفسيره كما نبّه إليه العاملي في الكشكول، حيث قال في تفسير سورة مريم في شأن إسماعيل عليه السلام: (**وكانَ رسولاً نبيا** [مريم: ٥١] يدل على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب شريعة، فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته).

• هذه الأقوال الخمسة هي أشهر الأقوال في هذه المسألة، وفيها أقوال أخرى غير مشتهرة.

• والقول الصحيح هو القول المأثور عن مجاهد رحمه الله، وهو ما قاله الفراء وابن جرير وعليه جمهور أهل العلم لولا ما أثير من الإشكال حول ذلك التعبير الشائع، وقد علمت جوابه.

بلد النبيّ صلى الله عليه وسلم

قوله: (**وَبَلَدُهُ مَكَّةُ**).

- أي أن بلده الذي نشأ فيه مكة، وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم، وهي أم القرى والبلد الأمين الذي أقسم الله تعالى به فقال: **وهذا البلد الأم ـ** [التين: ٣] وقال: **لا أقسم بهذا البلد (١) وأنت حل بهذا البلد** [البلد: ١، ٢].
  - o المقصود بهذا البلد مكة بإجماع المفسرين.
  - o وقد ورد من حديث ابن عمر وحديث أبي هريرة وحديث عبد الله بن عدي رضي الله عنهم أنها أحب البلاد إلى الله.

بم بُعث النبي صلى الله عليه وسلم

قوله: (**بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إلى التَّوْحِيدِ**).

- النذارة بكسر النون: الإنذار، وهي ضد البشارة، وأعظم ما أنذر عنه النبي صلى الله عليه وسلم الشرك.
- وأعظم ما دعا إليه التوحيد.
- **قوله:** (**بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إلى التَّوْحِيدِ**)، بهذا الإطلاق له وجه صحيح، وهو أن الطاعات كلها مردها إلى التوحيد، والتوحيد يكون بالقلب واللسان والجوارح، والمعاصي كلها من جنس الشرك، وقد يكون الشرك أكبر، وقد يكون أصغر، وقد يكون من باب إشراك النفس والهوى بإيثار ما تحبه على ما يحبه الله عز وجل، فيكون في ذلك نوع تشريك.

قوله: (**وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: يا أيها المدثر (١) قم فأنذر (٢) وربك فكبر (٣) وثيابك فطهر (٤) والرجز فاهجر (٥) ولا تمنن تستكثر (٦) ولربك فاصبر (٧)** [المدثر:١- ٧]).

- هذه الآيات هي أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد فترة الوحي الأولى، كما تقدم بيانه.
- والمدَّثر: أصله: (المتدثّر) ثم أدغمت التاء في الدال وشدِّدَت.

- والمدثر هو المتغطي بالدِّثَار وهو لباس يكون فوق الشعار؛ فالشعار هو اللباس الذي يلي الجسد، والدّثار لباس فوقه، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: « **الأنصار شعار والناس دثار** » متفق عليه من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه.
- قال الفراء وأبو معمر وابن قتيبة وابن جرير وغيرهم: المدثر هو المتدثر بثيابه إذا نام.
- وقال إبراهيم النخعي: كان متدثراً بقطيفة.

قوله: (وَمَعْنَى: قم فأنذر يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلى التَّوْحِيدِ).

- قال ابن جرير: (وقوله: **قُم فَأَنذر** يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قم من نومك فأنذر عذابَ الله قومك الذين أشركوا بالله، وعبدوا غيره).
- والإنذار يكون من العذاب وسببه؛ فالشرك سبب للعذاب، والنار وما يعاقب الله به المشركين عذاب، ويقع الإنذار من هذا وهذا.

قوله: (وربك فكبر أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ).

- قال ابن جرير: (**وربك** يا محمد فعظم بعبادته، والرغبة إليه في حاجاتك دون غيره من الآلهة والأنداد).
- فالتكبير هو التعظيم كما قال الله تعالى: **وكبره تكبيرًا** [الإسراء: ١١١].
- قال الشنقيطي: (**وكبره تكبيرًا** [الإسراء: ١١١] أي: عظمه تعظيماً شديداً، ويظهر تعظيم الله في شدة المحافظة على امتثال أمره واجتناب نهيه، والمسارعة إلى كل ما يرضيه: كقوله تعالى: **ولتكبروا الله على ما هداكم** [الحج: ٣٧]، ونحوها من الآيات).

قوله: (وثيابك فطهر أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ).

- هذا أحد الأقوال في تفسير هذه الآية، أن الطهارة فيه معنوية، والعرب تسمي الرجل الذي يتعفف ويتنزه عن المعايب والفواحش والمكاسب المحرمة نقي الثياب، وطاهر الثياب، وطيب الأردان، ومنه قول امرئ القيس:

ثِيابُ بَني عَوفٍ طَهارى نَقِيَّةٌ ... وَأَوجُهُهُم عِندَ المُشاهِدِ غرّان

- كما يسمون الفاجر والغادر والفاحش وآكل السحت دنس الثياب، ومنه قول الشاعر فيما أورده ابن قتيبة:

لاهــمَّ إن عــامر بــن جهــم أوذمَ حجــاً في ثيــابٍ دُسْــمِ

o أوذم: أي عزم وأوجب، والثياب الدسم هي المتسخة.

- وقد روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى: **وثيابك فطهر** قال: لا تلبسها على معصية ولا على غدرة، ثم أنشد قول غيلان الثقفي:

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

- والمقصود أن تطهير الثياب يراد به تطهير النفس من النجاسات المعنوية، وأشدها الشرك.

قوله: (**والرجز فاهجر** **الرُّجْزُ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا وَأَهْلِهَا، وَالبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا، وَعَدَاوَتُها وَأَهْلِهَا، وَفِرَاقُهَا وَأَهْلِهَا**).

- والرّجز: الأوثان، تضم الراء وتكسر، وهما قراءتان.
- وقد قال الله تعالى: **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قولَ الزور** [الحج: ٣٠].
- قال ابن المبارك اليزيدي: (الرجز والرجس واحد).
- وقد قيل في اشتقاق هذه العبارة أن هذا الأصل الذي هو الراء والجيم والزاي (ر ج ز) يفيد الاضطراب، ويفيد المهانة أيضا، فيه معنى الاضطراب وفيه معنى الامتهان، لأن أصل الرجز في اللغة هو داءٌ يصيب أعجاز الإبل فتضطرب منه أي: تتحرك حركة مضطربة.

o قال ابن فارس: (الراء والجيم والزاء أصلٌ يدلُّ على اضطرابٍ. من ذلك الرّجزُ: داءٌ يصيبُ الإبلَ في أعجازِها، فإذا ثارت النّاقةُ ارتعشَتْ فَخِذاها، ومن هذا اشتقاق الرَّجَزِ من الشِّعر؛ لأنه مقطوع مضطرب).

- والشرك فيه اضطراب؛ لأنه على غير قرار ولا يستند لحجة ولا يطمئن قلب صاحبه، بل هو مضطرب في اعتقاده، مضطرب في سلوكه، قال الله تعالى: **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماءِ فتخطفُه الطير أو تهوي به الريح في مكانٍ سحيق** [الحج: ٣١]، وقال: **ومثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثت من فَوقِ الأرضِ ما لها من قَرار** [إبراهيم: ٢٦]، وفيه أيضاً معنى الامتهان: **ومن يهنِ الله فما له من مكْرمٍ** [الحج: ١٨].
- ولا يسلم العبد من هذا الاضطراب والامتهان إلا بالتوحيد؛ فإنه بالتوحيد يتطهر ويزكو

ويطمئن، فيكون طيباً مباركاً ثابتاً على يقين وبينة من أمره، يمشي سوياً على صراط مستقيم.

قوله: (أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلى التَّوْحِيدِ).

- أي من بعثته، مكث عشر سنين ودعوته إلى التوحيد ونبذ الشرك، قبل أن تفرض الصلاة والزكاة والصيام والحج وكثير من أحكام العبادات والمعاملات.
- وهذا يدل على أهمية التوحيد، وأهمية الدعوة إليه، وأنه أصل الدين، وأولى ما يعتنى به.

قوله: (وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ).

- أي وبعد عشر سنين من البعثة عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء كما في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
- وفرضت عليه وعلى المسلمين الصلوات الخمس، وهي خمس في العدد وخمسون في الأجر.

قوله: (وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ).

- يقصد صلى الصلوات الخمس، وإلا فالنبي صلى الله عليه وسلم قد فرض عليه قيام الليل لما نزلت سورة المزمل ثم نسخ هذا الإيجاب.
- وتأريخ فرض الصلوات الخمس مختلف فيه بين أهل العلم حتى ذكر ابن حجر أن في هذه المسألة نحو عشرة أقوال لأهل العلم، لكن أشهرها ثلاثة أقوال:
  - **القول الأول:** أنه قبل الهجرة بنحو سنة، وهذا قول ابن سعد في الطبقات وقول إبراهيم الحربي وابن حزم وجماعة من أهل العلم، ومنهم من يزيد أشهراً وينقص أشهراً.
  - **القول الثا :** أنه قبل الهجرة بثلاث سنين، وهذا القول حكاه ابن حجر عن ابن الأثير، وقال به ابن قدامة في المغني، قال ابن رجب: (وهو أشهَر).
  - **القول الثالث:** أنه بعد البعثة بخمس سنين، وهو قول الزهري، ورجحه النووي.

والمسألة بحاجة إلى مزيد بحث، والله تعالى أعلم.

قوله: (وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالهِجْرَةِ إِلى المَدِينَةِ).

- أي بعد ثلاثة عشرة سنة، كما دل عليه حديث ابن عباس في صحيح البخاري وغيره، وقد تقدم ذكره.

هذا والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدرس الثامن عشر: الهجرة

قال رحمه الله:

(وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالهِجْرَةِ إلى المَدِينَةِ.

وَالهِجْرَةُ: الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إلى بَلَدِ الإِسْلاَمِ، وَالهِجْرَةُ: فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إلى بَلَدِ الإِسْلاَمِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إلى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **إن الذين توفاهم الملائكةُ ظالمي أنفُسِهم قالُوا فيم كُنتم قالُوا كُنا مستضعفين في الأرضِ قالُوا ألم تكُن أرض الله واسعةً فتهاجِروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءَت مصيراً (٩٧) إلا المُستضعفين من الرجالِ والنساءِ والولْدان لا يستطيعونَ حيلةً ولا يهتدونَ سبِيلاً (٩٨) فأولئك عسى الله أنْ يعفُو عنهم وكانَ الله عفُواً غَفُورًا** [النساء: ٩٧- ٩٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعةٌ فإياي فاعبدون** [العنكبوت: ٥٦].

قَالَ البَغَوِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: (سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي المُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا؛ نَادَاهُـمُ اللهُ باسْمِ الإِيمَانِ).

وَالدَّلِيلُ عَلَى الهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم: « **لا تنقطع الهجرةُ حتى تنقطع التوبةُ، ولا تنقطع التوبةُ حتى تطلُع الشمس من مغربِها** ».

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالمَدِينَةِ أُمِرَ فِيهَا بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلاَمِ؛ مِثْلِ الزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالحَجِّ والأَذَانِ وَالجِهَادِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلاَمِ.

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا تُوُفِّيَ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ).

عناصر الدرس:

- الهجرة في سبيل الله
  - معنى الهجرة
  - أنواع الهجرة
  - مقاصد الهجرة
  - فضل الهجرة في سبيل الله تعالى
  - متى تنقطع الهجرة
  - هجرة البادي وهجرة الحاضر
  - حكم الهجرة
- فرض بقيّة شرائع الإسلام بعد تقرير التوحيد
- تاريخ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

معنى الهجرة:

قوله: (وَالهجْرَةُ: الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إلى بَلَدِ الإِسْلاَمِ، وَالهجْرَةُ: فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إلى بَلَدِ الإِسْلاَمِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إلى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ).

- الهجرة في اللغة هي الانتقال من بلد إلى بلد، وسمي فاعل ذلك مهاجراً، لأنه قد هجر بلدَه ومن فيه، وَرَغِبَ عن جوارهم.
- وقد تنوعت عبارات أئمة اللغة في بيان معنى الهجرة، والاطلاع على أقوالهم مفيد طالب العلم، إذ يحصل بمجموع كلامهم فهم المعنى المقصود من أكثر من وجه.

o قال أبو منصور الأزهري: (كلُّ من فارقَ رِباعَه من بدويّ أو حَضَريّ وسكن بلداً آخر فهو مُهاجر، والاسم منه الهجرة).

رِبَاعَه: أي محل إقامته.

o وقال ابن سيده في المحكم: (الهجرة: الخروج من أرض إلى أرض).

o وقال الخليل بن أحمد: (الهَجْرُ والهجران تركُ ما يَلْزَمُك تَعَهُّدُهُ ومنه اشتُقَّتْ هجرةُ المُهاجرينَ لأَنَّهم هَجَروا عشائِرَهُمْ فتقطّعوهم في الله قال الشاعر:

وأُكْثِرَ هَجْرَ البيتِ حتَّى كأنّني مَلِلْتُ وما بي من مَلالٍ ولا هَجْرِ).

- فتبيَّن أن الهجرة في اللغة لا بد فيها من مفارقة وانتقال؛ فيفارق محل إقامته، وينتقل إلى بلد آخر يقيم فيه، وبذلك يكون مهاجراً.
- والهجرة تنقسم إلى قسمين: هجرة معنوية وهجرة حسية.
- **فأما ا جرة ا عنوية** فهي: هَجْرُ كلِّ ما نهى الله عنه كما في صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**ا سـلم من سلم ا سلمون من لسانه ويده، وا هاجر من هجر ما نى ا عنه**)).
- وهذه الهجرة المعنوية شأنها عظيم بل هي أصل الهجرة الحسية، كما أن جهاد النفس أصل سائر أنواع الجهاد.
- وهي واجبة في هَجْرِ ما نهى الله عنه نهي تحريم، ومستحبة في هجرِ ما نُهي عنه نَهْيَ كراهة دون نهي التحريم.

• والمؤمن مأمور بأن يحقق الهجرة المعنوية وذلك بترك جميع ما نهى الله عنه نهي تحريم أو كراهة من قول أو فعل أو اعتقاد.

• وهذه الهجرة تقتضي أن ينيب العبدُ المهاجرُ بقلبه إلى الله عز وجل ؛ فيهاجر من الظلمات إلى النور ، ومن الشرك إلى التوحيد ، ومن البدعة إلى السنة ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الغفلة إلى الذكر ، ومن الإساءة إلى الإحسان.

• ومن تأمل أحوال هذه الهجرة وجدها تنتظم جميع أعمال العبد وحركاته وسكناته ، ومن كان هذا دأبه كان من الأوَّابين المنيبين.

• قال ابن القيم رحمه الله في الرسالة التبوكية : (**ا جرة هجرتان:**

o **ا جرة الأو :** هجرة بالجسم من بلد إلى بلد ، وهذه أحكامها معلومة وليس المراد الكلام فيها.

o **وا جرة الثانية:** الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله ، وهذه هي المقصودة هنا ، وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية ، وهي الأصل ، وهجرة الجسد تابعة لها.

• وهي هجرة تتضمن (من) و(إلى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته ، ومن عبودية غيره إلى عبوديته ، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه ، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له ، وهذا بعينه معنى الفرار إليه قال تعالى : **فَفروا إلى الله** [الذاريات : ٥٠]) ا.هـ.

• وفي مسند الإمام أحمد والتاريخ الكبير للبخاري وشعب الإيمان للبيهقي أن معاوية بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم قالوا : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **إن ا جرة خصلتان: إحدا ا أن تهجر السيئات، والأخرى أن تهاجر إ ا ورسوله، ولا تنقطع ا جرة ما تقُبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة ح تطلع الشمس من ا غرب؛ فإذا طلعت طُبع على كلّ قلبٍ ا فيه وكُفي الناس العملَ** ».

• وفي مسند الإمام أحمد وغيره من حديث عمرو بن عَبَسة السلمي رضي الله عنه وهو

من السابقين الأولين إلى الإسلام أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم: (أي الهجرةِ أفضل؟). قال: « **أن تجر ما كره ربك** ».

- ورواه أبو داوود والنسائي من حديث عبد الله بن عمرو وعبد الله بن حبشي مع إبهام السائل، ولفظه: قيل: فأي الهجرة أفضل؟ قال: « **أن تجر ما حرم ا** ».
- والهجرة المعنوية يتحدث عنها علماء السلوك والتزكية ويقسّمونها إلى هجرتين:

o ١: هجرة إلى الله تعالى بالإخلاص ويفيضون في الحديث فيها عن مسائل الإخلاص وتطهير القصد مما ينقض الإخلاص أو ينقصه من الشرك الأكبر والأصغر وإرادة الدنيا بعمل الآخرة وسائر حظوظ النفس المحرمة وحيل الشيطان في صرف العبد عن تحقيق الإخلاص.

o ٢: وهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحقيق المتابعة ويفيضون في الحديث فيها عن اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم في العبادات والمعاملات ومعرفة تفاصيل ذلك وعلاماته ومراتبه.

- وغاية ما يبلغه العبد من درجات الإحسان إنما يحصل له بتحقيق هاتين الهجرتين.
- ومن أحسن ما أُلِّفَ في هذا الباب كتاب ابن القيم رحمه الله الموسوم بطريق الهجرتين وباب السعادتين.
- يقصد بالهجرتين: الهجرة إلى الله تعالى، والهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، ويقصد بالسعادتين: سعادة الدنيا والآخرة.
- وأما الهجرة المرادة هنا فهي التي عرَّفها المؤلف بقوله: (وَالهِجْرَةُ: الاِنْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلى بَلَدِ الإِسْلاَمِ)
- قوله: (من بلد الشرك) أي البلد الذي يكون للمشركين فيه سلطان وحكم؛ بحيث يمنعون به بعض المسلمين من إقامة دينهم.
- **(إلى بلد الإسلام)** أي إلى البلد الذي يكون الحكم فيه للمسلمين.
- وهذه الهجرة واجبة وجوباً مؤكداً في نصوص الكتاب والسنة، بل من تأمل النصوص وتعرف على مقاصد الهجرة وفضائلها وأحكامها تبيّن له أن للهجرة شأناً عظيماً في الإسلام، وأنها سبب عظيم لرفعة الدين وعزة المسلمين.

- وهي واجبة على كل من لم يستطع إظهار شعائر دينه بسبب تسلط الكافرين عليه لينتقل إلى البلاد التي لا سلطان للكفار عليها، فيعبد الله عز وجل ويظهر شعائر دينه.
- وهذا يدلك على أهمية سعي المؤمنين في التخلص من تسلط الكافرين والمنافقين، وأنه لا يمكنهم إقامة دينهم على الوجه المرضي ما داموا تحت تسلط الكافرين أعداء الدين.
- من شأن أعداء الدين أنهم مجتهدون في محاربة دين الله عز وجل، ومحاربة عباده المؤمنين لا يألونهم خبالاً، ولا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة، ولا يمكّنونهم من إقامة الدين على الوجه المرضي.
- ومن تأمل أحوال المسلمين اليوم ورأى اجتهاد الكفار وتآمرهم على المسلمين وسعيهم بكل سبيل إلى التضييق على المؤمنين وإضعاف قوتهم واجتهادهم وتناذرهم على ألا تقوم لهم قائمة، وتفننهم في أساليب غزوهم فكرياً واقتصادياً وعسكرياً وإعلامياً علم مقدار ما يكنّه أولئك الكفار من العداوة الشديدة للمسلمين.
- ولولا أنَّ الله تعالى قد ضمن ألا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق منصورين ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم لاندرست معالم الدين مِن عظم كيدهم ومكرهم **وإن كانَ مكْرهم لتزولَ منه الْجِبالُ** [إبراهيم: ٤٦].
- والمقصود أن الإقامة في سلطان الكفار فيها مفاسد كبيرة، وفتن عظيمة.
- وقد شرع الله الهجرة لإخراج المؤمنين من الضيق إلى السعة ومن الذلة إلى العزة ووعدهم النصر كما قال تعالى: **أُذنَ للذين يقَاتلُونَ بِأنهم ظُلموا وإن الله علَى نصرهم لَقَديرٌ (٣٩) الذين أُخرجوا من ديارهم بِغير حق إلا أن يقُولُوا ربنا الله** [الحج: ٣٩، ٤٠].

مقاصد الهجرة

- للهجرة مقاصد عظيمة وحكم جليلة:
  - **منها:** أنها سبب لحفظ المؤمنين من الفتنة في الدين.
  - **ومنها:** أنها سبب لعزة المؤمنين ورفعتهم ومَنَعَتهم من ظلم الكفار وتسلطهم عليهم في أنفسهم وأعراضهم وأموالهم.

- **ومنها:** أن تميّز المسلمين في بلادٍ لا يكون للكفار سلطان عليها سبب لإقامة الجهاد في سبيل الله، ومقاتلة الكفار الذين لا يستجيبون لدعوة الحق ولا يسالمون المسلمين.
- **ومنها:** أنَّ مَن كان يخفي إسلامه خوفاً من تسلط الكفار إذا علم بقيام بلد مسلم بأحكام الجهاد وإيواء المهاجرين ونصرتهم هاجر إليه؛ فيكثر المهاجرون وتكون لهم شوكة يدفعون بها عن أنفسهم ويقاتلون من يستحق القتال.

- وقد حقق شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله هذه الأمور في دعوته المباركة، وقد أحسن بذكر هذه المسألة هنا في بيان أصول الدين، وهذا يعرّفك بخبرته رحمه الله وحسن إعداده لهذه الرسالة وانتقائه لمباحثها.
- وقد تحالَف الشيخ رحمه الله مع أمير الدرعية لإقامة دولة إسلامية لا سلطان للكفار عليها ولا لمن والاهم من المنافقين والطغاة الذين كانوا في ذلك الزمان، واعتنى بتعليم العقيدة الصحيحة ونشر الفقه في الدين، ولا سيما في مسائل التوحيد وأصول الدين، ودعا المسلمين إلى الهجرة إليها وبين أنها واجبة من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام حتى اجتمع له جيش وقوة.
- ثم بدأ بدعوة من يليهم من البلدان التي يدين أهلها وحكّامها بالشرك وإن كان فيهم من لا يقرّ الشرك ولا يقدر على تغييره؛ فدعاهم إلى التوحيد؛ فمن استجاب دخل في دولة التوحيد وأُقِرَّ على ما بيده من الولاية، وكان عوناً للمسلمين ومدداً لهم، ومن أصرَّ على الشرك وأبى الاستجابة لدعوة التوحيد استعانوا بالله على قتاله.
- وكانوا موفَّقين منصورين في حروبهم على من عاداهم وناوأهم لَمّا كانت النية خالصة لنصرة دين الله عز وجلّ، وكان الشيخ معهم يعظهم وينصحهم ويحذرهم من أسباب الهزيمة التي عرفها من أدلة الكتاب والسنة حتى أقيمت الدولة وكتب الله لها النصر وتوحّدت له البلاد بعد أن كانت إمارات متفرقة ينتشر فيها الشرك والبدعة والخرافات ويسومها الطغاة سوء العذاب.
- وبقيت الدولة في عزٍّ وهيبة حتَّى حصل ما حصل من التغيير بعد وفاة الشيخ رحمه الله بزمن فكانت الهزيمة المؤسفة التي قضت على الدولة السعودية الأولى.
- قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: (فلما حصل بعض التغيير في آخر الزمان بعد

وفاة الشيخ محمد بمدة طويلة، ووفاة كثير من أبنائه رحمة الله عليهم وكثير من أنصاره حصل بعض التغيير فجاء الابتلاء وجاء الامتحان بالدولة التركية، والدولة المصرية، مصداق قوله عز وجل: **إن الله لا يغير ما بِقَومٍ حتى يغيروا ما بِأنفُسِهِم** [الرعد: ١١])ا.هـ.

فضل الهجرة في سبيل الله تعالى

• وعد الله المهاجرين في سبيله وعداً حسناً وفضلاً عظيماً؛ فمن كتبت له الحياة نال من ثواب الدنيا ما تقرّ به عينه ومن اصطفاه الله فمات أو قتل لقي من إكرام الله تعالى له ما لا يخطر له على بال.

• كما دل على ذلك قول الله تعالى: **وَٱلّذين هاجروا في ٱللّه من بعد ما ظُلموا لَنبوّئَنّهم في ٱلدّنيا حسنةً ولَأجر ٱلآخرة أكبَر لَو كَانوا يعلمونَ (٤١) ٱلّذين صبروا وعلى ربّهم يتوكّلُونَ (٤٢)** [النحل: ٤١، ٤٢].

• وقوله: **وَٱلّذين هاجروا في سبِيل ٱللّه ثُمّ قُتلُوا أو ماتوا لَيرزقنّهم ٱللّه رزقًا حسنًا وإنّ ٱللّه لَهو خير ٱلرّازقين (٥٨) لَيدخلنّهم مدخلًا يرضونه وإنّ ٱللّه لَعليمٌ حليمٌ (٥٩) ذَلك ومن عاقَب بِمثْلِ ما عوقب بِه ثُمّ بغي عليه لَينصرنّه ٱللّه إنّ ٱللّه لَعفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)** [الحج: ٥٨- ٦٠].

• ومن فضائلها أنها تهدم ما كان قبلها من الذنوب والمعاصي كما في صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: لَمّا جعلَ الله الإسلامَ في قلبي أتيتُ النبيّ صلّى الله عليه وسلم فقلتُ: ابسُطْ يمينكَ فَلأُبايعُك، فبسط يمينَه فقبضْتُ يَدِي؛ فقال: «**ما لــك يــا عمـــرو؟**» قلتُ: أردتُ أنْ أشْتَرِط؛ قال: «**تشـــترط مـــاذا؟**»؛ قلت: أنْ يُغْفَرَ لي؛ قال: «**أما علمت أنّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله**».

• وهذا يدل عليه قوله تعالى: **ثُمّ إنّ ربّك لِلّذين هاجروا من بعد ما فُتنوا ثُمّ جاهدوا وصبروا إنّ ربّك من بعدها لَغفُورٌ رحيمٌ (١١٠)** [النحل: ١١٠].

• ومن فضائلها ما رواه ابن حبان في صحيحه والبزار في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**للمهاجرين منابر من ذهب يجلسون عليها يوم القيامة قد أمنوا من الفزع**». والحديث صححه الألباني رحمه الله.

• والذي ينال فضائل الهجرة إنما هو المخلص فيها، الذي هاجر لله عز وجل، ولم تكن هجرته لأجل الدنيا كما في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إ ا الأعمال بالنيات، وإ ا لكل امرئ ما نوى؛ فمـن كانـت هجرته إ ا ورسوله فهجرته إ ا ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امـرأة ينكحها فهجرته إ ما هاجر إليه**».

• وقد ذكر بعض أهل العلم أنه لعظم ثواب هذه الهجرة اكتفي بإعادة ذكرها في جواب الشرط «**فمن كانت هجرته إ ا ورسوله فهجرته إ ا ورسوله**»؛ فكأنه قيل: لا تسأل عن ثوابها؛ فثوابها أعظم من يذكر.

• وهذا القول له أصل في اللغة فإن الإبهام يأتي في اللغة أحياناً للمبالغة، وهذا كما أُبهم أجر المهاجر، وجعله الله تعالى واجباً عليه في قوله تعالى: **ومن يخرج من بيته مهاجِرًا إلـى اللّه ورسوله ثُم يدركْه الْموت فَقَد وقَع أجره على اللّه** [النساء: ١٠٠].

• فهذا الذي خرج من بيته ولم يقل (من بلده)، وهو عازم على الهجرة؛ فما بالك بمن تتمّ له هجرته وجهاده؟!!.

• في الصحيحين من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: (هاجرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نلتمس وجه الله؛ فوقع أجرنا على الله؛ فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد وترك نَمِرَةً؛ فكنا إذا غطينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه؛ فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغطي رأسه، وأن نجعل على رجليه شيئاً من الإذخر، وَمِنّا من أينعت له ثمرته فهو يَهْدِبُها).

• ونظير هذا قول عتبة بن غزوان رضي الله عنه وكان من المهاجرين الأولين لما ولاه عمر بن الخطاب إمارة البصرة خطب في أهلها خطبة جليلة رواها الإمام أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه وغيرهما، قال فيها: (ولقد رأيتُني سابعَ سبعة مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، ما لنا طعام إلا وَرقُ الشجر، حتى قَرِحَتْ أشْدَاقُنَا، والتقطتُ بُرْدةً، فشققتُها بيني وبين سعد بن مالك – يقصد سعد بن أبي وقاص – ، فاتّزَرْتُ بنصفها، واتّزرَ سَعد بنصفها، فما أصبح اليومَ منا أحد إلا أصْبَحَ أميراً على مِصر من الأَمصار، فإني أعوذ باللّه أن أكونَ في نفسي

عظيما، وأنا عند الله صغير، وإنّه لم تكن نُبُوّة قَطُّ إلا تَناسَخَت حتى تكونَ عاقِبَتُها مُلْكا، وسَتَخْبُرون وتُجرِّبون الأمراءَ بعدَنا).

● فهؤلاء المهاجرون رضي الله عنهم كانوا في ضيق ومحنة من تسلط الكفار عليهم؛ فلما أمرهم الله بالهجرة استجابوا لله تعالى وهاجروا ابتغاء مرضاته فصدقهم الله وعده فمن مات منهم أو قتل رزقه الله من فضله العظيم ما لا تقوم له الدنيا وأضعافها، ومن بقي منهم بوّأه الله مبوّأً حسناً ورزقه رزقاً كريما في الدنيا وما أعده الله لهم في الآخرة أعظم.

● ولك أن تتفكر في نفسك: هل كانت تبلغ أماني من كان مستضعفاً في مكة والمسلمون قليل عددهم ضعيفة عدتهم والمشركون في زهوهم وعتوّهم وطغيانهم يسومون عباد الله المؤمنين سوء العذاب، هل كانت أمانيه تبلغ أن يكون – بعد سنوات قليلة - حاكماً على مصرٍ من الأمصار كانت تحكمه دولة من أعظم دول الأرض في ذلك الوقت؟!!

● ولكنهم آمنوا بالله وصدّقوا بوعده فأنجز الله لهم ما وعدهم، ومن أوفى بوعده من الله.

● والمقصود أن من لا يستطيع إقامة شعائر دينه بسبب تسلط الكافرين ووجد سبيلاً للهجرة فالهجرة عليه واجبة بإجماع العلماء.

● ومن ترك هذه الهجرة الواجبة وهو قادر عليها فقد عرض نفسه للوعيد الشديد والعذاب الأليم كما في قوله تعالى: **إِنَّ ٱلَّذِين توفّاهم الملائكةُ ظالمي أنفُسِهم قَالُوا فيم كُنتم قَالُوا كُنّا مستضعفين في الأرضِ قَالُوا ألم تكُن أرض اللّه واسعةً فَتهاجِروا فيها فَأولئك مأواهم جهنّم وساءَت مصيرًا (٩٧) إِلّا المستضعفين من الرّجالِ والنِّساءِ والوِلْدان لا يستطيعونَ حيلةً ولا يهتدونَ سبِيلًا (٩٨) فَأولئك عسى اللّه أنْ يعفُو عنهم وكَانَ اللّه عفُوًّا غَفُورًا (٩٩) ومن يهاجِر في سبِيلِ اللّه يجِد في الأرضِ مراغَمًا كثيرًا وسعةً ومن يخرج من بيته مهاجِرًا إلى اللّه ورسوله ثُمّ يدركْه الموت فَقَد وقَع أجره على اللّه وكَانَ اللّه غَفُورًا رحيمًا(١٠٠)** [النساء: ٩٧- ١٠٠].

● قال ابن كثير رحمه الله: (هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع).

• وقال الشنقيطي في تفسير قول الله تعالى: **وأرض الله واسعةٌ** : (قوله تعالى: **وأرض الله واسعةٌ** : الظاهر أن معنى الآية: أن الإنسان إذا كان في محل لا يتمكن فيه من إقامة دينه على الوجه المطلوب، فعليه أن يهاجر منه، في مناكب أرض الله الواسعة، حتى يجد محلاً تمكنه فيه إقامة دينه، وقد أوضح تعالى هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: **إنّ الّـذين توفّاهم الملائكةُ ظالمي أنفُسِهم قَالُوا فيم كُنتم قَالُوا كُنّا مستضعفين في الأرض قَالُوا ألَم تكُن أرض الله واسعةً فتهاجِروا فيها** [النساء: ٩٧]. وقوله تعالى: **يا عبادي الّذين آمنـوا إنّ أرضي واسعةٌ فَإِيّاي فَاعبدون** [العنكبوت: ٥٦]، ولا يخفى أن الترتيب بالفاء في قوله: **فَإِيّـاي فَاعبدون** على قوله: **إنّ أرضي واسعةٌ** [العنكبوت: ٥٦] دليل واضح على ذلك)ا.هـ.

متى تنقطع الهجرة

• وهذه الهجرة باقية إلى قيام الساعة؛ ففي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داوود والنسائي وغيرها من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها** ».

• وفي مسند الإمام أحمد وسنن النسائي من حديث عبد الله بن واقد السعدي رضي الله عنه قال: وفدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفدٍ كلّنا يطلب حاجة وكنت آخرهم دخولا على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقلت: يا رسول الله إني تركت مَنْ خلفي وهم يزعمون أنّ الهجرة قد انقطعت، قال: « **لا تنقطع الهجرةُ ما قُوتل الكفار** ».

• فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الهجرة باقية ما بقي في الناس كفارٌ يُقاتَلون ولهم بلاد؛ فمن كان في بلادهم من المسلمين فالهجرة غير منقطعة عليه بل هي إما واجبة عليه إذا كان لا يستطيع إقامة شعائر دينه، وإما مستحبة له إذا كان قادراً على إقامتها ما لم تكن إقامته لمصلحة راجحة ويأمن الفتنة على نفسه.

• وأما ما في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية** ».

• فالمراد بالهجرة التي انقطعت هنا هي الهجرة إلى المدينة من مكة أو البلاد التي دخلت في

دين الله عز وجل في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، فإن العرب لما دخلت في الإسلام أصبحت بلاد العرب بلاد إسلام فلا معنى للهجرة منها.

• قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد قال صلى الله عليه وسلم: « **لا هجرة بعد الفـتح؛ ولكن جهادٌ ونيةٌ؛ وإذا استنفر فانفروا** » وقال: « **لا تنقطع ا جرة مـا قوتـل العـدو** » وكلاهما حق؛ فالأول أراد به الهجرة المعهودة في زمانه، وهي الهجرة إلى المدينة من مكة وغيرها من أرض العرب؛ فإن هذه الهجرة كانت مشروعةً لما كانت مكة وغيرها دار كفرٍ وحربٍ وكان الإيمان بالمدينة؛ فكانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام واجبةً لمن قدر عليها؛ فلما فتحت مكة وصارت دار الإسلام ودخلت العرب في الإسلام صارت هذه الأرض كلها دار الإسلام فقال: « **لا هجرة بعد الفتح** »)اهـ.

• وفي الصحيحين من حديث عطاء بن أبي رباح قال: زُرْتُ عائشة مع عبيد بن عُمَير الليثي - وهي مجاورة بثَبير - فسألتها عن الهجرة؛ فقالت: (لا هجرة اليوم؛ كان المؤمنون يفِرّ أحدُهم بدينه إلى الله عز وجل وإلى رسوله، مخافة أَنْ يُفْتَن عنه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، فالمؤمن يَعْبُدُ ربّهُ حيث شاء، ولكن جهاد ونية).

• وفي صحيح مسلم من حديث مجاشع بن مسعود السلمي رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم أبايعه على الهجرة؛ فقال: « **إن ا جرة قد مضت لأهلها، ولكن على الإسلام وا هاد وا** ». وذلك بعد فتح مكة.

• وفي صحيح البخاري عن مجاهد بن جبر قال: قلت لابن عمر رضي الله عنهما: (إني أريد أن أهاجر إلى الشام).

قال: (لا هجرة ولكن جهاد؛ فانطلق فاعرض نفسك فإن وجدت شيئا وإلا رجعت).

• فهذه هي الهجرة التي انقطعت، وأما الهجرة من بلاد الكفار إلى بلاد المسلمين فباقية لا تنقطع حتى تطلع الشمس من مغربها.

هجرة البادي وهجرة الحاضر

• عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

« **ا جرة هجرتان: هجرة ا اضر وهجرة البادي؛ أما البادي فإنه يطيع إذا أمر و يـب إذا**

دعي، وأمّا ا اضر، فهو أعظمهما بلية وأفضلهما أجرا)). رواه أحمد والنسائي وابن حبان وصححه الألباني.

- البادي الذي يقيم في البدو يحل ويرتحل، والحاضر من يسكن في القرى والمدن.
- فهجرة البادي أن يطيع إذا أُمِر ويجيب إذا دعي للجهاد في سبيل الله عز وجل، وأما الحاضر فهو أعظم بلية؛ لأن همة العدو تكون لغزو المدن والقرى فيكون الخطر على ساكنيها أعظم من الخطر على أهل البوادي.

حكم الهجرة

- قال ابن قدامة المقدسي في كتابه المغني: (**الناس ا جرة على ثلاثة أضربٍ:**
  - o **أحدها:** من تجب عليه، وهو من يقدر عليها، ولا يمكنه إظهار دينه، ولا تمكنه إقامة واجبات دينه مع المقام بين الكفار، فهذا تجب عليه الهجرة؛ لقول الله تعالى: **إن الـذين توفاهم الملآئكةُ ظالمي أنفُسِهم قَالُواْ فيم كُنتم قَالُواْ كُنا مستضعفِ في الأَرضِ قَالْوا أَلَم تكُن أرض اللّه واسعةً فَتهاجِرواْ فيها فَأُولَئك مأواهم جهنم وساءت مصـًا** [النساء: ٩٧].

وهذا وعيدٌ شديدٌ يدل على الوجوب، ولأن القيام بواجب دينه واجبٌ على من قدر عليه، والهجرة من ضرورة الواجب وتتمته، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجبٌ.

  - o **الثا :** من لا هجرة عليه، وهو من يعجز عنها، إما لمرضٍ، أو إكراهٍ على الإقامة، أو ضعفٍ؛ من النساء والولدان وشبههم، فهذا لا هجرة عليه؛ لقول الله تعالى: **إلا الْمستضعفِ من الرجالِ والنساء والْوِلْدان لاَ يستطيعونَ حيلَةً ولاَ يهتدونَ سبِيلاً** [النساء: ٩٨].

ولا توصف باستحبابٍ؛ لأنها غير مقدورٍ عليها.

  - o **والثالث:** من تُستحب له، ولا تجب عليه، وهو من يقدر عليها، لكنه يتمكن من إظهار دينه، وإقامته في دار الكفر، فتستحب له، ليتمكن من جهادهم)ا.هـ.

- ومن لا يمكنه الانتقال إلى بلاد المسلمين أو كان في الانتقال إليها مزيد أذى عليه بسبب تسلط بعض الظلمة وجب عليه الانتقال إلى بلد يتمكن فيه من إقامة شعائر دينه؛ لأن مقصود

الهجرة إقامة الدين.

• وذلك كما انتقل من انتقل من المؤمنين في الهجرة الأولى من مكة إلى الحبشة لّما كانت تلك البلاد آمنة يحكمها ملك عُرِف من شأنه إقامة العدل وكراهة الظلم ، قال محمد بن إسحاق صاحب السيرة : حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت : لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مَنَعَةٍ من قومه وعمّه لا يصلُ إليه شيءٌ مما يكرَه مما ينال أصحابَه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إن بأرض ا بشة ملكاً لا يظلم أحد عنده، فا قوا ببلاده ح عل ا لكم فرجاً و رجاً ا أنتم فيه** ».

فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها فنزلنا بخير دار إلى خير جار ، أمنا على ديننا ، ولم نخش منه ظلماً). وهذا إسناد حسن.

• ومن كان يجد في بعض بلاد المسلمين من الظلم والتضييق ما يمنعه من إقامة دينه فإنه ينتقل إلى الإقامة في البلاد التي يأمن فيها على دينه ونفسه وأهله ، ولو كانت من بلاد الكفار حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً.

• ومما يدرك به ثواب الهجرة العمل الصالح في زمان الفتن وكثرة القتل لما في صحيح مسلم من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **العبـادة ا رج كهجرة إ ّ** »، ورواه أحمد بلفظ « **العمل ا رج كهجـرة إ ّ** » والمراد به العمل الصالح ، والمراد بالهرْج كثرة القتل كما فسّره النبي صلى الله عليه وسلم.

فرض بقيّة شرائع الإسلام بعد تقرير التوحيد

قوله: (فَلَمّا اسْتَقَرّ بِالمَدِينَةِ أُمِرَ فِيهَا بِبَقِيّةِ شَرَائِعِ الإِسْلاَمِ؛ مِثْلِ الزّكَاةِ وَالصّوْمِ وَالحَجّ وَالأَذَانِ وَالجِهَادِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلاَمِ).

• أراد الشيخ رحمه الله أن يبين بهذه الجملة أهمية التوحيد وأن الرسول صلى الله عليه

وسلم كانت أكثر دعوته بمكة إلى التوحيد، فمكث فيها ثلاث عشرة سنة يدعو إلى التوحيد قبل أن تفرض كثير من فرائض الإسلام، بل إن الصلاة لم تفرض على هذه الفروض الخمسة إلا بعد البعثة بزمن، وهذا فيه دلالة بيّنة على أهمية التوحيد.

- ثم لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بدأ بتأسيس الدولة الإسلامية فكان أول ما شرع فيه بناء المسجد ليكون مجتمعاً للمسلمين تقام فيه الصلاة ويخطب فيه في الجمعة وفي النوائب التي تنوب المسلمين فيدعى (الصلاة جامعة) فيجتمع المسلمون فيخطب فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبين لهم ما يريد بيانه.
- وشرعت فرائض الإسلام شيئاً فشيئاً تخفيفاً من الله تعالى ورحمة بعباده، وكان بعض تلك الفرائض مأموراً به قبل الهجرة لكن ليس على التفصيل والمقادير المبينة بعد ذلك.

o فقد ورد الأمر بإيتاء الزكاة في بعض السور المكية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بالزكاة والعفاف والصلة وأعمال البر والإحسان كما دل على ذلك قول أبي سفيان لما سأله هرقل عن النبي صلى الله عليه وسلم بم يأمركم؟ فقال: (يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف)؛ قال: (إن يك ما تقول حقاً فإنه نبي). وخبره مخرّج في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

o فالزكاة المأمور بها كانت على وجه الإجمال، ثم بعد الهجرة فصلت أحكام الزكاة الواجبة وبُيِّنَ ما تجب فيه الزكاة وما لا زكاة فيه، والأنصباء والمقادير.

o وكذلك الأمر بالعفاف كان مأموراً به على وجه الإجمال ثم بيّن بعد الهجرة الأنكحة المحرمة كالجمع بين الأختين ونكاح نساء الآباء ونكاح المرأة بلا وليّ ونكاح المتعة والشغار وسائر الأنكحة المحرمة.

o وكذلك الأذان للصلوات إنما شرع بعد الهجرة وبعد بناء المسجد كما دل على ذلك حديث عبد الله بن عمر وحديث عبد الله بن زيد.

o وكذلك الصيام إنما فرض في السنة الثانية للهجرة.

o وكذلك الحج فرض في السنة التاسعة وقيل العاشرة للهجرة.

o وكذلك القتال لم يؤذن به إلا بعد الهجرة، لّما صار للإسلام حوزة وَمَنَعَة وقوّة.

- وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأمرون بالتوحيد وهو أعظم ما أمر الله به ويأمرون بالعدل والإحسان وأداء الأمانات وأعمال البر ومكارم الأخلاق، وينهون عن الشرك وهو أنكر المنكرات وينهون عن الفساد في الأرض ومساوئ الأخلاق قبل الهجرة وبعدها.
- لكن إقامة الحدود والتعزيرات إنما كانت بعد الهجرة بزمن.

تاريخ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

قوله: (أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا تُوُفِّيَ- صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ).

- أي أن النبي صلى الله عليه وسلم بقي في المدينة بعد الهجرة عشر سنين كما دل عليه حديث ابن عباس المتقدم.
- وهو في هذه العشر يبين للناس ما نزل إليهم من شرائع دينهم ويجاهد في سبيل الله عز وجل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى توفي صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة.
- قال ابن عبد البر: (لا خلاف أنه ولد يوم الاثنين بمكة في ربيع الأول عام الفيل، وأن يوم الاثنين أول يوم أوحى الله إليه فيه، وأنه قدم المدينة في ربيع الأول، قال ابن إسحاق: "وهو ابن ثلاث وخمسين سنة"، وأنه توفي يوم الاثنين في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة صلى الله عليه وسلم)ا.هـ.
- وقال النووي: (واتفقوا انه ولد يوم الإثنين في شهر ربيع الأول، وتوفي يوم الإثنين من شهر ربيع الأول)ا.هـ.
- وقال السهيلي في الروض الأنف وهو من أجلّ كتب السيرة: (واتفقوا أنه توفي صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين إلا شيئًا ذكره ابن قتيبة في المعارف "الأربعاء"؛ قالوا كلهم: "وفي ربيعٍ الأول" غير أنهم قالوا أو قال أكثرهم: "في الثاني عشر من ربيعٍ" ولا يصحُّ أن يكون توفي صلى الله عليه وسلم إلا في الثاني من الشهر أو الثالث عشر أو الرابع عشر أو الخامس عشر لإجماع المسلمين على أن وقفة عرفة في حجة الوداع كانت يوم الجمعة وهو التاسع من ذي

الحجة فدخل ذو الحجة يوم الخميس ؛ فكان المحرم إما الجمعة وإما السبت :

- فإن كان الجمعة فقد كان صفرٌ إما السبت وإما الأحد.
- فإن كان السبت فقد كان ربيعٌ الأحد أو الاثنين.

وكيفما دارت الحال على هذا الحساب فلم يكن الثاني عشر من ربيعٍ يوم الاثنين بوجه ولا الأربعاء أيضًا كما قال القتبي وذكر الطبري عن ابن الكلبي وأبي مخنفٍ أنه توفي في الثاني من ربيعٍ الأول وهذا القول وإن كان خلاف أهل الجمهور فإنه لا يبعد إن كانت الثلاثة الأشهر التي قبله كلها من تسعةٍ وعشرين فتدبره فإنه صحيحٌ ولم أر أحدًا تفطن له وقد رأيت للخوارزمي أنه توفي عليه السلام في أول يومٍ من ربيعٍ الأول وهذا أقرب في القياس بما ذكر الطبري عن ابن الكلبي وأبي مخنفٍ)ا.هـ.

● قلت : افتراض أن الأشهر الثلاثة كلها من تسعة وعشرين بعيد ، والأقرب أنه يوم الإثنين الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول فإن التصحيف من الثاني والعشرين إلى الثاني عشر وارد ، وذلك أنه بناء على المعهود من الحساب إما أن يكون شهر صفر ثلاثين يوماً فيكون يوم الإثنين هو تمام الثلاثين من تلك السنة ، وإما أن يكون تسعة وعشرين يوماً ، ويكون يوم الإثنين غرة شهر ربيع الأول ، ويكون الثاني والعشرين موافقاً ليوم الإثنين ، والله تعالى أعلم.

● وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي وعمره ثلاث وستون.

الدرس التاسع عشر: كمال دين الإسلام

قال رحمه الله:

(وَدِينُهُ بَاقٍ، وَهَذَا دِينُهُ، لاخَيْرَ إِلاَّ دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلاَّ حَذَّرَهَا عَنْهُ.

وَالخَيْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَ عَنْهُ: الشِّرْكُ وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ وَيَابَاهُ.

بَعَثَهُ اللهُ إِلى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الجِنِّ وَالإِنْسِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **قلْ يا أيها الناس إني رسولُ ا ـ إليكم جميعاً** [الأعراف: ١٥٨].

وَأَكْمَلَ اللهُ لَهُ الدِّينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** [المائدة: ٣].

وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قوْلُهُ تَعَالَى: **إنك ميتٌ وإنهم ميتونَ (٣٠) ثُم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمونَ** [الزمر: ٣٠- ٣١].

عناصر الدرس:

- أصل بقاء الدين محفوظاً إلى قيام الساعة
- الاعتصام بالكتاب والسنة
- عموم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين
- أصل كمال دين الإسلام
- كمال الدين يستلزم كمال التبليغ
- موت النبي صلى الله عليه وسلم

أصل بقاء الدين محفوظاً إلى قيام الساعة

قوله: (وَدِينُهُ بَاقٍ).

- أي أن دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم باق إلى أن تقوم الساعة ؛ ومن أدلة ذلك قول الله تعالى : **إنا نحن نزلنا الذكْر وإنا له لحـافظُونَ** [الحجر: ٩] وقوله : **ثُم إن علَينا بيانه** [القيامة: ١٩]، وقوله : **وأنزلْنا إلَيك الذكْر لتبين للناس مـا نـزلَ إلَيهم** [النحل: ٤٤].
- فضمن الله تعالى حفظ كتابه الكريم نصّاً وبياناً، فلذلك لا يزال هذا القرآن الكريم محفوظاً ولا يزال ما يلزم لبيانه محفوظاً بحفظ الله تعالى لكتابه.
- ويدل لذلك أيضاً ما تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **لا تزال طائفة من أم قائمة بأمر ا لا يضرهم من خذ م أو خالفهم ح يأ أمر ا وهم ظاهرون علـى الناس** » هذا لفظ حديث معاوية بن أبي سفيان في صحيح مسلم.
- وقد روي هذا الحديث بألفاظ مقاربة في الصحيحين والمسند وغيرها من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم: منهم جابر بن عبد الله، والمغيرة بن شعبة، وثوبان بن بجدد، وقرة بن إياس، وسلمة بن نفيل، وزيد بن أرقم، وعمران بن حصين، وأبو بكرة الثقفي، وأبو أمامة الباهلي، وأبو هريرة، وعمر بن الخطاب وغيرهم ؛ فهو من الأحاديث المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم.
- اعتقاد كمال الدين وحفظه إلى أن تقوم الساعة أصل مهم من أصول الدين.
- قال البخاري رحمه الله في صحيحه: (باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا تزال طائفة من أم ظاهرين على ا ق** » وهم أهل العلم). وهذا تفسير من البخاري رحمه الله، وقال علي بن المديني: (هم أصحاب الحديث).
- والظهور يتناول أهل العلم والجهاد كما صُرِّحَ به في بعض الروايات كما في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تزال طائفة من أم يقاتلون على ا ق ظاهرين إ يوم القيامة** ».
- وفي حديث أبي هريرة: «**لا تزال طائفة من أم قوّامة على أمر ا لا يضـرّها مـن**

خالفها تقاتلُ أعداءَ ا كلّما ذهبت حربٌ نشبت حرب قومٍ آخرين حـ تأتيهم الساعة)).

- وتفسير البخاري رحمه الله صحيح لأنه لا يكون الجهاد إلا على دعوة، ولا تكون الدعوة إلا على علم، فعُلِمَ بذلك أن ظهور العلم أصل ظهور الجهاد.
- ولذلك كانت الدعوات الإصلاحية مبناها على العلم أولاً.
- وهذه الأحاديث فيها ضمانات عظيمة وإشارات جليلة:
  - o **فمنها** أن الله تعالى قد تكفل بحفظ دينه وأوليائه.
  - o **ومنها** أن أهل الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.
  - o **ومنها** أنهم يقاتلون على الحق؛ فمعهم سلاح العلم الذي يُعرف به الحق، ومعهم ما يمكّنهم من القتال الذي ينصرون به على أعدائهم.
  - o ومن الإشارات في هذه الأحاديث أنه يقع لمن قام بهذه الأمور من الدعوة والجهاد خذلان شديد ومخالفة يُبتلَون بها لكنّ ذلك لا يضرهم.
  - o فالخذلان يكون ممن يُتوقع منه النصر والمؤازرة، والمخالفة قد تكون منهم وقد تكون ممن يبدي العداوة والمناوأة.
  - o ومما دلّ عليه مفهوم هذه الأحاديث أن هؤلاء الخاذلين والمخالفين غير منصورين، وإن اغتروا ببعض وسائل العلو في الأرض؛ فإنما هو متاع إلى حين ثم تكون عاقبتهم سيئة.
- فمن فقه هذه الأحاديث:
  - o **أيقن** أن الله تعالى ناصر دينه ولو كره الكافرون، وأن السعيد الموفَّق من جعله الله من أنصار دينه.
  - o **وأيقن** أن عليه أن يعرف الحق بدليله وأن يكون قوّاماً بأمر الله عز وجل غير عابئ بمن يخذله أو يخالفه ممن أركسهم الله بما كسبوا من المنافقين والكافرين والعصاة المفتونين.
  - o **وأيقن** أنه لا يضره خذلانهم ولا مخالفتهم بإذن الله.
  - o **وأيقن** أن فتنة هؤلاء الخاذلين والمخالفين إنما كانت بسبب مخالفتهم لهدى الله عز وجل وإعراضهم عن طلب الهدى واتباعهم الظنّ وما تهوى الأنفس؛ فيشتد خوفه من الوقوع

فيما وقعوا فيه:

فيدعوه ذلك إلى الاعتصام بالله عز وجل والرضى به والثقة به جل وعلا **والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرًا** [النساء: ٤٥].

ويدعوه ذلك إلى أن يكون أكبر همّه أن يكون من الذين يعلمون الحق ويعملون به.

• وقد ضمن الله تعالى لمن اعتصم به أن يهديه، كما قال تعالى: **ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراطٍ مستقيم** [آل عمران: ١١].

• وقال: **فأمّا الّذين آمنوا بالّله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمةٍ منه وفضلٍ ويهديهم إليه صراطًا مستقيمًا (١٧٥)** [النساء: ١٧٥]؛ ثلاث بشارات عظيمة كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها.

• وتأمل قول الله تعالى: **فسيدخلهم في رحمةٍ منه وفضلٍ** [النساء: ١٧٥] فكأن الرحمة والفضل يحيطان بهم من جميع جوانبهم يتقلبون فيهما كيف يشاؤون.

• **ويهديهم إليه صراطًا مستقيمًا** [النساء: ١٧٥] وهذه هداية خاصة تقربهم إلى الله تعالى وتدنيهم منه وتعرّفهم بما يحبه الله عز وجل ويرضاه وتعرّفهم بما لم يكونوا ليهتدوا إلى معرفته لولا فضل الله عز وجل من أسباب رحمته وتوفيقه وفضله العظيم في الدنيا والآخرة.

الاعتصام بالكتاب والسنة

• الاعتصام بالشيء اتخاذه عاصماً ومانعاً مما يخشى ضرره، وقد أمر الله تعالى بالاعتصام به، وفي ضمن ذلك وَعْدُه لمن اعتصم به أن يعصِمَه مما يخاف ضرره.

• وقد قال الله تعالى: **فمن تبع هداي فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون** [البقرة: ٣٨]؛ فالاعتصام بالله يكون باتباع هدى الله عز وجل، في ما بينه في كتابه الكريم وفي ما بيّنه الرسول صلى الله عليه وسلم.

• كل ضرر يخشاه العبد في الدنيا والآخرة فإنّ الله تعالى قد بيّن في كتابه وفي سنة نبيه أسباب العصمة منه؛ فمن فعل ما أُمر به وانتهى عما نُهِيَ عنه فقد أخذ بأسباب العصمة، ومن أعرض عن الكتاب والسنة أو وقع في مخالفة الأمر وارتكاب النهي لم يكن معتصماً.

• وفي صحيح مسلم وغيره من حديث جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال

لأصحابه في خطبة الوداع: «**وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب ا وأنتم تسألون ء ؛ فما أنتم قائلون؟** »

قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت.

وقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «**اللهم اشهد، اللهم اشهد** » ثلاث مرات.

- وفي مستدرك الحاكم وسنن البيهقي وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إ قد تركت فيكم شيئ لن تضلوا بعد ا: كتاب ا وسن ولن يتفرقا ح يردا علي ا وض** ». صححه الألباني.

- والاعتصام بالكتاب والسنة أصل عظيم من أصول أهل السنة والجماعة، وتنبني عليه مسائل كثيرة من مسائل الاعتقاد، وقد ضلّت طوائف من أهل البدع بسبب ضعف اعتصامهم بالكتاب والسنة.

- بعض تلك الطوائف قدَّمت عقولها وأراءها على الكتاب والسنة، وبعضها قدمت أهواءها وأقوال معظميها على صريح دلالة الكتاب والسنة، ولذلك وقعت بعض تلك الطوائف في فتنة التأويل المذموم، ومنهم من وقع في فتنة التفويض، ومنهم من وقع في فتن أخرى.

- ولا عصمة لأحد من الضلال في اعتقاده إلا بالاعتصام بالكتاب والسنة؛ فالمعتصم مهتدي، والمفرّط في الاعتصام عرضة للضلالة، وقد قال الله تعالى: **ومن يعتصم با فقـد هدي إ صراط مستقيم** [آل عمران: ١١] ومفهوم المخالفة يدلّ على أنّ من لم يعتصم بالله فهو ضالّ هالك.

- وأمر الاعتصام بالكتاب والسنة ميسّر ليس فيه عنت ولا مشقة، وما جعل الله علينا في الدين من حرج.

قوله: (وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إِلاَّ دَلّ الأُمّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرّ إِلاَّ حَذّرَهَا عَنْهُ).

- الإشارة إلى دين الإسلام الذي بيّن في هذه الرسالة معناه وأصوله.

قوله: (لا خَيْرَ إِلاَّ دَلّ الأُمّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرّ إِلاَّ حَذّرَهَا عَنْهُ)

- الخير هو ما ينفع الإنسان في دينه أو دنياه.
- والشر هو ما يضره في دينه أو دنياه.
- فكل ما فيه مصلحة ومنفعة للمؤمن في دينه ودنياه فهو خير، وكل ما فيه مضرّة ومفسدة فهو شرٌّ.

وقوله: (لا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلا حذرها منه)

- هذا يدل عليه حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما في صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إنه يكن نـّ قبلـي إلا كان حقاً عليه أن يدلّ أمته على خ ما يعلمه م، وينذرهم شر ما يعلمه م**».
- وهذا الخير إمّا أن يكون مدلولاً عليه بعينه أو بوصفه، وكذلك الشر إما أن يكون منهياً عنه بعينه أو بوصفه.
- فالمأمور به بعينه أمرُهُ بيّن ظاهر لدلالة النصِّ عليه، وأما المأمور به بوصفه فهو مندرج تحت الأدلة العامة والقواعد الكلية للشريعة كما في قوله تعالى: **إن اللّـه يـأمر بالعـدل والإحسان** [النحل: ٩٠].
- والخير لا يخرج عن وصف العدل والإحسان؛ فكل خير فهو مأمور به أمر تكليف بالوجوب أو أمر استحباب أو أمر إباحة، وما خرج عن هذا الوصف فهو شرٌّ منهي عنه.
- وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ا ؤمن القوي خ وأحب إ ا من ا ؤمن الضعيف و كل خ ، احـرص على ما ينفعك واستعن با ولا تعجز فإن أصابك شيء فلا تقل لو فعلت كذا وكذا ولكن قل قدّر ا وما شاء فعل**». وقد تقدم شرح الحديث.
- وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**احرص على ما ينفعك**» عامّ في كل ما ينفع المؤمن في دينه ودنياه؛ وما ينفع فهو خير؛ فدلّ ذلك على أن كلّ خير فقد أمر به النبي صلى الله عليه وسلم.
- ودل مفهومه على أن كل ما يضرّ فهو منهيٌّ عنه كما صرح به في الحديث الجامع: «**لا**

ضرر ولا ضرار » رواه الإمام أحمد وبعض أصحاب السنن من طرق يقوي بعضها وبعضاً فروي من حديث أبي سعيد الخدري وعبادة بن الصامت وابن عباس وأبي هريرة، ولا تخلو كل طريق من ضعف، وقد صححه جماعة من أهل العلم بمجموع طرقه.

قوله: (وَالخَيْرُ الَّذِي دَلّ عَلَيْهِ: التّوْحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشّرُّ الّذِي حَذّرَ عَنْهُ: الشِّرْكُ وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ)

- التوحيد رأس كل خير، قدّمه المؤلِف لأهميته ثم عطف عليه جميع ما يحبه الله ويرضاه؛ فيكون من باب عطف العام على الخاص.
- كلُّ ما أمر الله به فقد أحبّه، وكل ما أحبه الله فهو خير.
- وكل ما حذّر الله منه فإن الله يبغضه، وكل ما أبغضه الله فهو شرٌّ.
- والشرك هو أعظم ما حذّر الله منه ونهى عنه، فهو رأس الشر، وأكبر الشر، والعياذ بالله من الشرك، فإنه أقبح الذنوب، وأعظم الأوزار، وعقاب فاعله شر العقاب.

عموم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين

قوله: (بَعَثَهُ اللهُ إِلى النّاسِ كَافّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثّقَلَيْنِ الجِنّ وَالإِنْسِ، وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: قلْ يا أيها النّاس إنّي رسولُ ا ـ إليكم جميعاً [الأعراف: ١٥٨]**)**.

- عموم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين الجن والإنس أصل مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة، والأدلة على ذلك كثيرة معلومة منها:
  - o قول الله تعالى: **قُلْ يا أيها الناس إني رسولُ اللّه إليكُم جميعًا** [الأعراف: ١٥٨].
  - o وقوله: **وما أرسلْناك إلا كَافةً للناسِ بشـ ًا ونذيرًا ولَكن أكْثَر الناسِ لَا يعلَمـونَ** [سبأ: ٢٨].
  - o وقوله: **وقُلْ لّلذين أُوتوا الْكتاب والأمّيّ أأسلمتم فَإنْ أسلَموا فَقَد اهتـدوا وإنْ تولّوا فَإنّما عليك البلاغُ** [آل عمران: ٢٠].
  - o وقوله: **وإذْ صرفْنا إليك نفَرًا من الْجِنّ يستمعونَ الْقُرآنَ فَلَمّا حضروه قَالُوا أنصتوا فَلَمّا قُضي وَلّوا إلَى قَومهم منذرين** [الأحقاف: ٢٩].

o وفي الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**أعطيت سا يعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي:**

- نصرت بالرعب مس ة شهر.

- وجعلت الأرض مسجداً وطهوراً فأ ا رجل من أم أدركته الصلاة فليصل.

- وأحلّت الغنائم و ل لأحدٍ قبلي.

- وأعطيت الشفاعة.

- وكان الن يبعث إ قومه خاصة وبعثت إ الناس عامة)).

o وفي الصحيحين أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((**فُضّلْت على الأنبياء بستٍّ:**

- أعطيت جوامع الكلم.

- ونصرت بالرّعب.

- وأحلّت الغنائم.

- وجعلت الأرض طهوراً ومسجداً.

- وأرسلْت إ ا لق كافةً.

- وختم النبيون)).

o وفي مسند الإمام أحمد وصحيح مسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**والذي نفس مد بيده لا يسمع أحدٌ مـن هذه الأمّة يهوديٌّ ولا نصرا وت و يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**)).

• قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: **وقُلْ لّلذين أُوتوا الْكتاب والأمّـيّ أأسلمتم فَإنْ أسلموا فَقَد اهتدوا وإنْ تولّوا فَإنّما عليك الْـبلاغُ** [آل عمران: ٢٠] قال: (وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته، صَلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث)ا.هـ

- ثم ذكر أدلة في عموم رسالته صلى الله عليه وسلم تقدم ذكر بعضها.
- وهذا الأصل من أنكره فهو كافر لجحده معلوماً من الدين بالضرورة ولتكذيبه ما أخبر الله تعالى به وأخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم.
- والمخالفون في هذا الأصل على درجتين:
  - **الأو :** الذين ينكرون نبوة النبي صلى الله عليه وسلم أصلاً، وهؤلاء كمشركي العرب وطوائف من اليهود والنصارى وغيرهم.
  - **الدرجة الثانية:** الذين يقرّون برسالة النبي صلى الله عليه وسلم لكنهم يزعمون أنها للعرب خاصة، وأشهر من عرف عنهم هذا القول طائفتان:
- **فأما الطائفة الأو :** فطائفة يقال لها العيسوية من يهود أصبهان، نسبة إلى زعيم لهم يقال له أبو عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني.
- قال ابن حجر في الفتح: (العيسوية طائفة من اليهود حدثت في آخر دولة بني أمية فاعترفوا بأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن إلى العرب فقط وهم منسوبون إلى رجل يقال له أبو عيسى أحدث لهم ذلك).
- وقد نقل ابن حجر عن بعض فقهاء الشافعية أنهم قالوا: (من نطق بالتشهد في الأذان حُكِمَ بإسلامه إلا إذا كان عيسويا)، وهذا القول نقله الكيا الهراسي عن فقهاء الحنفية.
- وقد ذكر الشهرستاني في الملل والنحل أن هذه الطائفة لما صارت لها شوكة بأصبهان خرجوا على أبي جعفر المنصور وأحدثوا فتنة وقتلوا خلقاً من المسلمين.
- ومما ينبغي التنبه له أن لقب العيسوية يطلق على طوائف أخرى أيضاً.
- **الطائفة الأخرى:** طائفة من النصارى أقروا برسالة النبي صلى الله عليه وسلم لكنهم زعموا أنه رسول إلى العرب فقط، وأنه لا يلزمهم اتباعه.
- والرد على هؤلاء بيّن ظاهر؛ فإن إقرارهم بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم يلزمهم بتصديقه فيما يخبر به، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه رسول الله إلى الناس جميعاً وأنه لا يسمع به أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن به إلا كان من أصحاب النار.

• فإن صدقوه فيما أخبر به لزمهم الإقرار بعموم رسالته، وإن كذّبوه أو خطّؤوه كانوا كفاراً لتكذيبهم إياه.

• ومما ينبغي لطالب العلم في هذا العصر أن يتفطن له الدعاوى الكفرية الباطلة التي يروّج لها بعض المنتسبين للإسلام من تصحيح مذهب اليهود والنصارى وأن أصحاب الأديان السماوية غير كفار لأنهم يتبعون رسلاً أرسلهم الله إليهم، وهذا القول كفر ظاهر فكل من لم يشهد للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة العامة ولم يصدقه فيما يخبر به فهو كافر.

• فإقرارهم برسالة النبي صلى الله عليه وسلم تلزمهم تصديقه في جميع ما يخبر به، وقد تقدم ذكر الأدلة على عموم رسالته فمن أنكرها فقد كفر.

أصل كمال دين الإسلام

قوله: (وَأَكْمَلَ اللهُ لَهُ الدِّينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]).

• اعتقاد كمال دين الإسلام أصل مهم من أصول أهل السنة والجماعة، وبهذا الأصل يجاب عن شبهات كثيرة يثيرها بعض أهل البدع والزنادقة والملحدين.

• بهذا الأصل أجاب جماعة من الأئمة في مناظراتهم لأهل البدع والأهواء؛ فإن المبتدع إنما حمله على بدعته ما قام في نفسه من عدم كمال الدين.

• قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

• ﴿الْيَوْمَ﴾ المقصود به يوم عرفة من حجة الوداع، وهو اليوم الذي أنزلت فيه هذه الآية، كما في الصحيحين من حديث طارق بن شهاب قال: جاء رجلٌ من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين آيةٌ في كتابكم تقرءونها لو علينا - معشر اليهود - نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً.

قال: أي آية؟

قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فقال عمر: (قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قائم بعرفة يوم جمعة).

- فقد جمع الله لنزول هذه الآية خير الأيام من أيام الأسبوع، وخير الأيام من أيام السنة، وخير الأركان من أركان الحج، وأفضل جمع اجتمع من خير أمة أخرجت للناس، فامتنّ الله تعالى على المسلمين في ذلك اليوم بإكمال الدين وإتمام النعمة وَرِضَاه لنا بدين الإسلام ديناً.
- والمقصود بالإسلام هنا الدين الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم بإجماع العلماء.
- قال ابن كثير: (وقوله: **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا** [المائدة: ٣]، هذه أكبر نعم الله عز وجل على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلْف، كما قال تعالى: **وتمّت كلمت ربّك صدقًا وعدلا** [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي.

فلما أكمل الدين لهم تمت النعمة عليهم؛ ولهذا قال **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا** [المائدة: ٣] أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي رضيه الله وأحبه وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه)ا.هـ.

- قوله: **وأتممت عليكم نعمتي** [المائدة: ٣] النعمة المرادة هنا هي النعمة الخاصة التي اختص الله بها أولياءه وهي نعمة الهداية.

- فإن إنعام الله تعالى على عباده على نوعين:

o **النوع الأول:** إنعام عام، وهو إنعام فتنة وابتلاء، كما قال تعالى: **فَأما الإنسانُ إذَا ما ابتلاه ربه فَأكْرمه ونعمه فَيقُولُ ربي أكْرمن...** [الفجر: ١٥، ١٦] الآيتين، وقال: **فَإذَا مسّ الإنسانَ ضرٌ دعانا ثُمّ إذَا خوّلناه نِعمةً منّا قَالَ إنّما أُوتيته على علمٍ بلْ هي فتنةٌ ولكنّ أكْثَرهم لا يعلمونَ** [الزمر: ٤٩].

وهذا الإنعام عام للمؤمنين والكافرين كما قال تعالى: **كُلًّا نمدّ هؤلَاءِ وهؤلَاءِ مـن عطَاءِ ربِّك وما كَانَ عطَاءُ ربِّك محظُورًا** [الإسراء: ٢٠].

وهذا الإنعام حجة على العباد ودليل على المنعم جل وعلا ليخلصوا له العبادة ويشكروه على نِعَمِه كما بيّن الله تعالى ذلك بقوله: **يا أَيها النّاس اذْكُروا نِعمةَ اللّـه علَيكُم هلْ من خالقٍ غَير اللّه يرزقُكُم من السّماءِ والْأَرضِ لَا إِله إِلّا هو فَأَنى تؤفَكُونَ** [فاطر: ٣].

وقال: **وقَالَ اللّه لَا تتخذُوا إِلَهينِ اثْنينِ إِنّما هو إِلَهٌ واحدٌ فَإِيّاي فَارهبون (٥١) ولَه ما في السّماوات والْأَرضِ ولَه الدّين واصبًا أَفَغير اللّه تتقُونَ (٥٢) وما بِكُم من نِعمـةٍ فَمن اللّه ثُمّ إِذَا مسّكُم الضّرّ فَإِلَيه تجأَرونَ (٥٣) ثُمّ إِذَا كَشف الضّرّ عنكُم إِذَا فَرِيقٌ منكُم بِربِّهِم يشرِكُونَ (٥٤) ليكْفُروا بِما آتيناهم فَتمتّعوا فَسوف تعلَمونَ** [النحل: ٥١-٥٥].

o **النوع الثا :** الإنعام الخاص، وهو إنعام منّة واجتباء، وهو الإنعام بالهداية إلى ما يحبه الله عز وجل ويرضاه من الأقوال والأعمال، وما يمنٌ به على بعض عباده من أسباب فضله ورحمته وبركاته.

- والإنعام المقصود هنا هو الإنعام الخاص بالهداية، وهو المقصود في قول الله تعالى في إرشاده لعباده في أم القرآن: **اهدنا الصراطَ الُستقيم (٦) صراطَ الذين أنعمت عليهم غَـ ِ ا َغضوبِ عليهم ولاَ الضال (٧)** [الفاتحة: ٦، ٧]، وهو المقصود في قوله تعالى: **ومن يطعِ اللّه والرّسولَ فَأُولَئك مع الّذين أَنعم اللّه علَيهِم من النّبِيِّ والصّدّيق والشّهداءِ والصّـالح وحسن أُولَئك رفيقًا (٦٩) ذَلك الْفَضلُ من اللّه وكَفَى بِاللّه عليمًا** [النساء: ٦٩، ٧٠]، وقوله: **أُولَئك الّذين أَنعم اللّه علَيهِم من النّبِيِّ من ذُرِّيّة آدم وممّن حملْنا مع نوحٍ ومـن ذُرِّيـة إِبراهيم وإِسرائيلَ وممّن هدينا واجتبينا إِذَا تتلَى علَيهِم آيات الرّحمنِ خرّوا سجّدًا وبكيًّا** [مريم: ٥٨].

- فقوله تعالى: **وأَتممت علَيكُم نِعمتي** [المائدة: ٣] أي نعمة بيان الهدى إلى ما يحبه الله عز وجل ويرضاه؛ فهي نعمة تامة غير ناقصة، شاملة جميع ما يحتاجه المسلمون أفراداً

وجماعات في أي شأن من شؤونهم.

• وهذا كما في قول الله تعالى: **إن هذَا الْقُرآنَ يهدي للتي هي أقْـوم** [الإسراء: ٩] حُذِفَ متعلَّق أفعل التفضيل لإرادة العموم؛ أي أقوم في كل شيء يُحتاج إليه من أبواب الدين في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والسلوك والدعوة والسياسة وغيرها مما تتعلق به حاجة الفرد أو الأمة إلى الهداية إلى ما ينفع ويقرب إلى الله عز وجل، وتتحقق به النجاة والسلامة مما يخشى ضرره.

• قال تعالى: **قَد جاءَكُم من اللّه نورٌ وكتابٌ مبِينٌ (١٥) يهدي بِه اللّه منِ اتّبع رِضوانه سبلَ السّلَامِ ويخرِجهم من الظُّلُمات إلَى النّورِ بِإِذْنِه ويهديهم إلَى صراطٍ مستقيمٍ** [المائدة: ١٥، ١٦].

• وقال: **فَمن تبِع هداي فَلاَ خوفٌ علَيهِم ولاَ هم يحزنونَ** [البقرة: ٣٨]، وقال: **فَمـنِ اتبع هداي فَلَا يضل ولَا يشقَى** [طه: ١٢٣].

• فدلت الآية على كمال الدين وتمام النعمة الخاصة التي اختص الله بها هذه الأمة، فمَنْ قَبِلَها وشكرها كان موعوداً بالخير والفضل العظيم في الدنيا والآخرة، ومن بدّلها وكفرها كان متوعداً بالعذاب الشديد، والخسران المبين، كما قال الله تعالى: **ومن يبدّلْ نِعمةَ اللّه من بعد ما جاءَته فَإِنّ اللّه شديد الْعقَابِ** [البقرة: ٢١١]، وقال: **أَلَم تر إِلَى الّذين بدّلُوا نِعمةَ اللّه كُفْرًا وأَحلُّوا قَومهم دار الْبوارِ (٢٨) جهنّم يصلَونها وبِئْس الْقَرار (٢٩) وجعلُوا للّـه أَنـدادًا ليضلُّوا عن سبِيله قُلْ تمتّعوا فَإِنّ مصيركُم إِلَى النّارِ (٣٠) قُلْ لعبادي الّذين آمنوا يقيمـوا الصّلَاةَ وينفقُوا ممّا رزقْناهم سرًّا وعلَانِيةً من قَبلِ أَنْ يأْتي يومٌ لَا بيعٌ فيه ولَا خلَـالٌ** [إبراهيم: ٢٨- ٣١]

• بيّن الله تعالى في هذه الآيات غاية الكفر وغاية الشكر

• **فغاية الكفر:** هو تبديل النعمة بالكفر والتعرض لسخط الله عز وجل ومقته بالشرك به جل وعلا، وأعظم هذه النعم نعمة الإسلام فمن رفضه فقد بدّل النعمة أقبح تبديل، وسمِّي ذلك تبديلاً للنعمة لأن من فعل أسباب سلب النعمة وإحلال النقمة محلها مبدِّل للنعمة، كما بيّن الله تعالى ذلك بقوله: **ذَلك بِأَنّ اللّه لَم يك مغَيّرًا نِعمةً أَنعمها علَى قَومٍ حتّى يغَيّروا ما**

بِأَنفُسِهِم وأنّ الله سميعٌ عليمٌ [الأنفال: ٥٣].

o فمن كان على فطرة الإسلام إذا فعل ما يستحق به سلب هذا النعمة فهو مبدّل لهذه النعمة، ومن أتاه البيان إلى ما يحبه الله ويرضاه وما يفوز به العبد في دنياه وأخراه ثم رفضه فهو مبدل للنعمة؛ فإنه لما جاءته نعمة الهداية والبيان فردها وزاغ قلبه عنها قصداً وعمداً أزاغ الله قلبه جزاء وفاقاً **فلما زاغُوا أزاغَ الله قُلُوبهم والله لا يهدي القَوم الفَاسقين** [الصف: ٥].

o ومن كان على دين الإسلام ثم ارتد عنه فهو مبدّل للنعمة أقبح تبديل.

o فهذا بيان أنواع غاية الكفر، وهو الكفر الذي يخرج به من الملة ويستحق به صاحبه الخلود في النار والعياذ بالله، وهو الذي وصفه الله عز وجل بقوله: **وجعلُوا للّه أندادًا ليضلوا عن سبِيله قُلْ تمتعوا فَإن مصيركُم إِلى النار** [إبراهيم: ٣٠].

- **وأما غاية الشكر:** فما أرشد الله تعالى إليه من إقامة الصلاة والإنفاق في سبيله سراً وجهراً خوفاً وطمعاً وهذا يستلزم تحقيق الإخلاص، ومن فعله فهو من أهل الإحسان في الإسلام.

- وبين هاتين المرتبتين - غاية الشكر وغاية الكفر - درجات كثيرة ومنازل للناس يتفاوتون فيها كما سبق تقرير نظائره في مسائل كثيرة.

- **ذَلك بِأنّ الله لم يك مغيّرًا نِعمةً أنعمها على قَومٍ حتّى يغيّروا ما بِأنفُسِهم وأنّ اللّه سميعٌ عليمٌ** [الأنفال: ٥٣].

o **سميعٌ** لما يقوله المؤمنون من حمده جل وعلا، ولما يقوله الكافرون من نسبة النعمة إلى غيره ظلماً وعلواً.

o **عليمٌ** بما في قلوبهم وما تعمله جوارحهم من الشكر أو الكفر.

- فتبيّن بهذا التقرير وبما تقدم من الأدلة أن الناس يتفاضلون في نصيبهم من هذه النعمة الخاصة على تفاضلهم في طاعة الله والرسول.

- وتبيّن أن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله هي الشكر الذي يحبه الله عز وجل ويرضاه.

- وتبيّن أن كمال الدين لا يقتضي كمال جميع المنتسبين إليه، وذلك لتفاوتهم في الطاعة؛

فمن أتم الطاعة فقد استكمل دينه، ومن نقص نقص من دينه بقدره.

قوله تعالى: ورضيت لكم الإسلام دينًا [المائدة: ٣].

- يدل بمنطوقه على أن ما رضيه الله تعالى لنا فهو خير لنا وأصلح وأقوم، لأنه رضا عن علم وحكمة ورحمة؛ فدين الإسلام خير الأديان وأصلحها وأفضلها لنا، وهو دين قد رضيه الله، والله تعالى لا يرضى بما فيه شرٌّ ومفسدة وظلم.
- ويدل بمفهومه على أن غير دين الإسلام لا يرضاه الله لنا.
- فكل دين غير دين الإسلام فالله تعالى لا يرضاه، وما لا يرضاه الله فهو غير مقبول ولا نافع لمن اتبعه.

كمال الدين يستلزم كمال التبليغ

- وكمال دين الإسلام يستلزم اعتقاد كمال بيان النبي صلى الله عليه وسلم لأمور الدين، وأن بيانه لأمور الدين أتم البيان وأحسنه، وهذا أصل مهم يرد به على أهل البدع والأهواء.
- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (**اليوم أكملت لكم دينكم** [المائدة: ٣] فلم يترك صلى الله عليه وسلم شيئا من أمور الدين وقواعده وأصوله وشرائعه وفصوله إلا بيّنه وبلّغه على كماله وتمامه ولم يؤخر بيانه عن وقت الحاجة إليه، إذ لا خلاف بين فرق الأمة أنّ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال).
- وقال أيضاً: (ومما جاء به الرسول: إخباره بأنه تعالى قد أكمل الدين بقوله سبحانه: **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا** [المائدة: ٣].

ومما جاء به الرسول: أمر الله له بالبلاغ المبين كما قال تعالى: **وما على الرسول إلا البلاغ المبين** [النحل: ٣٥] وقال تعالى: **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** [النحل: ٤٤].

وقال تعالى: **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** [المائدة: ٦٧].

ومعلومٌ أنه قد بلّغ الرسالة كما أُمِر، ولم يكتم منها شيئًا؛ فإنّ كتمان ما أنزله الله إليه يناقض موجب الرسالة؛ كما أن الكذب يناقض موجب الرسالة.

ومن المعلوم من دين المسلمين أنه معصومٌ من الكتمان لشيء من الرسالة كما أنه معصومٌ من الكذب فيها.

والأمة تشهد له بأنه بلّغ الرسالة كما أمره الله وبين ما أنزل إليه من ربه، وقد أخبر الله بأنه قد أكمل الدين؛ وإنما كَمُلَ بما بَلّغه؛ إذ الدين لم يعرف إلا بتبليغه؛ فعُلِمَ أنه بلغ جميع الدين الذي شرعه الله لعباده كما قال صلى الله عليه وسلم: ((**تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالكٌ**)).

وقال: ((**ما تركت من شيءٍ يقربكم إ ا نة إلا وقد حدثتكم به، وما تركت من شيءٍ يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به**)).

وقال أبو ذر: (لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائرٌ يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا) ا.هـ.

- والرسول صلى الله عليه وسلم هو أعظم الرسل بياناً وأفصحهم لساناً وأحسنهم هدياً.
- اعتقاد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بلّغ البلاغ المبين الكافي الذي يحبه الله ويرضاه، والذي تقوم به الحجة أصل عظيم من أصول الدين.
- والبلاغ المبين يقتضي ثلاثة أمور متلازمة:
  - الأمر الأول: العلم التام بكل ما يلزم بيانه.
  - الأمر الثاني: النصح والأمانة.
  - الأمر الثالث: الفصاحة في المنطق وحسن تبليغ الرسالة لمن أرسله الله إليهم.
- فمن قدح في أمرٍ من هذه الأمور الثلاثة فقد قدح في بيان النبي صلى الله عليه وسلم.
- ولو فَقِهَ أصحاب الأهواء هذا الأمر حق الفقه لسَلِمُوا من شر عظيم، وسلّموا للنبي صلى الله عليه وسلم بحسن بيانه وكمال نصحه وفصاحته، ولم يدخلوا في حديثه متأولين محرفين زاعمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد ظاهر ما يدل عليه كلامُه من أمورٍ كَبُرَ عليهم اعتقادها، حتى صرح بعضهم أن ظواهر النصوص غير مرادة، وأنه إذا تعارض العقل والنقل قدم العقل، فارتكبوا بسبب ما زينه لهم الشيطان بدعاً عظيمة شنيعة، ولولا ما عَرَضَ لبعضهم من الشبه وما يعذر به بعضهم من الجهل في بعض المسائل لخرجوا من الدين بهذا

الاعتقاد والعياذ بالله.

- تنبيه: ينبغي أن يتنبّه طالب العلم إلى أن هذه الأمور وإن كانت من أوضح الواضحات في دين الإسلام إلا أن تقريرها مهم جداً، ومَن أحسن معرفة هذا الأصل والاستدلال له رد جميع البدع بإذن الله جل وعلا.
- وقد كان كثير من أئمة أهل السنة والجماعة في مناظراتهم لأهل البدع والأهواء يفحمونهم بهذا الأصل؛ لأنهم إن اعتقدوا كمال الدين وكمال البلاغ خُصِموا، وإن اعتقدوا نقصانَه كفروا.
- وقد كان من أعظم ما ذُكِرَ من الأسباب في رفع محنة القول بخلق القرآن في زمان الخليفة العباسي الواثق بالله مناظرةٌ جرت على هذا الأصل العظيم بين شيخ من أهل السنة يقال له أبو عبد الرحمن الأذرمي، وشيخ المعتزلة أحمد بن أبي دؤاد الذي دعا خلفاء بني العباس إلى القول بخلق القرآن وإلزام العلماء والناس بالقول به.
- وهذه الحكاية ذكرها جماعة من أهل العلم منهم الآجري في كتاب الشريعة والخطيب البغدادي وابن قدامة في اللمعة وغيرهم، وقد جرت هذه المناظرة في مجلس الخليفة الواثق بالله.
- وأجتزئ منها هذا القَدْرَ وهو مما ذكره الآجري في كتاب الشريعة:
- (قال: فقال الشيخ مخاطباً أحمد بن أبي دؤاد عن مقالته المبتدَعَة.

قال: أخبرني يا أحمد عن مقالتك هذه، أواجبة داخلة في عقد الدين، فلا يكون الدين كاملا حتى يقال فيه ما قلت؟

قال: نعم

قال الشيخ: يا أحمد أخبرني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله تعالى إلى عباده، هل سَتَر رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا مما أمر الله تعالى به في دينه؟

قال: لا.

قال الشيخ: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمة إلى مقالتك هذه؟

فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ: تكلم فسكت.

فالتفت الشيخ إلى الواثق ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، واحدة.

فقال الواثق : واحدة.

فقال الشيخ : يا أحمد ، أخبرني عن الله تعالى حين أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا** [المائدة: ٣].

أكان الله تعالى الصادق في إكمال دينه ، أم أنت الصادق في نقصانه ، فلا يكون الدين كاملا حتى يقال فيه بمقالتك هذه؟

فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ : أجب يا أحمد ، فلم يجبه.

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، اثنتان فقال الواثق : اثنتان). إلى آخر قصة المناظرة وهي طويلة.

- المقصود من نقل هذا القدر من تلك المناظرة أن يتبيَّن طالب العلم أهمية هذا الأصل ، وهو اعتقاد كمال دين الإسلام ، وأنه أصل مهم من أصول الدين يردُّ به على أصحاب البدع والأهواء وكلِّ من يطعن في دين الإسلام أو شيء من أحكامه وحدوده أو ادعى عدم مناسبته لعصر من العصور أو لبلد من البلدان.

- والمخالفون في هذا الأصل على درجتين :

  - **الدرجة الأو :** الذين يعتقدون عدم كمال الدين ، وهؤلاء كفار لتكذيبهم خبر الله عز وجل وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم.

  - **الدرجة الثانية:** الذين يعتقدون كمال الدين لكنهم يخالفون ما يقتضيه كمال الدين من تجريد المتابعة ؛ فيُحْدِثُون في أمور الدين ما لم يأذن به الله لشُبَهٍ عرضت لهم بسبب ضعف فقههم في الدين وجرأتهم على القول في الدين بلا علم ، وهؤلاء هم أهل البدع والأهواء.

- وأهل البدع مذمومون على بِدَعِهِم ومخالفاتهم متعرضون لخطر عظيم بسبب ما أحدثوا في الدين ما لم يأذن به الله ، وأما تكفيرهم في كثير من المسائل فيمنع منه ما عرض لهم من الشُبَّه ، وإلا لو صرحوا بأن الدين غير كامل لكانوا كفاراً بهذا الاعتقاد.

• قال الشاطبي في الاعتصام: (الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان؛ لأن الله تعالى قال فيها: **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا** [المائدة: ٣]، وفي حديث العرباض بن سارية: (وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها الأعين ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، إن هذه موعظة مودع فما تعهد إلينا؟ قال: «**تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسـ ى اختلافاً كثـ أ فعليكم ـا عرفتم من سنـ وسنة الراشدين من بعدي...**» الحديث.

وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى أتى ببيان جميع ما يحتاج إليه في أمر الدين والدنيا، وهذا لا مخالف عليه من أهل السنة.

فإذا كان كذلك، فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: إن الشريعة لم تتم، وإنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها، لأنه لو كان معتقداً لكمالها وتمامها من كل وجهٍ لم يبتدع ولا استدرك عليها، وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم.

قال ابن الماجشون: سمعت مالكا يقول: (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم خان الرسالة، لأن الله يقول: **اليوم أكملت لكم دينكم** [المائدة: ٣] فما لم يكن يومئذ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً))ا.هـ.

موت النبي صلى الله عليه وسلم

قوله: (وَالدّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قوْلُهُ تَعَالَى: **إنّك ميّتٌ وإنّهم ميّتون (٣٠) ثمّ إنّكم يوم القيامة عند ربّكم تختصمونَ** [الزمر: ٣٠، ٣١]).

• موت النبي صلى الله عليه وسلم قد حصل في السنة الحادية عشرة من الهجرة في شهر ربيع الأول، وهو أمر مجمع عليه.

• وموته صلى الله عليه وسلم من علامات الساعة كما في الصحيحين من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وهو في قُبّةٍ من أَدَمٍ فقال: «**اعدد ستاً بـ يدي الساعة: مو ، فتح بيت ا قدس، موتانٌ يأخذ بكم**

كقُعاص الغنم، استفاضة ا ال ح يعطَى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، فتنةٌ لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، هدنةٌ تكون بينكم وب ب الأصفر فيغدرون فيأتونكم ت ا غاية ت كل غاية اثنا عشر ألفاً)).

• وهذه الآية من الآيات التي تلاها أبو بكر رضي الله في خطبته لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلف الناس في هذا الأمر الجلل كما في صحيح البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبو بكر بالسُّنْحِ - يعني بالعالية - فقام عمر يقول: (والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم)

قالت: وقال عمر: ما كان يقع في نفسي إلا ذاك — (وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم)؛ فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقَبَّلَه، قال: (بأبي أنت طِبْتَ حيّاً وميتاً، والذي نفسي بيده لا يذيقنك الله الموتتين أبداً)؛ ثم خرج فقال: (أيها الحالف على رسلك)؛ فلما تكلم أبو بكر جلس عمر؛ فحمد اللهَ أبو بكر وأثنى عليه وقال: (ألا من كان يعبد محمداً؛ فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد اللهَ فإنّ اللهَ حيٌّ لا يموت)، وقال: **إنك ميتٌ وإنهم ميتونَ** [الزمر: ٣٠] وقال: **ومـا محمـدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسلُ أفإن مات أو قُتلَ انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين** [آل عمران: ١٤٤].

قال: فنشج الناس يبكون.

• وفي مصنف بن أبي شيبة أن عبد الله بن عمر قال: (فو الله الذي نفسي بيده لكأنما كانت على وجوهنا أغطية فكشفت).

• وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله جل وعلا أنزل هذه الآية إلا حين تلاها أبو بكر؛ فتلقاها منه الناس كلهم؛ فلم تسمع بشرا إلا يتلوها).

• وفي صحيح البخاري أيضاً: قال الزهري: وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب قال: (والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي

وأهويت إلى الأرض وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات)

• قوله تعالى: **إنك ميتٌ** أي ستموت، والتعبير عن ذلك بصيغة الخبر المفرد لبيان تحتم وقوعه، كما في قوله تعالى: **وإن منكم إلا واردها كانَ علىٰ ربك حتمًا مقْضيا** [مريم: ٧١] أي: سيَرِدها.

• **وإنهم ميتونَ** أي جميع العباد. كما قال تعالى: **كُل نفْسٍ ذَائقَةُ الْموت** [الأنبياء: ٣٥].

• **ثُم إنكُم يوم الْقيامة عند ربكُم تختصمونَ** [الزمر: ٣١]: الخصومة شاملة لجميع ما يختصم فيه من أمور الدين والدنيا، كاختصام المؤمنين والكافرين، واختصام المظلومين والظالمين، واختصام الرعية والرعاة، وغيرهم.

• قال ابن كثير رحمه الله: (ومعنى هذه الآية: ستنقلون من هذه الدار لا محالة وستجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين؛ ثم إن هذه الآية - وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذِكْر الخصومة بينهم في الدار الآخرة- فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة)ا.هـ.

• ومسألة موت النبي صلى الله عليه وسلم يخالف فيها بعض المتصوفة الذين يلبسون على بعض الجهلة؛ فيعظمون أنفسهم ويزعمون أنهم أولياء وأنهم يلتقون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويتحدثون معه، ويسمون ذلك اللقاء بالحضرة النبوية، ولهم في ذلك أساطير وأباطيل يغرّون بها السذج والعوام ويتصدرون بها المجالس، ويأكلون بها أموال الناس باطلاً.

• ومنهم من إذا تحدث مع العوام ينكر ذلك، وإذا تحدث مع خواصّه زعم أن للدين ظاهراً وباطناَ، وأن للشريعة أسراراً لا يعرفها إلا أفراد قليلون، ولهم في ذلك طرق متنوعة في الضلال، نسأل الله العافية.

الدرس العشرون: البعث والجزاء

قال رحمه الله:

(وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **منها خلقْناكُم وفيها نعيدكُم ومنها نخرجكُم تارةً أخرى** [طه: ٥٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **وا ُ أنبتكُم من الأرض نباتاً (١٧) ثُم يعيدكُم فيها ويخرجكُم إخراجاً** [نوح: ١٧- ١٨].

وَبَعْدَ البَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا با ُسنى** [النجم: ٣١].

وَمَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **زعم الذين كفَروا أنْ لن يبعثُوا قُلْ بلى وربي لَتبعثُن ثُم لَتنبؤن بما عملتم وذَلك على ا ـ يسِ ٌ** [التغابن: ٧]).

قال رحمه الله: (وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ.

وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلاّ يكُونَ للنّاسِ على ا ـ حجّةٌ بعد الرّسل** [النساء: ١٦٥]).

عناصر الدرس:

- البعث بعد الموت
- الحساب والجزاء
- خلاصات نافعة في علم الجزاء
- كفر من كذَّب بالبعث
- مقاصد إرسال الرسل
  - حكم طلب العلم
  - المقصد الأول: إقامة الحجة
  - المقصد الثاني: بشارة المطيعين
  - المقصد الثالث: إنذار العصاة
- حكم أهل الفترة

البعث بعد الموت

قوله: (وَالنّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ، وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **منها خلقْناكُم وفيها نعيدكُم ومنهـا نخرجكُم تارةً أخرى** [طه:٥٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **واﷲُ أنبتكُم من الأرض نباتاً (١٧) ثُمّ يعيدكُم فيها ويخرجكُم إخراجـاً** [نوح:١٧، ١٨]).

- مسألة البعث من المسائل الجليلة العظيمة في دين الإسلام، بل هي أصل من أصول الإيمان والذي لايؤمن بالبعث بعد الموت لايؤمن بما يترتب عليه من الحساب والجزاء.
- ولأهمية هذا الأصل وشناعة كفر من كذّب به تكرر التأكيد عليه في القرآن العظيم كثيراً، وأكَّد الله تعالى بيان البعث بأنواع من الأدلة والتأكيدات:

o قال الله تعالى: **قُلْ بلَى وربي لَتبعثُن ثُم لَتنبؤن بِمـا عملْـتم** [التغابن: ٧] فبيّن صحة البعث بالقَسَم، وهذا تأكيد لوقوعه.

o وقال تعالى: **يا أَيها النّاس إنْ كُنتم في ريبٍ من البعث فَإِنّا خلَقْناكُم من ترابٍ ثُـمّ من نطْفَةٍ ثُمّ من علَقَةٍ ثُمّ من مضغةٍ مخَلّقَةٍ وغَير مخَلّقَةٍ لنبيّن لَكُـم** [الحج: ٥] فبيّن أن بدأه لخلقنا من تراب، ثم من نطفة دليل على أنه قادر على أن يبعثنا بعد الموت؛ فالذي خلقنا ولم نكن من قبل شيئا، قادر على أن يعيدنا إلى الحياة الدنيا بعد موتنا، فهذا استدلال بالبدء على إمكان الإعادة، وهو دليل عظيم القدر تكرر تأكيده في القرآن كما قال تعالى: **وهـو الّذي يبدأُ الخلْق ثُمّ يعيده وهو أَهونُ عليه وله الْمثَلُ الْأعلَى في السّماوات والْأرض وهو العزيز الْحكيم** [الروم: ٢٧].

o وقال تعالى: **ومن آياته أَنك ترى الْأرض خاشعةً فَإِذَا أَنزلْنا علَيها الْمـاءَ اهتـزت وربت إِن الذي أَحياها لَمحيي الْموتى إِنه علَى كُل شيءٍ قَديرٌ** [فصلت: ٣٩] فبين لنا مثالا مما نراه بأعيننا، وهو إحياء الأرض بالماء والنبات بعد موتها، فالذي أحياها قادر على أن يحيي الموتى، وهذا استدلال بالنظير؛ فالذي يقدر على هذا الأمر يقدر على نظيره.

- وقال تعالى: **أَولَم يروا أَن الله الذي خلَق السماوات والْأَرض ولَم يعـي بِخلْقهـن بِقَادرٍ علَى أَنْ يحيي الْموتى بلَى إِنه علَى كُل شيءٍ قَديرٌ** [الأحقاف: ٣٣] وهذا استدلالٌ بالأولى،

فإنّ من قدر على خلق الأكبر والأشد قادر على خلق ما هو دونه، كما قال تعالى: **لَخلْـق السماوات والأرض أكبر من خلْق الناس ولكن أكْثر الناس لا يعلمونَ** [غافر: ٥٧].

- وقال تعالى: **ما خلقُكُم ولا بعثُكُم إلا كنفْسٍ واحدةٍ** [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: **هـو الّذي يحيِي ويميت فَإذَا قَضى أمرًا فَإّنما يقُولُ له كُن فَيكُونُ** [غافر: ٦٨]، وقال تعالى: **أين ما تكُونوا يأت بِكُم اللّه جميعًا إنّ اللّه على كُلّ شـيءٍ قَـديرٌ** [البقرة: ١٤٨] وهذا استدلال بالقدرة المطلقة التي يعجزها شيء.
- وقال تعالى: **أفَحسِبتم أنما خلَقْناكُم عبثًا وأنكُم إلَينا لا ترجعونَ (١١٥) فَتعالى الله الْملك الْحق** [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] فاستدل هنا بدليل الحكمة والغاية، فإن الله لم يخلق هذا الخلق العظيم عبثا، وإنما خلقه لحكمة عظيمة، فالعاقل يسأل نفسه لم خلق؟ ولماذا خلق الله هذه لمخلوقات؟
- فانظر كيف نوّع الله تعالى هذه الأدلة في كتابه الكريم، تأكيداً لوقوع البعث، وأنه حق لا ريب فيه.
- وهذه الأدلة مجموعة في قوله تعالى: **أولَم ير الإنسانُ أّنا خلَقْناه من نطْفَةٍ فَـإذَا هـو خصيمٌ مبِينٌ (٧٧) وضرب لَنا مثَلًا ونسِي خلْقَه قَالَ من يحيِي الْعظَام وهي رميمٌ (٧٨) قُلْ يحيِيها الّذي أنشأَها أَوّلَ مرّةٍ وهو بِكُلّ خلْقٍ عليمٌ (٧٩) الّذي جعلَ لَكُـم مـن الشّـجرِ الأخضرِ نارًا فَإذَا أنتم منه توقدونَ (٨٠) أولَيس الّذي خلَق السّماوات والأرض بِقَادرٍ على أنْ يخلُق مثْلَهم بلى وهو الْخلّاق الْعليم (٨١) إّنما أمره إذَا أراد شيئًا أنْ يقُولَ لَـه كُـن فَيكُونُ (٨٢) فَسبحانَ الّذي بِيده ملَكُوت كُلّ شيءٍ وإلَيه ترجعونَ (٨٣)** [يس: ٧٧- ٨٣].
- فتضمنت هذه الآيات، ذكر أنواع من الأدلة على البعث: فذكر دليل البدء، ودليل النظير، ودليل الأولى، ودليل القدرة المطلقة، ودليل الحكمة والتنزيه عن العبث، فهذه أدلة ظاهرة من تأملها أيقن يقينا تاما بالبعث.
- والإيمان بالبعث يستلزم الإيمان بما يكون بعده من الحساب والجزاء.

الحساب والجزاء

قوله: (وَبَعْدَ البَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **ولله ما في السّماوات وما في الأرضِ ليجزي ٱلّذين أساءُوا بِما عملُوا ويجزي ٱلّذين أحسنوا بِالحسنى** [النجم:٣١]).

- الإيمان بالحساب والجزاء أصل مهم من أصول الإيمان، وهو من الإيمان بالغيب.
- والحساب والجزاء من أعظم ما يكون يوم القيامة بل لعظم ذلك سمي يوم القيامة بيوم الحساب كما في قوله تعالى: **إن الذين يضلونَ عن سبِيلِ الله لهم عذابٌ شديدٌ بِما نسوا يوم الحسابِ** [ص: ٢٦].
- وسمي بيوم الدّين أي الحساب والجزاء الذي يدان فيه الناس بأعمالهم، كما قال الله تعالى: **وقَالُوا إنْ هذا إِلّا سحرٌ مبِينٌ (١٥) أئذا متنا وكُنّا ترابًا وعظامًا أئنّا لمبعوثُونَ (١٦) أوآباؤنا الأوّلُونَ (١٧) قُلْ نعم وأنتم داخرونَ (١٨) فإنّما هي زجرةٌ واحدةٌ فإذا هم ينظُرونَ (١٩) وقَالُوا يا ويلنا هذا يوم الدّينِ (٢٠) هذا يوم الفَصلِ الّذي كُنتم بِه تكذّبونَ (٢١)** [الصافات: ١٥- ٢١].
- وتوعّد الله تعالى من أنكر البعث والحساب بالنار فقال تعالى: **قُتلَ الخرّاصونَ (١٠) الّذين هم في غمرةٍ ساهونَ (١١) يسألُونَ أيّانَ يوم الدّينِ (١٢) يوم هم على النّارِ يفْتنونَ (١٣) ذُوقُوا فتنتكُم هذا الّذي كُنتم بِه تستعجِلُونَ** [الذاريات: ١٠- ١٤].
  - o سؤالهم: (أيان يوم الدين) سؤال تعجب وإنكار وتعجيز واستبعاد لوقوعه حتى إنهم من فرط تكذيبهم وإنكارهم يستعجلونه فيقولون للمؤمنين **متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** [الملك: ٢٥]؛ فبكّتهم الله بهذه الآيات، وتوعّدهم على تكذيبهم وغفلتهم عن يوم الحساب الوعيدَ الشديد والعذاب الأليم.
- والإيمان بالحساب والجزاء له آثاره على المؤمن في عباداته وسلوكه فإنّ من يعلم أن ما يعمله من خير أو شر سيحاسب عليه ويجزى به فإنه حري به أن يجتهد في اكتساب الأعمال الصالحة رجاء انتفاعه بها يوم الحساب والجزاء، ويجتنب السيئات مخافة عقوبتها يوم الحساب والجزاء.

- ويحمله ذلك على إحسان معاملته للناس ابتغاء ثواب الله عز وجل، واجتناب الظلم والعداون مخافة أن يجازى على ظلمه لهم فيقتصوا منه يوم القيامة بما يُعطون من حسناته أو يُلقى إليه من سيئاتهم.
- وبهذا يتبيّن أن العبد لا يعاقب إلا بأحد سببين:
  - o **السبب الأول:** تقصيره في حق الله عز وجل، بارتكابه بعض المحرمات، أو تركه بعض الواجبات؛ فيعذب على ذلك ما لم يعمل ما يرفع عنه العذاب من توبة صادقة أو حسنات ماحيةٍ للسيئات أو يدركه سببٌ يرفع الله به عنه العذاب.
  - o **السبب الآخر:** تقصيره في حقوق الناس؛ إما بمنعهم ما يستحقون من الحقوق الواجبة لهم عليه، أو الاعتداء عليهم بقول أو فعل، وكلاهما ظلم؛ فإن الظلم يشمل منع المستحق حقَّه، والعدوان على المعصوم.
- فمنْ أدّى حقّ الله عزّ وجلّ وحقّ عباده فإنه لا يُعاقب أبداً؛ لأن العقوبة لا تكون إلا على ذنب؛ والذنب إما أن يكون في حق الله عز وجل، وإما أن يكون في حق عباده.
- وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما ينجّي المؤمن من العذاب بوصية جامعة فقال: «**اتق ا حيثما كنت، وأتبع السيئة ا سنة حها، وخالق الناس لق حسن**». رواه أحمد والترمذي وغيرهما من حديث معاذ بن جبل وحديث أبي ذر رضي الله عنهما.
- وباب الإيمان بالحساب والجزاء له تفاصيل ذكرها الأئمة في كتب الاعتقاد وذكرها المفسرون وشراح الأحاديث، وفيها مسائل جليلة ينبغي للعبد أن يتأملها ويعتني بها.
- وقد ذكر بعض أهل العلم أن علم الجزاء ثلث العلم، كما قال ابن القيم رحمه الله:

والعلم أقسام ثلاث ما لها	من رابع والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله	وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه	وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكل في القرآن والسنن التي	جاءت عن المبعوث بالفرقان

  - o فجعل العلوم ثلاثة: علم العقيدة وعلم الشريعة وعلم الجزاء.
  - o ولو أنه قال: (وجزاؤه بالعدل والإحسان) لكان أجود، ليعم الجزاء الدنيوي

والأخروي، وليبين أن جزاء الله تعالى لا ظلم فيه بل هو مبني على العدل والإحسان.

• والمقصود أن علم الجزاء من العلوم الجليلة النافعة لأنه العلم الذي يَعرف به العبدُ ثوابَ حسناته وعقاب سيئاته، وسُبُلَ مضاعفة الحسنات والوقاية من السيئات وعقوباتها.

• وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك رسالة جليلة نافعة طبعت باسم (الحسنة والسيئة)، وله رسالة في (مكفِّرات الذنوب).

• ومقصود هذا الفصل من هذا الدرس هو بيان وجوب الإيمان بالحساب والجزاء، وأنَّ من أنكره فهو كافرٌ كفراً أكبر بإجماع العلماء، وأن المؤمن يجب عليه أن يجتنب ما يعاقب عليه يوم الحساب.

خلاصات نافعة في علم الجزاء

• هذه الخلاصات تتضمّن ذكر أهم المسائل في هذا الباب لتدل الطالب اللبيب على ما وارءها، وتكون دراسته لما بعدها في كتب الاعتقاد زيادة تفصيل وبيان على أصول قد عرفها وتبيَّنها.

• من ذلك أن الله تعالى وصفَ نفسه بأنه سريع الحساب وأنه أسرع الحاسبين كما في قوله تعالى: **ليجزي اللّه كُلّ نفْسٍ ما كسبت إنّ اللّه سريع الْحسابِ** [آل عمران: ١٩٩] وقوله: **ألا له الْحكْم وهو أسرع الْحاسبِ** [الأنعام: ٦٢].

o قال البغوي: (**وهو أسرع الْحاسبِ** [الأنعام: ٦٢] أي: إذا حاسب فحسابه سريع لأنه لا يحتاج إلى فكرة وروية وعقد يد).

o قال ابن تيمية: (قال رجل لابن عباس رضي الله عنه: كيف يحاسب الله العباد في ساعة واحدة؟ قال: كما يرزقهم في ساعة واحدة).

• حساب الله تعالى مبني على العدل والإحسان ليس فيه ظلم على أحد من العباد مثقال ذرة، كما قال تعالى: **إنّ اللّه لا يظْلم مثْقالَ ذرّةٍ وإنْ تك حسنةً يضاعفْها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا** [النساء: ٤٠].

• بيّن الله تعالى قواعد الحساب في قوله: **وكُلّ إنسانٍ ألْزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلْقاه منشورًا (١٣) اقْرأ كتابك كفَى بنفْسِك الْيوم عليك حسِـيبًا (١٤)**

من اهتدى فَإِنّما يهتدي لنفْسِهِ ومن ضلّ فَإِنّما يضلّ عليها ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى وما كنّا معذّبِ حتّى نبعثَ رسولًا [الإسراء: ١٣- ١٥].

o وقوله: **ونضع الْموازين الْقسطَ ليومِ الْقيامة فَلا تظْلم نفْسٌ شيئًا وإِنْ كانَ مثْقَالَ حبّةٍ من خردلٍ أتينا بِها وكَفَى بِنا حاسبِ** [الأنبياء: ٤٧].

o وقوله: **من جاءَ بِالْحسنة فَله خيرٌ منها ومن جاءَ بِالسّيِّئَة فَلا يجزى الّذين عملُوا السّيِّئات إِلّا ما كانوا يعملُونَ** [القصص: ٨٤].

- الحساب يوم القيامة على نوعين: حساب عسير، وحساب يسير

- فأما **الحساب اليسير** فهو لأهل الإيمان، وهو المذكور في قوله تعالى: **فَأَمّا من أوتي كتابه بِيمينِه (٧) فَسوف يحاسب حسابًا يسِيرًا (٨) وينقَلب إِلَى أَهله مسرورًا** [الانشقاق: ٧- ٩].

- وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من حوسب يوم القيامة عذّب**».

قالت: فقلت: (أليس قال الله عز وجل: **فَسوف يحاسب حسابًا يسِيرًا** [الانشقاق: ٨]؟).

قال: «**ليس ذلك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب**».

- العباد غير معصومين من السيئات حتى المحسنين منهم تكون لهم سيئات لكن يتجاوز الله عنها كما قال تعالى: **والّذي جاءَ بِالصّدقِ وصدّق بِه أُولَئك هم الْمتّقُونَ (٣٣) لَهم ما يشاءُونَ عند ربِّهِم ذَلك جزاءُ الْمحسِنِ (٣٤) ليكَفّر اللّه عنهم أَسوأَ الّذي عملُوا ويجزِيهم أجرهم بِأَحسنِ الّذي كانوا يعملُونَ** [الزمر: ٣٣- ٣٥]، وقال: **أُولَئك الّذين نتقَبّلُ عنهم أحسن ما عملُوا ونتجاوز عن سيِّئَاتهم في أَصحابِ الْجنّة وعد الصّدقِ الّذي كانوا يوعدونَ** [الأحقاف: ١٦].

- إن من اجتنب الكبائر كُفِّرَت عنه سيئاته فضلاً من الله ورحمة، كما قال تعالى: **إِن تجتنِبوا كَبائر ما تنهونَ عنه نكَفر عنكُم سيئَاتكُم وندخلْكُم مدخلاً كَرِيمًا** [النساء: ٣١]، ولذلك فإن من اجتنب الكبائر فهو ناجٍ بإذن الله من العذاب لأن سيئاته تُكفَّر عنه.

- أما الذي لا يجتنب الكبائر فإنه لا يأمن العذاب على ما اقترف من الكبائر والصغائر.
- كل ما يعمله العبد من السيئات فإنه يجزى به كما قال الله تعالى: **ليس بأمـانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءًا يجز به** [النساء: ١٢٣].

o وهذا الجزاء إما أن يعاقب به العبد المسيء في الدنيا أو في الآخرة، أو يعمل العبد ما يمحو عنه السيئات من التوبة والاستغفار والحسنات الماحية، أو يناله سببٌ يرفع الله به عنه عقوبة السيئات من دعوة مسلم أو شفاعة شافع أو رحمة أرحم الراحمين.

- امتدح الله عباده المؤمنين بأنهم **ويخشون ربهم ويخافون سوءَ ا ساب** [الرعد: ٢١] وهذا الخوف يحملهم على التقوى بعمل الصالحات واجتناب السيئات.

o وسوء الحساب هو أن يناقش العبد بسيئاته ثم يجازى عليها؛ فإنه لا طاقة لأحد بعذاب الله.

o قال ابن جرير: (وقوله: **ويخافون سـوءَ ا سـاب** [الرعد: ٢١]، يقول: ويحذرون مناقشة الله إياهم في الحساب، ثم لا يصفح لهم عن ذنب، فهم لرهبتهم ذلك جادُّون في طاعته، محافظون على حدوده)ا.هـ.

- وليس معنى سوء الحساب أن الله يظلمهم، تعالى الله عن ذلك، بل إن الله يوفي كل إنسان عمله لا ينقص منه شيء؛ بل سماه الله تعالى الجزاء الأوفى الذي لا أوفى منه، فلا يغادر الله فيه حسنة وإن كانت مثقال ذرة، كما قال الله تعالى: **أم لم ينّبأ بما في صـحف موسى (٣٦) وإبراهيم الّذي وفّى (٣٧) ألّا تزر وازرةٌ وزر أخرى (٣٨) وأنْ ليس للإنسان إلّا ما سعى (٣٩) وأنّ سعيه سوف يرى (٤٠) ثمّ يجزاه الجزاءَ الـأوفى (٤١) وأنّ إلـى ربّك المنتهى** [النجم: ٣٦- ٤٢].

- وكما قال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي إ ا هي أعمالكم أحصـيها لكـم أوفيكم إياها فمن وجد خ أ فليحمد ا ومن وجد غ ذلك فلا يلومن إلا نفسـه**» رواه مسلم من حديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه جل وعلا.
- دلت النصوص على أن الأمة على ثلاثة أصناف في الحساب:

o **الصنف الأول:** من يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب.

o **الصنف الثا :** من يحاسب حساباً يسيراً، فينظر في كتابه ويكلمه ربه ويقرره بذنوبه ثم يعفو عنه.

وهذا المقام ينبغي للعبد أن يتزيّن له بما يستطيع من الأعمال الصالحة، ويتجنب ما يشينه ويسوؤه من الأعمال السيئة، فإنه مقام حقّ، يود العبد فيه أنه لم يعمل سوءاً قط.

كما في الصحيحين من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه ربّه عزّ وجلّ ليس بينه وبينه تر ـان؛ فينظر أ ن منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم وينظر ب يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه؛ فاتقوا النار ولو بشق رة، فمن د فبكلمة طيبة**».

قال الفضيل بن عياض: (واسوأتاه منك وإن عفوت).

o **الصنف الثالث:** الذين يُناقَشون الحساب، ومناقشة الحساب في نفسها عذاب، ثم ما يكون بعدها من العقوبة على السيئات عذاب أيضاً، والذين يؤمر بهم إلى العذاب هم الذين ظلموا أنفسهم من أهل الكبائر؛ ومنهم من تدركه رحمة أرحم الراحمين وشفاعة الشافعين فينجو ويسلم ومنهم من يُكَرْدَسُ في النار فيعذب فيها ما شاء الله أن يعذب ثم يَخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

- وفي مسند الإمام أحمد من حديث موسى بن عقبة عن علي بن عبد الله الأزدي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**قـال ا عـز وجل أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظا لنفسه ومنهم مقتصد ومنـهم سابق با ات بإذن ا** [فاطر: ٣٢] **فأما الذين سبقوا با ات فأولئك الذين يدخلون ا نـة بغ حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك اسبون حسابا يس ا، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين بسون طول ا شر هم الذين تلافاهم ا بر ته فهم الـذين يقولـون ا مد الذي أذهب عنا ا زن إن ربنا لغفور شكور -إ قوله- لغوب** [فاطر: ٣٤، ٣٥]». وهذا الحديث قد روي من طرق عن أبي الدرداء هذا أجودها، وقيل: فيه انقطاع، وله شواهد، وهو موافق لنصوص الكتاب والسنة والله تعالى أعلم.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (يحاسب الله تعالى الخلقَ، ويخلو بعبده المؤمن، ويقرره

بذنوبه ؛ كما وُصِفَ ذلك في الكتاب والسنة ، وأما الكفار ؛ فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته ؛ فإنهم لا حسنات لهم ، ولكن تعدُّ أعمالهم وتحصى ، فيوقفون عليها ويقررون بها) ا.هـ.

• الحساب العسير الذي لا تيسير بعده إنما هو للكافرين والمنافقين كما دل عليه مفهوم آيات الانشقاق، مع قوله تعالى: **وقفوهم إنهم مسؤولون** [الصافات: ٢٤]، وقوله: **فلنسألنّ الّذين أرسلَ إليهم ولنسألنّ المرسلين (٦) فلنقصّنّ عليهم بعلمٍ وما كنّا غائبين (٧) والوزنُ يومئذٍ الحقّ فمن ثقُلت موازينه فأولئك هم المفلحونَ (٨) ومن خفّت موازينه فأولئك الّذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمونَ** [الأعراف: ٦- ٩] وقوله: **وكانَ يومًا على الكافرين عسيرًا** [الفرقان: ٢٦]، وقوله: **فذلك يومئذٍ يومٌ عسيرٌ (٩) على الكافرين غير يسيرٍ (١٠)** [المدثر: ٩، ١٠].

• جزاء الله تعالى للمؤمنين بالنعيم إحسان منه وفضل لأنهم لا يستحقون الثواب استحقاقاً على الله ؛ فهم عبيده ، وقد خلقهم لطاعته لا يستوجبون عليه شيئاً ، وأعمالهم في طاعة الله مهما بلغت لا توازي شكر نعمه عليهم ولا تقاربها ، ولكنَّ الله تعالى وعدهم وعداً حسناً أن يثيبهم على ما يعملون من الحسنات ، والله تعالى لا يخلف الميعاد.

• فيكون دخول المؤمنين للجنة إنما هو برحمة الله عز وجل وفضله وإحسانه ليس عن استحقاق في الأصل عليه.

• وجزاء الله تعالى للكفار والظالمين عدل منه جل وعلا لم يظلمهم فيه شيئاً ؛ حتى إن الكفار أنفسهم يعلمون أنهم مستحقون للعذاب بسبب ما كانوا يعملون من السيئات وما اقترفوه من الكفر بالله جل وعلا ، حتى إنهم ليمقتون أنفسهم مقتاً شديداً على ما فرطوا في جنب الله.

• والمقصود أن جزاء الله تعالى دائر بين العدل والإحسان لا ظلم فيه بوجه من الوجوه.

• وقد بيّن الله تعالى الآيات والعظات وأرسل الرسل لينذروا هذا اليوم فمن استجاب وأناب تذكَّر وتبصّر وسلك طريق النجاة فأفلح ونجا ، ومن أعرض ونأى بجانبه وكفر بالله من بعد ما دعي إلى الإيمان فهو مستحق للعذاب الأليم والمقت الكبير كما قال الله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ (١٢) هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (١٣) فَٱدْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ ٱلدَّرَجَاتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ (١٦) ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (١٧) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ (١٩) وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (٢٠) [غافر: ١٠- ٢٠].

كُفْرُ من كذَّب بالبعث

قوله: (وَمَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ [التغابن:٧]).

- المكذب بالبعث كافر، وقد استدل على كفره بأمرين:
  - o **الأمر الأول:** لأنه مكذب لخبر الله عز وجل وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم.
  - o **الأمر الثاني:** أن الله تعالى وصف القائلين بهذا بالقول بأنهم كفار فقال: **زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** [التغابن: ٧].
- وهذا الاستدلال مبني على قاعدة من قواعد التفسير، وهي أنه إذا حُكِيَ في القرآن قولٌ أو فعلٌ عن قوم عُبِّر عنهم بوصف من الأوصاف فقولهم وفعلهم محكوم عليه بهذا الوصف.
  - o فإذا قيل: قال الكافرون؛ فالقول المحكي عنهم كفر، فمن يقول به فهو كافر.
  - o مثاله قوله تعالى: **وَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** [ص: ٤] فمن زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم ساحر أو كذاب فهو كافر.

- وقوله تعالى: **ومن يدع مع ا ـ إ ا آخر لا برهانَ له بِهِ فإ ا حسابه عند ربِّه إنـه لا يفْلح الكافرون** [المؤمنون: ١١٧] فدعاء غير الله عز وجل هو من فعل الكفار الذين حكم الله تعالى عليهم بأنهم لا يفلحون.
- وقوله: **وقالَ الذين كفروا إن هذا إلا إِفْك افْتراه وأعانه عليْه قَوم آخـرون فقـد جاؤوا ظُلْماً وزوراً** [الفرقان: ٤] فمن قال بأن الرسول صلى الله عليه وسلم افترى القرآن على ربه فهو كافر.
- وقوله: **بل اتبع الّذين ظَلَموا أهواءَهم بغير عِلْم** [الروم: ٢٩] فالذي يتبع هواه بغير علم فهو ظالم.
- ومنه هذا المثال: **زعم الّذين كَفَروا أنْ لن يبعثُوا** [التغابن: ٧] فمن زعم أنه لن يبعث فهو كافر؛ لأنه قال بالمقالة التي وصف الله القائلين بها بأنهم كفار.
- وهذه القاعدة صحيحة في الأصل ولها استثناءات، والاستدلال الأول أصح وأقوى دلالة.
- وقد أجمع أهل العلم على كفر من كذب بالبعث.

مقاصد إرسال الرسل

قوله: (وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: رسلاً مبشّـرين ومنذرين لئلّا يكُونَ للنّاسِ على ا ـ حجّةٌ بعد الرّسل [النساء: ١٦٥]).

- أرسل الله تعالى الرسل لحكم ثلاثة جمعها الله تعالى في قوله تعالى: **رسـلاً مبشّـرين ومنذرين لئلّا يكُونَ للنّاسِ على اللّه حجّةٌ بعد الرّسل** [النساء: ١٦٥]، وقوله: **كَانَ النّاس أمّةً واحدةً فَبعثَ اللّه النّبِيّ مبشّرين ومنذرين وأنزلَ معهم الْكتاب بِالْحقّ** [البقرة: ٢١٣].
- وتلخص منها أن مقاصد إرسال الرسل ثلاثة:
  - ا قصد الأول: إقامة الحجة على العباد ببعثة الرسل وإنزال الكتب.
  - ا قصد الثا : تبشير من يطيع الله ورسله.
  - ا قصد الثالث: إنذار العصاة.

- وهذه المقاصد يُجمع بعضها في بعض المواضع ويفرد بعضها، وكل مقصد منها إذا أفرد فهو دال على غيره.
  - o فإقامة الحجة تتضمن البشارة والنذارة.
  - o والبشارة إذا أفردت فمن لم يحقق شروطها فهو خاسر، وفي هذا حجة ونذارة.
  - o وكذلك النذارة فإن من اجتنب ما أنذر عليه فهو آمن من العذاب المنذر به وفي هذا حجة وبشارة.
- ولذلك ربما أفردت بعض المقاصد في بعض المواضع دون بعض.
- وَفَهْمُ هذا يزيل ما قد يُستشكَل من اختلاف وصف الحصر في بعض الآيات كما في قوله تعالى: **وما نرسل ا رسلا إلا مبشرين ومنذرين** [الأنعام: ٤٨] في موضعين، ولم يذكر إقامة الحجة لفظاً لأنه لازم معنىً من الوعد بالبشارة والوعيد على النذارة.
- وقوله: **إنما أنت نذيرٌ** [فاطر: ٢٣]، وقوله: **إن يوحى إلي إلا أنما أنا نـذيرٌ مـبِ ٌ** [ص: ٧٠].
- وكذلك شهادة كل رسول على أمته هي قائمة على هذه الأمور الثلاثة كما في قوله تعالى: **فكيف إذَا جِئْنا من كُل أمةٍ بِشهيدٍ وجِئْنا بِك علىٰ هـؤلاء شـهيدًا** [النساء: ٤١]، وقوله: **إنا أرسلْناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا (٤٥) وداعيًا إلىٰ الله بِإذْنِه وسراجًا مـنِ ًا** [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].
- فدعوة الرسل متضمنة لبيان الأوامر والنواهي وما يترتب عليها من البشارة والنذارة، وبيانهم ودعوتهم هي إقامة الحجة على من أرسلوا إليهم، وشهادتهم عليهم يوم القيامة هي من مقتضى إقامة الحجة لأنهم يشهدون عليهم بما أجابوهم به.

المقصد الأول: إقامة الحجة

- فأما المقصد الأول: وهو إقامة الحجة فإن الله عز وجل بيّن أنه من عدله أنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة، وأنه لا يعذب أحداً قبل أن يرسل إليه رسولاً كما قال تعالى: **وما كُنا معـذبِ حتى نبعثَ رسولاً** [الإسراء: ١٥].
- وقال تعالى: **ذَلك أن لم يكُن ربك مهلك القُرى بِظُلْمٍ وأهلُها غَافلُونَ** [الأنعام: ١٣١].

o غافلون: أي غير عارفين بما يجب عليهم مما أوجبه الله من الإيمان به واتباع رسله.

• وقال الشنقيطي رحمه: (قوله تعالى: **رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلّا يكُونَ للنّاسِ على اللّه حجّةٌ بعد الرّسل** [النساء: ١٦٥]الآية، لم يبين هنا ما هذه الحجة التي كانت تكون للناس عليه لو عذّبهم دون إنذارهم على ألسنة الرسل، ولكنه بينها في سورة طه بقوله: **ولو أنّا أهلكْناهم بِعذَابٍ من قَبله لَقَالُوا ربّنا لَولا أرسلْت إلَينا رسولاً فَنتّبِع آياتك من قَبلِ أنْ نذلّ ونخزى** [طه: ١٣٤]، وأشار لها في سورة القصص بقوله: **ولَولا أنْ تصيبهم مصيبةٌ بِما قَدّمت أيديهم فَيقُولُوا ربّنا لَولا أرسلْت إلَينا رسولاً فَنتّبِع آياتك ونكُونَ من الْمؤمنِين** [القصص: ٤٧])ا.هـ.

• وقد بيّن الله تعالى أنّ كل من يدخل النار من الكفار فقد قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل وعرفوا ما وجب عليهم وما أنذروا به لكنهم كذبوا واستكبروا أو اتبعوا المستكبرين، كما قال الله تعالى: **ولِلّذين كَفَروا بِربِّهِم عذَاب جهنّم وبِئْس الْمصير (٦) إذَا أُلْقُوا فيها سمعوا لَها شهيقًا وهي تفُور (٧) تكَاد تميّز من الْغيظ كُلّما أُلْقي فيها فَوجٌ سأَلَهم خزنتها أَلَم يأْتكُم نذيرٌ (٨) قَالُوا بلَى قَد جاءَنا نذيرٌ فَكَذّبنا وقُلْنا ما نزّلَ اللّه من شيءٍ إنْ أنتم إلّا في ضلَالٍ كَبِير (٩) وقَالُوا لَو كُنّا نسمع أو نعقلُ ما كُنّا في أصحابِ السّعير (١٠) فَاعترفُوا بِذَنبِهم فَسحقًا لأَصحابِ السّعير** [الملك: ٦- ١١]

• فاعترفوا بذنبهم وأقروا بقيام الحجة عليهم ولم يجدوا إلا لوم أنفسهم فقالوا: **وقَالُوا لَو كُنا نسمع أو نعقلُ ما كُنا في أصحابِ السعير** [الملك: ١٠]

• وقال تعالى: **وسيق الّذين كَفَروا إلَى جهنّم زمراً حتّى إذَا جاءُوها فُتحت أبوابها وقَالَ لَهم خزنتها أَلَم يأْتكُم رسلٌ منكُم يتلُونَ علَيكُم آيات ربِّكُم وينذرونكُم لقَاءَ يومكُم هذَا قَالُوا بلَى ولَكن حقّت كَلمةُ الْعذَابِ علَى الْكَافرين** [الزمر: ٧١].

• وقال تعالى: **وقَالَ الّذين كَفَروا لَن نؤمن بِهذَا الْقُرآن ولَا بِالّذي بين يديه ولَو ترى إذ الظّالمونَ موقُوفُونَ عند ربِّهم يرجِع بعضهم إلَى بعضٍ الْقَولَ يقُولُ الّذين استضعفُوا للّذين استكْبروا لَولَا أنتم لَكُنّا مؤمنِين (٣١) قَالَ الّذين استكْبروا للّذين استضعفُوا أنحن صددناكُم عنِ الْهدى بعد إذْ جاءَكُم بلْ كُنتم مجرمين (٣٢) وقَالَ الّذين استضعفُوا للّذين**

استكبروا بلْ مكْر الّليل والّنهار إذْ تأمروننا أنْ نكْفُر بِاللّه ونجعلَ له أندادًا وأسرّوا الّندامـةَ لمّا رأوا الْعذَاب وجعلْنا الْأغْلَالَ في أعناقِ الّذين كفَروا هلْ يجزونَ إلّا ما كانوا يعملُـونَ

[سبأ: ٣١- ٣٣].

o فهـؤلاء المستضـعَفون لم ينكـروا أن الهـدى قـد جـاءهم، وعرفـوا أنهـم كـانوا مجـرمين بعصيانهم للرسل وكفرهم بالله جل وعلا، ولذلك ندموا حين لا تنفعهم الندامة.

• وقال تعالى مبيّنا ما يقوله للكفار من الإنس والجن يوم يحشرهم: **يا معشـر الْجِـنّ والْإنسِ ألم يأتكُم رسلٌ منكم يقُصّونَ عليكُم آياتي وينذرونكُم لقَاءَ يومكُم هذَا قَالُوا شهدنا علَى أنفُسِنا وغَرّتهم الْحياةُ الدّنيا وشهدوا علَى أنفُسِهم أنّهم كَانوا كَافرين (١٣٠) ذَلِـك أنْ لَم يكُن ربّك مهلك الْقُرى بِظُلْمٍ وأهلُها غَافلُونَ (١٣١)** [الأنعام: ١٣٠، ١٣١].

• قال ابن جرير رحمه الله: (فقطع حجة كلّ مبطل ألحدَ في توحيده وخالف أمره بجميع معاني الحجج القاطعة عذرَه، إعذارًا منه بذلك إليهم، لتكون لله الحجة البالغة عليهم وعلى جميع خلقه)ا.هـ.

• وفي الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا أحد أحب إليه العذر من ا ، ومن أجل ذلك بعث ا بشرين وا نذرين**».

• فالحجة تقوم على الخلق بإرسال الرسل؛ فما جاء به الرسل فهو لازم للناس، ومن خالفهم بأي حجة يتحجج بها فحجته داحضة باطلة.

• وهذا أصل مهم من أصول أهل السنة، وقد خالف فيه وفي بعض تفاصيله طوائف من أهل البدع وأشهرهم طائفتان:

o **الطائفة الأو :** بعض المتكلمين - أصحاب علم الكلام – الذين زعموا أن الحجة قائمة بالعقل والفطرة، وأن الخلق لو عُذِّبوا دون إرسال الرسل لكان ذلك عدلاً.

o **والطائفة الأخرى:** بعض غلاة المتصوفة الذين زعموا أنهم يأخذون بالإلهام عن ربهم مباشرة دون واسطة رسول، ومنهم من يقول: حدثني قلبي عن ربي.

وكل من زعم أنه يسعه الخروج عن طاعة الرسول فهو كافر.

المقصد الثاني: البشارة

- قال الله تعالى: **وبشّر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلًا كبيرًا** [الأحزاب: ٤٧]، وبيّن هذا الفضل الكبير بقوله: **والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات في روضات الجنّات لهم ما يشاءون عند ربّهم ذلك هو الفضل الكبير** [الشورى: ٢٢].
- فقوله: **وبشر المؤمنين** يتضمن ثلاثة أمور:
  - **الأمر الأول:** البشارة لمن اتصف بالإيمان بالفضل الكبير في جنات النعيم.
  - **الأمر الثاني:** النذارة لمن لم يتصف بالإيمان؛ بأن البشارة لا تناله، ومن حرم ثواب البشارة فهو خاسر.
  - **الأمر الثالث:** أن معرفة الإيمان إنما تنال عن طريق الرسول الذي بلغهم البشارة، فهم لا يعرفون كيف يؤمنون إلا من طريقه.
- فتبين أن هذه المقاصد يدلّ بعضها على بعض، وأن القرآن يصدق بعضه بعضها، وأن العبارة الواحدة تدل على معان كثيرة يصدق بعضها بعضا.

المقصد الثالث: الإنذار

- قال الله تعالى: **يا أيها المدثر (١) قم فأنذر (٢)** [المدثر: ١، ٢]، وقال تعالى: **وإن من أمةٍ إلا خلا فيها نذيرٌ** [فاطر: ٢٤].
- وهذه النذارة على درجتين:
  - **الدرجة الأولى:** النذارة للكفار بالخلود في النار وتحريم الجنة عليهم أبداً، كما قال تعالى: **وأنذر النّاس يوم يأتيهم العذاب فيقولُ الّذين ظلموا ربّنا أخّرنا إلى أجلٍ قريبٍ نجب دعوتك ونتّبع الرّسلَ أولم تكونوا أقسمتم من قبلُ ما لكُم من زوالٍ** [إبراهيم: ٤٤].
  - **الدرجة الثانية:** إنذار العصاة بما عليهم من العذاب، وقد أنذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته من الذنوب كبيرها وصغيرها، وخص الكبائر بمزيد تحذير وإنذار وبيّن عقوبة بعضها، فمن ارتكبها بعدما بلغه العلم فهو مستحق للعقاب، والعياذ بالله.
  - نسأل الله تعالى أن يتجاوز عن سيئاتنا وتقصيرنا، وأن يغفر لنا ويرحمنا

ويهدينا إليه صراطاً مستقيما.

حكم أهل الفترة

- من المسائل المتصلة بهذا المبحث ما يعرف بمسألة حكم أهل الفترة.
- وهذه المسألة قد أفاض فيها أهل العلم، ومنها مسائل متفق عليها، ومسائل مختلف فيها، وقبل بحث هذه المسألة **ينبغي التذك باصل مهم :**
- **الأصل الأول:** أن كل أمة قد بعث فيها نذير كما دل عليه قوله تعالى: **وإن من أمةٍ إلا خلا فيها نذيرٌ** [فاطر: ٢٤]، وقوله: **ولقد بعثنا في كُل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا اللّه واجتنِبوا الطاغُوت** [النحل: ٣٦].
  - o وهذا العموم الوارد في الأمم لا يعارضه وجود أفراد لم تبلغهم الرسالة لأسباب عارضة اقتضتها حكمة الله تعالى.
- **الأصل الثا :** أن الله تعالى قد اقتضى عدله ألا يعذب أحداً لم تقم عليه الحجة الرسالية كما قال تعالى: **وما كُنا معذبِ حتى نبعثَ رسولاً** [الإسراء: ١٥].
  - o وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**والذي نفس مد بيده لا يسمع أحد من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرا وت و يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**)).
  - o دل الحديث بمنطوقه على أن من بلغته الحجة ولم يؤمن فهو من أهل النار، ودل بمفهومه على أن من لم تبلغه الحجة الرسالية فلا يقع عليه هذا الوعيد.
- واسم هذه المسألة وهو حكم أهل الفترة أُخِذَ من قوله تعالى: **يا أهلَ الْكتابِ قَد جاءكُم رسولُنا يبين لَكُم علَى فَترةٍ من الرسلِ أن تقُولُوا ما جاءنا من بش ٍ ولاَ نذير فَقَد جاءكُم بش ونذيرٌ واللّه علَى كُل شيءٍ قَديرٌ** [المائدة: ١٩]، والمقصود بالفترة انقطاع إرسال الرسل مدة طويلة من الزمن.
- قال ابن جرير: (**على فترة من الرسل** يقول: على انقطاع من الرسل، و"الفَترة" في هذا الموضع: الانقطاع؛ يقول: قد جاءكم رسولنا يبين لكم الحق والهدى، على انقطاع من

الرسل، و"**الفَترة**": الفَعْلَة، من قول القائل: "فتر هذا الأمر يفتُر فُتورًا"، وذلك إذا هدأ وسكن، وكذلك"الفترة" في هذا الموضع، معناها: السكون، يراد به سكون مجيء الرسل، وذلك انقطاعها). ا.هـ.

- وقال أبو المظفر السمعاني: (وإنما سماه زمان الفترة، لأن الرسل كانوا بعد موسى تترى من غير انقطاع، ولم يكن بعد عيسى رسول سوى محمد).
- وقال ابن حجر: (وزمان الفترة هو ما بين الرسولين من المدة التي لا وحي فيها).
- وقال عامة المفسرين في هذه الآية بنحو ما قاله ابن جرير، بل نقل بعضهم الإجماع عليه.
- وأهل الفترة الكبرى هم من مات في الزمن الذي بين رفع عيسى عليه السلام وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم.
- لكن مما ينبغي التنبه له أن كون المرء من أهل الفترة لا يقتضي ذلك الحكم بكفره ولا إسلامه، والتفصيل في شأنهم أنهم على ثلاثة أقسام:
  - **قسم مسلمون متبعون ا بلغهم من ا دى بشريعة سابقة،** ومنهم من شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بخير كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل.
  - **وقسم كفار كذبوا الرسل وقامت عليهم ا جة من دعـوة بلغتـهم بطريـق صحيح،** وعلى هذا القسم تحمل الأحاديث الواردة في الحكم على بعض الكفار الذين ماتوا في الفترة بالنار.
  - **وقسم تبلغهم الدعوة** فهؤلاء هم الذين وردت فيهم أحاديث الامتحان.
- وقد روي في مسألة الامتحان نحو سبعة أحاديث ثلاثة منها صحيحة والأخرى في طرقها ضعف.
- فأما الثلاثة الصحيحة فحديث عن الأسود بن سريع رضي الله عنه، وحديثان عن أبي هريرة رضي الله عنه أحدهما مرفوع، والآخر موقوف له حكم الرفع.
- فأما الحديث الأول: فهو ما رواه معاذ بن هشام الدستوائي عن أبيه عن قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود بن سريع رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**أربعة تجون يوم القيامة؛ رجل أصم، ورجـل هـرم، ورجـل أ ـق، ورجـل**

مات الفترة؛

- فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام و أ ع شيئاً.

- وأما الأ ق فيقول: رب لقد جاء الإسلام والصبيان ذفو بالبعر.

- وأما ا رم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل.

- وأما الذي مات الفترة فيقول: رب ما أتا لك رسول.

فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه؛ ف سل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار ».

قال: « **فوالذي نفسي بيده لو دخلوها كانت عليهم بردا وسلاما** ».

أخرجه: الإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن نصر المروزي في الرد على ابن قتيبة، والبزار، وابن حبان، وأبو نعيم الأصبهاني، والطبراني، والضياء المقدسي، وابن حزم في الإحكام، والبيهقي في الاعتقاد كلهم من طريق معاذ بن هشام به.

- وأما الحديث الثاني: فهو ما رواه الإمام أحمد، ومحمد بن نصر المروزي في الرد على ابن قتيبة، وابن حزم في الإحكام، والبيهقي في الاعتقاد من طريق معاذ بن هشام الدستوائي عن أبيه عن قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً نحوه إلا أنه قال في آخره: « **فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن يدخلها يسحب إليها** ». قال البيهقي: (وهذا إسناد صحيح)، والحديث صححه الألباني.

- وأما الحديث الثالث: فهو ما رواه عبد الرزاق عن معمر عن عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: (إذا كان يوم القيامة جمع الله أهل الفترة والمعتوه والأصم والأبكم والشيوخ الذين لم يدركوا الإسلام ثم أرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار).

قال: فيقولون: كيف ولم يأتنا رسول؟

قال: (وايم الله لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاماً.

ثم يرسل إليهم فيطيعه من كان يريد أن يطيعه.

قال: ثم قال أبو هريرة: (اقرؤوا إن شئتم: **وما كُنا معذبِ حتى نبعثَ رسولاً** [الإسراء: ١٥]).

وهذا إسناد صحيح إلى أبي هريرة رضي الله عنه موقوفاً عليه، ومثله لا يقال بالرأي، وقد

رواه من هذا الطريق محمد بن نصر المروزي في الرد على ابن قتيبة.

o قال ابن القيم: (غاية ما يُقَدَّر فيه أنه موقوف على الصحابي ومثل هذا لا يقدم عليه الصحابي بالرأي والاجتهاد بل يجزم بأن ذلك توقيف لا عن رأي).

o وقد صحت الرواية بمعناه عن أبي هريرة مرفوعاً من طريق آخر كما تقدم.

- وروي في هذا المعنى أحاديث أخرى عن أنس وثوبان وأبي سعيد الخدري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم وفي طرقها كلها ضعف.

- قال ابن القيم: (هذه الأحاديث يشد بعضها بعضا فإنها قد تعددت طرقها واختلفت مخارجها فيبعد كل البعد أن تكون باطلة على رسول الله لم يتكلم بها وقد رواها أئمة الإسلام ودونوها ولم يطعنوا فيها).

- وممن صحّحَ مسألة الامتحان: ابن حزم في الإحكام، والبيهقي في الاعتقاد، وعبد الحق الأشبيلي في الغاية، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وابن حجر، والألباني، واحتج بها محمد بن نصر المروزي في الرد على ابن قتيبة.

- ومما ينبغي معرفته أن هذه المسألة أُلحِقَ بها من مات ولم تبلغه الدعوة وإن لم يكن من أهل الفترة المذكورة كأطفال المشركين ومجانينهم وكذلك من بلغته الدعوة على حال لا تقوم بها الحجة كالكبير المخرف والأصم ومن في حكمهم.

- فالذي لا تبلغه الدعوة بوجه تقوم به عليه الحجة الرسالية فله حكم أهل الفترة، على ما سبق بيانه، والله تعالى أعلم.

الدرس الحادي والعشرون: الكفر بالطاغوت

قال رحمه الله:

(وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلّا يكُونَ للنّاسِ علَى ا ـ حجّةٌ بعد الرّسل** [النساء: ١٦٥].

وأَوَّلُهُمْ نُوحٌ وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيينَ، لاَ نَبِيَّ بَعْدَهُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **ما كانَ محمّدٌ أبا أحدٍ من رجالكُم ولكن رسولَ اللّه وخاتم النّبيِ** [الأحزاب: ٤٠].

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ نُوحاً أَوَّلُ الرُّسُلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إ نوحٍ والنّبيِ من بعده** [النساء: ١٦٣].

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولاً مِنْ نُوحٍ إِلى مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ - يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **ولقَد بعثْنا كُلِّ أمّةٍ رسولاً أن اعبدوا ا ـ واجتنِبوا الطّاغُوت** [النحل: ٣٦].

وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ العِبَادِ الكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (ومَعْنَى الطَّاغُوتِ: مَا تَجَاوَزَ بِهِ العَبْدُ حَدَّهُ، مِنْ مَعْبُودٍ، أَوْ مَتْبُوعٍ، أَوْ مُطَاعٍ).

وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ، وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ:

- إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ.
- وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ.
- وَمَنِ ادَّعَى شَيْئاً مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ.
- وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلى عِبَادَةِ نَفْسِهِ.
- وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ.

وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لا إكْراه الدِّين قد تبيِّن الرِّشد من الغيِّ فمن يكْفُر بِالطَّاغُوت ويؤمن بِا ـ فقد استمسك بِالعروة الوثْقى لا انفصام لَها واللَّه سميعٌ عليمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) وَفي الحَدِيثِ: ((رأس الأمر الإسلام، وعموده الصّلاةُ، وذُروةُ سنامه ا هاد سبيل ا ـ)).

وَاللهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ).

عناصر الدرس:

- أول الرسل وآخرهم
- الكفر بالطاغوت
- بيان معنى الطاغوت
- شرح تعريف ابن القيّم للطاغوت
- رؤوس الطواغيت
- تفسير قول الله تعالى: ﴿ لا إكراه الدين.. ﴾ [البقرة: ٢٥٦].
- معنى العروة الوثقى
- شرح حديث: (رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة..)

أول الرسل وآخرهم

قوله: (وأَوَّلُهُمْ نُوحٌ وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيينَ، لاَ نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **ما كَانَ محمَّدٌ أبا أحدٍ من رجالكُم ولكن رسولَ اللَّـه وخـاتم النَّبِيِّ** [الأحزاب:٤٠].

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ نُوحاً أَوَّلُ الرُّسُلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **إنَّا أوحينا إليك كما أوحينا إ نوحٍ والنَّبِيِّ من بعده** [النساء:١٦٣]).

- أي: أن أول الرسل نوح عليه السلام، واستدل لذلك بقوله تعالى: **إنَّا أوحينا إليـك كما أوحينا إ نوحٍ والنَّبِيِّ من بعده** [النساء:١٦٣]، وقال تعالى: **ولَقَد أرسلْنا نوحًا وإبراهيم وجعلْنا في ذُريتهما النبوةَ والْكتاب** [الحديد: ٢٦].

- ويدل لذلك صراحة ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة المسمى بحديث الشفاعة، وفيه أن أهل الموقف يوم القيامة يأتون نوحاً فيقولون: (يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض).

- وآدم عليه السلام كان نبياً مكلماً ولم يكن رسولاً كما دل على ذلك ما رواه ابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم والبيهقي في الأسماء والصفات وغيرهم من طريق معاوية بن سلام عن أخيه زيد عن أبي سلام قال: حدثني أبو أمامة رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله أنبي كان آدم؟

قال: ((**نعم، معلَّمٌ مكَلَّمٌ**)). قال: كم بينه وبين نوح؟

قال: ((**عشرة قرون**)). قال: كم كان بين نوح وإبراهيم؟

قال: ((**عشرة قرون**))

قالوا: يا رسول الله كم كانت الرسل؟

قال: ((**ثلاث مائة و سة عشر أ غف أ**)).

والحديث صححه الحاكم، وقال الذهبي: على شرط مسلم، وصححه الألباني.

- وهذه القرون العشرة كان أهلها على التوحيد حتى نشأ الشرك في قوم نوح عليه السلام كما قال الله تعالى: **كَانَ الناس أمةً واحدةً** [البقرة: ٢١٣] أي على دين الإسلام **فَبعثَ اللَّـه**

النبيين مبشرين ومنذرين وأنزلَ معهم الكتاب [البقرة: ٢١٣] وقال: **وما كانَ الناس إلا أمةً واحدةً فاختلفُوا** [يونس: ١٩].

• قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)، قال: (وكذلك هي في قراءة عبد الله: (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا)) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وقال: على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

• والحديث صححه الألباني وقال: (فإنه وإن كان موقوفاً رواية؛ فهو مرفوع دراية؛ فإنه في تفسير قوله تعالى: **كانَ الناس أمةً واحدةً فَبعثَ اللّه النبيين مبشرين ومنذرين** [البقرة: ٢١٣]، وبخاصة أنه من رواية ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وفيه ما يؤكد رفعه، وهو قوله: (وكذلك هي في قراءة عبد الله.." يعني: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وفيه فائدة هامة؛ وهي أن الناس كانوا في أول عهدهم أمة واحدة على التوحيد الخالص، ثم طرأ عليهم الشرك، خلافاً لقول بعض الفلاسفة والملاحدة؛ أن الأصل فيهم الشرك ثم طرأ عليهم التوحيد!

ويبطل قولَهم هذا الحديثُ وغيرهُ مما هو نصٌّ في نبوة أبيهم آدم عليه السلام، إلى أدلة أخرى كنت ذكرت بعضها في كتابي "تحذير الساجد" (ص ١٤٧- ١٥٠)، فراجعه فإنه مهم) ا.هـ.

قوله: (وَآخِرُهُمْ مُحَمّدٌ عَلَيْهِمُ الصّلاةُ وَالسّلاَمُ، وَهُوَ خَاتَمُ النّبِيينَ، لاَ نَبِيّ بَعْدَهُ، وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ما كانَ محمّدٌ أبا أحدٍ من رجالكُم ولكن رسولَ اللّه وخاتم النّبيين [الأحزاب:٤٠]).

• هذه الآية تدل دلالة صريح على أن نبيناً محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فلا نبيّ بعده، وقد صح من حديث أنس المتقدم في دروس سابقة أن النبوة والرسالة ختمت بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

• فكل من ادعى النبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم فهو كاذب، ومدّعي النبوة كافر بالإجماع.

الكفر بالطاغوت

قوله: (وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولاً مِنْ نُوحٍ إِلى مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ- يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ولَقَد بعثْنا كُلِّ أُمّةٍ رسولاً أن اعبدوا ا ¯ واجتنِبوا الطّاغُوت [النحل: ٣٦].

وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ العِبَادِ الكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ).

- قوله تعالى: **ولَقَد بعثْنا كُلِّ أُمّةٍ رسولاً أن اعبدوا ا ¯ واجتنِبوا الطّاغُوت** [النحل: ٣٦] صريح الدلالة على أن كل أمة قد بعث فيها رسول يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده واجتناب الطاغوت، وأنّ دعوة الرسل كلهم إلى الإسلام الذي هو إفراد الله تعالى بالعبادة.
- وهذه الرسالة إلى كل أمة، لم تخل منها أمة من الأمم كما دل على العموم قوله: **كُلِّ أُمّةٍ** [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: **وإن من أُمةٍ إلا خلَا فيها نــذيرٌ** [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: **ولكُل أُمةٍ رسولٌ** [يونس: ٤٧].
- والنبي صلى الله عليه وسلم جاءت رسالته إلى الناس جميعاً فرسالته أعم الرسالات.
- وهذا العموم في البعث إلى جميع الأمم لا يعارضه وجود أفراد من تلك الأمم لم تبلغهم الدعوة كما سبق بيانه، وبيان الأدلة على هذه المسائل.
- وأما تحديد عدد هذه الأمم ففيه حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**أنتم تتمون سبع أمة، أنتم خ هـا وأكرمها على ا** ». رواه ابن المبارك في الزهد، وعبد الرزاق في تفسيره، وأحمد في فضائل الصحابة، والترمذي وابن ماجة في سننهما، والحاكم في المستدرك، وغيرهم.

O قال ابن حجر في الفتح: (وهو حديث حسن صحيح)، وذكر له شاهداً عن علي في المسند مرفوعاً بسند حسن، وأثراً عن قتادة في تفسير الطبري رجاله ثقات، والحديث حسنه الألباني.

شرح تعريف ابن القيّم للطاغوت

قوله: (قَالَ ابْنُ القَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- : (ومَعْنَى الطَّاغُوتِ: مَا تَجَاوَزَ بِهِ العَبْدُ

حَدّهُ، مِنْ مَعْبُودٍ، أَوْ مَتْبُوعٍ، أَوْ مُطَاعٍ).

- **الطاغوت:** فَعَلُوتٌ من الطغيان، أصله طَغَوُوت، كما يقال: مَلَكوت، وجبروت، وهذا البناء تستعمله العرب للمبالغة الكبيرة التي لا أبلغ منها.
- و**الطغيان** هو: مجاوزة الحد، يقال: رجل طاغٍ، إذا جاوز حدّه، وأسرف في الظلم.
- ويقال: رجل طاغية، على سبيل المبالغة، وصفاً لعظيم ظلمه وطغيانه ومجاوزته للحد، ويقال: طاغوت، على سبيل المبالغة العظيمة أي أنه بلغ الغاية في الطغيان.
- ويطلق لفظ الطاغوت على الواحد والجماعة، وعلى المذكر والمؤنث
- قال الواحدي: (الطاغوت يكون واحداً وجمعاً، ويؤنّثُ ويذَكَّرُ:
  - o قال الله تعالى: **يريدونَ أن يتحاكَموا إلى الطاغُوت وقَد أمروا أن يكْفُروا به** [النساء: ٦٠]؛ فهذا في الواحد.
  - o وقال تعالى في الجمع: **والذين كفَروا أولياؤهم الطاغُوت يخرجونهم** [البقرة: ٢٥٧].
  - o وقال في المؤنّث: **والذين اجتنبوا الطاغُوت أن يعبدوها** [الزمر: ١٧])ا.هـ.
- التأنيث في قوله تعالى **اجتنبوا الطاغُوت أن يعبـدوها** [الزمر: ١٧] هو للأوثان، وهي جماعة تؤنّث لفظاً، قال تعالى: **فَاجتنِبوا الرجس من الأَوثَان** [الحج: ٣٠].
- والطاغوت يجمع على طواغيت، والطواغي جمع طاغية، وفي صحيح مسلم من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم**».
  - o والمراد بالطواغي في هذا الحديث الأوثان التي تعبد من دون الله عز وجل.
  - o وقد بوّب البخاري في صحيحه باب (لا يُحلف باللات والعزى ولا بالطواغيت)
- وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (كان الأنصار قبل أن يسلموا يهلّون لمناةَ الطاغية التي كانوا يعبدون عند المشلل).
- قال النووي: (ومناة: صَنَمٌ كان نصبه عمرو بن لحيّ في جهة البحر بالمشلّل ممَّا يلي قديداً).
  - o والمشلّل: ثنية مشرفة على قُدَيدٍ، وهو شمال جدة قريب من عسفان.

- وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«لا تقوم الساعة ح تضطرب أليات نسـاء دوس علـى ذي ا لمصة»**. وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية).

  - o قوله: (وذو الخلصة طاغية دوس...) هذا مدرج من كلام أبي هريرة رضي الله عنه.

- وفي هذا دليل على أن الشرك سيعود في هذه الأمة، وقد جاء بيان توقيت ذلك في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«لا يذهب الليل والنهار ح تعبد اللات والعزى»**.

فقالت عائشة: (يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله: **هو ٱلذي أرسلَ رسـولَه بِالْهدى ودينِ الْحقّ ليظْهره على الدّين كُلّه ولو كره الْمشركُونَ** [الفتح: ٢٨] أن ذلك تاماً.

قال: **«إنه سيكون من ذلك ما شاء ا ، ثم يبعث ا ر اً طيبة، فتوفّى كلّ من في قلبـه مثقالُ حبة خردل من إ ان؛ فيبقى من لا خ فيه؛ فـ جعون إ دين آبائهم»**.

- وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **« مع ا الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه؛ فيتبع من كـان يعبـد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت»**.

- وهذا الاتباع يكون إلى نار جهنم والعياذ بالله؛ فإن هذه الطواغيت وكذلك الشمس والقمر يؤمر بها فتلقى في نار جهنم هي ومن يتبعها، ويلقون في النار إلقاءً عنيفاً شديداً كما قال تعالى: **إنكُم وما تعبدونَ من دون الله حصب جهنم أنتم لَها واردونَ** [الأنبياء: ٩٨].

  - o **الحصَبُ:** هو ما يُحصَب به، أي يحذف ويُرمى، ومنه سميت الحصباء لأنها حجارة يُحصب بها، ويقال: حَصَبته بحصاة، إذا حذفته بها.
  - o و**الحَصَبُ:** هو الشيء الذي يُحصَب به من حجارة أو غيرها؛ فجعل الله تعالى المشركين وما يعبدون من الطواغيت حَصَبَ جهنم، والعياذ بالله.
  - o قال ابن جرير: (معناه أنهم تقذف جهنم بهم، ويرمى بهم فيها).

- والمقصود أن أكثر ما يطلق لفظ الطاغوت في نصوص الكتاب والسنة على ما يُعبد من دون الله عز وجل.

- قال تعالى: **والذين اجتنبوا الطاغُوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لَهم الْبشرى فَبشر عباد** [الزمر: ١٧].
- وقال: **فَمن يكْفُر بِالطاغُوت ويؤمن بِاللّه فَقَد استمسك بِالْعروة الْوثْقى** [البقرة: ٢٥٦].
- قال ابن وهب: قال لي مالك: (الطاغوت: ما يعبدون من دون الله).
- وقد نقل عن السلف عبارات في تفسير الطاغوت لا تخالف ما سبق تقريره لكنها إما لبيان أصل الطاغوت، أو التنبيه على بعض أنواعه.
  - فروي عن عمر بن الخطاب ومجاهد والشعبي: أن الطاغوت هو الشيطان.
  - وروي عن محمد بن سيرين أن الطاغوت هو الساحر، وهي إحدى الروايتين عن أبي العالية الرياحي، وهذا بيان لنوع من أنواع الطواغيت.
  - وروي عن سعيد بن جبير أن الطاغوت هو الكاهن، وهي الرواية الأخرى عن أبي العالية الرياحي، وهذا بيان لنوع من أنواع الطواغيت.
- قال ابن جرير: (والصواب من القول عندي في"**الطاغوت**"، أنه كل ذي طغيان على الله، فعُبِدَ من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، وإنسانا كان ذلك المعبود، أو شيطانا، أو وثنا، أو صنما، أو كائنا ما كان من شيء)ا.هـ.
- وهذا يدل عليه قوله تعالى: **والّذين اجتنبوا الطّاغُوت أَنْ يعبدوها وأنابوا إلى اللّه لَهم الْبشرى فَبشّر عباد** [الزمر: ١٧]؛ ففسر اجتناب الطاغوت في قوله تعالى: **ولَقَد بعثْنا في كُلّ أُمةٍ رسولاً أَنِ اعبدواْ اللّه واجتَنِبواْ الطـاغُوت** [النحل: ٣٦] باجتناب عبادتها، فدل على أن الطاغوت هو ما يُعبد من دون الله عز وجل، مهما كان نوع تلك العبادة، فقد تكون دعاء وذبحاً ونذراً، وقد تكون تحاكماً والتجاءً، وقد تكون طاعة في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله.
- وأنت إذا تأملت هذه الأمور وجدت جامعَها عبادة الشيطان، ولذلك قال ابن كثير بعد ما أورد أثر عمر بن الخطاب في تفسير الطاغوت بأنه الشيطان: (ومعنى قوله في الطاغوت: إنه الشيطان قوي جدًّا فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها)ا.هـ.

• وبيان ذلك: أن عبادة الأصنام هي في حقيقة الأمر عبادة للشيطان، وكذلك التحاكم إلى الكهان هو تحاكم إلى الشياطين؛ لأن الكهان إنما يتلقفون أباطيلهم من الشياطين.

• قال الله تعالى: **﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾** [يس: ٦٠، ٦١].

• وابن القيم رحمه الله تأمّل هذه الأقوال والمعاني التي تجمعها، وأشهر الطواغيت التي عبدت من دون الله عز وجل، وأنواع عبادتها؛ فحاول أن يوجد تعريفاً جامعاً مانعاً فقال ما نقله الشيخ هنا: (والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حدّه من معبود أو متبوع أو مطاع)

• وهذا من كلامه في إعلام الموقعين، وقال في شرحه: (فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله؛ فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى الطاغوت ومتابعته، وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم ولا قصدوا قصدهم بل خالفوهم في الطريق والقصد معا)ا.هـ.

قوله: (الطاغوت هو ما تجاوز به العبد حده من معبود)

• عبّر بهذا التعبير لِيُخْرِجَ مَن عُبد من دون الله عز وجلّ وهو غير راضٍ، كما عُبدت الملائكة وعُبدَ المسيح ابن مريم، وعُبد عُزير، وغيرهم من الصالحين، حتى إن اللات قيل: إنه رجل صالح كان يَلُتُّ السويق للحجاج يُطعمهم؛ فلمّا مات نُصِبَ له صنمٌ، وعُبد من دون الله عز وجل، وهؤلاء الصالحين ليسوا بطواغيت.

• وعند التحقيق نجد أنه لا حاجة إلى هذا الاحتراز في التعريف لأن اللبس فيه مأمون، وهؤلاء الصالحين قد عُبدوا ظلماً وزوراً لم يدعوا لعبادة أنفسهم، وإنما اتخذهم المشركون طواغيت، كما اتخذوهم آلهة وأرباباً، قال تعالى: **﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** [التوبة: ٣١].

• فاتخاذهم أرباباً وآلهة هو في معنى اتخاذهم طواغيت، وإلا فهم ليسوا بأرباب ولا آلهة ولا طواغيت.

• وإنما وقعت المخاصمة في هؤلاء من كفار قريش لما نزل قوله تعالى: **إنكم وما تعبدونَ من دون الله حصب جهنم** [الأنبياء: ٩٨]، فإنهم خاصموا النبي صلى الله عليه وسلم في عيسى إذ عبدته النصارى مخاصمة بالباطل.

• جعل الله تعالى هذه المسألة فتنة للمشركين هي من مزيد إقامة الحجة عليهم فإنها دعتهم للتفكر في ما بلّغهم الرسول صلى الله عليه وسلم من آيات ربهم وعرفوا معانيها فقامت عليهم الحجة ولكنهم لم يؤمنوا بها ولم يستجيبوا لها ولم يحذروا مما أنذرهم الله عز وجل من العذاب الشديد في نار جهنم، بل قابلوا ذلك بالمجادلة بالباطل ظلماً وطغياناً وعناداً واستكباراً، ليغرّ بعضهم بعضاً بما استحسنوه من زخرف القول.

• ولو أنهم تفكروا في أنفسهم لعرفوا أن الله تعالى لا يكون في كلامه خطأ ولا قصور، ولا يكون في حكمه ظلم ولا جهل، لكنهم انصرفوا عما أمروا به من توحيد الله عز وجل إلى مخاصمة الله ورسوله واستمرؤوا المحادّة والمشاقّة وفي هذا من سوء الأدب مع الله عز وجل ومع رسوله ما يستحقون عليه العذاب الشديد، وقد جعل الله هذا الأمر فتنة لهم ليظهر ما في نفوسهم من الكِبْرِ والطغيان.

• روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما نزلت: **إنكُم وما تعبـدونَ من دون الله حصب جهنم أنتم لَها واردونَ** [الأنبياء: ٩٨].

قال عبد الله بن الزِّبَعْرَي: أنا أخصم لكم محمداً.

فقال: يا محمد أليس فيما أنزل عليك: **إنكُم وما تعبدونَ من دون الله حصب جهـنم أنتم لَها واردونَ** [الأنبياء: ٩٨] ؟

قال: ((**نعم**)).

قال: فهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيراً، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة؛ فهؤلاء في النار؟

فأنزل الله عز وجل: **إن الذين سبقَت لَهم منا الْحسنى أُولَئك عنها مبعدونَ** [الأنبياء: ١١]).

• ورواه الطحاوي في مشكل الآثار بزيادة، وفيها أنه قال: فضجّ أهل مكةَ؛ فنزلت **إن الذين سبقَت لَهم منا الْحسنى** عيسى وعزير والملائكة **أولَئك عنها مبعدونَ** .
قال: ونزلت **ولَمّا ضرب ابن مريم مثَلًا إذَا قَومـك منـه يصـدّونَ** [الزخرف: ٥٧] وهو الضّجيج).

• (يصِدون) بكسر الصاد أي يضجّون، قال الله تعالى: **وما كانَ صلاَتهم عند الْبيت إلا مكَاء وتصديةً** [الأنفال: ٣٥].

• قال الله تعالى: **ولَمّا ضرب ابن مريم مثَلًا إذَا قَومك منه يصدّونَ (٥٧) وقَالُوا أآلهتنا خيرٌ أم هو ما ضربوه لَك إلّا جدلًا بلْ هم قَومٌ خصمونَ** [الزخرف: ٥٧، ٥٨].

• الذي ضرب هذا المثل هو عبد الله بن الزبعرى كما تقدّم؛ فضجَّ أهل مكة فرحاً بهذا المثل، وقالوا: إذا كان عيسى ليس في النار؛ فآلهتنا خير منه.

• **أآلهتنا خيرٌ أم هو** استفهام إنكاري جوابه المتقرر عندهم أن آلهتهم خير منه، حتى إنهم قدموا ذكر آلهتهم وأخروا ذكره ورمزوا له بالضمير تقليلاً من شأنه.

• ونسب الضرب إليهم جميعاً فقال: **ما ضربوه** لأنهم وافقوه على قوله، وإن كان الضارب واحداً في الأصل، لكن لَمّا فرحوا بضرب هذا المثل نسب إليهم جميعاً.

• وقول الله تعالى: **ما ضربوه لَك إلّا جدلًا** دليل على أنهم يعلمون أنهم مبطلون لا حجة لهم، وإنما أرادوا الجدال والمخاصمة.

• قال جماعة من أهل العلم باللغة والتفسير: قوله تعالى: **إنكُم وما تعبدونَ مـن دون الله حصب جهنم** [الأنبياء: ٩٨] (ما) هي لغير العاقل، فالآية لا تشمل هؤلاء الصالحين بدلالة اللفظ أصلاً؛ لأن العرب تخبر عن غير العاقل بـ (ما) فيكون المراد بقوله: بما يعبدون من دون الله الأوثان من الأصنام والأحجار والأشجار؛ وأما هؤلاء الصالحين فيخبر عنهم (بمن) وليس بـ(ما).

• ولذلك قال تعالى: **إن الذين سبقَت لَهم** [الأنبياء: ١١] ولم يقل لها، وقال في الأوثان: **والّذين اجتنبوا الطّاغُوت أنْ يعبدوها** [الزمر: ١٧].

• فليس قوله تعالى: **إن الذين سبقَت لَهم منا الْحسنى...** [الأنبياء: ١١] الآية استثناء من

الآية التي قبلها، وإنما هو تقرير لحكم هؤلاء الصالحين الذين سبقت لهم الحسنى من الله تعالى أنهم مبعدون عن نار جهنم لا يسمعون حسيسها، وأنهم آمنون يوم القيامة من الفزعِ الأكبر الذي لا أكبر منه، وفي هذا تهديد لهؤلاء المشركين وإنذار وتخويف بأنهم إن لم يكفروا بالطاغوت ويؤمنوا بالله كانوا من المعذبين بذلك الفزع الأكبر وأنهم وما يعبدون من دون الله حصب جهنم، والعياذ بالله.

وقول ابن القيم: (أو متبوع أو مطاع)

- الاتباع والطاعة في معصية الله عز وجل على درجتين:
    - **الدرجة الأو :** تكون فيما يخرج من الملة كاتباع الطواغيت في عبادة غير الله عز وجل بصرف شيء من العبادات لهم أو اتباعهم على تحليل الحرام وتحريم الحلال أو غير ذلك من نواقض الإسلام؛ فهؤلاء المتبوعون والمطاعون إما أن يكونوا هم المعبودين أو دعاة لهم وكلهم طواغيت بهذا المعنى.
    - **الدرجة الثانية:** الطاعة والاتباع في معصية الله تعالى بما لا يخرج عن دين الإسلام، كأن يكون داعية إلى بدعة عظيمة أو حاكماً كثير الظلم والطغيان فهؤلاء أطلق عليهم بعض السلف أنهم طواغيت وإن لم يحكم بخروجهم من الملة؛ فاستعملوا المعنى اللغوي للفظ الطاغوت، وهو الطغيان الكبير.
- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والمطاع فى معصية الله، والمطاع فى اتباع غير الهدى ودين الحق سواء كان مقبولاً خبره المخالف لكتاب الله أو مطاعاً أمره المخالف لأمر الله هو طاغوت، ولهذا سُمِّيَ من تحوكم إليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوتاً)اهـ.
- وقال بعض أهل العلم: الطاغوت هو كلُّ رأس في الضلالة.
- ويجمع هذا كله: أن الطاغوت كل مُعظَّمٍ أو متعظِّم بالباطل يُطغى بسببه.

رؤوس الطواغيت

قوله: (وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ، وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنِ ادّعَى شَيْئاً مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ، وَمَنْ دَعَا النّاسَ إلى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنْ حَكَمَ

بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ).

- هذا من كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقد اختصره هنا، وبسطه في موضع آخر.
- قال رحمه الله: (اعلم رحمك الله تعالى أنّ أول ما فرض الله على ابن آدم الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، والدليل قوله تعالى **ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا اللّه واجتنبوا الطاغُوت** [النحل: ٣٦].

فأمّا صفة الكفر بالطاغوت أن تعتقد بطلان عبادة غير الله وتتركها وتبغضها وتكفِّر أهلها وتعاديهم.

وأمّا معنى الإيمان بالله أن تعتقد أنّ الله هو الإله المعبود وحده دون سواه، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم، وهذه ملّة إبراهيم التي سَفِهَ نفسَه مَن رغب عنها.

وهذه هي الأسوة التي أخبر الله بها في قوله تعالى: **قد كانت لكُم أسوةٌ حسـنةٌ فـي إبراهيم والذين معه إذْ قالوا لقومهم إنا برءَاؤاْ منكُم ومما تعبدونَ من دون الله كفَرنـا بِكُم وبدا بيننا وبينكُم الْعداوةُ والْبغضاء أبدًا حتى تؤمنوا بالله وحده** [الممتحنة: ٤].

والطاغوت عام في كل ما عُبد من دون الله ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله فهو طاغوت.

والطواغيت كث ة ورؤوسهم سة:

الأول: الشيطان الداعي إلى عبادة غير الله، والدليل قوله تعالى: **ألم أعهد إليكُم يا بنِي آدم أن لا تعبدوا الشيطانَ إنه لكُم عدو مبِ** [يس: ٦٠].

الثا : الحاكم الجائر المغير لأحكام الله، والدليل قوله تعالى: **ألم تر إلى الذين يزعمونَ أنهم آمنواْ بما أنزلَ إليك وما أنزلَ من قبلك يريدونَ أن يتحاكموا إلى الطاغُوت وقَـد أمروا أن يكْفُروا به ويريد الشيطانُ أن يضلهم ضلالاً بعيدًا** [النساء: ٦٠].

الثالث: الذي يحكم بغير ما أنزل الله، والدليل قوله تعالى: **ومن لم يحكُم بما أنزلَ اللّه فأولئك هم الْكافرونَ** [المائدة: ٤٤].

الرابع: الذي يدّعي علم الغيب من دون الله، والدليل قوله تعالى: **عالم الْغيـبِ فلَا**

يظهر على غيبه أحدًا (٢٦) إلا من ارتضى من رسولٍ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا (٢٧) [الجن: ٢٦]، وقال تعالى: وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقةٍ إلا يعلمها ولا حبةٍ في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبينٍ [الأنعام: ٥٩].

الخامس: الذي يعبد من دون الله وهو راض بالعبادة، والدليل قوله تعالى: ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين [الأنبياء: ٢٩].

واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمنا بالله إلا بالكفر بالطاغوت، والدليل قوله تعالى: فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميعٌ عليمٌ [البقرة: ٢٥٦]) ا. هـ.

- والفرق بين الثاني والثالث هنا، أن الثاني هو الحاكم المتسلط على الناس المغير لأحكام الله، والثالث يأتي إليه الناس إن رغبوا في حكمه، وكلاهما حاكم بغير ما أنزل الله.
- وقول الشيخ: (ورؤوسهم خمسة) لا يقتضي حصر الطواغيت في هذه الأصناف الخمسة، بل هؤلاء أشهرهم وأكثرهم شراً وطغياناً.
- وقد اختلف تقريره رحمه الله في عدّ هذه الخمسة اختلافاً يسيراً.
- والمقصود أن يفهم الطالب معنى الطاغوت في اللغة، والمراد به في نصوص الكتاب والسنة.

تفسير قول الله تعالى: لا إكراه في الدين.. [البقرة: ٢٥٦].

قوله: (وَالدّليلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [البقرة:٢٥٦].

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) وَفِي الحَدِيثِ: « رأس الأمر الإسلام، وعموده الصّلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله »).

- قوله تعالى: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ أي إنّ الدين لا إكراه فيه على أحد، فلا يستطيع أحد من الخلق أن يجبر أحداً على دينٍ لا يرتضيه؛ لأن الله تعالى لم يجعل للمخلوقين سلطاناً على القلوب.

- وقد يسّر الله الدين تيسيراً عظيماً: فمن اختار الإيمان فلا يستطيع أن يمنعه منه أحد من الخلق بإكراه على الكفر، لأن الدخول في الدين أصله الاعتقاد والقول ولو بالإسرار والإخفاء وهذا أمر لا سلطان لأحد من الخلق على منعه والإكراه عليه.
- وأما من اختار الكفر على الإيمان فهو كافر، وإن كان مستضعفاً في الظاهر.
- ولذلك فإن المستضعفين الذين قصّ الله خبرهم في القرآن في قوله تعالى: **وقَالَ ٱلَّـذين كَفَروا لَن نؤمن بِهذَا الْقُرآن ولَا بِٱلَّذي بين يديه ولَو ترى إذ الظَّالمونَ موقُوفُونَ عند ربِّهم يرجِع بعضهم إلَى بعضٍ الْقَولَ يقُولُ ٱلَّذين استضعفُوا لِلَّذين استكْبروا لَولَا أنتم لَكُنَّا مؤمنِ (٣١) قَالَ ٱلَّذين استكْبروا لِلَّذين استضعفُوا أنحن صددناكُم عنِ الْهدى بعد إذْ جاءَكُم بلْ كُنتم مجرمِ (٣٢) وقَالَ ٱلَّذين استضعفُوا لِلَّذين استكْبروا بلْ مكْـر اللَّيـلِ والنَّهـارِ إذْ تأمروننا أنْ نكْفُر بِاللَّه ونجعلَ لَه أندادًا وأسرّوا النّدامةَ لَمَّا رأوا الْعذَاب وجعلْنا الْأَغْلَالَ في أعناقِ ٱلَّذين كَفَروا هلْ يجزونَ إلَّا ما كَانوا يعملُونَ** [سبأ: ٣١- ٣٣].
- فهؤلاء المستضعفون قد جاءهم الهدى وعرفوه ولم يؤمنوا به، بل اختاروا طاعة الطواغيت المستكبرين اختياراً قلبياً منهم، وإلا فإن هؤلاء الطواغيت لا سلطان لهم على قلوب المستضعفين، ولا يستطيعون أن يكرهوهم على اختيار الكفر.
- ولو أن هؤلاء المستضعفين آمنوا بقلوبهم لجعل الله لهم مخرجاً ولأعزهم ونصرهم، ولكنهم اختاروا الكفر إرضاء للطواغيت فاستحقوا العذاب، ولذلك قال لهم المستكبرون باستنكار: **أنحن صددناكُم عنِ الْهدى بعد إذْ جاءَكُم** [سبأ: ٣٢]؟ فإنه لا سلطان لهم على قلوب المستضعفين يصدونهم به عن قبول الهدى.
- وقال الله تعالى لنبيّه: **أَفَأَنت تكْرِه الناس حتى يكُونـوا مـؤمنِ** [يونس: ٩٩]، وهذا استفهام إنكاري، أي لا تستطيع أن تكره الناس على الإيمان.
- فمن تمام عدل الله عز وجل أن جعل الاختيار بين الكفر والإيمان لا إكراه لأحد فيه.
- إذا تبيّن هذا فقوله تعالى: **لا إكْراه الدّين** [البقرة: ٢٥٦] **يشمل معـا لا تعـارض بينها:**
  - **الأول:** أنه لا يقع إكراه من مخلوق لمخلوق على الدين، كما سبق بيانه.

o ا ﻫ الثا : أنها خبر بمعنى النهي أي: لا يجوز أن يُكره أحدٌ بتهديد بضرب أو قتل أو حبس أو نحوه على الدخول في دين الإسلام.

وهذا الإكراه إنما هو فعل ما يستطيعه المُكْرِه من التهديد والتعذيب؛ فإذا هدّد أو عذّب حتى يوافقه المُكرَه ظاهراً فهو مُكْرِه، فنُهِيَ عن هذا، وهو لا يقتضي الإكراه على الاختيار القلبي، لأن المُكْرَه قد يوافق ظاهراً ويخالف باطناً.

وهذا لا يعارضه قتال الكفار وإقامة الحد على المرتد فإن الكفار يقاتلون على منعهم تبليغ الدعوة وتمكين المؤمنين من الأرض ليحكموا فيها بما أنزل الله ويحطّموا ما أمر الله بتحطيمه من الطواغيت التي تعبد من دون الله عز وجل؛ فمن دافع عن هذه الطواغيت وقاتل في سبيلها استحق القتال، وليس قتاله على أن يكره على أن يدخل في دين الإسلام كرهاً.

وكذلك المرتد يقتل تنفيذاً لحكم الله عز وجل فيه.

o ا ﻫ الثالث: **لا إكْراه الدّين** [البقرة: ٢٥٦] أي لا يجوز للمؤمنين أن يكره بعضهم بعضاً على أي أمر من الأمور، فمعنى لا إكراه في الدين أي لا يجوز الإكراه في دين الإسلام؛ لأن الإكراه إضرار، والإضرار محرم.

o وقد روى ابن أبي شيبة عن حنش بن الحارث النخعي عن أبيه أنه قدم المدينة مع قومه فأمرهم عمر بالمسير إلى العراق مدداً للمسلمين في القادسية؛ فقالوا: لا بل نسير إلى الشام، فقال عمر: لا بل إلى العراق فإني قد رضيتها لكم، فجادلوه حتى قال بعضهم: (يا أمير المؤمنين لا إكراه في الدين).

- قوله تعالى: **قَد تبّين الرّشد من الغيّ** أي إن طريق الرشد والصواب والخير قد تبيّن بياناً لا لبس فيه، وكذلك طريق الغي والشر والفساد.
- **فَمن يكْفُر بِالطّاغُوت** أي يكفر بما يُعبد من دون الله، ويقوم بما يقتضيه واجب الكفر من البراءة من الكفر وأهله.
- **ويؤمن بِا ـ** أي يوحد الله عز وجل ويسلم وجهه وقلبه له.

معنى العروة الوثقى

- ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ ، **العروة** هي ما يُسْتَمْسَكُ به لطلب النجاة.
- وأصل هذا اللفظ أن الدلو توثق بعروة تمسكها ؛ فإذا أُلْقِيت الدلو في البئر وامتلأت ماءً جذبها المستقي بحبل قد ربطه في عروة الدلو فإن كانت تلك العروة وثيقة جيدة والحبل جيداً استخرج الدلو ، وإن كانت العروة غير وثيقة انفصمت العروة فسقط الدلو.
- قال امرؤ القيس :

كالدلو ثبت عُرَاها وهي موقرة　　　إذ خانها وذَم منها وتكريب

  - الكَرَبُ : حبل يشدٌ به وسط العراقي ، والعراقي : خشبتان متقاطعتان على شكل صليب يوضع على فم الدلو ، ويكون طرف كل خشبة في أذن من آذان الدلو الأربعة.
  - والوذم سيور تربط آذان الدلو بالعراقي ، واحدتها : وَذَمَة.
  - فالعروة اسم لهذه الأجزاء التي تتكون منها ، وهي التي تمسك الدلو.
- يقال : عروة وثيقة ، إذا كانت قوية مأمونة ؛ فتجمع بين القوة والأمان بحيث يوثق بها ويُطمئَنٌ إليها ، ويقال : عروة أوثق من عروة ؛ على التفاضل في صفتي القوة والأمان ، و**العروة الوُثقى** هي التي بلغت الغاية في القوة والأمان فلا أوثق منها.
- فإذا كانت العروة وثقى ، والاستمساك جيداً نجا المستمسك بهذه العروة من الهلاك.
- فهذه العروة الوثقى التي وصفها الله عز وجل بقوله : ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] هي أوثق أسباب النجاة وأفضلها وأجلها ، بل لا أفضل منها ، ولا ينجو العبد بغيرها ، وهي أن يؤمن بالله عز وجل ويكفر بالطاغوت.
- وهذا كما يقال : الطريقة المثلى ، أي التي لا أمثل منها ، ولا أحسن.
- فالله تعالى يريد أن يقطع على الناس البحث عن أسباب نجاة أخرى ؛ فإذا علم العبد أن هذا السبب هو أعظم الأسباب وأنفع الأسباب لم يلتفت قلبه إلى غيره.
- ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ﴾ ، لفظ الاستمساك فيه بناء لغوي أقوى دلالة من المَسْكِ ، لأنه يجمع معاني قوة التمسك والحرص والمداومة عليه.
- فما دام العبد مستمسكاً بهذه العروة ؛ فالله تعالى ضامن له ألا تنفصم ، وألا تنقطع به

دون بلوغ ما يأمل من النجاة والفوز الكبير.

- قوله: **لا انفصام لها** تأكيد على أن هذه العروة لا تنفصم أبداً، ولا تتقطع أجزاؤها، وفي هذا ضمان عظيم لمن استمسك بهذه العروة الوثقى ألا يُخذل من جهتها أبداً.
- قال الله تعالى: **لا تجعلْ مع الله إلهًا آخر فتقعُد مذمومًا مخذُولًا** [الإسراء: ٢٢] دلّ بمنطوقه على أن كل من جعل مع الله إلها آخر فهو مذموم مخذول، ودل بمفهومه على أن من وحّد الله تعالى فلا يكون مذموماً ولا مخذولاً؛ فسبيل النجاة من الذم والخذلان هو توحيد الله عز وجل.
- وإنما يقع العبد في شيء من الذم والخذلان إذا ضعف تحقيقه للتوحيد، فأما إذا أشرك بالله جل وعلا فقد أحاط به الذم والخذلان والخسران من كل جانب، والعياذ بالله.
- ومن حقق التوحيد فلا يخاف من الذم ولا الخذلان؛ لأن هذه العروة التي استمسك بها عروة وثقى قد ضمن الله تعالى لمن استمسك بها أن لا تنفصم به.
- فقوله تعالى: **فمن يكفُر بالطّاغُوت ويؤمن بالله** [البقرة: ٢٥٦] بيان لمعنى تحقيق الاستمساك بالعروة الوثقى، لأن حرف (قد) يفيد التحقيق.
- **والله سميعٌ عليمٌ** أي سميع مجيب لدعاء من يدعوه مخلصاً له الدين، **عليمٌ** بما في قلوبهم من التوحيد والإسلام، وهذا يقتضي عنايته جل وعلا بعباده، وأنه لا يخفى عليه شيء من أمرهم.
- فانظر كيف اقتلعت هذه الآية جذور الخوف من الخذلان والهلاك من قلوب أولياء الله المؤمنين الموحدين فاطمأنّت قلوبهم بذكر الله ومعرفته والإيمان به **ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب** [الرعد: ٢٨].

قوله: (وَهَذَا هُوَ مَعْنَى (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ)).

- أي: أن قوله تعالى: **فمن يكفُر بالطاغُوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثْقى** [البقرة: ٢٥٦] يدل على معنى لا إله إلا الله؛ لأن الكفر بالطاغوت يعني نفي جميع ما يعبد من دون الله عز وجل والكفر به وإنكاره، والإيمان بالله يتضمن عبادته وحده لا شريك له.

- فالذي لا يخلص العبادة لله لا يكون مؤمناً بالله جل وعلا، والذي لا يكفر بالطاغوت لا يكون نافياً جميع ما يعبد من دون الله، ولا مخلصاً العبادة لله تعالى.
- وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لوفد عبد القيس: «**آمركم بالإ ان با وحده**»؛ فالإيمان بالله وحده يقتضي الإيمان به والكفر بالطاغوت وهو جميع ما يعبد من دون الله عز وجل.
- وهذه مسألة أهمّ المسائل، وقد كررها الشيخ هنا لأهميتها، ولو لم يخرج الطالب من دراسته لهذا المتن إلا بفقه هذه المسألة لكان في ذلك خير كثير؛ فاعتن بها جيداً.
- فإن تفسير التوحيد لا بد فيه من جمع أمرين:
  - **الأمر الأول:** نفي جميع ما يعبد من دون الله عز وجل.
  - **الأمر الثا :** إفراد الله تعالى بالعبادة.
- ف(لا إله) نفي لجميع ما يعبد، (إلا الله) إثبات العبادة لله وحده؛ فهو معنى قوله تعالى: **فمن يكفُر بالطاغُوت ويؤمن با فقَد استمسك بِـالعروة الـوثْقى** [البقرة: ٢٥٦]، وقوله: **ولقَد بعثْنا في كُل أُمةٍ رسولاً أَن اعبدواْ اللّه واجتنِبواْ الطاغُوت** [النحل: ٣٦]، وقوله: **وإِذْ قَالَ إبراهيم لأبِيه وقَومه إِنّنِي براءٌ ممّا تعبدونَ (٢٦) إِلّا الّذي فَطَرنِي فَإِنّه سيهدين** [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقوله: **قُلْ يا أيها الْكَافرونَ (١) لَا أعبد ما تعبدونَ (٢) ولَا أَنتم عابِدونَ ما أعبد (٣)** [الكافرون: ١- ٣]، وقوله: **وما من إِلَهٍ إلا اللّه** [ص: ٦٥]، وقوله: **إنما اللّه إِلَهٌ واحدٌ** [النساء: ١٧١].
- وهو أيضا معنى قوله تعالى: **قل هو ا ُ أحدٌ (١) ا ُ الصمد** [الإخلاص: ١، ٢].
  - **هو ا ُ** أسلوب حصر في لسان العرب.
  - **أحدٌ** أي فرد متفرد لا شريك له ولا إله معه.
  - **ا ُ الصمد** أي الذي يُصمد إليه فيدعى لقضاء الحوائج وجلب النفع ودفع الضر.
  - **لَم يلد ولَم يولَد** رد على اليهود والنصارى وبعض مشركي العرب؛ فأما اليهود والنصارى فقالوا: **نحن أبناء اللّه وأحباؤه** [المائدة: ١٨]، ومنهم من زعم أن المسيح ابن الله، ومنهم من زعم أن عزير ابن الله، وزعم بعض مشركي العرب أن الملائكة بنات الله

تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

o **ولَم يكُن له كُفُوًا أحدٌ** [الإخلاص: ٤] أي ليس له نظير يكافئه ولا صاحبة له.

- وفي صحيح البخاري من حديث معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قال ا : كذّبـ ابن آدم و يكن له ذلك، وشـتم و يكن له ذلك:أمّا تكذيبه إيّاي فقوله لن يعيد كما بدأ ، وليس أول ا لق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إيّاي فقوله ا ذ ا ولداً، وأنا الصمد الذي يلد و يولد و يكـن كفوا أحد** »

- وفي مسند الإمام أحمد والسنن الأربعة من حديث مالك بن مغول عن عبد الله بـن بريـدة عن أبيه قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يـدعو وهـو يقـول: (اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن لـه كفـوا أحـد)؛ فقـال: «**والذي نفسي بيده لقد سأل ا باسم ا الأعظم الذي إذا دعي بـه أجاب، وإذا سئل به أعطى** »)؛ فكان هذا الاسم الأعظم متضمناً للتوحيد.

- ولذلك يجب على طالب العلـم أن يحذر مـن قبـول التفسيرات الخاطئة لكلمـة التوحيـد، وأكثر الأخطاء شيوعاً في تفسيرها:

o ١: قصر معناها على توحيد الربوبية أو بعض معاني الربوبية، كمن يزعم أن معناها لا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله ونحو ذلك من معاني الربوبية.

o ٢: قصر معناها على بعض معـاني توحيـد الأسمـاء والصـفات كمـن يقـول معناهـا أنـه واحد في ذاته لا قسيم له وواحد في صفاته لا شبيه له وواحد في أفعاله لا شريك له.

o ٣: دعوى أن معناها مسألة خلافية ولا ينبني عليها التفريق بين الكفر والإيمان.

o وهذه التفسيرات الخاطئة قد يجدها طالب العلم لدى بعض أهل الفرق الضالة، وبعض من يلبس الحق بالباطل ليضل الناس بغير علم، كما كـان يفعلـه بعـض علمـاء السـوء الـذين ضل بسببهم كثير من الناس فكانوا يلبسـون الحـق بالباطـل ويـأكلون فريقـاً مـن أمـوال النـاس بالإثم وهم يعلمون، ويدلسون على الناس، ويسارعون إلى طاعة الحكام المبدلين لشـرع الله فيطيعونهم في تبديل الدين وتغيير أحكام الله، ويلبسون على الناس ويوهمونهم أن هـذا هـو

الدين الصحيح ؛ نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

شرح حديث: (رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة..)

قوله:(وَفِي الحَدِيثِ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصّلاةُ، وذُروةُ سنامه ا هاد سبِيل ا ـ»).

- هذا جزء من حديث معاذ بن جبل وقد سبق ذكره في درس الإحسان، والحديث رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم.
- و(الأمر) واحد الأمور، وهو من أكثر الألفاظ العامة استعمالاً في لسان العرب، بل إنه يعبر به عن أي شأن.
- والمرء من شأنه أنه يأتمر في نفسه أموراً، أي يجعل لنفسه أموراً وشؤوناً يهمُّ بها ويسعى لها، كما قال امرؤ القيس: ويعدو على المرء ما يأتمر
  - o أي: ما يهمُّ به من الأمور؛ فربما كان هلاكه في تدبيره لأموره.
- وقوله: (رأس الأمر) في معناه قولان لأهل العلم:
  - o **القول الأول:** ما ذهب إليه بعض الشراح من أن المراد بالأمر هنا ما بعث الله به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، وأن رأس ذلك الأمر الإسلام؛ فهو كمثل الشيء الذي له جذع ورأس فيكون الرأس هو الإسلام، وهذا التفسير لا يصح لأن كل ما بُعث به النبي صلى الله عليه وسلم فهو من الإسلام.
  - o **القول الثا :** أن رأس الأمر هو أصله ومعظمه؛ فإذا ذهب ذهب الأمر كله، كما يقال: رأس المال؛ فمن ذهب رأس ماله؛ بقي مفلساً لا مال له، وهذا القول أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية وقال به ابن عاشور.
  - o وهذا ظاهر في الأمور المعنوية التي تضاف إلى الرأس كما يقال: رأس الحكمة مخافة الله؛ أي أصلها ومعظمها؛ ورأس العلم خشية الله.
- ويطلق لفظ الرأس على معانٍ في لسان العرب يدل عليها السياق والاستعمال بالإفراد والتركيب؛ فيقال: رأس الحبل، أي طرفه، ورأس الجبل أعلاه، وعصا لها رأسان أي شعبتان، ورأس الحول آخرُه، قال الرياحي:

ومـاذا يـدّري الشـعراء مـني وقـد جـاوزت رأس الأربعـين
أخـو خمسين مكتمـل أشـدي وحــنّكني مــداورة الشــؤون

- فإطلاق لفظ الرأس في قوله (رأس الأمر) ليس نظيراً لإطلاقه في رأس الحيوان، ولا هو بمعنى الطَرَف، ولا آخرَ الشيء، وإنما هو أصله ومعظمه.
- والمقصود أن قوله صلى الله عليه وسلم: «**رأس الأمر الإسلام**» أي أن أصل أمر الإنسان وما خلق من أجله هو الإسلام؛ فإذا ذهب إسلام المرء ذهب أمره كله، وأصبح على غير شيء، فسائر أموره إذا لم يسلم لا اعتبار لها، ولا تنفعه عند الله.
- وهذا كما قال تعالى: **قُلْ يا أهلَ الكتابِ لستم على شيءٍ حتى تقيموا التوراةَ والإنجيلَ وما أنزلَ إليكُم من ربكُم** [المائدة: ٦٨]؛ فهؤلاء ليسوا على شيء لأنهم ضيعوا رأس الأمر وهو الإسلام، وقال تعالى في الكفار: **وقَدمنا إلى ما عملوا من عملٍ فَجعلناه هباءً منثورًا** [الفرقان: ٢٣].
- ولذلك قال سفيان بن عيينة رحمه الله: (ما في القرآن آيةٌ أشدّ عليَّ من قوله تعالى: **قُلْ يا أهلَ الكتابِ لستم على شيءٍ حتى تقيموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزلَ إليكُم من ربكُم** [المائدة: ٦٨]) علَّقه البخاري في صحيحه.
- وقال المخبَّل السَّعدي:

إني رأيت الأمر أرشَدُه تقوى الإله وشَرُّه الإثم

- أي: ما يأتمره الإنسان في نفسه ويهم به ويسعى له، أرشده تقوى الإله، وشرُّه الإثم.
- فكون أرشد الأمر تقوى الله، هو من هذا الباب فإن ما خالف التقوى فليس فيه رشد.

قوله: « وعموده الصلاة »

- أي هي عمود الإسلام فلا يقوم إسلام امرئ إلا إذا أقام عموده وهو الصلاة.
- وشأن الصلاة عظيم؛ فلا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، وإذا سقط العمود سقط ما اعتمد عليه، وهذا يبين لك أن شعائر الإسلام معتمدة على الصلاة فإذا صلحت الصلاة صلحت أعمال العبد، وإذا فسدت فسدت عليه أعماله، فلا ينتفع بزكاة ولا صيام ولا حج ولا غيره؛ إذ كانت الصلة بينه وبين الله منقطعة بتضييعه للصلاة.

- ولذلك كان أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من أعماله الصلاة.
- قال حريث بن قبيصة رحمه الله: قدمت المدينة فقلت: (اللهم يسر لي جليسا صالحا)؛ قال: فجلست إلى أبي هريرة؛ فقلت: إني سألت الله أن يرزقني جليسا صالحا فحدثني بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل الله أن ينفعني به؛ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن أول ما اسب به العبد يوم القيامة من عملـه صلاته؛ فإن صلحت فقد أفلح وأ ح، وإن فسدت فقد خاب وخسر؛ فـإن انـتقص مـن فريضته شيء قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل با ما انتقص مـن الفريضة، يكون سائر عمله على ذلك**». رواه الترمذي والنسائي وصححه الألباني.
- وروى الإمام مالك في الموطأ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عماله - أي الذين يستعملهم على أمور المسلمين ويوليهم عليها - : (إن أهمّ أمركم عندي الصلاة؛ فمن حفظها فقد حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع).

قوله: «وذروة سنامه ا هاد سبيل ا »

- ذروة سنامه؛ أي أعلاه وأشرفه، وهو مظهر عزّه وقوته وزينته.
- وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن ا نة مائة درجة أعدها ا للمجاهدين سبيله، ما ب الـدرجة كما ب السماء والأرض؛ فإذا سألتم ا فسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط ا نة وأعلى ا نـة، وفوقه عرش الر ن، ومنه تفجّر أنار ا نة**».

تتمّة شرح حديث معاذ

- تضمّن هذا الحديث على وجازته بيان ما يكون للإنسان به شأن عند الله تعالى، وهو الإسلام.
- وهذا الإسلام له عمود وهو الصلاة من أداها حفظ دينه، ومن ضيعها ضيع أمره، وفي الصلاة صلاح نفسه، والجهاد فيه السعي لإصلاح غيره، وهذا شأن المسلم الذي أحسن إسلامه أنه يُصْلِح نفسه ويسعى لإصلاح غيره.

o فالصلاة تنبيه على ما يصلح العبد من الأعمال، والجهاد على ما يصلح غيره.

قوله: (**وَاللهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ**).

- رد العلم إلى عالمه اعترافاً بأن ما يعلمه العبد إنما هو بما علّمه الله، وختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أدعى للقبول، والله تعالى أعلم.

اللهُمَّ تقبَّل مِنَّا إنَّك أنْتَ السَّميعُ العَلِيمُ واغْفِر لَنا وارْحَمْنَا إنَّكَ أنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ.
اللهُمَّ أدخِلْنَا فِي رَحْمَةٍ مِنْكَ وفَضْلٍ واهْدِنا إلَيكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً وارْزقنا مِن لَدُنكَ رِزقاً كَرِيماً وَعَافِنَا واعْفُ عَنَّا إنَّكَ أنتَ العَفُوُّ الحلِيمُ.

تم أصل هذا الكتاب وهو شرح ثلاثة الأصول وأدلتها في ٢٥ شعبان ١٤٣٢ هـ
ثمّ راجعته وهذّبته ليكون دليلاً للمعلّم في ١١ ذي القعدة ١٤٣٤هـ

أسئلة وتطبيقات على الدروس السابقة (٤)

س١ : ما تقول فيمن يقول : "نحن نبتهج ونحتفل بذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم تعبيراً عن حبّنا الصادق له ؛ فلماذا تنكرون علينا؟"

س٢ : رجل بلغه خبرٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم فاستغربه وبادر إلى إنكاره ؛ فما حكمه؟

س٣ : مسلم يعيش في بلد إسلاميّ يحكمه حاكم جائر يضيّق على أهل السنّة ويؤذيهم بالحبس والتنكيل ؛ أفيجب عليه أن يهاجر من بلده أم يؤمر بالصبر على ما يلقى؟ وإذا كان يمكنه إقامة شعائر دينه في بلدة من بلاد الكفر بأمان ؛ فهل يجوز له أن ينتقل من بلد إسلامي إلى بلدة كفر؟

س٤ : ما تقول فيمن ينادون بتطبيق الأحكام المكية خاصة في زمن ضعف المسلمين ؛ وإرجاء أحكام العهد المدني إلى أن تستعيد الأمّة قوّتها وتتحرر من تسلّط أعدائها؟

س٥ : مسلم مقيم في بلد من بلاد الكفر ؛ اعتدى عليه رجلٌ من أهل تلك البلاد ؛ فهل يجوز له أن يحاكمه إلى محاكم تلك البلاد ليطالبه بحقّه؟

وصايا لمن درس شرح ثلاثة الأصول وأدلتها

الحمد لله الذي منّ علينا بإتمام دراسة رسالة (ثلاثة الأصول وأدلتها) لشيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله.

وقد تبيّن بدراسة هذه الرسالة القيّمة اشتمالها على أهمّ مسائل أصول الدين ، وتبيّن حسن معرفة مؤلّفها بانتقاء تلك المباحث وترتيبها.

ورسالة (ثلاثة الأصول) رسالة وجيزة وسهلة العبارات ، وأكثر ما اشتملت عليه أدلة من الكتاب والسنة ، وكان يكفي الطالب لفهم هذه الرسالة شرح يسير يوضح ما يحتاج إلى توضيحه بعبارات موجزة لكنني حرصت على التوسع بقَدَرٍ في الشرح ليكون هذا الشرح لَبِنَةً في إعداد طلاب علم مؤهلين للدعوة إلى الله تعالى لهم نصيب وافر من التأصيل العلمي وفهم مسائل أصول الدين بأدلتها.

واشتمال هذه الرسالة على تلك المباحث المهمة ، وكونها من أوّل ما يدرسه الطالب عادة ؛ دعاني إلى أن أجمع في تلك المباحث أهم الأدلة والآثار عن الصحابة والتابعين وأنتقي أهم النقول عن العلماء ، وأقرّب تلك المعلومات بالتقسيمات والقواعد التي توضحّها وتعين على حسن فهمها ، لتكون عُدّةً للطالب في دراستها وتدريسها عند تأهّله لذلك بإذن الله تعالى.

وأنا أوصي طلاب العلم الذين منّ الله عليهم بإتمام دراسة هذا الشرح وأذكرهم بأمور:

أولاً: الدعوة إلى دين الإسلام قائمة على فقه مسائل الاعتقاد فقهاً حسناً ، وطالب علم الاعتقاد بحاجة إلى عِلْمَين جليلين من قصّر في أحدهما أثَّر تقصيره في الانتفاع من علمه:

العلم الأول: علم السلوك، وهو علم يُعنى بتزكية النفس وإحسان عبادة الله عز وجل ، وهذا العلم قد أُلِّفَت فيه رسائل وكتب جليلة القدر عظيمة النفع

فينبغي لطالب العلم أن يعتني بها.

العلم الآخر: فقه الدعوة إ ا تعـا ، وهذا أمر يحتاجه طالب العلم كثيراً؛ فإن معرفته بأحكام المسائل وأدلتها ينبغي أن يصاحبه معرفة بفقه الدعوة وحسن تبليغها والاحتجاج لها، والحذر من الآفات والأخطاء التي قد يكون لها آثار غير محمودة على طالب العلم وعلى دعوته.

وإذا كمّل طالب العلم هذه المقامات الثلاث: فقه مسائل الاعتقاد، وفقه السلوك، وفقه الدعوة كان إماماً من أئمة الهدى، ومن الدعاة إلى الله على بصيرة، ومن العلماء الربانيين.

فإنه يدعو إلى ما عَرف صحته من الحق بأدلته، ويرد الباطل ويبين بطلانه ويحذر منه. وهو في نفسه قائم بما يقتضيه فقه السلوك من حسن التعبد لله جل وعلا والعمل بالعلم النافع، وفي معاملته لغيره قائم بما يقتضيه فقه الدعوة إلى الله من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن؛ فيكون عالماً صالحاً في نفسه ساعياً في إصلاح غيره.

والأمة بحاجة ماسة إلى هؤلاء؛ فهم عدة الأمة.

ثانياً: دراسة المتون العلمية مهمة في تحصيل التأصيل العلمي، لكنها بحاجة إلى روافد ترفدها من القراءة المنظمة في الكتب والرسائل المهمة؛ فينبغي لطالب العلم أن ينظّم قراءته في كتب الاعتقاد وكتب السلوك وأن يعتني بدراسة الدعوات الإصلاحية وكتب أئمة الهدى عناية جيّدة؛ لتكون عوناً له على فهم مسائل التوحيد، والتعرف على مناهج الأئمة في عرض مسائل الاعتقاد وتدريسها، والدعوة إليها، وتوضيح الحجج وكشف الشبه التي يثيرها بعض الجهلة وعلماء السوء.

ثالثاً: **يا أيها الذين آمنوا كونوا قـوام** [المائدة: ٨]، فلا يكن همّ الطالب الاقتصار على فهم المعلومات التي تلقى إليه في الدروس، أو يقرؤها في الكتب، بل

ينبغي أن يكون همّه مع ذلك التعرف على ما يمكنه بذله للدعوة إلى الله تعالى بصيرة، والتعرف على الأبواب التي يحتاج إلى فقهها جيداً للدعوة في مجتمعه، وهذا يكون في كل مجتمع بحسبه، فمن كان في مجتمعه مظاهر للشرك وعبادة غير الله عز وجل، فليتقفه في مسائل الاعتقاد ويولي ما يتصل بحجج التوحيد وكشف شبهات المشركين عناية كبيرة، ويبدأ بما يتيسر له من الأسباب.

ومن كان في يُدعى فيه للنصرانية فليعتنِ بما يتعلق بهذا الباب من مسائل، ويدعو إلى الله بما يتيسر له من الأسباب.

وهكذا فليفعل كل من وجد في مجتمعه حاجة إلى فقه باب من أبواب الاعتقاد؛ بسبب فتة متفشية أو ابتلاء بملة أو نحلة لها تأثيرها في بلده، ليقوم بواجبه من الدعوة إلى الله عز وجل على بصيرة، ويحسن أخذ العدّة لهذه المهمّة الجليلة.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، لا إله إلا هو، علينا توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير.

الفهرس